الإعصار

وقائع وأسرار الانتصار الثاني لحزب الله على إسرائيل

أمين مصطفى



دار الهادي

PDF مكتبة نرجس
www.narjes-library.blogspot.com

إهـــداء

* إلى رمز المقاومة في لبنان السيِّد حسن نصر الله .

* إلى الشُّهداء والجرحى الَّذين أضاؤوا بقناديل دمائهم دروب النصر .

أمين مصطفى

تقديم

لم تكن الحرب الإسرائيلية على لبنان في الثاني عشر من تموز/ يوليو ٢٠٠٦، على مدار ثلاثة وثلاثين يوماً، والتصدي لها من قبل حزب الله وإفشال أهدافها، حدثاً عادياً، في الأبعاد: الاستراتيجية، السياسية، العقيدية، الفكرية، الاقتصادية، الإعلامية، والنفسية، فآثارها وانعكاساتها لن تبقى محصورة في إطار مرحلة، إنَّما ستتعداها إلى مراحل مقبلة، ستظهر تداعياتها على جوهر الصراع العربي ـ الإسرائيلي في المنطقة لاحقاً، بخاصة بعد أن تكشفت بعض الحقائق عن هذه الحرب، باعترافات الَّذين خططوا وأعدوا لها منذ سنوات، ونفذوها باعتبارها خطوة أساس في إقامة مشروع الشرق الأوسط الجديد، وأعني هنا إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية.

الحرب كما كشف جانباً من أسرارها، مسؤولون ومحللون وخبراء أمريكيون كبار، نشبت بتحريض ورعاية أمريكية، وهي ـ أي الحرب ـ وكما كشف رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت أمام لجنة تحقيق «فينوغراد»، لم تكن رداً على أسر الجنديين الإسرائيليين من قبل المقاومة اللبنانية، إنَّما كانت ثمرة إعداد طويل وقرارات مسبقة، ما أحدث ردود أفعال واسعة في

الأوساط السياسية والعسكرية على حدٍّ سواء، لأنَّها فضحت زيف كل الادعاءات الَّتي سيقت لتبريرها.

نتائج هذه الحرب، قلبت معادلات ومفاهيم كثيرة كانت سائدة قبلها، فالإخفاق أعاد الإسرائيليين إلى حجمهم الطبيعي، بعد أن ملأوا العالم ضجيجاً بأنَّهم الأقوى، ولن يجرؤ أحد على مقارعتهم، أو هزّ شباك غطرستهم ومعنوياتهم. اختراق حزب الله لهذا الوهم، أسقط كل جدران الكذب، أدرك الإسرائيليون أنَّهم في مرمى الخطر الحقيقي، وأنَّهم كانوا يعيشون أكذوبة أمنية ـ سياسية ـ اقتصادية كبيرة، فصواريخ الحزب الَّتي انهالت على المستعمرات والمواقع العسكرية، وطالت كل الأعماق، وكانت قادرة على إلحاق المزيد من الأذى والإصابات، هذه الصواريخ لم تدمر وتقتل وتشل الحركة في فلسطين المحتلة فحسب، بل طالت الذاكرة والأمن الهش، شعر الإسرائيلي ـ ولأوَّل مرَّة في تاريخ الصراع ـ أنَّه معرَّض للقصف، ووجوده محفوف بالزوال، وأنَّ الذراع العسكرية العربية، سواء عبر المقاومة أو أي جيش عربي، قادرة على تحقيق أهدافها بدقة، وإلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بجيشه عندما يتخذ القرار الصائب، لمس الإسرائيلي بلا مواربة أو خداع، أنَّ خيمة الحماية الأمنية الَّتي تبجحت بتأسيسها القيادات العسكرية على مدى أكثر من نصف قرن، لا تحميه، والقذائف يمكن أن تنهمر على المنازل والملاجىء والمصانع والمؤسسات والمقرات العسكرية الإسرائيلية في أي وقت وفي أي حرب قد تنشأ، وأنَّ زمن القصف والهجوم من جانب واحد قد ولى إلى غير رجعة.

نتائج الحرب، فرضت حسابات جديدة، على أمريكا وإسرائيل والعرب، والأوروبيين، وقواعد تعامل جديدة أيضاً، يصعب تخطيها، مهما كان ورم الادعاء كبيراً.

فالبعض قرر هجرة إسرائيل والعودة من حيث أتى، لأنَّه اقتنع بأنَّه مهدد، وسيأتي يوم يدفع فيه ضريبة الاحتلال، والبعض الآخر أعاد النظر باستثماراته، وقد لاحظنا قبل وأثناء الحرب، مغادرة رؤوس أموال كثيرة باتجاه أمريكا وأوروبا، ومن هذه الرؤوس تلك التابعة لقادة وزعماء كبار.

كانت الحرب إعصاراً حقيقياً، جرف مزاعم كثيرة، واقتلع أوهاماً من جذورها، فتهاوت نجوم الجنرالات، بدءاً من رئيس الأركان دان حلوتس، مروراً بعدد كبير من قادة الألوية والمناطق في الجيش، وصولاً إلى اهتزاز كرسي وزير الدفاع عمير بيرتس، ورئيس الحكومة أولمرت الَّذي اعترف أنَّه «غير شعبي» نتيجة هزيمته.

تركت الحرب بصماتها المؤلمة والحزينة، على نفوس الجنود والمستوطنين، جرَّدتهم من أحلامهم بالأمان والاستقرار، ووضعتهم فوق فوهة بركان من القلق لن يهدأ.

أطاح هذا الإعصار، بالمخطط الأمريكي الشرق أوسطي الَّذي أعلنت عنه وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليسا رايس، بعد الغارة الإسرائيلية الأُولى، كما أطاح بكل الآمال الَّتي كان الأمريكيون يعقدونها على إسرائيل كقاعدة أساس لحماية مصالحهم، وتنفيذ اعتداءاتهم، نتائج هذه الحرب بانتصار المقاومة، أنقذت المنطقة من نار جهنم.

عشت هذه الحرب، لحظة بلحظة، من موقعين:

الأوَّل: كإعلامي، كنت أُلاحق التفاصيل، وألتقي مختلف القيادات السياسية والميدانيَّة، أثناء وبعد وقف الاعتداءات.

الثاني: كمواطن استهدف القصف منطقة سكنه (ضاحية بيروت الجنوبية) وتعرض منزله لأضرار كبيرة، رأيت حجم الدمار الهائل، وتنقلت بين النازحين

القادمين من الجنوب والبقاع الغربي، الَّذين توزعوا بين الحدائق العامة، والمدارس والجوامع، والكنائس والشوارع والشقق الضيقة، وقفت على معاناتهم الإنسانية والاجتماعية، كنت أقرأ وأتعلم من صغارهم وكبارهم، معنى الصمود، الكبرياء، القدرة على الثبات والتضحية. لم يكن يعنيهم دمار منازلهم، ولا إحراق مصانعهم، ولا اقتلاع مزارعهم، ولا قصف الطرق والجسور وبناهم التحتية، كانوا مشدودين إلى أخبار جبهة المواجهات عند الخطوط الأمامية، رددوا مراراً: كل شيء يمكن تعويضه، لكن خسارة الوطن والكرامة لا يمكن أن تعوض، ونحن وكل ما نملك فداء للمقاومة وسيدها، نرفض الذُّلّ والاحتلال، ونفضل الشهادة على البقاء أسرى القهر.

للاطلاع على الحقائق والمعلومات الميدانيَّة، ولرصد الوقائع والأصداء، قمت بجولة شاملة على محاور القتال الرئيسية، التقيت عدداً من القيادات والكوادر الأساسية في المقاومة، تحدثت إلى المواطنين، دخلت بعض الأنفاق والمنازل الَّتي شهدت اشتباكات عنيفة وجهاً لوجه، استمعت إلى شرح مفصل لعمليات الالتحام، والقصف الصاروخي، وشاهدت بقايا السلاح الإسرائيلي المحروق أو المدمر، الَّذي تركته قوات الاحتلال، وبقع الدم الَّتي تغطيها، وآثار الضمادات والأدوية وعلب المصل، والنظارات المحطَّمة وغيرها الَّتي أشارت إلى أنَّ الإسرائيليين فروا من هذه المعابر، شاهدت حقول الألغام والقنابل العنقودية، المنتشرة في المزارع وبين كروم التين والعنب، الَّتي بقيت كدليل على الإجرام، والفتك، وكدليل على الرغبة في الانتقام من المدنيين الأبرياء، باعتبارهم شركاء وسياجاً للمقاومة.

كانت المشاهد أشبه بحكايات من زمن البطولات الغابرة، نفر قليل من المجاهدين، استطاعوا أن يواجهوا أعتى وأشرس قوَّة عسكرية في المنطقة، مدججة بأحدث الطائرات الحربية، والبوارج، والمروحيات، وطائرات

التجسس، والدبابات، والصواريخ ومدافع الميدان على اختلافها، وزودت أثناء القتال بصواريخ أمريكية «ذكية» لاختراق الأعماق، وعناصر تجاوزوا أربعين ألف جندي، ولم ينتصروا عليها.

روى لي المقاتلون كيف هزموا هالة إسرائيل، عندما سمعوا صراخ الجنود والضباط وهم يفرون من أرض المعركة مذعورين، وعندما كانوا يقتحمون عليهم المنازل الَّتي اختبؤوا بها ليحصدوهم بالعشرات. . . روايات دلَّت على جرأة ومستوى قتالٍ عال اعترف به العدو قبل القريب، دلَّت على إيمان وعقيدة صلبة، وفهم للأرض وتضاريسها، ومعرفة بالسياسة ودهاليزها أيضاً.

توزعت مادة الكتاب على ستة فصول:

الفصل الأوَّل: تناول أسباب ودوافع وخلفيات الحرب الإسرائيلية على لبنان، ونتائجها: السياسية، الأمنية، الاستراتيجية والاقتصادية والعمرانية، وعرض للواقع السياسي والعسكري الَّذي كان سائداً قبل هذه الحرب؛ لبنانياً، عربياً ودولياً، لمعرفة الظروف الَّتي اتخذ فيها القرار السياسي لشن العدوان، وتوقف عند التحضيرات والاستعدادات للحرب، كاشفاً أنَّ عملية أسر الجنديين الإسرائيليين في جنوب لبنان من قبل عناصر حزب الله، لم يكن الدافع الحقيقي للحرب، بل إنَّ هذا السبب كان هامشياً، باعتراف القادة السياسيين والعسكريين في إسرائيل، قرار الحرب كان أمريكياً، حسب المعلومات والتصريحات والمواقف الَّتي أطلقها الأمريكيون والمراقبون والخبراء.

كشف هذا الفصل معلومات حول أسر الجنديين في عملية الوعد الصَّادق تنشر للمرَّة الأولى، على لسان قادة حزب الله، كما تناول الرواية الإسرائيلية.

واستعرض الأبعاد والدلالات الحقيقية لعملية الأسر ومراحل واستهداف الحرب والأجواء الَّتي رافقتها، والخلافات وتباين المواقف بين القيادتين السياسية والعسكرية في إسرائيل حولها، والنتائج الَّتي انتهت إليها على صعيد الخسائر البشرية والمادية والاقتصادية والإنسانية، وكانت وقفات درس للأداء الإسرائيلي، وأداء حزب الله على كل المستويات، وأساليب المواجهات، وسلَّط بعض قادة حزب الله في هذا الفصل الضوء، على طرائق إدارة المعركة، وتعاطيهم مع التطورات ثانية بثانية، وتوقعاتهم وخططهم الَّتي أعدت لأشهر طويلة، وتناول تفاصيل جديدة حول استهداف محطة «المنار» وواقع المحطة والعاملين فيها أثناء الغارات وبعدها، والخسائر الَّتي لحقت بها، وبعدد من وسائل الإعلام الأخرى، للتعتيم على الصورة الحقيقية للقتال وخسائر الاحتلال.

الفصل الثاني: تفاصيل المواجهات الميدانية، كما يرويها قادتها، وقراءة استراتيجية لأبعادها الاستراتيجية، وفيها لقاءات مع عدد من الكوادر الأساسيين الَّذين خاضوا المعارك بضراوة في الخطوط الأمامية، والتحموا مع جيش الاحتلال الإسرائيلي، وتصدُّوا له ببسالة فاقت حدود التوقعات.

الروايات لخصت واقع الحرب، وطبيعة القوى في المواجهات، والخطط الَّتي استخدمها الاحتلال، والخطط المقابلة، وعمليات قصف المستوطنات والمدن والبلدات في العمق الإسرائيلي، والمطاردات في الأودية وعلى سفوح الجبال والتلال، وداخل البيوت في جنوب لبنان.

تحدث المقاومون، عن مجازر الدبابات، حيث تمَّ إحراق العشرات منها من نوع ميركافا، وإسقاط المروحيات، وقصف البوارج، وتدمير التحصينات والدشم الإسرائيلية، تحدثوا عن الروح المعنوية والإيمانية الَّتي

كانوا يتحلون بها، والّتي ساعدتهم على الصمود، والاقتحام، ما دفعهم إلى التنافس في الالتحام مع العدو، وقتل وجرح عدد من جنوده قبل استشهادهم، أو الفوز بالنصر.

وكانت حوارات من خبراء عسكريين استراتيجيين، لتحليل وقائع وأبعاد هذه الحرب، سياسياً وعسكرياً خلصت إلى وصف المواجهات بأنّها كانت أسطورية، خاصة البرية منها، حيث تكبدت إسرائيل خسائر في صفوف جيشها لم تعهدها في أي حرب سابقة مع العرب، كما تكبدت خسائر مدنية وأضراراً في المباني والمؤسسات الصناعية والمعسكرات، ما سبَّب هلعاً حقيقياً لدى إسرائيل وكذلك الأمريكيين الّذين وقفوا ودعموا هذه الحرب بكلّ قوّة.

الفصل الثالث: تناول آثار وانعكاسات الحرب على إسرائيل، وعلى المقاومة والشعب الفلسطيني، كيفية سقوط العقيدة القتالية لدى إسرائيل الّتي كانت تقوم دائماً على قاعدة أساسها: الضربة الخاطفة، والقتال في أرض العدو، فالضربة لم تكن خاطفة، بل استمرت ٣٣ يوماً، والقتال لم يكن في أرض العدو، لأنَّ الجيش الإسرائيلي فشل في حربه البرية، ودفع ثمناً باهظاً، كما فشل في تحقيق أي هدف من بين أهدافه الّتي سعى إليها. ما سبَّب له موجة من الانتقادات الحادة، ما زلنا نعيش تداعياتها حتّى هذه اللحظة، عرض هذا الفصل، للكثير من المواقف والتحليلات حول الإخفاقات والأخطاء الجسيمة الّتي ارتكبتها القيادتان السياسية والعسكرية في إسرائيل، كما يرويها الضباط الكبار، والجنود الّذين عاشوا وضعاً مأساوياً ـ حسب قولهم، معتبرين أنَّ جيشهم أصبح بديناً وهرماً، وأنَّ الأيّام الّتي أمضوها في القتال، كانت مليئة بالثغرات وعاشوا أثناءها الذُّل والهوان والجوع والعطش على حدٍّ سواء.

في الجانب الفلسطيني، تركت الحرب آثاراً معنوية عالية، لأنَّ انتصار حزب الله بالنسبة للمقاومة والشعب الفلسطيني، كان بمثابة الانتصار لهم، رأوا بالحزب جبهة الخلاص، الجهة الوحيدة الميدانية الَّتي وقفت إلى جانبهم في محنتهم، أعطاهم دفعاً للاستمرار في المقاومة، ثبت لديهم أنَّ هذا الخيار هو الوسيلة الممكنة للتحرير، وما عداه ليس سوى مضيعة للوقت، بدون السلاح لا يمكن أن يحصل الفلسطينيون على شيء، مستندين بذلك إلى كل التجارب الفاشلة السابقة مع الاحتلال، بدءاً من اتفاق أوسلو، وما تبعها من تعهدات ومشاريع وخطط وبرامج.

انتصار حزب الله، فعَّل الجبهة الفلسطينية النضالية على المستويين العسكري والصمود الشعبي، فكانت ملاحم بطولية جديدة، وصفحات تضحية، وتحريك لجمود المبادرات لإيجاد طريق إلى صيغة حل مقبولة، حسب مواقف عدد من قادة المقاومة الفلسطينية وخبراء عسكريين آخرين.

الفصل الرابع: لبنان قبل وأثناء العدوان.

تناول الخلافات السياسية الحادة والانقسامات بين أقطاب السياسة في لبنان، وجلسات الحوار والتشاور، وما دار فيها من نقاشات، ومحاولة نزع سلاح المقاومة، ووضع استراتيجية دفاعية عن لبنان. واللقاءات الَّتي كانت تعقدها قوى ١٤ آذار/ مارس (والَّتي تسميها المعارضة قوى ١٤ شباط/ فبراير، بعد انسحاب العماد ميشال عون منها) مع وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليسا رايس، والدور الَّذي لعبه السفير الأمريكي جيفري فيلتمان في تحريض اللبنانيين على بعضهم البعض، والتدخل في كل شاردة وواردة في الشأن الداخلي، ما دفع المعارضة إلى إطلاق تسمية حكومة الرئيس فؤاد السنيورة بـ«حكومة فيلتمان».

وركز الفصل على المواقف الّتي أطلقت أثناء الحرب، لكل التيارات والقيادات السياسية، والّتي جاءت في شقيها الرسمي والوطني والشعبي، وتحوّل هذه المواقف تباعاً، وصولاً إلى اتخاذ القرارات الدولية، ومنها القرار ١٧٠١ الصادر عن مجلس الأمن الدولي.

ويكشف الفصل، أجواء النقاشات الحادة والساخنة الّتي دارت داخل مجلس الوزراء اللبناني، أثناء الحرب، وفي اللحظات الصعبة الّتي كانت تمر بها البلاد، وفيه أيضاً شرح وافٍ من قادة بارزين في المقاومة حول جملة من الوقائع والحوارات السياسية، تنشر للمرة الأولى، أثناء الحرب وبعدها، وما خلفته من آثار وتحليلات، أدت بالمعارضة إلى النزول إلى الشارع، لإسقاط الحكومة، وتشكيل حكومة وحدة وطنية، وإجراء انتخابات مبكرة، وإطلاق ورشة إصلاح تطال كل المؤسسات الدستورية.

وركز على المحاولات الّتي جرت لإشعال الفتنة الطائفية والمذهبية، وما رافقها من أعمال عنف، وموقف المعارضة المبدئي منها، القائم على تحريم الاقتتال الداخلي، والتحريض المذهبي، وتوجيه السلاح نحو الاحتلال.

الفصل الخامس: تداعيات الحرب: عربياً، إقليمياً ودولياً، ويتناول واقع النظام العربي الرسمي ومواقفه، قبل وأثناء وبعد الحرب، وكيف تدرجت هذه المواقف من مهاجمة حزب الله وحركات المقاومة في فلسطين والعراق أيضاً، ووصف أسر الجنود الإسرائيليين بالمغامرة غير المحسوبة، إلى التراجع قليلاً بعد ثبات وانتصار المقاومة، وردة الفعل الإيجابية لدى الشارع العربي المساند والداعم لإنجازات المقاومة، وصولاً إلى تقديم العون والمساعدات المادية، والتحرك الدبلوماسي لوقف الاعتداءات.

ويشير هذا الفصل، إلى أسباب فشل محاولات عقد قمة عربية طارئة، لدرس الوضع في لبنان والمنطقة، واتخاذ قرار بحجم العدوان الإسرائيلي، وأشار إلى تخبط الجامعة العربية، واقتصار دورها على المناشدات، وعقد اجتماع يتيم لوزراء الخارجية العرب في بيروت بعد انتهاء الحرب عملياً، وتطرق إلى التداعيات الإقليمية، وتحديداً الدور الإيراني والتركي إزاء العدوان، والتداعيات الدولية حين حاولت الولايات المتحدة الأمريكية كسب أي ورقة سياسية تعطي فيها لإسرائيل ما فشلت في تحقيقه عسكرياً، عبر مؤتمر روما، والقرار ١٧٠١، وقمة الثماني الّتي عقدت لحماية إسرائيل، والصمود اللبناني وإصرار المقاومة على رفض كل الطروحات والضغوط الخارجية ما أفشل كل محاولات إملاء الشروط، أو إبعاد المقاومة إلى شمال نهر الليطاني، وعودة النازحين بكثافة إلى قراهم وبلداتهم منذ اللحظة الأولى لإعلان وقف الاعتداءات، وبدء ورشة الإعمار والبناء فوراً.

الفصل السادس: أثر الحرب على مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي. فالانتصار الثاني لحزب الله في صد أو مواجهة الجيش الإسرائيلي في الجنوب (الانتصار الأول كان في ٢٤ أيار/ مايو ٢٠٠٠)، أرسى ثقافة سياسية وعسكرية وفكرية جديدة في المنطقة، فأزال الخوف من نفوس العرب، بالنسبة لقوَّة وحجم الجيش الإسرائيلي الّذي لا يقهر، وأفهم الإسرائيليين أنَّهم كانوا يعيشون خيالاً واسعاً وأوهاماً، بشأن إمكانية التوسع والسيطرة، ودفع بعضهم إلى الرحيل عن فلسطين المحتلة والعودة إلى أوطانهم الأصلية.

كان وقع الهزيمة مؤثراً وفعَّالاً، ليس على اليهود الّذين يعيشون في فلسطين المحتلة فحسب، بل على اليهود في كافة أقطار العالم، فعبروا عن شكوكهم من استمرار وبقاء هذا الكيان، كشف هذا الفصل كم تبدلت النظرة

الأمريكية والأوروبية، والعالم كله، إلى الدولة العبرية، عندما أيقنوا أنَّ الرهان عليها في إقامة الشرق الأوسط الكبير، أو المساهمة في السيطرة على المنطقة، خاسر، ولا بدَّ من التفكير ملياً بطرق ووسائل جديدة، لحماية مصالح الدول الكبرى، وخاصة النفطية.

انتصار حزب الله، أسس لمعادلة لم يعد بالإمكان تجاوزها، ولم تعد إسرائيل بعد هذه الحرب قادرة على تجاهل ما حصل، أو التعاطي مع العرب كمجموعة لا حول لها ولا قوَّة. الانتصار شكل ضربة كبيرة للمشروع الأمريكي ـ الإسرائيلي، فأصبحت إمكانية إقامة تسوية جديدة على قياس المشروع التوسعي مستحيلة، بات الوضع أمام مخاض سيطول، ويمتد ربَّما إلى عشرات السنين.

الفصل الأوّل

أسباب ودوافع وخلفيات
الحرب الإسرائيلية على لبنان
ونتائجها السياسية والأمنية
والاستراتيجية والاقتصادية

أوّلاً: المشهد السياسي العام

بما أنَّه من الصعب، فصل الأحداث في المنطقة عن بعضها البعض، بسبب الترابط الوثيق في ما بينها، فإنَّه من غير المنطقي تناول الحرب الإسرائيلية على لبنان في الثاني عشر من تموز/ يوليو ٢٠٠٦، دون إلقاء نظرة سريعة ومكثفة، على واقع لبنان والساحات المجاورة له، والخطط والبرامج الَّتي كانت تعد للشرق الأوسط، الَّتي استبقت رياح هذه الحرب، لنتمكن من قراءة ورؤية سيناريو المعركة بكل أبعادها وظلالها الحقيقية، للخروج بفهم أوسع واستنتاجات أدق، لما حصل في الأيَّام الثلاثة والثلاثين للمواجهات.

كان المشهد السياسي والأمني في المنطقة قاتماً، والاحتقان بلغ ذروته عشية العدوان، نتيجة الضغوط والتهديدات الأمريكية ـ الإسرائيلية، الَّتي كانت تحضِّر لبناء ما سُمِّي بالشرق الأوسط الكبير أو الجديد، وذلك بهدف تعميق جذور الاحتلالين الأمريكي والصهيوني، وتبادل المنافع والحصص وتوزيع الأدوار في التحكم بمصير الشعوب وثرواتها.

كانت كل المؤشرات توحي باحتمالات هبوب عواصف هوجاء على غير جبهة، وهي لم تكن خافية على المتابعين والمعنيين، إلاَّ أنَّ أحداً كان

يجهل ساعة الصفر، فالولايات المتحدة أرادت رسم خارطة نفوذ جديدة، مغايرة لما سبق أن رسمته معاهدة سايكس ـ بيكو ١٩١٦ البريطانية الفرنسية، تكون فيها صاحبة القرار المهيمن مباشرة بلا وكلاء، ، ويمكن تلخيص المشهد العام عشية الحرب على النحو التالي:

* لبنان: كان الوضع فيه قلقاً ومضطرباً جداً، تسوده أجواء التشنج بين نهجين سياسيين: الأول تمثله الحكومة الَّتي ولدت من رحم بركان عاطفي استثنائي بعد اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، وبقانون انتخابي معترض عليه، مدعومة من واشنطن وأوروبا ومعظم البلدان العربية برئاسة فؤاد السنيورة، شكَّلها فريق ١٤ آذار/ مارس، وهو معاد لسوريا برئاسة بشار الأسد وكانت الحكومة تركز على نزع سلاح المقاومة، وإسقاط رئيس الجمهورية إميل لحود الَّذي مدِّدت ولايته ثلاث سنوات إضافية، والسيطرة على كل مفاتيح السلطة أمنياً واقتصادياً وقضائياً، من خلال «تنظيف» كل المؤسسات ممَّا أسمته «الأجهزة السورية»، والالتحاق بركب السياسة الأمريكية الفرنسية، باعتبار أنَّ رياح التغيير بدأت من إزاحة الحكم العراقي برئاسة صدام حسين وهي ماضية للتخلص من كل الرموز والقوى المناهضة للمشروع الأمريكي، ولا بدَّ أن يكون لبنان في إطار موجة التغيير هذه.

واستغلت الولايات المتحدة التطورات المتسارعة على الساحة اللبنانية، معتبرة أنَّ نتائج الانتخابات النيابية، والتشكيلة الحكومية، واعتقال القادة الأمنيين، وبدء التحقيقات الدولية باغتيال الرئيس الحريري، مهَّد لها الطريق إلى كسب لبنان في صفها وبدت وكأنَّها لم تستفد من تجارب الماضي، عندما فشلت إدارات أمريكية سابقة من لعب هذا الدور، سواء في تدخلها لصالح الرئيس كميل شمعون عام ١٩٥٨، أو بعد اندلاع الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، وخروجها من الساحة بعد تكبدها خسائر كبيرة، بعد

عام ١٩٨٢، كما أنَّه ظهر بأنَّ كل قراراتها كانت مبنية على تقارير مضلِّلة لا تستند إلى فهم الواقع اللبناني وتركيبته، ما عقد الأمور وزاد الوضع تشنجاً وإرباكاً، وصل إلى حد الانفجار غير مرَّة لولا تدارك العقلاء من كل الأطراف للجم الحساسيات المذهبية والطائفية والمناطقية والإقليمية، وبذلك أساءت أمريكا للحكومة بدل أن تخدمها حسب رأي الكثيرين.

والنهج الثاني، مثله حزب الله، وقوى المعارضة الأخرى، وأبرزها حركة أمل والتيار الوطني الحر، الَّتي مثلت شرائح من مختلف التيارات والمذاهب والقوى السياسية والحزبية والروحية، هذا النهج رفض تسليم سلاح المقاومة، ورفض أي تدخل خارجي بشأنه معتبراً هذا الموضوع لبناني داخلي بامتياز، يعالج بالحوار والتشاور، وشدد على أنَّ سوريا بلد شقيق لا بدَّ من فتح صفحة جديدة معها، تقوم على التعاون وفق أسس ومفاهيم مختلفة عن الماضي، ومد اليد إلى كل الدول العربية والإسلامية والعالمية لإقامة علاقات قائمة على الاحترام المتبادل، معلناً رفض الوصاية الأجنبية، وتحديداً الأمريكية والفرنسية، داعياً إلى رصّ الصفوف الداخلية لمنع الفتنة الَّتي تحرِّض عليها قوى خارجية، كما حصل في العراق، وتطالب بإقامة حكومة وحدة وطنية تسمح لمشاركة الجميع بفعالية لتحصين الساحة الداخلية من أية خروقات، وتفعيل أداء العمل الحكومي.

النهج المقاوم، أصرَّ على تحرير آخر ذرة تراب من أرض لبنان بخاصة في مزارع شبعا وتلال كفرشوبا، من الاحتلال الإسرائيلي، واستعادة الأسرى والمعتقلين من سجون الاحتلال، ووقف الخروقات والتعديات الجوية والبحرية والبرية على السيادة اللبنانية، واعتبر بنود القرار ١٥٥٩ نفذت بالكامل بعد الانسحاب السوري من لبنان، ولا يرى ضرورة لاستكمال مناقشته.

وكان حزب الله يعلن صراحة جهاراً نهاراً، بأنَّ عملياته ضد مواقع وعناصر الاحتلال لن تتوقف، وهو مصرٌّ على أسر جنود إسرائيليين يبادلهم بالأسرى اللبنانيين، لأنَّ إسرائيل لا تفهم غير هذا الأسلوب من التخاطب، بعد أن فشلت كل الجهود الدبلوماسية والإنسانية من إنهاء هذا الملف عبر الحوار الهادئ والواضح.

هذه الملفات لم يتم التوصل إلى التفاهم حولها على طاولة الحوار الوطني أو جلسات التشاور، الَّتي دعا إليها ورعاها رئيس مجلس النواب نبيه بري تحت قبة البرلمان، فتم تأجيلها على أمل التوصل إلى حلول بطريقة ما وعبر وسائل أُخرى.

بعض الأطراف راهن، أو كانت لديه معلومات أو معطيات عن تكليف إدارة الرئيس جورج بوش للحكومة الإسرائيلية، بالقيام بضربة استباقية، وكان هذا البعض يرى أنَّ الحل بالنار هو الأنجع والأسرع والأسهل، يتم بعدها الإمساك بكل تفاصيل الوضع الداخلي، وتسيير دفته حسب ما تشتهيه السفن الأمريكية الفرنسية مع فريق السلطة وأبدى استعداده للمشاركة بدور ما، والتحريض ضد المقاومة، وكانت التطمينات الأمريكية لأصحاب النهج الأول تزيد من رفع أوتار صوته العالي، لتزيد من توتير النُّفوس، وأبرز التطمينات عن قرب بدء الحسم، جاء على لسان وزيرة الخارجية الأمريكية كوندااليسا رايس، الَّتي كانت تلتقي بقادة فريق ١٤ آذار/ مارس، في مقر السفارة الأمريكية في عوكر، فكانت تؤكد لهم أنَّ الوقت لن يطول، ليصبح لبنان «حراً» من «الإرهاب»، وتكون السلطة فيه «للشرعية» بعد إزالة «الدولة» الَّتي كانت داخل الدولة.

* سوريا: كانت الضغوط الأمريكية، كما الإسرائيلية، تشتد وتزداد حدة يوماً بعد يوم ضدها، مرَّة باعتبارها داعمة للإرهاب في المنطقة، وتطالبها بطرد

قادة الفصائل الفلسطينية من أراضيها، وإغلاق المكاتب الفلسطينية فيها، ومرَّة أُخرى باعتبارها تتدخل في الشأن العراقي، وتساند «الإرهابيين» هناك، وتدعوها للتعاون الوثيق مع واشنطن لفرض أمر واقع فيه ومنع تسلل هؤلاء الإرهابيين عبر حدودها إلى الأراضي العراقية، ومرَّة ثالثة يتهمها بأنَّها تتدخل في شؤون لبنان الداخلية، وتدعم حزب الله وآخرين، لتقويض حكومة الرئيس فؤاد السنيورة، وأنَّها تعمل على تزويد المقاومتين اللبنانية والفلسطينية بالسلاح، عبر التهريب واستباحة الحدود، وتدعوها إلى إغلاق كل المنافذ بين البلدين، وإحكام السيطرة عليها، وإقامة علاقات دبلوماسية طبيعية، وترسيم الحدود بين الطرفين، ومرَّات عدَّة كانت واشنطن تتهم النظام السوري، أيضاً وأيضاً، بأنَّه يقف وراء الاغتيالات السياسية والإعلامية، وتحاول التهويل عليه بالمحكمة الدولية، وعدم التعاون مع لجنة التحقيق في قضية اغتيال الحريري، وتهدده بفرض العقوبات الاقتصادية، وبتوجيه ضربة عسكرية له، إذا لم يفك تحالفه مع إيران، فهذا التحالف بنظر الإدارة الأمريكية يمثل «محور الشر»، مقابل محور «الخير الأمريكي» الإسرائيلي.

ودخلت فرنسا بقوَّة، إلى جانب أمريكا وإسرائيل، في ممارسة لعبة الضغوط والتهويل على دمشق، حذرت باريس النظام السوري بأنَّه يعرض نفسه للخطر، إذا لم يستجب للقرارات الدولية بخاصة القرار ١٥٥٩، ووقف التدخل في الشأن اللبناني.

وكانت كل التوجهات والخيارات تشير، طبقاً لهذا السيناريو، أنَّ سوريا باتت على مرمى عدوان محتمل، إمَّا بالتزامن مع ضربة قاصمة توجه لحزب الله في لبنان، أو بعد ذلك مباشرة، أو في وقت تستهدف فيه إيران. فالخطة الأمريكية الإسرائيلية الفرنسية والأوروبية بعامة، كانت تعمل للتخلص من هذا المثلث، تمهيداً لطي صفحة الممانعة للمشروع الشرق

أوسطي، وإرساء تسوية في المنطقة، تكون الراجحة الأكبر فيها إسرائيل.

* إيران: كانت وما زالت موضوعة على خارطة المواجهة العسكرية، فالتهديدات الأمريكية الإسرائيلية لم تتوقف لحظة ضدها، بخاصة بعد تطور برنامجها النووي ومضيِّها في تخصيب اليورانيوم، وتعتبر واشنطن وتل أبيب أنَّ طهران تمثل الخطر الحقيقي والداهم ضد الوجود الصهيوني من ناحية، وتهدد الوجود العسكري والمصالح الاقتصادية الأمريكية من ناحية أُخرى، فكان التوافق بينهما ـ بالتعاون والتنسيق مع العديد من الدول الأوروبية ـ تاماً لتوجيه ضربة عسكرية استباقية لها، تؤدِّي إلى تدمير المنشآت النووية السلمية، وإلى إضعاف إيران عسكرياً واقتصادياً، والبداية تكون في قطع الذراع الإيرانية العسكرية في لبنان المتمثلة بحزب الله، والانتقال إلى سوريا بعد ذلك مباشرة، وهذا ما كشفت عنه معظم التقارير الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية أو المؤتمرات والندوات الَّتي عقدت حول تدارس الأوضاع في المنطقة والعالم، والتصريحات والمواقف الَّتي أطلقها غير مسؤول بارز في واشنطن أو تل أبيب أو باريس أو لندن وغيرها.

وفي المقابل كانت إيران متمسكة بقرارها الوطني الداعي إلى امتلاك الطاقة النووية السلمية، الَّتي يمكن أن تساهم في تطوير وتنمية البلاد، وتضعها في مصاف الدول الصناعية المتقدمة، ومتمسكة أيضاً في دعم كل قوى التحرر في العالم، لمكافحة الظلم والقهر والاحتلال، وتعلن بدون مواربة، تزويد كل هذه الأطراف بالإمكانات المتاحة، المساعدة على تخطي الصعوبات الَّتي تواجهها، وكانت يدها ممدودة باستمرار للشعوب العربية والإسلامية، للتعاون في كل المجالات، تعلن أنَّها لن تسكت عن أي عدوان يمكن أن يستهدف أمنها وسلامة وطنها، ومستعدة إلى أن تذهب

بعيداً للرد على أي محاولات ترمي إلى ضرب منجزاتها، قابلت الاستعراضات العسكرية الأمريكية، في الخليج باستعراضات عسكرية، كشفت فيها عن امتلاك أسلحة متطورة، يمكن أن تلحق الأذى بأي معتدٍ، ويبدو أنَّ واشنطن وتل أبيب تلقتا الرسالة وقرأتاها جيداً، أدركتا أنَّ إيران ليست العراق. وأي حرب ضدها ستكون باهظة التكاليف، ولن يكون بمقدور الولايات المتحدة ولا إسرائيل تحمُّل تبعاتها ونتائجها الأمنية والاقتصادية والنفسية والمعنوية والاستراتيجية أيضاً.

* العراق: كان وما زال مفتوحاً على كل الاحتمالات، أسهم المقاومة فيه إلى ارتفاع، أقدام الاحتلال الأمريكي تزداد غرقاً في رماله المتحركة، بعد العجز في إيجاد حل هناك لم تفلح القوَّة المفرطة الَّتي استخدمها الجيش الأمريكي من إخماد نار المقاومة، لم تتمكَّن الحكومة العراقية من امتلاك زمام المبادرة، أو فرض الهيبة والأمن، وإعادة بناء المؤسسات، ما حصل كان يوسِّع فجوة الكارثة الإنسانية، نزف العراق دمه، وعملت أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية على توتير الأجواء المذهبية والطائفية، وغرس بذور الفتن، وشجعت على تقسيم البلاد وتمزيقها، ولعبت دوراً رهيباً في قتل الأبرياء واستهداف دور العبادة، والمتاجر والأسواق الشعبية، متذرعة بأنَّ «إرهابيين» من أطراف النزاع، كانوا خلف هذه الأعمال المدانة والحقيقة أنَّ إسرائيل وجدت فرصتها في تدمير القوَّة العراقية الَّتي تعتبر السند الخلفي القوي في أي مواجهة مع العرب.

والواقع المأساوي، أدَّى إلى تأزيم الوضع ليس في العراق وحده، إنَّما في المنطقة كلها، وبات الأمريكي يتخبط بحثاً عن المخارج بعد المأزق الَّذي وضع نفسه فيه، وبدل اللجوء إلى المنطق السياسي الموضوعي، لجأت إدارة الرئيس جورج بوش إلى التصعيد في كل مكان، متهمة كل

الدول المحيطة بالعراق، بأنَّها تساهم في تأجيج النَّار، الوضع يزداد تعقيداً ومفتوحاً على خيارات صعبة ومصيرية.

انعكست هذه التداعيات، على الرأي العام الأمريكي والأوروبي، الَّذي رأى ببوش «أخطر رجل على السلم العالمي» وفق استطلاعات الرأي الَّتي أجرتها غير صحيفة أمريكية وبريطانية، وانخفضت شعبية هذا الرئيس إلى أدنى مستوى لها منذ تسلمه السلطة، كما انخفضت شعبية حزبه الَّذي أيد ووافق الحملة العسكرية على العراق، القائمة على الكذب والخداع والادعاء بوجود أسلحة دمار شامل، ومحاربة الإرهاب الَّذي يشكل خطراً على الشعب الأمريكي ممَّا حمل الديمقراطيين للفوز بمقاعد الكونغرس، واستعادة زمام الموقف.

* **فلسطين المحتلة:** وصل الوضع فيها حد المأساة، بكل أبعادها الإنسانية والسياسية والأمنية، والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، بعد أن واصل الاحتلال الإسرائيلي عدوانه المدمر، مرتكباً أبشع المجازر، والاغتيالات، وحملات الاعتقال، والحصار الاقتصادي، وإقفال المعابر، ومصادرة الأراضي، وتدمير المنازل، وتشييد جدار الفصل العنصري، وشل حركة حكومة حماس المنتخبة ديمقراطياً، واعتقال عدد من وزرائها وأعضاء البرلمان، وذلك بغطاء ودعم أمريكيين، وتجاهل أوروبي، وصمت عربي، واعتبار أنَّ ما تقوم به إسرائيل عملية «دفاع عن النَّفس»، ضد «قوى الإرهاب والتطرف»!

بدورها لم تتوقف حركات المقاومة، ومن مختلف الفصائل الفلسطينية، عن استهداف المستوطنات الإسرائيلية بالصواريخ، والتصدي للعدوان بالإمكانات العسكرية المتاحة المتواضعة، وبدت المواجهات الميدانية غير متكافئة إطلاقاً، ما سبب ارتكاب جرائم حرب من قبل

إسرائيل، باعتراف التقارير الدولية، الصادرة عن مؤسسات وهيئات إنسانية ولجان حقوق الإنسان.

وتطورت المواجهات بشكل دراماتيكي، بعد اختطاف المقاومة جندياً إسرائيلياً بعملية نوعية، عبر نفق استغرق حفره أسابيع عدَّة، العملية شرعت الأبواب أمام أسلوب فلسطيني جديد، في معالجة ملف الأسرى في السجون الإسرائيلية، الَّتي لم تفلح نداءات ودعوات وقرارات من أن تعيد أيّاً منهم إلى ذويه، شبيهة بالأسلوب الَّذي اعتمده حزب الله لاستعادة الأسرى والمعتقلين اللبنانيين والفلسطينيين والعرب من معتقلات الاحتلال.

حاولت إسرائيل استغلال عملية الأسر، لتشن عدواناً واسع النطاق، بحجَّة البحث عن الجندي المخطوف، مستندة إلى التعاطف الدولي والرأي العام معها، عينها كانت مصوبة باتجاه تقويض أسس الحكومة، وضرب المقاومة، وتركيع الشعب الفلسطيني من خلال إلحاق أفدح الخسائر البشرية فيه، وبخاصة الأطفال والنساء والشيوخ، وتجويع المواطنين بمنع وصول التحويلات المالية إليهم، أو اقتلاع الأشجار المثمرة والقضاء على المواسم الزراعية وغير ذلك.

الصمود الشعبي، والحكومي، والمقاوم، دفع الاحتلال إلى التفكير بالهروب إلى الأمام من خلال فتح جبهة جديدة، لم يكن سوى لبنان مفتوحاً على هذا الخيار لأسباب كثيرة.

* إسرائيل: كانت حكومة إيهود أولمرت الجديدة الضعيفة والعاجزة عن اتخاذ قرارات مصيرية، تحاول إثبات حضورها في ساحة الصراع والتنافس الداخلي، وكسب المزيد من الأصوات المؤيدة لها، فقادها ظنها أنَّ اتباع أسلوب رئيس الوزراء السابق آرييل شارون، هو الأقصر والأسهل والأجدى، لتحقيق الأحلام والرغبات.

أولمرت كان يرى بشارون المثل الأعلى له، فاختار التشدد والعنف مستكملاً حملته العسكرية ضد الفلسطينيين في قطاع غزة والضفة الغربية، وأطلق سيلاً من التهديدات ضد إيران وسوريا ولبنان والحكومة الفلسطينية، وبدا كأنَّه يعلن حالة حرب حقيقية، دون أن ينسى تدخله السافر وممارسات أجهزته الاستخباراتية في العراق.

لم يستفد أولمرت ويبدو أنَّه غير مستعد لأن يستفيد ـ من أخطاء وإخفاقات شارون السياسية والعسكرية، سواء في فلسطين أو لبنان، أو على صعيد الصراع العربي الإسرائيلي، ككل فأعلن فتح أكثر من جبهة في آن واحد، الأمر الَّذي تجنبه كل أسلافه من رؤساء الحكومات السابقين، وبسبب احتمال الأخطار والخسائر والمشاكل المحلية والإقليمية والدولية المتوقعة بفتح أبواب جهنم في غزة، ولبنان في وقت متزامن، كانت الفاتورة السياسية والمعنوية والأمنية والاقتصادية والإنسانية الَّتي دفعها أغلى من كل التوقعات والحسابات، كانت القيادة العسكرية ـ الَّتي قرأت فكره وتوجهاته جيداً ـ ساهمت في دفعه إلى التهور، واستفادت الولايات المتحدة من نقطة ضعفه هذه، ألقت به في الهاوية السحيقة، لاستخلاص الدروس والعبر، وقياس احتمالات اتباع خطوة مماثلة في المنطقة وتحديداً في إيران.

كان واضحاً أنَّ أولمرت، مستعد للمغامرة، تكشف ذلك من خلال تحديد ساعة الصفر بأسرع ممَّا كان متوقعاً، شن عدوانه الفج على لبنان، فكانت الفضيحة.

* **الساحة العربية في جانبها الرسمي:** كانت مصابة بالعقم في اجتراح الحلول، فالنظام العربي إمَّا مشلول الإرادة، أو تابع، أو مختبىء خلف مبررات العجز، كان يتذرع بحجج غير مقنعة للابتعاد عن الصراعات والأزمات الدائرة حوله، فانعكس ذلك حالة من الضياع والقلق والارتباك، سمح للأمريكيين

والأوروبيين والإسرائيليين، وضع خطط تلائمهم، وتمريرها دون اعتراض، ومنحهم فرصة استغلال الثروات العربية، والسيطرة على الموارد وأسواق المنطقة ومواقعها الحساسة دون رفض.

والنظام الرسمي العربي، في ظل الظروف الراهنة، إمَّا أنَّه معترف بإسرائيل، في محاولة لإرضاء أمريكا، أو عدم إغضابها، أو ساع للاعتراف بها ويدور في فلك الاتصالات السرية معها، أو مرتبط بمعاهدات واتفاقات تجارية وأمنية كما كشفت عن ذلك لقاءات العقبة في الأردن وعواصم أوروبية عدَّة.

الحصيلة كانت وبالاً على الأُمَّة العربية، وكان العراق ضحية استمرار المجازر اليومية، حيث وصلت أعداد القتلى من المدنيين حوالي ثلاثة أرباع المليون، جلهم من النساء والأطفال، حسب إحصاءات دولية عدَّة، عدا الجرحى والدمار والخراب، الَّذي لم يوفر مرفقاً ولا مؤسسة ولا مدينة ولا قرية ولا مزرعة، وكانت فلسطين مسرحاً لجرائم الاحتلال البشعة، وكان لبنان محطة تآمر دائم، وكانت سوريا أمام الاتهامات، وكذلك كان الوضع في دارفور بالسودان، والمأزق في الصومال.

عجز النظام العربي، عن عقد جلسة قمة طارئة لبحث أي أزمة أو مشكلة أو حرب، لأنَّ القرار الأمريكي كان معطلاً لذلك، عجز عن القيام بمبادرة إصلاح، أو توفيق، أو تقريب وجهات نظر بين الأشقاء المختلفين، لأنَّ البيت الأبيض لا يسمح بمثل هذه الخطوة، إنَّه يريد لهذه الأُمَّة أن تبقى ممزقة، متفرقة، متصارعة، متناحرة، متخلفة، جاهلة، قلقة ومضطربة، كي يسهل الإمساك بها، وترويضها، والأخذ بها في الاتجاه الَّذي يخدم مصالحه.

* الشارع العربي: إمَّا مقموع، أو مقهور ومظلوم، مغيَّب عن التأثير، ولو

تسنى لطاقاته من لعب دور، لتغيرت كثير من الأُمور، فالشعب لا يثق بنظامه، والنظام لا يمنح شعبه فرصة التعبير، والمشاركة في اتخاذ القرار.

وما ينطبق على الساحة العربية، ينسحب على غالبية البلدان الإسلامية أيضاً، ما ضيَّع آمالاً عريضة للتغيير نحو الأفضل.

* **الحلف الأمريكي الإسرائيلي:** وصل حد التكامل والتناغم التام، بغية إحكام السيطرة على المنطقة، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، شكلا ثنائياً في تصعيد كل الحروب والأزمات، ومهَّدا للعديد من المواجهات، إلاَّ أنَّ هذا المشروع كان يصطدم دائماً بعوائق قوية ورادعة حرمته من الوصول إلى أهدافه، ما فتح الصراع لكثير من المفاجآت، ازدادت الكراهية ضدهما، وأصبحت الساحتان العربية والإسلامية، ساحات مواجهة حقيقية لمنعهما من تنفيذ مخططاتهما، وهذه الكراهية انعكست تظاهرات وحروباً وأعمال عنف، وضعت المنطقة على حافة انفجار شامل تتجاوز آثاره ومخاطره المنطقة لتطال العالم كله، بخاصة بعد احتمال ازدياد التنافس الدولي في استقطاب هذه الساحات والتعامل معها.

* **أوروبا:** وفق مسارها السياسي الراهن، ملحق أمريكي، نلاحظ أنَّها في الأوقات الحاسمة، إمَّا صامتة ملبية مطالب واشنطن، وإمَّا منحازة إلى أمريكا وإسرائيل، طمعاً بحصة أو موقع قدم، وهذا ما كشفت عنه الممارسات والمواقف، فألمانيا مثلاً في عهد مستشارتها أنجيلا ميركل، أعلنت انحيازها الكامل لإسرائيل وقدَّمت لها غواصتان حديثتان وأسلحة أُخرى، ودعت إلى العمل من أجل حمايتها، وفرنسا انتقلت فجأة من موقع المعترض على سياسة واشنطن في العراق، إلى موقع الصديق والحليف، الأمر الَّذي فتح لها أبواب لبنان والمنطقة على مصراعيها، وتعمل الآن لتطويق وضرب كل معاقل المقاومة والممانعة، شأنها في ذلك شأن بريطانيا طوني بلير، الَّتي كانت

باستمرار ملحقاً أمريكاً ضعيفاً، ما أثار غضب الشعب البريطاني فسحب ثقته من حكومته، ودعا إلى استعادة بريطانيا لدور «مقبول» في العالم، بعيداً عن التبعية العمياء.

العرب والمسلمون راهنوا وما زالوا يراهنون على أوروبا الجارة والصديقة حيث المصالح المشتركة، والتكامل الاقتصادي والتجاري والسياسي والأمني، ويبدو أنَّ الحوار بين الطرفين، لم يؤدِّ إلى النتائج المتوخاة، لكن ذلك لم يفقدهم الأمل بالتوصل إلى قناعات تجمعهما، خدمة لمصالح شعوبهم في يوم من الأيَّام.

باختصار شديد، صورة المشهد العام، الَّذي سبق ورافق العدوان الإسرائيلي على لبنان، كانت تؤكد أنَّ الولايات المتحدة وإسرائيل تعيشان حالة من فقدان التوازن، تبحثان عن وسيلة لتنفيس أزمتهما وتوجيه الأنظار بعيداً عمَّا يرتكبانه من مجازر وجرائم مخالفة لكلِّ القوانين والأعراف والمواثيق الدولية في فلسطين والعراق والسودان وغيرهم، التقيا عند هدف واحد، هو شن الحرب على لبنان، كمقدِّمة لحرب على سوريا وإيران، وربَّما على دول أُخرى، كان الحدث أكثر مأساوية ممَّا هو متوقع ومخطط له، أدَّىٰ إلى صدمة جديدة إلى هذا الثنائي، ستظل تداعياته الراهنة والمقبلة مؤثرة في رسم معالم صورة الشرق الأوسط، على غير ما تشتهيه رياح كل السفن الأمريكية ـ الإسرائيلية، الَّتي تمخر في محيط العواصف الهوجاء نحو صخور الأفق المسدود.

ثانياً: التحضيرات والاستعدادات للحرب

كل الأوضاع في المنطقة والعالم ـ حسب مسار تطور الأحداث وما رافقها من قرارات غير معهودة في تاريخ الأُمم المتحدة ـ كانت تؤشر إلى احتمال اندلاع حرائق، كبيرة وشاملة، لا تستثني من آثارها ونتائجها جهة أو فريقاً أو شخصية معارضة، لكن أحداً لم يكن قادراً على تحديد مكان وزمان وحجم هذه النَّار ومداها، وكانت كفة الترجيحات تميل نحو لبنان، باعتباره البوصلة، ونقطة ارتكاز الحملة الأمريكية الإسرائيلية المستعرة في هذه المرحلة.

كانت الأجواء ـ كما ذكرنا ـ مهيأة للحرب، فالأرضية العربية الرسمية لم تكن معترضة، بل كانت مساهمة أو مساعدة للقيام بأي خطوة في هذا السياق، بعد إقناع واشنطن للعديد من الأنظمة «المعتدلة»، أنَّ الحرب ستستهدف مذهباً معيناً، وقوَّة تابعة له باتت تشكل تهديداً لمحيطها، كما ستستهدف المقاومة (الإرهاب) بشقيها اللبناني والفلسطيني (حزب الله، حماس والجهاد) لأنَّها باتت تشكل عائقاً أمام «السلام»، وعامل قلق وإزعاج لا بدَّ من الإجهاز عليها أو تحجيمها، لتخليص بلدان المنطقة من البقاء فوق فوهات البراكين، تماماً كما هو الحال أيضاً بالنسبة للمقاومة

العراقية الَّتي تعتبر مصدر إرهاب وتحدٍّ آخر تعرُّض حياة المدنيين ـ حسب ادعائها ـ للويلات والمصائب.

لم تكن عملية خطف الجنديين الإسرائيليين من قبل حزب الله، مبرراً بالطبع لشن حرب ضروس، لأنَّه سبق وأن نفذت مثل هذه العمليات من قبل، دون أن تؤدِّي إلى صدام، إنَّما أدَّت إلى عقد صفقات لتبادل الأسرى والمعتقلين والجثث ورفاة القتلى والشُّهداء بين الحزب وإسرائيل، عبر قنوات إنسانية أو دبلوماسية غربية، غير أنَّ إسرائيل ـ وبقرار أمريكي أيضاً ـ استغلت العملية في ١٢ تموز/يوليو، لتسريع تنفيذ خطة كانت موضوعة في الأدراج منذ سنوات، للانقضاض على المقاومة.

وأكدت المعلومات المتواترة من أكثر من طرف، أن خطة الحرب هذه أعدت منذ وقت طويل، فإسرائيل منذ إنهاء احتلالها لأجزاء واسعة من الجنوب، تراقب بحذر تعزيز حزب الله لوجوده العسكري في المنطقة، وجيشها كان مستعداً للرد فوراً على عملية أسر الجنديين، ورأى أستاذ العلوم السياسية في جامعة «بارايلان» الإسرائيلية جيرالد ستاينبرغ، أنَّه من بين كل حروب إسرائيل منذ العام ١٩٤٨، فإنَّ هذه الحرب هي الَّتي استعدت لها إسرائيل أكبر استعداد، فالتحضير بدأ عام ٢٠٠٠ مباشرة، عندما بدا واضحاً أنَّ المجتمع الدولي لن يمنع حزب الله من تخزين الصواريخ ومهاجمة إسرائيل، وتقرر عام ٢٠٠٤ أن تستمر الحملة العسكرية (الَّتي تختبرها اليوم) لحوالي ثلاثة أسابيع، كما أنَّ الجيش الإسرائيلي تمرَّن على الحملة مراراً وعلى طول الحدود، خلال العام أو العامين الماضيين[1].

---

(١) صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل الأمريكية، ٢١ تموز/يوليو ٢٠٠٦، نقلاً عن «السفير» في ٢٣ تموز/يوليو، ص١٣، العدد ١٠٤٥٢.

ومنذ أكثر من عام، بدأ مسؤول عسكري رفيع المستوى، تقديم الشروح إلى دبلوماسيين أمريكيين وغربيين وصحفيين ومراكز أبحاث، من أجل حبك التفاصيل، ووزع المسؤول مهمات الحملة على ثلاثة أسابيع كالتالي:

ـ **الأسبوع الأوّل**: تدمير صواريخ حزب الله البعيدة المدى، وتفجير مراكز قياداته، واستهداف شبكات المواصلات والاتصال.

ـ **الأسبوع الثاني**: يتحول التركيز إلى الأماكن الفردية الّتي تتواجد فيها قاذفات الصواريخ، أو مخازن الأسلحة.

ـ **الأسبوع الثالث**: تتدخل القوات البرية بأعداد كبيرة، من أجل القضاء على أهداف اكتشفها الجيش خلال مهمات الاستطلاع، وذلك من دون أي سيناريو لإعادة احتلال الجنوب على المدى البعيد.

ولخص مسؤول إسرائيلي كبير، لأستاذ كرسي الاستراتيجيا في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن انطوني كوردسمان، آراء صنّاع القرار في إسرائيل حول أهداف الخطة الإسرائيلية بخمسة بنود:

١ ـ تدمير «القيادة الغربية الإيرانية»، قبل أن تتمكن إيران من التحول إلى دولة نووية.

٢ ـ استعادة صدقية الردع الإسرائيلي، بعد الانسحابات من جانب واحد من لبنان في عام ٢٠٠٠، ومن غزة في عام ٢٠٠٥، ومواجهة الصورة الّتي تظهر إسرائيل ضعيفة ومجبرة على الانسحاب.

٣ ـ إجبار لبنان على أن يصبح ـ وأن يتصرف كما تتصرف ـ دولة تخضع للمساءلة، وإنهاء وضع حزب الله كدولة داخل الدولة.

٤ ـ تحطيم أو شل حزب الله، على أساس فهم أنّه لا يمكن أن يدمر

كقوَّة عسكرية، مع استمراره كفاعل سياسي رئيسي في لبنان.

٥ ـ إعادة الجنديين الإسرائيليين اللذين أسرهما حزب الله، من دون مبادلات رئيسية مع سجناء تحتجزهم إسرائيل ـ الآلاف الذين طالب أمين عام الحزب السيِّد حسن نصر الله ـ. وحزب الله بإطلاقهم[١].

ووفقاً لعدَّة مسؤولين أمريكيين حاليين وسابقين، فإنَّ مكتب نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني، ونائب مستشار الأمن القومي ايليوت ابرامز، دعما الخطة الإسرائيلية، اعتقاداً منهما أنَّه يجب على إسرائيل أن تتحرك بسرعة في حربها الجوية ضد حزب الله.

وقال مسؤول استخباراتي سابق: «قلنا لإسرائيل: انظروا، إذا كان عليكم أيُّها الجماعة أن تذهبوا، فنحن خلفكم على طول الخط، لكنَّنا نعتقد أنَّه كلَّما بكَّرتم في ذلك، كلَّما كان ذلك أفضل، وكلَّما طال انتظاركم، كلَّما قلَّ الوقت الَّذي نحتاجه للتقييم والتخطيط لإيران قبل أن تنتهي ولاية بوش».

كانت وجهة نظر تشيني، هي التالية: ماذا لو نفذ الإسرائيليون جزءاً من هذا أوَّلاً، وكان ناجحاً بالفعل؟ سيكون ذلك رائعاً، سيكون بإمكاننا أن نتعلم ما يجب فعله في إيران، عبر مشاهدة ما يفعله الإسرائيليون في لبنان.

وأكد مسؤولون دبلوماسيون واستخباراتيون، أنَّ الرئيس بوش ونائبه تشيني، كانا مقتنعين بأنَّ حملة قصف ناجحة تنفذها القوات الجوية الإسرائيلية ضد صواريخ حزب الله المحصَّنة تحت الأرض، وضد تعقيدات القيادة والسيطرة في لبنان، يمكن أن تخفِّف من قلق إسرائيل بشأن أمنها،

---

(١) انظر «المستقبل العربي»، ص١١٩، تحت عنوان: دروس دولية، من الحرب بين إسرائيل وحزب الله، ترجمة لتحليل استراتيجي، نشر على موقع مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية على شبكة الانترنت بتاريخ ١٧ آب/أغسطس ٢٠٠٦.

كما من شأنها أن تخدم كمقدمة لهجوم وقائي أمريكي محتمل، لتدمير منشآت إيران النووية المحصَّنة هي أيضاً عميقاً تحت الأرض[1].

كانت الخطة الإسرائيلية معدة للتنفيذ العملي، بعد صيف العام ٢٠٠٦، وتحديداً في تشرين الأوَّل/ أكتوبر، أي بعد انتهاء الموسم السياحي في شمال فلسطين المحتلة، كي لا يتأثر هذا القطاع بالحرب، كما لا يتأثر الوضع الاقتصادي العام، ويأخذ السياح الأجانب انطباعاً سلبياً عن الحياة العامَّة والوضع السياحي. إلاَّ أنَّ مستجدات خطف الجنديين من قبل حزب الله، دفع القيادتين العسكرية والسياسية في إسرائيل، إلى تقديم موعد التنفيذ، وحسب ما ذكره عدد من مسؤولي حزب الله لو أنَّ الخطة نفذت في موعدها، لكانت أكثر إيلاماً، لأنَّ عامل المفاجأة كان سيلعب دوراً في هذا المجال، حيث سيكون الثمن باهظاً، إلاَّ أنَّه بعد عملية الخطف، تمَّ إخلاء كل المؤسسات والمراكز والتجمعات والمقرات الحزبية، فجاءت الضربة مخيبة لآمال الإسرائيليين، في حين استطاع الحزب أن يمتص الصدمة ويقوم بالهجوم المضاد، ويقلب موازين المعركة، خلال ساعات قليلة.

وللدلالة على مستوى التنسيق بين واشنطن وتل أبيب، كشف المعلِّق العسكري في صحيفة «يديعوت أحرونوت»، رون بن يشاي، الَّذي سبق له أن عمل مستشاراً للرئيس الإسرائيلي، وترأس صحيفة «دافار» في أواخر الثمانينات[2] أنَّه في السادس عشر من تموز/ يوليو، أي في اليوم الرابع للحرب، بعث رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود أولمرت، برسالة إلى البيت

---

(١) هيرش، سالیمور، تقرير نشر في مجلة «نيويوركر الأمريكية» بتاريخ ٢٠٠٦/٨/١٢. وأعادت «السفير» نشره في ٢٠٠٦/٨/١٥، تحت عنوان: «نموذج كوسوفو في لبنان.. تمهيد إسرائيلي لحرب أمريكية على إيران».

(٢) «السفير» ٢ شباط/ فبراير ٢٠٠٧.

الأبيض تقول: «إسرائيل بحاجة من ستة إلى ثمانية أسابيع من أجل تهشيم حزب الله، وكسر شوكته، وهي تحتاج خلال هذه المهلة إلى غطاء سياسي يحبط المبادرات لوقف إطلاق النَّار، وقام الملحق العسكري في السفارة في واشنطن بتسليم رسالة مشابهة إلى وزارة الدفاع الأمريكية».

وأضاف بن يشاي: بعد التداول مع مستشاريه في الأمن القومي، وكبار المسؤولين في البنتاغون، أعطى الرئيس جورج بوش، رداً إيجابياً، وجاء في الرد السري الأمريكي الَّذي وصل إلى تل أبيب: «تنال إسرائيل الوقت الَّذي تريد، ولدى الجيش الإسرائيلي عدة أسابيع، بل وشهور لإنجاز العمل».

ونقل عن شخصيات ضليعة جداً في العلاقات الاستراتيجية بين تل أبيب وواشنطن، قولها: إنَّ المبادرة السياسية هذه من جانب أولمرت، والَّتي أثارت آمالاً عالية في الإدارة الأمريكية قادت إلى تقويض خطير في مكانة وصورة إسرائيل الاستراتيجية في نظر حليفتها الأهم، وبحجم الآمال الَّتي أثارها، كانت الخيبة والصدمة في واشنطن، وليس فقط هناك.

وتعتبر إسرائيل، المستفيد الأكبر من المساعدات الخارجية الأمريكية، فمنذ العام ١٩٨٥ تحصل سنوياً من الإدارة الأمريكية على حوالي ٣ مليارات دولار في إطار التعاون العسكري والاقتصادي، وتمثل هذه المساعدات ما تزيد نسبته على ٢٠٪ من إجمالي موازنة الحرب الإسرائيلية[١].

وخلال العقد الماضي، قامت أمريكا بتحويل أكثر من ١٧ مليار دولار على شكل مساعدات عسكرية لإسرائيل، في حين بلغت قيمة هذه المساعدات في العام ٢٠٠٥، حوالي ٢,٢٥ مليار دولار، ويلحظ مشروع

---

(١) «السفير»، عن «وورلد بوليسي انستيتوت»، ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠٦.

العام ٢٠٠٧ المقدم من إدارة الرئيس بوش، مساعدات لإسرائيل بقيمة ٢,٢٤ مليار دولار، إضافة إلى مساعدات دعم خطة التطوير العسكرية لإسرائيل.

ويلاحظ أنَّ ما حصلت عليه إسرائيل في عهد بوش، من دعم مالي لأغراض عسكرية تجاوز مجموع ما حصلت عليه من أسلحة، ففي الفترة الممتدة من ٢٠٠١ وحتى ٢٠٠٥، استفادت من مساعدات مالية قدرت بـ ١٠,٥ مليار دولار، وذلك من خلال برنامج التمويل العسكري الخارجي الَّذي تقدمه وزارة الدفاع الأمريكية، في حين بلغ إجمالي قيمة وارداتها من الأسلحة الأمريكية حوالي ٦,٣ مليارات دولار.

وتتألف الترسانة العسكرية الإسرائيلية، من معدات زودتها بها أمريكا، فعلى سبيل المثال: تمتلك إسرائيل ٢٢٦ مقاتلة من طراز «ف ـ ١٦»، كما تمتلك ٨٩ مقاتلة من طراز «ف ـ ١٥»، و٧٠٠ دبابة من طراز «أم ـ ٦٠»، فضلاً عن عدد هائل من الآليات لنقل الجنود، والمروحيات الهجومية، وطائرات النقل والمساندة والتدريب، وقذائف وصواريخ من كافة الأنواع.

كما تعتبر إسرائيل أكبر مستورد للأسلحة الأمريكية، فما بين العام ١٩٩٦ و٢٠٠٥ استوردت أسلحة ومعدات بقيمة ١٠,١٩ مليار دولار، وتشير وثائق وزارتي الخارجية والدفاع الأمريكية، أنَّ إسرائيل تلقت عام ٢٠٠٥ أسلحة ومعدات أمريكية بقيمة ٢,٧٦ مليار دولار، وتشمل الصادرات أيضاً أنظمة لزوارق المطاردة السريعة بقيمة ١٥ مليون دولار، وشراء أنظمة مراقبة وتصويب متطورة للطائرات تعمل عبر الأشعة ما تحت الحمراء وغيرها. وتقوم أمريكا كذلك، بمساعدة إسرائيل في البحوث العسكرية وتأمين قطع الغيار وتزويد الطائرات الحربية بالوقود، وزودت أمريكا إسرائيل بقنابل ذكية أثناء الحرب، وتمَّ التعاقد على شراء المزيد منها.

أ ـ تأثير اللوبي الصهيوني في الحرب:

لعب اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، ولا يزال، دوراً كبيراً في توجيه السياسة الأمريكية، بخاصة تلك المتعلقة بالصراع العربي الصهيوني، وممارسة الضغوط على الإدارات الأمريكية، لاتخاذ قرارات تنسجم مع مصالح وتوجهات إسرائيل.

واستنتج جون ميرشيمر، في محاضرة له بجامعة جورج تاون تحت عنوان «كيف تحرك اللوبي الإسرائيلي خلال أزمة لبنان»؟، إنَّ السبب وراء الدعم الأمريكي المطلق لإسرائيل، لا يتعلق بأية أسباب استراتيجية أو أخلاقية، بل إنَّه ناتج عن جهود منظمات الضغط «اللوبي» المؤيدة لإسرائيل في الولايات المتحدة، موضحاً أنَّ هذه المنظمات عملت ليلاً ونهاراً خلال الأزمة، حتَّى تضمن أنَّ السياسة الأمريكية ستطابق سياسة وأهداف إسرائيل، وفي ضوء هذه الجهود، قامت منظمات اللوبي، بإجراء مقابلات مع مسؤولين أمريكيين تحثهم على تقديم العون لإسرائيل خلال الأزمة، كما أنفق أموالاً طائلة لنشر إعلانات بأكبر الصحف الأمريكية لجذب دعم الرأي العام لسياسات إسرائيل.

وأشار ميرشيمر إلى خمسة مواقف تبرز نجاح اللوبي في التأثير على السياسة الأمريكية إزاء الحرب على لبنان:

١ ـ قبل أن يصوت الكونغرس على قرار يعلن تأييد أعضائه لإسرائيل، حاول بعض الأعضاء أن يعدلوا القرار (والَّذي أعدت صيغته الأصلية منظمة الايباك) تحث أطراف النزاع على أهمية احترام الأرواح المدنية والبنية التحتية، ولكن بعد اعتراض شديد من منظمة إيباك قامت القيادات التشريعية بالكونغرس بحذف هذا التعديل.

٢ ـ ممارسة الإرهاب الفكري، على كل من يحاول الانتقاد، أو توجيه موقف يتناقض مع التطلعات الإسرائيلية، فعندما قام عضو مجلس النواب كريس فان هولن، بإرسال خطب لرايس، يقول فيه إنَّ الهجوم الإسرائيلي على لبنان تجاوز هدف تدمير قدرات حزب الله العسكرية، وإنَّ الضحية الحقيقية لهذا الهجوم هو الشعب اللبناني وليس الحزب، وإنَّ هذه الأزمة زادت من المشاعر المعادية لأمريكا وإسرائيل في المنطقة، أثار ذلك الخطاب غضب منظمات اللوبي، معربة عن استيائها لسلوك هولن، ما اضطره إلى الاعتذار «إن بدا انتقادي لفشل إدارة بوش كانتقاد إسرائيل»، وقام على أثرها بزيارة إلى تل أبيب برفقة بعض المؤيدين لإسرائيل في دائرته، وموظف من إيباك، تكفيراً لخطيئته.

٣ ـ انتقدت منظمات اللوبي بشدة الرئيس بوش، لأنَّه حثَّ إسرائيل على ألاَّ تخاطر بأية أعمال من الممكن الإطاحة بالحكومة اللبنانية، ولم يوجه بوش أي تحذير مشابه بعد ذلك للحكومة الإسرائيلية.

٤ ـ تهديد وتوبيخ الإعلاميين والكتاب الَّذين يحاولون الكشف عن آرائهم المتعارضة مع الرؤية الصهيونية، وهذا ما اتضح من خلال ما حصل للصحفي في «الواشنطن بوست» توم ريكس، الَّذي كتب خلال الحرب، إنَّ بعض المحللين العسكريين بالولايات المتحدة قالوا له إنَّ إسرائيل تركت بعض صواريخ حزب الله عمداً، حتَّى تستمر ضربات حزب الله ضد إسرائيل، على افتراض أنَّ ذلك سيكون مبرراً لاستمرار العمليات الإسرائيلية بلبنان، وتلبية لمطالب اللوبي الغاضب، صرح رئيس التحرير التنفيذي للصحيفة، بأنَّه قال لريكس: إنَّه أخطأ في كتابة تلك المقالات، ومن ناحيته قال ريكس: تعليقاتي كانت صحيحة، أتمنى لو لم أكتبها، ومن الآن فصاعداً أعزم على أن أغلق فمي عن هذه الأمور.

٥ ـ شنت منظمات اللوبي حملة إعلامية شرسة لتشويه سمعة ومصداقية منظمتي أمنستي انترناشيونال، وهيومن رايتس واتش، بسبب تقاريرهما المنتقدة للسياسة الإسرائيلية.

وكشف عدد من الإعلاميين والخبراء الاستراتيجيين وأساتذة الجامعات، أنَّهم يتعرضون بقسوة لحملات ظالمة من اللوبي الصهيوني ومن يدور في فلكه داخل وخارج الإدارة الأمريكية، عندما يحاولون كتابة تقارير أو أبحاث أو دراسات، لا تخدم إسرائيل ومشاريعها، وأكدوا أنَّ العقوبات الَّتي تفرض عليهم في مواقع عملهم وسواها، تصل إلى حد الطرد، أو التعامل بلا مبالاة، والمنع من النشر، وكثيراً ما نضطر إلى الصمت كما حصل مع أستاذ العلاقات الدولية في جامعة هارفرد ستيفن والت.

ب ـ اعتراف أولمرت:

وفي محاولة منه للتنصل من فشل الحرب، وللنجاة بنفسه من العقاب أبلغ أولمرت ـ كما كشفت صحيفة «هآرتس» ووسائل إعلامية عدة ـ لجنة فينوغراد، في شهادته أمامها مطلع شهر شباط/ فبراير ٢٠٠٧، أنَّ قرار الحرب اتخذ قبل أربعة شهور من تنفيذه، محملاً مسؤولية الفشل إلى الإخفاقات الميدانية والموقف الأمريكي، وروي أنَّه أجرى مداولات وتقويمات للوضع في لبنان، أكثر من كل أسلافه في السنوات الأخيرة، المشاورات الأولى جرت في ٨ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٦، بعد أربعة أيَّام من تسلمه مهام شارون. وجرت مشاورات أخرى في آذار/ مارس، نيسان/ أبريل، وأيار/ مايو، وكذلك بعد اختطاف جلعاد شاليت في غزة في ٢٥ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦.

واعترف أولمرت، أنَّ الهدف السياسي للعملية العسكرية في لبنان،

كان تطبيق القرار ١٥٥٩، الَّذي دعا إلى نشر الجيش اللبناني في الجنوب، ونزع سلاح حزب الله في أيار/ مايو ٢٠٠٦.

وبرر توسيع العملية البرية في نهاية الحرب، برغبته في التأثير على المداولات في مجلس الأمن، بحيث إنَّ مسودة القرار ١٧٠١ سيتم تغييرها لصالح الموقف الإسرائيلي.

هذه الاعترافات وغيرها، كشفت بوضوح، أنَّ سبب إعلان الحرب لم يكن أسر الجنديين الإسرائيليين، كما حاولت الولايات المتحدة وإسرائيل وأطراف عربية ولبنانية، إشاعته في البداية، فالقرار متخذ منذ مدة طويلة، وتطابق ذلك مع ما كان يعلنه حزب الله، ما شكل صفعة قوية لكل الَّذين تورطوا بالاتهامات المسبقة، معترفين أنَّ أقوال أولمرت قدمت خدمة مجانية لحزب الله.

وأعربت شخصيات سياسية وعسكرية إسرائيلية بارزة، عن استغرابها ودهشتها لما ورد على لسان رئيس الوزراء الإسرائيلي، وانتقدت بشدة هذا التصرف، ولخص النائب عن الاتحاد القومي ـ المفدال اارييه الداد، الانتقادات الَّتي وجهت لأولمرت، بالقول: «لو افترضنا جدلاً أنَّ أولمرت لا يكذب، فإنَّ وضعه أخطر ألف مرَّة في ضوء هذا القول، إذا كانت هذه هي الخطة الَّتي صادق عليها من دون أن يفحص الجبهة الداخلية وقدرة الجيش على تنفيذها، فإنَّه يستحق تقديمه للمحاكمة بتهمة الإهمال الإجرامي».

ثالثاً: عملية «الوعد الصَّادق»

بعد فشل كل الجهود والوساطات الدبلوماسية والإنسانية، في معالجة ملف الأسرى والمعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية، بسبب الغطرسة والمزايدات داخل الحكومة الإسرائيلية الَّتي عطَّلت إطلاق عميد الأسرى اللبنانيين سمير القنطار ورفيقيه يحيى سكاف ونسيم نسر وآخرين، بالتصويت ١٢ ضد ١١ صوتاً، وضمهم إلى قائمة الَّذين أعيدوا للحرية في ٢٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤، لم يبق أمام حزب الله، إلاَّ وسيلة واحدة لتحريرهم، وهي تعتمد نفس الأسلوب السابق: أسر جنود إسرائيليين، لتتم صفقة تبادل مشابهة، وقد وضع الحزب القيام بهذه المهمة على رأس أولوياته في العام ٢٠٠٦، وكانت إسرائيل تعي إصرار الحزب تنفيذ ما وعد به، فاستنفرت وحداتها على طول الحدود، وبخاصة في منطقة مزارع شبعا، واتخذت إجراءات أمنية مشددة لإفشال أي محاولة في هذا الصدد، ومهَّد حزب الله للعملية بتصريحات داخل مجلس الوزراء، وعلى طاولة الحوار الوطني، وضمَّنها نص البيان الوزاري الَّذي وافق عليه جميع الأفرقاء اللبنانيين، إلاَّ أنَّ ساعة الصفر بقيت طيّ الكتمان، لاعتبارات تتعلق بالنواحي الميدانية من جهة، وبالمناخ السياسي المحلي والإقليمي والدولي من جهة ثانية، إلى أن

كان الموعد الساعة التاسعة وخمس دقائق من صباح الثاني عشر من تموز/ يوليو ٢٠٠٦، عندما فاجأت مجموعة من المقاومة اللبنانية جنوداً إسرائيليين في خلة وردة في خراج بلدة عيتا الشعب وبالقرب من بركة ريشة، بتفجير عبوة ناسفة أدَّت إلى قتل وجرح عدد من الإسرائيليين وأسر اثنين منهم، وكان إسم العملية في البداية، الحرية لسمير القنطار وإخوانه، وبما أنَّ الاسم طويل فقد استبدل بـ«الوعد الصَّادق»، واعتبر أمين عام حزب الله السيِّد حسن نصر الله، أنَّ «هذا حقّنا الطبيعي، وهو الطريق الوحيد والمنطقي الموجود، لا مجتمع دولياً يحرر، ولا مؤسسات إقليمية، ولا حكومات ولا أنظمة مع احترامنا لها، ولا مفاوضات سياسية بيد خالية، الخيار الطبيعي هو هذه الطريقة، والَّذي عنده طريق آخر لاسترداد الأسرى وإطلاق سراحهم فليدلنا عليها»[1].

كان توقيت العملية يوحي بأنَّه جاء استكمالاً لخطف المقاومة الفلسطينية جندياً إسرائيلياً في عملية جرينة ونوعية أيضاً «(كيرم شالوم»، لكن الحقيقة أنَّها جاءت في سياقها الطبيعي، وإن كانت تخدم وتدعم الشعب الفلسطيني ومقاومته، وهو يواجه هجمة إسرائيلية عسكرية عنيفة، فكلا العمليتين، أعادتا تسليط الضوء على قضية مهمة وحساسة، غفل العالم عن معالجتها بشكل جدي، ألا وهي قضية الأسرى، ومنذ تنفيذهما بدأ العالم كله يتحرك، ليس من أجل إطلاق الأسرى والمعتقلين العرب بالطبع، بل من أجل إنقاذ واستعادة الأسرى الإسرائيليين، وجاء هذا التحرك عبر الأمم المتحدة وأمينها العام كوفي أنان، ومن بعده خلفه بان كي مون والصليب الأحمر الدولي، وعبر القنوات الألمانية الَّتي أشرفت وتابعت عمليات

---

(١) نصر الله في المؤتمر الصحفي الَّذي عقده مباشرة بعد عملية الوعد الصَّادق، في مسجد الإمامين الحسنين في حارة حريك بتاريخ ١٢/ ٧/ ٢٠٠٣.

التبادل السابقة، إضافة إلى عرض قدمته إيطاليا، ودول عديدة أُخرى.

أهمية العملية، إضافة إلى هدفها الرئيسي إطلاق الأسرى والمعتقلين في السجون الإسرائيلية، أنَّها نفذت مع تقاطع أحداث ذات دلالة في العراق وفلسطين ولبنان أيضاً، فكان وقعها بالغ التأثير، وانعكاساتها قوية جداً شكلت للجانب الإسرائيلي إحراجاً، كما شكلت للولايات المتحدة مفاجأة، فيما رفعت من معنويات الفلسطينيين وأشعرتهم بأنَّهم ليسوا مستفردين، وأنَّ هناك من يقف إلى جانبهم ويساندهم.

أ ـ الرواية الإسرائيلية:

اعترفت إسرائيل بمصرع ثمانية من جنودها، وأسر جنديين وتدمير مدرعتين، وذكرت معلوماتها، إنَّ حزب الله مهَّد للعملية، بقصف عدد من المستوطنات الشمالية، لكن سرعان ما تبيَّن أنَّ كل هذا القصف لم يكن سوى عملية تمويه لأسر جنود، واستخدم الحزب قاذفات مضادة للدروع ضد ناقلتي جند مدرعتين من طراز «هامر» في منطقة زرعيت ـ عيتا الشعب على السياج الحدودي مباشرة، وكان في سيارتي الدورية جنود احتياط من اللواء الخامس، وأشارت المعلومات الإسرائيلية ـ وفقاً للتلفزيون الإسرائيلي ـ أنَّ الجنديين المصابين أبلغا عن العملية قبل أن يصل إليهما مقاتلو حزب الله ويأسروهما، وكان مقاتلو الحزب دخلوا مسافة مئتي متر وراء السياج الحدودي للوصول إلى المركبتين المعطوبتين، وقال أحد الضباط: إنَّ مقاتلي الحزب استخدموا سلماً لاجتياز السياج الإلكتروني عند العبور، وأدَّت العملية إلى سقوط ثلاثة قتلى وجريحين إسرائيليين أحدهما إصابته خطيرة ووقوع اثنين في الأسر أحدهما جندي نظامي هو سائق آلية هامر، والثاني من القوات الاحتياطية، اعتقد الجيش الإسرائيلي، أنَّ مقاتلي حزب الله استعدوا للعملية بتجهيز سيارات لحمل الجنود الأسرى والفرار

بهم، وأنَّه تمَّ العثور على جثَّة ثالث في مسار انسحاب قوَّة حزب الله في داخل الأراضي اللبنانية، حيث يبدو أنَّهم كانوا قد حملوه ثمَّ تركوه.

بعد ذلك تقرر إدخال قوات إسرائيلية إلى داخل الأراضي اللبنانية، فتقدمت دبابة «ميركافا سيمان ٢»، سبعين متراً، إلاَّ أنَّه سرعان ما تمَّ تدميرها بالكامل، جرَّاء عبوة ناسفة قدرت بنحو مئتي كلغ، وقذائف مضادة للدروع، ولقي أفراد طاقمها الأربعة حتفهم، واستمرت محاولات إخراج الدبابة من مكانها واستعادة الجثث حتَّى وقت متأخر من اللَّيل من دون جدوى، ما أدَّىٰ إلى مصرع أحد الجنود أيضاً، وحسب المصادر الإسرائيلية، فإنَّ كل الإجراءات كانت متخذة على أساس أنَّ حزب الله سيضرب في نفس المنطقة الَّتي تمَّ فيها الأسر، والجريحان تمكنا من إبلاغ قيادتهما في بيرانيت بعد ٢٠ دقيقة من وقوع العملية، ووصلت أوَّل دورية إليهما بعد عشرين دقيقة، ولم يتحرك الجيش الإسرائيلي إلاَّ بعد ٢٠ دقيقة كذلك، أي ما مجموعه ٦٠ دقيقة، وكانت هذه المدة كافية من أجل أن يسحب حزب الله الأسيرين إلى مكان بعيد[1].

ب ـ رواية حزب الله:

وروى لي أحد قادة حزب الله، تفاصيل ما حصل، كاشفاً عن أسرار تنشر للمرَّة الأولى، فقال:

حصلت عملية أسر الجنديين في خلَّة وردة، عند الطرف الغربي لبلدة عيتا الشعب، بالقرب من مستوطنة زرعيت، وكانت الدوريات الإسرائيلية نادراً ما تمر من ذلك المكان، ولكن المجاهدين ـ وحسب رصدهم ـ كانوا ينتظرونها، وقد استطاعوا بضربة واحدة أن يوقفوا سيارتين من نوع هامر، ما

(١) «السفير» ٣١ تموز/يوليو ٢٠٠٦، العدد ١٠٤٤٢ ص١٦.

يشير إلى دقة الإصابة الَّتي تحتاج إلى مهارة عالية، لأنَّ السيارتين كانتا متحركتين، وكان بإمكانهما الإفلات من الكمين، إلاَّ أنَّ سيطرة المجاهدين عليهما كان مهماً وهذه نقطة في غاية الحساسية، وهنا أصيب جنود العدو بالذهول، بحيث لم يتجرأوا على إطلاق النَّار، بعضهم تسمّر في مكانه، وبعضهم فكّر في الهرب والنجاة بالنَّفس، ولم يواجه رجال المقاومة أحد، والأهم، أنَّ قوات العدو في المواقع المحاذية، لم تتجرأ على التدخل، لم يتقدم أحد من الجنود إلى ساحة المعركة لنجدة القوَّة المستهدفة، ما فسح في المجال أمام المقاومة، في تنفيذ الكمين، وأخذ الأسيرين والإجهاز على الباقي، لم يعرف العدو أنَّ هدف العملية كان أسر الجنود، إلاَّ بعد ساعة، وكان يعتقد أنَّ ما حصل مجرد اشتباك كما يحصل في العادة، الأمر الَّذي أتاح للمقاومة أن تسحب عناصرها مع الأسيرين دون أية عوائق أو محاذير، وأنت تستطيع أن تتخيل ما معنى أنَّ العدو يتأخر لمدة ساعة حتَّى يعرف هدف العملية. وعندما تنبهوا للحقيقة، أدركوا أنَّ كل شيء سقط من أيديهم في إمكانية تدارك الوضع، لأنَّ في خطتهم التقليدية، أنَّه في حال القيام بعملية أسر، تحدث عملية تطويق للمكان، وقطع الطرقات لمحاصرة المهاجمين واستعادة أي أسير، لكن ماذا يفعل قائد الجبهة الشمالية عندما يعرف أنَّ المهاجمين غادروا مع الأسرى منذ ساعة، تخيَّل ما يمكن فعله خلال ساعة من الابتعاد عن أرض العملية.

إذن كانوا يائسين مسبقاً، ويشعرون بالهزيمة، لصعوبة تدارك ما حصل.

وهنا لا نريد أن ندخل في تفاصيل الفشل الاستخباراتي الإسرائيلي، حيث كانت المقاومة في نقطة الأسر، ترصد منذ أشهر كل تحركات الجيش الإسرائيلي دون أن تتمكن قوات الاحتلال من كشف عناصرها، وأنَّ المواقع رغم ما يوجد فيها من تكنولوجيا مكونة من رادارات للحرارة

ورادارات تعمل بالليزر لم تفعل شيئاً، وأنَّ الأسلاك الشائكة المكهربة والَّتي تعمل على التجسس، لم تكشف شيئاً، فالمقاومة كانت تتواجد هناك لمدة طويلة دون أن يشعر بها أحد، هذا فشل استخباراتي وفشل لكل التقنيات وأساليب الدفاع، كان المقاومون في مكان محاذ جداً للشريط الشائك، بحيث إنَّهم في لحظة الهجوم استطاعوا اجتياز السياج والانقضاض على الجنود، وهنا لا أريد الدخول في مزيد من التفاصيل، لكن لماذا لم يعرفوا أنَّ العملية في هذا المكان؟ فالسياج فيه تحسس، وإذا انقطع لا بدَّ أن يحددوا النقطة، إلاَّ أنَّه في نفس لحظة تنفيذ العملية تمَّ استهداف السياج في عشرات الأماكن، فضاعت كل التقديرات والحسابات، ولو افترضنا أنَّ لوحة التوجيه أعطت إنذارات بعشرات الأمكنة، فأين تكمن الحقيقة، هل يستطيع العدو أن يدرك أين وكيف؟ طبعاً لا، قد نخرج باستنتاج أنَّ هناك خللاً بكل النظام، أو يمكن أن يتم تحديد أكثر من مئة مكان، بحيث يصعب النزول لمراقبة كل هذه الأماكن. وهذه من التكتيكات الَّتي ساعدت بأن يتأخر العدو مدة ساعة كي يعرف طبيعة العملية، وعندما انتبه للموضوع، حاول بخطوة يائسة أن يدخل إلى بلدة عيتا الشعب، لتفتيش بعض المنازل، عسى أن يكون الأسرى بداخلها، لكن ما أن أطلت دبابة الميركافا من موقع الراهب باتجاه الأراضي اللبنانية، حتَّى انفجرت فيها نسفية تحت الأرض، تحتوي مئات الكليوغرامات من المواد المتفجرة، فتحولت الدبابة إلى ركام والأجساد في داخلها ذابت مع الحديد، وكان الجنود الأربعة إسرائيليين. وهنا تضاعف عدد القتلى، لأنَّ العملية عندما نفذت، قتل خلالها ٤ جنود وعدد من الجرحى، وتمَّ أسر جنديين، وداخل الدبابة تمَّ القضاء على أربعة جنود آخرين، وبذلك أكثر من عنوان للهزيمة. فاضطرت إسرائيل عندئذٍ للإعلان عن خطة تقدم للآليات باتجاه عيتا الشعب، فأدخلوا المروحيات

لقطع الطريق، لكن ذلك لم يؤثر، لأنَّ المقاومة كسبت ساعة ورتبت فيها أمورها. وأصبح همّ العدو ليس إنقاذ الأسيرين. بل سحب القتلى الجدد الَّذين يحترقون داخل دبابة الميركافا أمام عينيه وعلى مقربة ثلاثة أمتار، حاول الجنود الاقتراب من الدبابة فاستهدفتها المقاومة، وسقط بينهم إصابات مباشرة. فصار لديهم عبئاً إضافياً، وبقيت الدبابة في مكانها ولم يستطيعوا سحبها، لسحب الجثث المتفحمة من داخلها، تركتها المقاومة مصيدة لهم فكلَّما اقتربوا منها تقصفهم وتزيد نزيفاً إلى جروحهم.

ومن الأشياء اللافتة في هذه العملية، أنَّ الإسرائيلي لم يعرف من هم الأسرى، لم يعرف أسماءهم وهوياتهم إلاَّ بعد أيَّام، كان في حالة ضياع، بين معرفة هوية القتيل والأسير، كانت لديه جثث لكنَّها مهترئة، فهو لم يعرف من هو الأسير ومن هو القتيل، وهذه بحدِّ ذاتها فضيحة، فكيف تتصور معنوية قيادة الجيش عندما تعرف أنَّ هوية الأسير حسب إعلانها كانت خاطئة، فالجثة المتفحمة اعتقدوا أنَّها تابعة لأسير، وكانت النتيجة عكس ذلك، هذا ما يمكن الكشف عنه حتَّى الآن حول العملية، وهي تدلُّ على فشل مطبق في منع المقاومة من تنفيذ مهمتها، وكل إجراءات الاحتلال كانت خاطئة، بينما كان أسلوب وتكتيك ومعلومات المقاومة متفوقة.

وكشفت مصادر أخرى في الحزب، أنَّ التخطيط للعملية بدأ منذ مطلع العام ٢٠٠٦، إلاَّ أنَّ ساعة الصفر، لم تتخذ إلاَّ قبل ثلاثة أيَّام من التنفيذ، عندما تمَّ نشر قوَّة خاصة من الإسناد الناري في القطاع الغربي من جنوب لبنان، وكان من أهم عوامل نجاح المهمة هو السرية، حيث باغت مقاتلو الحزب الجنود الإسرائيليين في ناقلتي جند من نوع «هامر»، وجرى اشتباك وجهاً لوجه، ما أسفر عن مقتل ثلاثة جنود وأسر اثنين آخرين، وعندما توغلت دورية إسرائيلية داخل الأراضي اللبنانية تمَّ تدميرها وقتل من بداخلها

وهم ٤ جنود، كما قتل جندي آخر عندما حاول الاحتلال سحب الناقلتين.

ج ـ الأبعاد والدلالات:

ثبَّتت عملية الأسر الناجحة، جملة من الأبعاد والدلالات: الميدانية، السياسية، النفسية، والاستراتيجية، ولم تقتصر آثارها على لبنان وإسرائيل فحسب، إنَّما على الوضع في الشرق الأوسط كله، الَّذي يخوض حروباً وصراعات، تحاول أن ترسي أسساً جديدة لمعالم واقع سياسي ـ جغرافي ـ أمني ـ اقتصادي مختلف، العملية لا يمكن فصلها عن مسار ما سبقها وتبعها من معطيات، جاءت في مرحلة بالغة الحساسية لتوجه رسائل إلى غير جهة، وتحاول أن تصوّب رؤى، وتعلن عن وجود قوى وحسابات يصعب تخطيها، أو تجاهلها، ويمكن تلخيص هذه الأبعاد والدلالات بشكل مكثف على النحو التالي:

١ ـ أكدت المقاومة اللبنانية أنَّها رقم صعب، وهي ليست ميليشيا، إنَّما حركة وطنية تحررية، تضع نصب عينيها أهدافاً واضحة، تنبع من قناعتها وإيمانها، بأنَّ الاحتلال إلى زوال، وتحرير الأرض والإنسان واستعادة كل الحقوق المغتصبة، رسالة شرعية، وطنية، قومية وإنسانية، وأنَّها لن تتخلى عن هذه الأهداف بأي ثمن، واستعادة الأسرى لها الأولوية، بعد تحرير أجزاء واسعة من الجنوب والبقاع الغربي، تليها عملية تحرير بقية الأرض.

٢ ـ أوضحت العملية، أهمية الاحتفاظ بالسلاح، كوسيلة تحرير وإنقاذ، وليس لأي دور آخر، كما يحاول البعض أن يشيع، أو يشهِّر، فبهذا السلاح يمكن استرجاع كل ما فشلت وتفشل في استرجاعه القنوات الدبلوماسية، بخاصة من قوَّة كإسرائيل لا تؤمن إلا بحوار النَّار، استناداً إلى

ما تملكه من ترسانة عسكرية متطورة ومتقدمة مدها بها الغرب، لتكون صاحبة الربط والنهي في المنطقة.

٣ ـ وجهت للداخل اللبناني، وتحديداً للقوى الَّتي تطالب بتجريد المقاومة من سلاحها، أنَّ هذا السلاح، هو بخدمة لبنان واللبنانيين، وليس ضدهم، وهو القوَّة الَّتي يمكن أن تصون وتحمي هذا البلد، من أي عدوان، سواء ضد الأرض أو الأفراد، أو ضد المؤسسات، والورقة الَّتي تساعد لبنان على تحقيق مطالبه في السيادة والاستقلال والحرية، وتعيد الأسرى والأرض، وتحمي المياه، وتوقف العدوان والانتهاكات اليومية، وتطمئن المزارعين للعمل في بلداتهم وقراهم. بعيداً عن الخوف من التهجير والخطف والإذلال، وتثبت النَّاس في أرضهم.

٤ ـ رفعت العملية المعنويات لدى معظم اللبنانيين، وبخاصة لدى عائلات الأسرى والمعتقلين، وأشعرتهم بالطمأنينة والأمان، بأنَّ أبناءهم سيعودون إليهم بعد طول اعتقال، وأنَّ هناك من يطالب بهم ويسعى إلى تحريرهم.

٥ ـ أعادت الثقة إلى المعتقلين والأسرى اللبنانيين والفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية، بأنَّ عودتهم إلى أهلهم وذويهم باتت مسألة وقت، وهم كانوا يدركون بأنَّ الطريق لهم نحو النُّور لن يتأتى إلاَّ بهذا الأسلوب، لأنَّهم أكثر من يعرف إسرائيل وأساليبها وإرهابها، وتجاهلها لكل القوانين والأعراف والمواثيق الدولية والإنسانية، وممارسات السجون خير دليل على ذلك.

اتضح لإسرائيل ـ وبالتجربة الملموسة ـ أنَّ نموذج المقاومة اللبنانية، في معالجة الملفات الصعبة والمصيرية، جدي وصارم وحاسم، ولا ينفع

معه التسويف والمماطلة والترويع والتهديد، أو التجاهل، أو الضغوط عبر القنوات العسكرية أو الدبلوماسية.

٧ ـ خلقت نوعاً من السجال المتوتر داخل الكيان الإسرائيلي، وبخاصة داخل صفوف الحكومة والأحزاب، واتهام المسؤولين بعضهم لبعض بالتقصير وسوء إدارة ملف التبادل، رغم مضي سنوات عليه أو التأكيد بأنَّه لو تمَّ إطلاق الأسرى اللبنانيين في السابق لما وصلت الأمور إلى هذا المأزق الَّذي وصلت إليه بعد عملية الأسر الأخيرة.

٨ ـ ازدياد النقد من قبل عائلات الأسرى الإسرائيليين لحكومتهم، وتضامن عائلات سبق أن تعرضوا لنفس آلامها الموجعة من قبل معهم والتشديد على ضرورة توقيع صفقة التبادل سريعاً.

٩ ـ اتهام المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، بعد انتشار معلومات شاملة عن العملية، بالعجز والفشل، ومطالبة قادتها بالاستقالة والذهاب إلى منازلهم، وتوجيه لوم ونقد شديدين إلى الأجهزة الأمنية، الَّتي فشلت في كشف وإحباط العملية، على الرغم من قناعة الجميع بأنَّ حزب الله بصدد عمل ما ضد الجنود والدوريات والمواقع الأمامية، بخاصة أنَّ العملية جاءت بعد عملية مشابهة في «كيرم شالوم» بغزة، فبدت وكأنَّ هناك رابطاً ما بين العمليتين، وأنَّ المدرسة اللبنانية بهذا الشأن بدأت تعمم في فلسطين، وربَّما تنتشر دروسها في مناطق أُخرى.

١٠ ـ جاءت العملية وسط إرباكات ومشاكل وأزمات إسرائيلية معقدة، فعمقت الخلافات، ووضعت الحكومة أمام خيارات صعبة ووضعت إسرائيل أمام العالم على حقيقتها، وهي تخوض عدواناً واسع النطاق ضد مدن وقرى ومزارع فلسطين، تقتل وتدمر بلا هوادة، فجميع الدول أدركت

أنَّ المعالجات لكل مشاكل المنطقة ينبع من حل القضية الأساس، وهي قضية فلسطين، وهذا ما لم تكن تتمناه الحكومة الإسرائيلية ولا الولايات المتحدة بأي شكل من الأشكال.

١١ ـ فتحت العملية كل الملفات في المنطقة، وإنْ بأشكال متفاوتة، من العراق إلى فلسطين، إلى لبنان، إلى سوريا الجولان، إلى أفغانستان، إلى إيران، بسبب تداخلها في آن، فالقوَّة لا يمكن مواجهتها إلاَّ بالقوَّة، وفشل الدبلوماسية، يقابله اللجوء إلى وسائل أُخرى.

١٢ ـ تحريك الشارع العربي، حيث أعرب عن ابتهاجه وسروره لنجاح المقاومة في لبنان في عملية أسر الجنديين، والتضامن معها، والتمسك بخيارها، وتأييد طرحها، ما ترك تداعيات في غاية الأهمية على مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي، ورفض التطبيع مع الاحتلال والضغط على النظام العربي الرسمي لقطع العلاقات معه، والاستعداد لمواجهته واقتلاعه.

رابعاً: مراحل الحرب واستهدافاتها

مرت الحرب بمحطات مفصلية عدَّة، توضحت فيها الكثير من الحقائق الميدانيَّة، وقوى التسليح ومستوى التدريب لدى طرفي الحرب من جهة، وموازين القوى العسكرية المستجدة في المنطقة من جهة أخرى.

لم تكن أهداف هذه الحرب من قبل إسرائيل خافية على أحد، إذ اعتاد المتابعون ـ من خلال سلسلة طويلة من التجارب السابقة ـ فهم التركيبة السياسية والعسكرية والنفسية الإسرائيلية، والأساليب والمفاهيم التقليدية في اتخاذ القرارات وتحديد الأهداف، كلها كانت تقوم على غطرسة القوَّة، واعتبار الطرف الآخر غير ذي مستوى ميداني، إضافة إلى الطمأنينة الَّتي لا تتمتع بها أي دولة في العالم، لجهة الحماية الأمريكية والدولية لها، عندما تتعرض لخطر داهم، أو هزيمة محققة، على الصعيدين السياسي والعسكري.

وكان حزب الله من جهته مستعداً لكل الاحتمالات وأصعبها وأطولها، فأخذت الحرب طابعاً مختلفاً عن كل الحروب السابقة، بكلّ تفاصيلها وتشعباتها: الميدانيَّة، السياسيَّة، الاقتصاديَّة، الاجتماعيَّة العمرانيَّة، والإنسانية وغيرها.

وسنعرض بما توافرت لدينا من معلومات ومصادر، كيفية تعامل إسرائيل وحزب الله مع هذه الحرب، وما تخللها من مواقف واشتباكات، ورسم خطط، وما تمَّ تطبيقه أو الفشل في تحقيقه.

أ ـ إسرائيل أمام اختبار جديد:

أحدثت عملية خطف الجنديين، صدمة صاعقة للحكومة وللمؤسسة العسكرية الإسرائيلية في آن، وظهر ذلك من خلال حالة التأزم الشديد الَّتي بدت على التصريحات والمواقف المتسرعة والمتشنجة، وبعد اجتماعات أمنية مكثفة، عقدت الحكومة الإسرائيلية اجتماعاً طارئاً استجابة لتوصية أمريكية فوَّضت فيه طاقماً وزارياً مؤلفاً من رئيس الحكومة ووزراء الدفاع والخارجية والأمن الداخلي والمالية ووزير التعاون الإقليمي، بترجمة القرارات الَّتي تمَّ التوافق حولها، تتمثل بشن حرب لا هوادة فيها ضد حزب الله، وسحق قدراته العسكرية، و«تنظيف» الجنوب اللبناني من تواجده، واستهداف شخصيات بارزة فيه، وتدمير بناه التحتية. استنفرت كل المواقع والوزارات، لأي تطور أو رد فعل محتمل من حزب الله. واعتبرت أنَّ العملية، خلقت واقعاً جديداً ومركباً يلزم التعامل معه، والهجوم كما الهجوم في كيرم شالوم (بغزة) مصدرهما مصنع منتجي الإرهاب ورعاته»، ولذلك لا بدَّ من الرد بشدَّة ضد صانعي العملية والمسؤولين عنها، وإحباط كل المساعي والنشاطات الموجهة ضد إسرائيل.

حاولت الحكومة الإسرائيلية امتصاص النقمة الداخلية، والانتقادات الحادة الموجهة إليها، بسبب فشلها العسكري المدوي في الحيلولة دون أسر الجنديين وأعلن عدد من القادة العسكريين السابقين، أنَّ نجاح المقاومة في هذه العملية، أدَّى إلى إرساء وضع مختلف على الأرض، أساسه التعاون

الاستراتيجي بين حزب الله والمقاومة الفلسطينية، وفتح جبهتين في مواجهة إسرائيل، واعتبروا أنَّ نبرة أولمرت العالية، محاولة لإخفاء الفشل الاستخباراتي والعملاتي، وطلبوا أن يكون الهجوم مؤلماً جداً.

لكن بعض القادة السياسيين والعسكريين الإسرائيليين الآخرين، الَّذين قرأوا الواقع الميداني بدقة، وكانوا على دراية بكل الأجواء المحيطة بالعملية، نبهوا أصحاب الأصوات المرتفعة إلى خفضها لتجنب الفجوة بين الأقوال والأفعال، وأعلن الجنرال دان روتشيلد في برنامج تلفزيوني «أنَّ بيتنا من زجاج ويجب الكف عن رشق الآخرين بالحجارة».

قررت الحكومة، بناء على المناخ الداخلي الضاغط، تنفيذ عملية على مراحل، تبدأ بالغارات الجوية على عدد من الأهداف التابعة لحزب الله والبنى التحتية، مع عملية برية محدودة لسحب الدبابة المحترقة وجثث الجنود الأربعة المتفحمة بداخلها، بانتظار معرفة ردّ حزب الله المتوقع أن يكون قوياً، ودعت سكان المستوطنات إلى النزول إلى الملاجىء، وعمَّمت ذلك على وسط إسرائيل.

كان في اعتقاد الحكومة الإسرائيلية أنَّ الحرب لن تستغرق وقتاً طويلاً، ربَّما تحتاج ٣ أيَّام، أو أسبوعاً، يتم بعدها اجتياح الجنوب، كما حصل في أعوام ١٩٧٨ و١٩٨٢، لفرض أمر واقع جديد، يتم بموجبه نشر الجيش اللبناني على الحدود، وتطبيق القرار ١٥٥٩، ونزع سلاح حزب الله بالقوَّة، وأعلن أولمرت: «إنَّ جهات في الشمال والجنوب، تحاول وضع إسرائيل أمام امتحان، وهم سيفشلون في ذلك، وسيدفعون ثمن أفعالهم، مشدداً على أنَّ الأحداث ليست مجرد هجمة إرهابية، وإنَّما هي عمل من جانب دولة سيادية، اعتدت على إسرائيل من دون سبب أو استفزاز، وحكومة لبنان وحزب الله جزء منها تحاول تقويض الاستقرار الإقليمي، ولبنان هو

المسؤول وهو من سيتحمل عواقب أفعاله، إنَّ هذا عمل حربي»[1].

وأغلق أولمرت أذنيه تماماً، عن الاستماع لأي نصيحة، مصراً على اتباع النموذج الإسرائيلي في غزة مع لبنان، عبر التدمير الشامل، وخالفه الكثيرون في إسرائيل على سلوك هذا الطريق، لأنَّ لبنان ليس غزة، والمقارنة غير دقيقة، والحرب وفق هذه النظرة ستكون مكلفة جداً، إلاَّ أنَّ رئيس الحكومة الإسرائيلية القادم على صهوة المشروع الشاروني، والَّذي كان يبحث عن أي إنجاز يسوّق به نفسه في الداخل والخارج، أفصح أنَّه سيشن حرب «الجزاء المناسب» بلا تردد، معتبراً «أنَّ إسرائيل ومواطنيها أمام اختبار، وسبق لهم أن اجتازوا امتحانات صعبة، بل أصعب، أشد تعقيداً من هذه، ونحن دولة إسرائيل، سنعرف كيف نتغلب الآن أيضاً على من يحاولون المس بنا».

وأمر بتنفيذ سلسلة عمليات شديدة في لبنان، والاستعداد «بشكل مناسب ضد سوريا». على أن تكون هذه العملية بالغة الإيلام، رافضاً التفاوض عبر قنوات غير مباشرة مع «إرهابيين» لإطلاق سراح الجنديين، محملاً الحكومة اللبنانية كل ما يترتب عمَّا سيحصل، لأنَّها سمحت لحزب الله العمل بحرية، ورأى أنَّه حر في اتخاذ كل التدابير لتوجيه الجيش كي يتصرف وفق هذه الرؤية.

وجارى وزير الدفاع عمير بيرتس رئيسه، بتصعيد تهديداته، مشدداً على أنَّ الهدف هو أن تنتهي المعركة في وضع يضرب فيه حزب الله، «الدرجة يتأسف بعدها على اللحظة الَّتي بدأ فيها العملية»[2].

---

(١) السفير، ١٣/٧/٢٠٠٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

نصح أمين عام حزب الله السيِّد حسن نصر الله، رئيس الحكومة الإسرائيلية بالاتعاظ ممَّا حدث في السابق، وطلب منه ـ بصفته قليل الخبرة والدراية بالمواجهات ـ أن يسأل رؤساء حكوماته السابقين ووزراء الحرب، علهم يفيدونه بأن ما يمكن أن يقدم عليه سيؤدِّي به إلى الندم والخيبة. حذره من اللعب في النَّار مع حزب الله، لأنَّ خسارته ستكون قاسية، وحدد موقفه بالتالي:

«الرِّسالة واضحة، إنَّنا جاهزون للذهاب بعيداً، وإنَّ ضبط النَّفس الَّذي تمارسه المقاومة حتَّى الآن ليس ضعفاً ولا تردداً، وما نقوله هو التالي: هؤلاء الأسرى الموجودون عندنا لن يعودوا إلاَّ بوسيلة واحدة: التفاوض غير المباشر والتبادل» مشدداً على أنَّ «استعادة الأسيرين بعملية عسكرية وهم وهم.. وهم حتَّى ينقطع النَّفس»[1].

لم يكن نصر الله يمارس تهويلاً نفسياً على أولمرت، بل كان صادقاً وواضحاً فيما يقول، وهذا ما أثبتته الوقائع الميدانيَّة في ما بعد، ومنذ اللحظة الأُولى للعملية اتخذ كل الاحتياطات، وأعلن استنفاره في كل المواقع لمحاربة العدوان، انتقلت كل المقرات القيادية، إلى أماكن سرية، ونزل كل قادة وكوادر الحزب الأساسيين تحت الأرض، استعداداً لإدارة المعركة الَّتي شعروا بأنَّها مفروضة وقادمة لا محالة.

١ ــ مواقف مشجعة للحرب:

كان أولمرت قبل إعلان ساعة الصفر للهجوم، مرتاحاً لكثرة التقارير والمعلومات، الَّتي أوحت له بأنَّ الولايات المتحدة وأوروبا، والبلدان

---

(١) نصر الله، في مؤتمر صحفي عقده في مسجد الإمامين الحسنين، في منطقة حارة حريك، بضاحية بيروت الجنوبية، بتاريخ ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦.

العربية، والعديد من الدول الإسلامية، والحكومة اللبنانية، تشجع هذه الحرب، وتتراوح مواقفها بين المؤيد بلا تحفظ، وبين صامت وداعم ضمنياً، وبين عدم معترض. وظن أنَّه بهذا التأييد والتشجيع الَّذي قلَّ نظيره في كلّ الحروب الإسرائيلية السابقة، سيكون الميدان مفتوحاً أمامه أيَّاماً وأسابيع وربَّما شهوراً، دون أن يواجه أي ضغط أو احتجاج أو استنكار.

وقد وصفت الولايات المتحدة الأمريكية، الشريك والمحرِّض على الحرب ـ على لسان المتحدث باسم مجلس الأمن القومي فريدريك جونز عملية أسر الجنديين بـ«الاستفزازية»، وطالبت بالإفراج الفوري وغير المشروط عنهما، محملة إيران وسوريا المسؤولية، باعتبارهما يدعمان حزب الله، وحثَّت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندااليسا رايس، زعماء المنطقة، إلى الاقتداء بالموقف الأمريكي، وتوجيه اللوم إلى حزب الله، لأنَّ العملية تهدد السلم والاستقرار في المنطقة، ورأى المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية شون ماكورماك، أنَّ من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها، موحياً لها بالموافقة على إطلاق حملتها العسكرية بدون أي مشاعر قلق أو هواجس.

في الجانب العربي، كان الموقف السعودي ـ المصري ـ الأردني، مستهجناً تماماً، عندما صنَّف عملية المقاومة بأنَّها «مغامرة غير محسوبة»، وهاجم عمليات المقاومة في فلسطين أيضاً، وبدا أنَّه غير معترض، بل موافق صراحة على إنهاء قوَّة الحزب.

أمَّا في لبنان، فقد وصف عدد من السياسيين داخل الحكومة، وأحزاب من فريق ١٤ آذار/ مارس، أنَّ ما قام به حزب الله، تفرّد ومغامرة والتوقيت لم يكن مناسباً لأنَّه مضرّ بالموسم السياحي وبالاقتصاد، وبرأت الحكومة اللبنانية نفسها، على لسان رئيسها فؤاد السنيورة، من هذه العملية، قائلة:

إنَّها لا تتبنى ما حصل على الحدود، ولم تكن على علم به، وفي المقابل رحبت سوريا وإيران بما أسمته «العملية الموفقة لحزب الله».

وعلى عكس الموقف الرسمي العربي، كان موقف الشارع العربي والإسلامي، مؤيداً ومشجعاً لحزب الله، عبَّر عن مشاعره هذه بالمسيرات الَّتي جابت الشوارع، وباللافتات، وبرفع صور أمين عام الحزب السيِّد حسن نصر الله.

وكانت أكثر ملامح الابتهاج وضوحاً تلك الَّتي تجلت في فلسطين، واعتبرت المقاومة الفلسطينية، أنَّ أسر الجنديين، دعم واستكمال لأسر الجندي الإسرائيلي في غزة، وهذا الخيار هو الوحيد الَّذي يمكن أن يعيد الأسرى اللبنانيين والفلسطينيين من السجون الإسرائيلية، واعتبر الشعب الفلسطيني العملية، إنجازاً كبيراً، ودعماً له ولقضيته، ولفت أنظار العالم إلى موضوع الأسرى، كقضية إنسانية وسياسية وقانونية، يتم تجاهلها.

أ ـ الأهداف العسكرية الإسرائيلية:

حددت الحكومة الإسرائيلية أهداف حملتها عسكرياً على النحو التالي:

١ ـ ضرب حزب الله، وتدمير بنيته العسكرية بالكامل.

٢ ـ قتل واغتيال القيادات الرئيسة، وإرباك صفوف الحزب وتشتيت طاقاته وقدراته القتالية.

٣ ـ إبعاد خطر شبح صواريخ الكاتيوشا عن المستوطنات الإسرائيلية إلى ما وراء نهر الليطاني، وتدمير منصاتها.

٤ ـ تدمير مقرات ومؤسسات وتجمعات حزب الله، في الجنوب والبقاع، وضاحية بيروت الجنوبية، وإنهاء ما يُسمَّى «بالمربع الأمني»

واستهداف منازل قيادات وكوادر الحزب، وفي مقدمتها منزل الأمين العام السيِّد نصر الله.

٥ ـ تدمير الأنفاق والملاجىء الَّتي يمكن أن تتواجد فيها قيادات أو عناصر حزبية.

٦ ـ منع وصول أي إمدادات عسكرية أو تموينية لمواقع وعناصر حزب الله، وقصف كل الشاحنات العاملة في لبنان.

٧ ـ عدم التردد في توجيه ضربات مؤلمة للجيش اللبناني، إذا حاول مساندة المقاومة، أو القيام بأي عمل دفاعي.

٨ ـ خطف قيادات أو عناصر من حزب الله، لرفع معنويات الجنود الإسرائيليين، وللتأثير السلبي على نفوس مقاتلي الحزب.

٩ ـ نشر قوات متعددة الجنسيات على طول الحدود، مهمتها حماية إسرائيل.

ب ـ الأهداف المدنية:

وضعت آلة الحرب العسكرية أهدافاً مدنية لها كالتالي:

ـ تدمير البنى التحتية على نطاق واسع، تعيد لبنان عشرات السنين إلى الوراء.

ـ ضرب المطار وشل حركته، وتعطيل الموانئ البحرية، وإعلان حصار شامل جوي وبحري وبري حول لبنان، لممارسة الضغط على الحكومة، للرضوخ لإملاءاتها وشروطها.

ـ تدمير القرى والبلدات الَّتي يتواجد فيها أو حولها المقاومون، ونسف المنازل وتفريغها من سكانها، وتهجير كل سكان الجنوب باتجاه بقية المناطق اللبنانية.

ـ تدمير المنشآت الصناعية والتجارية، والمؤسسات، وخزانات الوقود، والمحطات، وتدمير الجسور والطرق الرئيسية والفرعية، لشل الحركة من وإلى الجنوب والبقاع.

ـ تهجير السياح والمصطافين العرب والأجانب.

ـ منع وصول المساعدات الغذائية والصحية من الخارج إلى اللبنانيين.

ـ ضرب الاقتصاد اللبناني وركائزه، وقطع الطريق أمام الاستثمارات الأجنبية فيه.

ج ـ الأهداف السياسية:

تنوعت الأهداف السياسية، بما يخدم الخطة الإسرائيلية على النحو التالي:

ـ الضغط على الحكومة اللبنانية، لتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، وقد دعت إسرائيل إلى ذلك مراراً، معلنة مد يدها إلى السنيورة، والرغبة في لقائه في أي مكان وزمان يحددهما.

ـ تقليب الرأي العام اللبناني ضد حزب الله، باعتباره لا يجلب لهم إلاَّ الدمار والخراب.

ـ محاولة النيل من تأييد جماهير المقاومة لحزب الله، لرفض أسلوبه، والتراجع عن مساندته ودعمه.

ـ نشر الجيش اللبناني في الجنوب.

ـ دعم قوى ١٤ آذار/ مارس للهيمنة على السلطة، والسير بالبلاد بما يخدم المشروع الأمريكي الإسرائيلي في المنطقة.

ـ إشاعة أجواء الإحباط لدى المراهنين على خط المقاومة، لبنانياً عربياً ودولياً.

ـ توجيه رسائل للمقاومتين الفلسطينية والعراقية، على أنَّها ستلقى المصير ذاته، من القتل والدمار، إذا لم تتوقف عن أدائها.

ـ إلزام لبنان بتطبيق القرار ١٥٥٩ بكل بنوده، بما يخدم ما أسمته «تغيير قواعد اللعبة» وإنهاء سلاح المقاومة.

ـ تشويه صورة المقاومة، من خلال حملات إعلامية منظمة، ومدفوعة الأجر سلفاً..

٢ ـ إسرائيل بين الاندفاع والتحذير:

كانت إسرائيل تقيس خطواتها العسكرية والدبلوماسية، في هذه الحرب، حسب النتائج الميدانية اليومية، بدايةً رفعت سقف مطالبها وشروطها، معلنةً أنَّها لن تسمح لحزب الله بالعودة إلى مواقعه على الحدود لمسافة كيلومتر، وإفساح المجال للجيش اللبناني للانتشار على طول الخط الأزرق، ولتحقيق ذلك أفرطت في استخدام القوَّة ضد المدنيين والمنشآت والجسور والطرق، ما دفع الكثير من الدول إلى التحذير من مغبة هذا العمل، بخاصة أنَّ واشنطن كانت حريصة على عدم إلحاق الأذى بالحكومة اللبنانية أو إسقاطها باعتبارها «إنجازاً» أمريكياً في المنطقة، وشجعت على استمرار ضرب حزب الله، ولم تمانع أن تطال الضربات دمشق.

ويبدو أنَّ نشوة القصف الجوي، وتدمير الجسور والبنى التحتية، دفع بعض القيادات العسكرية الإسرائيلية إلى التفاؤل بإمكانية الإجهاز على صواريخ حزب الله خلال أيَّام قليلة، ولا مبرر لإخلاء المستوطنات الشمالية، لأنَّ اجتثاث الخطر بات وشيكاً، واتخذت الحكومة الإسرائيلية

قراراً بقصف مطار بيروت، لتشديد الحصار، والتهديد بأنَّ هذا الحصار لن يرفع إلاَّ بشروط أبرزها: نشر الجيش بالجنوب، وإعادة الأسيرين الإسرائيليين إلى ذويهم، وبسط الدولة اللبنانية سيادتها على كل شبر من لبنان.

سيفر بلوتسكر حذَّر في صحيفة «يديعوت أحرونوت» من أنَّ زعيمي حزب الله وحماس إذا خرجا منتصرين من المواجهة، فسيبدأ العدّ التنازلي للمشروع الصهيوني برمته، وتساءل عن ماهية الحرب المعلنة: هل هي حرب استنزاف طويلة المدى لتحطيم السلطة الفلسطينية وحكومة لبنان، أم تركيع منظمتي الإرهاب على ركبتيهما ودفعهما للتذلل لوقف النَّار من موقع الضعف؟ واعتبر أنَّ الهدف الأول ممكن لكنَّه غير مرغوب فيه، فيما أنَّ الهدف الثاني مرغوب فيه وغير ممكن فـ«الضربات القاتلة لمنظمة إرهابية لا تضعفها دوماً، بل أحياناً تقوّيها». وأشار إلى أنَّ أساليب الضغط المتدحرج جربت في الماضي ولم تكن مجدية، ورأى أنَّ أولمرت تورط في حرب عسيرة على جبهتين، بينما شعبيته في الحضيض وخبرته متدنية في رأي مواطنيه، والتلويح بالسيوف اللفظية لن يرمم الخبرة، مثلما لم يرمم قدرة الردع، وكلَّما تعمقت الفجوة بين التبجح والفعل، سينكشف البطن الطري لإسرائيل[1].

وحذر الكثير من المعلقين والاستراتيجيين الإسرائيليين، من الخطوات الناقصة للحكومة الإسرائيلية، وبقدر ما شجعوا الحكومة على توجيه ضربة مؤلمة لحزب الله، تخوفوا من ضربات موجعة في المقابل، تطال المستوطنين والبنى التحتية في كافة المدن والبلدات في إسرائيل كما تخوفوا

---

(١) موسى، حلمي، السفير ١٤/٧/٢٠٠٦، ص١٤.

من أن تفلت الأمور عن السيطرة وتتطور المواجهات كما حصل في السنوات السابقة في الجنوب، ما أدّى إلى الانسحاب وانتصار حزب الله، وحذروا كذلك من التورط في ضرب سوريا، لأنّه سيوسع المواجهة ويلحق خسائر فادحة في إسرائيل، وبالتالي فإنّ ضربة من هذا النوع ستكون إعلاناً لحرب لا يقبلها العالم الآن، ولسنا مستعدين لها».

ودعا قائد الجبهة الشمالية الأسبق والنائب السابق لرئيس الموساد الجنرال «عميرام ليفين»، إلى عدم المبالغة في إسرائيل بتحقيق انتصار، والاكتفاء بالقول إنّ مهمة الجيش هي «عقابية» مع تحديد سقفها الزمني، وإعلان توقفها بعد ذلك، لتبدأ مرحلة الضغوط السياسية، وفجأة تبدلت لهجة رئيس الأركان دان حلوتس الّذي لفت إلى أنّ حملته باتت تُسمّى «تغيير الوجهة» معترفاً بعد ٤٨ ساعة من الحرب عدم فعالية العمل العسكري، طلب من الإسرائيليين الصبر، في إشارة إلى الخوف من التورط مجدداً في الوحل اللبناني، بخاصة أنّه اكتشف عدم إمكانية القضاء على حزب الله أو منعه من إطلاق الصواريخ، وشكل هذا الدليل، أنّ المقاومة تمكنت من صد كل الهجمات بنجاح، وأوقعت بقوات الغزو خسائر فادحة بشرية ومادية ومعنوية، وبدأ الحزب في إظهار بعض المفاجآت الّتي أعلنها، عندما دمر بصواريخ حديثة أهم بارجة عسكرية «حانيت» المتطورة الّتي كانت تقصف ضاحية بيروت الجنوبية، أمام شواطىء بيروت، وتتغنى بها البحرية الإسرائيلية، أتبعها السيّد نصر الله برسالته الّتي أعلنها عبر محطة «المنار» بتاريخ ١٤/٧/٢٠٠٦:

«أنتم أردتم حرباً مفتوحة، نحن ذاهبون إلى الحرب المفتوحة ومستعدون لها، حرباً على كل صعيد، إلى حيفا، وصدقوني إلى ما بعد بعد حيفا، الّذي سيدفع الثمن ليس وحدنا».

٢ ــ خلافات وتباينات المجلس المصغر:

وبعد مرور ساعات على الغارات والقصف، شعرت القيادتان السياسية والعسكرية في إسرائيل، أنَّ حساباتهما كانت خاطئة تماماً. إنَّهما أمام معادلة جديدة، فتواضعت لهجة التصريحات والأهداف الَّتي أعلنت مع بداية الحرب، غابت التهديدات بالإجهاز على حزب الله وتدمير لبنان، وحلت مكانها لغة أكثر اعتدالاً، مصحوبة بشروط ذات سقف منخفض جداً، واعتبر أولمرت أنَّ هدف الحرب الأساس هو تنفيذ القرار الدولي الرقم ١٥٥٩، وأبلغ أمين عام الأُمم المتحدة كوفي أنان، استعداده لاستقبال البعثة الَّتي أرسلها لمناقشة الوضع وعودة الجنديين دون قيد أو شرط.

أمَّا وزير الدفاع الإسرائيلي بيرتس، فحدد غاية العملية، بإبعاد حزب الله إلى شمال نهر الليطاني وإنهاء خطر الصواريخ، وأكد أنَّ الهدف الأقصى هو القرار ١٥٥٩، ولم ير رئيس الأركان دان حالوتس، سبباً لأن يقفز السوريون في بركة يمكن أن يغرقوا فيها»، وأضاف في مؤتمر صحفي بتل أبيب: على اللبنانيين أن يفهموا أنَّهم «ابتلعوا سرطاناً وعليهم أن يتقيؤوه»، واعترف أنَّ لدى حزب الله صواريخ بعيدة المدى، وقد استخدموا حتَّى اليوم صواريخ يبلغ مداها ٣٠ كيلومتراً، لكن لديه صواريخ تصل إلى ٧٠ كيلومتراً وربَّما أكثر من ذلك بقليل وخاطب الجمهور الإسرائيلي:

«إنَّ ٦٠ ساعة انقضت منذ الحادث و٤٨ ساعة مرَّت منذ بدء الهجوم الإسرائيلي، نحن لا ندعي أنَّنا من الفعالية بحيث نغير وجه الأُمور في ٤٨ ساعة، لذلك فإنَّني أنتظر أن نتحلى بالصبر، كي نرى النتائج بدلاً من أن يحققوا هم الهدف الَّذي خرجنا لهذه المعركة من أجل إحباطه، ومن الصعب لي أن أقيم كل الآثار المترتبة على عمليتنا، وأنا أقول من الآن: إنَّه

ليس بوسعنا منع إطلاق الصواريخ بشكل تام، ولكن بوسعنا تقليص حجمها بسيرورة تراكمية مع مرور الوقت[1].

تخوف أولمرت من الوصول إلى حرب استنزاف طويلة، لأنَّه يدرك من أنَّ جيشه وواقعه السياسي لا يتحملان ذلك، فلجأ إلى استخدام الحرب النفسية علَّه يحقق شيئاً، وأعلن أنَّه يمد يده للحكومة اللبنانية لتشكيل حلف ضد أحلاف «الإرهابيين»، وشدد أمام الكنيست في ١٧ تموز/ يوليو، أي في اليوم الخامس للحرب: «إنَّ إسرائيل لم تسع إلى هذه المواجهات، بل على العكس بذلنا الكثير من أجل منع حدوثها، عدنا إلى حدود دولة إسرائيل الَّتي تعترف بها الأسرة الدولية، وكان هناك من فسَّر رغبتنا بالسلام لنا ولجيراننا بأنَّها إشارة ضعف، لقد أخطأ أعداؤنا بظنّهم أنَّ استعدادنا لضبط النَّفس هو دليل ضعف، لقد أخطأوا».

وحدد مطالبه مجدداً بـ: عودة «الرهينتين» والوقف الكامل لإطلاق النَّار، ونشر الجيش اللبناني في الجنوب، ونزع سلاح حزب الله وفق القرار ١٥٥٩، متمنياً أن ينشأ تحالف عالمي لفائدة متبادلة للشعبين اللبناني والإسرائيلي على الحدود المشتركة، معتبراً أنَّ المعركة الَّتي يخوضها هي ضد «الإرهابيين» في لبنان وغزة، وهذه المنظمات «ليست سوى مقاول فرعي تعمل بإلهام ومصادقة، بتشجيع وتمويل من أنظمة راعية للإرهاب وتعارض السلام، في محور الشر الممتد من طهران إلى دمشق».

وهدد بأنَّه سيضرب وسيقصف وسيدمر، إلى أن ينفذ حزب الله وحركة حماس ما هو مطلوب منهما من «المتحضرين» حسب قوله، متمنياً إيجاد تسوية لكن دون التنازل عن «حقنا في العيش هنا في وطننا بأمن وسلام»،

---

(١) السفير، ٢٠٠٦/٧/١٥.

مؤكداً أنَّه ذاهب إلى حرب «لا يسعى إليها إنَّما لا يخشاها».

مع استمرار المواجهات، وازدياد حجم الخسائر في صفوف الجيش الإسرائيلي، أحس القادة العسكريون والسياسيون أنَّهم أمام مأزق كبير، وتباينت المواقف في المجلس الوزاري المصغر الَّذي عقدوه في ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٦، حول خطوات الحرب التالية، بعض الوزراء طالب بتوسيع نطاق الهجوم، وآخر عارض، وثالث دعا إلى استدعاء الاحتياط لضخ دم إضافي للفرق البرية، بينما رأى رابع بالعمل لوقف القتال، وخامس قال بالانسحاب وتحديد مطالب عامة تفتح الباب أمام المساعي الدبلوماسية للتقليل من وقع الهزيمة، وزير الأمن الداخلي آفي ديختر، لم يؤيد عملية واسعة في لبنان، ودعا إلى الالتزام بالعمل الميداني وفق الخط المرسوم والمحافظة على أهداف الحكومة وهي: ضمان منطقة أمنية عازلة قرب الحدود لوقف إطلاق الكاتيوشا، وتحرير المخطوفين وتنفيذ الـ ١٥٥٩.

وشدد وزير العدل جاييم رامون، على الغارات الجوية والقصف المدفعي، تمهيداً لإدخال قوات برية قليلة، بينما طالب زعيم حزب شاس إيلي يشاي باستكمال تدمير البنى التحتية، وقطع الأوكسجين في بيروت، مقابل قطع الكهرباء في حيفا، وأيد الوزير بنيامين بن اليعزر توسيع الهجوم البري، لكن الوزراء: رامون ويشاي وشاؤول موفاز عارضوا ذلك.

واستحوذت نقطة استدعاء فرق الاحتياط للخدمة، جدلاً واسعاً، البعض تخوف من أنَّ الزج بهذه المجموعات سوف يلحق المزيد من الخسائر البشرية في صفوف الجيش، لأنَّ هذه العناصر غير مدربة تدريباً قتالياً جيداً، لخوض معارك مع مقاتلين مدربين ومجهزين وعقيديين كحزب الله، إلاَّ أنَّ الرأي الَّذي أقر أخيراً هو تطعيم الجيش بعناصر الاحتياط، وتوافق الوزراء والعسكريون، أنَّ سلاح الجو وحده لم يكن كافياً لوقف

صواريخ المقاومة، والمعركة البرية لا بدَّ منها لدفع خطر هذه الصواريخ إلى الوراء، وإيجاد منطقة عازلة، وهنا اختلفت الآراء، البعض اكتفى بأن تكون هذه المنطقة جنوب الليطاني، والبعض الآخر دعا إلى توسيعها لتصل إلى نهر الأولي، إلاَّ أنَّ غالبية القادة العسكريين والَّذين لمسوا ضراوة المواجهة، عارضوا أي خطوة تتجاوز حدود الليطاني.

واعترضت الجميع مشكلة أدوات تنفيذ هذه المعركة، وهي أساساً مكونة من قوات المشاة المؤللة من ألوية المظليين وجيفعاتي وغولاني وكتائب الإسناد الخاصة، وهي قليلة الخبرة، وانحصرت معاركها في غزة والضفة الغربية حيث كان يميزها التفوق التسليحي هناك، وهذا لن ينجح في مواجهة حزب الله، لذا بدأت الحرب برياً بنيران جوية كثيفة وجس نبض بري محدود للخطوط الأمامية، وكشفت التقارير أنَّ النتيجة كانت مأساوية للجيش الإسرائيلي، إذ تحولت دبابات الميركافا «سيمان ٣» و«سيمان ٤» مصائد لصواريخ حزب الله، دمرت وأحرقت طواقمها بالكامل، فقررت القيادة العسكرية إرسال ألوية ايغوز وماغلان للمعركة، ففشلت المحاولة مرة أخرى، وزادت القيادة من إعداد الفرق العسكرية المؤللة، في مناطق قتالية محددة، علها تحسم معارك جزئية تعيد الثقة للجنود المنكسرين، إلاَّ أنَّ ذلك لم يتحقق، وكانت الخسائر الإسرائيلية تزيد القيادتين السياسية والعسكرية شعوراً بالتورط غير المسؤول، واعترفتا بأنَّ قتال المقاومين اللبنانيين فاجأهم، سواء بالمستوى القتالي أو مستوى الصمود أو على مستوى الأسلحة والتدريب، ما أربك كل الخطط العسكرية الإسرائيلية، ودفع قادة الألوية إلى إعادة النظر بتكتيكاتهم وسلوكهم العسكري، فغيروا أداءهم من تقدم المدرعات والآليات الثقيلة وجنود المشاة، إلى استخدام المشاة لتأمين الطرقات لحركة المدرعات، وكان السبب هو العبوات الضخمة الَّتي كان

يزرعها حزب الله، ولا تتحمل أثرها أية مدرعة، وكذلك الصواريخ المضادة للدروع من طرازي «كورنيت» و«ميتيس»، ولتخفيف الضغط وإعادة بعض التوازن إلى المعركة البرية، رأت القيادة العسكرية بضرورة استدعاء ٣٠ ألف جندي، لإسناد الفرقتين الموجودتين على الخطوط الأمامية، لكن هذا لم يخف قلق الجيش الإسرائيلي من أنَّه في وضع لا يحسد عليه، ولا بدَّ من البحث عن مخارج سريعة، وعرضت قيادة الجيش على الحكومة احتمالاً من اثنين: إمَّا وقف فوري لإطلاق النَّار، أو خوض حرب كسر عظم مهما كانت النتائج ضد لبنان وسوريا معاً، وكان الرأي الغالب يميل نحو حل وسطي، يتمثل بهجوم بري كاسح يبعد حزب الله إلى شمال الليطاني، على أنَّ الخطة التنفيذية تستوجب شهرين، هذا العرض لم يلق استجابة، فبيرتس رفض التوسع في البر، وشمعون بيريز حذر من نفاد الوقت وكبر الأعباء، داعياً إلى وقف القتال والدخول في مفاوضات لإطلاق الأسرى، أو شن حرب واسعة بكل الإمكانات العسكرية ضد حزب الله، كان وزير الأمن الداخلي هو الوحيد الَّذي طالب باحتكاك عنيف ومحدود مع سوريا، بهدف إرسال رسالة إليها وليس لشن حرب ضدها، ووصف وزير الدفاع، الحرب القائمة، بأنَّها «حرب الضائقتين»، مشيراً إلى أنَّ لا مجال لقبول عودة حزب الله للجلوس على السياج الحدودي قبالة إسرائيل، واعترض أنَّ الخسائر في بنت جبيل كانت كبيرة لكنَّها «لن تضعف عزيمتنا، فمسموح لنا أن نتألم ولكن محظور علينا أن ننهار، مسموح لنا الحزن ومحظور التراجع»[1].

وأعلن أنَّ جيشه سيواصل هجومه في الجو والبحر والبر، رافضاً كل انتقادات العالم الَّتي أدانت الإفراط في استخدام القوَّة واستهداف المدنيين،

---

(١) يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان ٢٠٠٦، النصر المخضب، السفير والمركز العربي للمعلومات.

وحذر سوريا من الانجرار إلى الأزمة، لأنَّ الهدف هو إبعاد رايات حزب الله عن أسوار الحدود وليس فتح جبهة مع سوريا.

وفي الحادي عشر من آب/ أغسطس، قرر رئيس الحكومة ووزير الدفاع في إسرائيل استخدام تفويض المجلس الوزاري المصغر بخوض الحرب البرية، رغم يقينهما من الثمن الغالي الَّذي سيدفعه الجيش، كررا المطالبة بإعادة الجنديين الأسيرين، وتجريد حزب الله من سلاحه، وإدخال قوَّة دولية قادرة على منع الحزب من الدخول إلى جنوب نهر الليطاني، وفرض حظر وصول السلاح إليه وإلى المنظمات «الإرهابية» الأخرى، لكن أولمرت طلب قبل البدء بإطلاق صفارة الانطلاق استنفاذ كل الوسائل الدبلوماسية، إلاَّ أنَّ ضباط الجيش مارسوا عليه ضغوطاً هائلة، لإجباره على إعطاء الإذن بالهجوم البري الواسع، محمّلينه مسؤولية إباحة دماء الجنود في الميدان إذا تلكأ، وإلحاق هزيمة غير مسبوقة بالجيش، واعتبر بيرتس «أنَّ القضية الآن أصبحت قضية حياة أو موت».

رأى الكثير من المراقبين والإعلاميين أنَّ أولمرت اضطر للموافقة مرغماً، وأعطى الأوامر وهو غير مقتنع، وظل متمسكاً بخيار العمل السياسي للتوصل إلى عرض مقبول لوقف القتال حتَّى اللحظة الأخيرة، وأكدوا أنَّ أسباب تعديل موقفه جاء بعد نشر استطلاعات الرأي الَّتي كشفت تدني شعبيته، وتقلص ثقة المستوطنين بجيشهم.

وهدفت خطة الاجتياح البري، الوصول إلى نهر الليطاني والتصادم مع عناصر حزب الله المنتشر هناك، والقضاء عليها، وإبعاد خطر راجمات الصواريخ، واعتبرت الخطة أنَّ المشكلة الأساس الَّتي تواجه المستوطنات، هي صواريخ الكاتيوشا قصيرة المدى من عيار ١٢٢ ملم، والَّتي يبلغ مداها

٢٤ كيلومتراً، ولذلك فإنَّ السيطرة على منطقة إطلاق هذه الصواريخ سيحرر ٧٠٪ من المستوطنات من أخطار الصواريخ.

وأعطيت أوامر الهجوم عند الساعة السادسة والثلث من مساء ١١/ ٨/ ٢٠٠٦، بعد أن رفض أولمرت طلب وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليسا رايس وقف العملية، وإفساح المجال للحل السياسي، وكشفت وسائل الإعلام الإسرائيلية، أنَّ وزارة الدفاع وقيادة الجيش، عارضتا كل المشاريع الَّتي عرضت لوقف إطلاق النَّار الَّتي عرضتها الولايات المتحدة وفرنسا، باعتبار أنَّ الاستجابة لوقف القتال دون تحقيق نصر عسكري واضح، يشكل هزيمة معنوية كبيرة للجيش الإسرائيلي، ثمَّ إنَّ أي إنجاز ميداني سيحسن من شروط التفاوض لإسرائيل، ويجعلها قادرة على فرض مطالبها. وعارض أولمرت التعديلات اللبنانية وقبول واشنطن وباريس بها، والَّتي تتعلق بتفويض القوَّة الدولية وحجمها، ورفض الإشارة إلى موضوع مزارع شبعا في أي قرار، مؤكداً أنَّ أي ذكر لهذا الموضوع يعتبر انتصاراً لحزب الله، لكنَّه لم يغلق الباب في التفاوض مع سوريا، ولبنان لاحقاً حول هذه النقطة. وأعربت إسرائيل عن انزعاجها لأنَّ القوَّة الدولية المعززة المقترحة للانتشار في جنوب لبنان، لن تعمل في إطار الفصل السابع الَّذي يمنحها صلاحيات حربية.

٤ ــ مرارة أمريكية ــ إسرائيلية:

أصيبت أمريكا بصدمة كبيرة لتدني المستوى القتالي للجيش الإسرائيلي منحته وقتاً أطول ممَّا هو متفق عليه، وقدَّمت له كل ما طلبه من أسلحة وذخائر وقنابل محرَّمة دولياً، وكبَّلت أيدي وألسن دول العالم لمدَّة تجاوزت شهراً لمنعها من الاعتراض أو التدخل، ورغم ذلك لم يحقق هذا الجيش ما وعد به، فيما عززت المواجهات موقع حزب الله بين جمهوره في لبنان

والعالمين العربي والإسلامي، فحاولت واشنطن إعطاء إسرائيل مكاسب عن طريق إصدا ر قرار دولي لصالحها، فشلت عن تحقيقها ميدانياً، فكان القرار الَّذي صدر بإجماع أعضاء مجلس الأمن الرقم ١٧٠١، وتلقفت الحكومة الإسرائيلية هذا القرار باعتباره جاء إنقاذياً وفي الوقت المناسب، فالجيش الإسرائيلي بات منهكاً، والمستوطنات ترزح تحت أعباء نار المقاومة، وكذلك بقية المدن والبلدات والقرى، الَّتي شهدت انهماراً لآلاف الصواريخ عليها، وأعلنت الحكومة موافقتها على القرار والالتزام بمضمونه وأوحى لأعضاء الحكومة والجمهور، أنَّ القرار سوف يفكك حزب الله، ويجرده من سلاحه ويبعده عن الجنوب، والتعامل من الآن فصاعداً سيكون مع الحكومة اللبنانية، ولن تكون هناك عودة إلى الوراء، ستكون منطقة منزوعة السلاح، لن تبقى فيها قوَّة غير الجيش اللبناني، وهذه الأجواء ستوفر ظروفاً أفضل لإطلاق الجنديين الأسيرين، إلاَّ أنَّ أولمرت تراجع عن موقفه السابق برفض التفاوض من أجل تبادل الأسرى، وصار مستعداً لإطلاق سمير القنطار ورفاقه والأسرى الجدد الَّذين أسروا في عمليات الوحدات الخاصة.

وأعرب بيرتس عن شعوره بالمرارة لما آلت إليه الحرب، معترفاً بأنَّ الحرب كشفت أموراً كثيرة باتت تحتاج إلى فحص جديد، سواء في ما يتعلق بالجيش أو بالجبهة الداخلية الإسرائيلية، مشدداً على أنَّ تعزيز قوَّة الحكومة اللبنانية يخدم مصالح إسرائيل، وتباينت ردود أفعال الوزراء والسياسيين الآخرين والعسكريين والمحللين الاستراتيجيين والإعلاميين الإسرائيليين حول القرار ١٧٠١، فبعضهم لم يره مرضياً لأنَّه لم يؤد إلى نزع سلاح حزب الله، فأي دولة تتعرض لسقوط ٤ آلاف صاروخ على مواطنيها ما كانت لتقبل صيغة اتفاق كهذا مشكوك في إمكان تطبيقه، فيما اعتبره البعض الآخر أنَّه

سيقود إلى تغيير قواعد اللعبة، ثمَّ إنَّه لا يوجد جيش في العالم قادر على نزع سلاح حزب الله بالقوَّة، إذ أظهر مقاتلو الحزب في الميدان، أنَّهم من خيرة المقاتلين المدربين والجاهزين لصد أي هجوم.

وما أن توقف القتال، حتَّى ارتفعت أصوات النقد اللاذع ضد الحكومة والقيادة العسكرية، وطالبتهم بالرحيل فوراً، ومحاكمة المقصرين، ودعت إلى تشكيل لجنة تحقيق لمعرفة أسباب الإخفاقات وحجمها، وسوف نتناول انعكاسات الحرب بالتفصيل على إسرائيل في فصل خاص، لما كان لها من أثر على كل الصعد والمستويات، إلاَّ أنَّ الجامع لكل المواقف الإسرائيلية ولاستطلاعات الرأي الَّتي تلت الحرب، أنَّ أداء الجيش الإسرائيلي لم يكن موفقاً، وأنَّه فشل أمام حزب الله، وأنَّ النظرة إلى هذا الجيش تغيرت بحيث ازدادت مخاوف الإسرائيليين من المستقبل، وتمتد نظرة القلق إلى الأمريكيين الَّذين ساهموا في هذه الحرب.

ووفقاً لما ذكرته صحيفة «نيويورك تايمز» عندما أكدت أنَّ إدارة الرئيس بوش، عجلت إرسال صواريخ موجهة بالليزر إلى إسرائيل قادرة على اختراق أهداف عميقة تحت الأرض، وذلك بعد أن طلبت تل أبيب شحنة عاجلة عقب بدء حربها التدميرية على لبنان، ونقلت عن مسؤولين أمريكيين أنَّ شحنة الأسلحة تمَّت بسرعة بعد مناقشات بسيطة داخل الإدارة الأمريكية، وقال هؤلاء: إنَّ الصواريخ هي جزء من صفقة أسلحة سرية تقدر قيمتها بملايين الدولارات، تمَّ إبرامها في العام ٢٠٠٥، وتتيح لإسرائيل طلب الأسلحة وقت ما تريد. وذكرت الصحيفة، أنَّ الصفقة الَّتي أبرمت تخول إسرائيل شراء نحو ١٠٠ صاروخ «دجي بي يو ٢٨» تزن ٢٢٦٨ كيلوغراماً ومصممة لتدمير التحصينات، كما تنص الصفقة على شراء إسرائيل صواريخ موجهة بالأقمار الاصطناعية، لكن رغم ذلك كله، باءت حملة إسرائيل بالفشل.

٥ ـــ ارتكاب المجازر:

لجأت إسرائيل إلى الضغط على المقاومة من خلال استهداف المدنيين، بعد أن شعرت أنَّ الوضع بدأ يفلت من يدها ميدانياً، وكل حساباتها ورهاناتها لم تكن دقيقة، فارتكبت مجزرة بشعة في بلدة مروحين الجنوبية ذهب ضحيتها عشرون مواطناً معظمهم من الأطفال والنِّساء، على مرأى من قوات الطوارىء الدولية، وتنقلت بعدها المجازر إلى البقاع وطريق بيروت ليرتفع العدد في الأيَّام الثلاثة الأولى إلى ١١٠ شهداء و٢٥٠ جريحاً، مع مواصلة الطيران الحربي تدميره للبنى التحتية ونسف الجسور لتقطيع الأوصال بين القرى والبلدات ومنع وصول الدعم العسكري والتمويني للمقاتلين في الجنوب، وفي هذه اللحظات، بدأت المواقف الرسمية اللبنانية والعربية وبعض الدولية والإقليمية، تتغير لجهة المطالبة بوقف إطلاق النَّار وتجنيب المدنيين للمخاطر، وتبادل الأسرى، وهو ما يشير بوضوح إلى أنَّ المعركة لم تعد توحي بإمكانية تحقيق أي هدف من الأهداف المعلنة.

واعتقدت إسرائيل أنَّ الاستمرار في الهروب إلى الأمام يمكن أن يعطيها شيئاً، فاستهدفت ثكنة عسكرية لبنانية بخمسة صواريخ في اليوم الخامس للعدوان، في منطقة الجمهور أدَّت إلى استشهاد وجرح عدد من العسكريين اللبنانيين، فيما كانت مدينة صور وجوارها تلملم الجراح حيث سقط ٤٧ شهيداً مدنياً و٩٠ جريحاً، وألحقت بمجازر أُخرى في الحوش، برج رحال وياطر (١٦ شهيداً وأكثر من ٢٠ جريحاً).

واستهدفت حافلة ركاب قرب الرميلة ما أدَّى إلى سقوط ١٢ شهيداً بالقنابل الكيماوية اختفت رؤوس وأطراف بعضهم في ٢٠٠٦/٧/١٧، وفي الرميلة سقطت شهيدة و٦ جرحى، وفي اليوم الثامن للحرب، اتسعت رقعة

المجازر من صريفا الَّتي دمَّر فيها حي بكامله على رؤوس الأطفال والنِّساء والشيوخ، إلى النبطية وسلعا وعيناتا ورميش ودبين والنبي شيت إلى قوافل النازحين، ما رفع عدد شهداء الأسبوع الأول إلى ٣٠٠ شهيد وألف جريح، وبعد أن تطورت المواجهة، وارتفعت حصيلة القتلى الإسرائيليين في اليوم السابع عشر للمعركة، ارتكبت إسرائيل أربع مجازر في حداثا (٦ شهداء من عائلة واحدة دمر منزلهم بغارة جوية)، وفي كفر جوز (٣ شهداء) وفي ياطر (استشهاد ٤ مواطنين) وفي بلدة دير قانون النهر (٣ مواطنين)، وفي اليوم التالي ارتكبت إسرائيل مجزرة في عين عرب فاستشهد ٦ مواطنين بتدمير المنازل فوق رؤوسهم، وأُخرى في النميرية (مقتل أم وأطفالها الستة وصديق أطفالها)، وفي اليوم التاسع عشر تكررت مجزرة قانا، الَّتي ذهب ضحيتها أكثر من ٥٠ شهيداً وجريحاً غالبيتهم من الأطفال والنِّساء، الأمر الَّذي وضع المجتمع الدولي أمام أزمة ضمير، فطالبت بعض الدول إسرائيل بوقف مثل هذه الأعمال الإجرامية، إلاَّ أنَّها رفضت، مستندة إلى الدعم الأمريكي المفتوح، وأصرت على متابعة جرائمها، لعلَّها تحقق بعض المكاسب السياسية. وفي اليوم الحادي والعشرين من الحرب، ارتفع عدد الشُّهداء المدنيين إلى ٨٢٨ والجرحى إلى ٣٢٠٠[1]، وامتدت يد الموت إلى بعلبك، ثمَّ القاع في البقاع الشمالي حيث تكررت «قانا الثانية، فالطيبة في الجنوب، حيث سقط المزيد من الشُّهداء والجرحى، وفي اليوم السابع والعشرين، حصدت الغارات الجوية، عشرات الشُّهداء وأكثر من ٢٠٠ جريح في الشياح، الغازية والغسانية، وقد أحصي في الشياح وحدها ٥٦ شهيداً. وقبل وقف العمليات الحربية بيوم واحد، وصل جنون القتل الإسرائيلي حده الأقصى، وكان أبرزها في بريتال قضاء بعلبك، فأحصي سقوط أكثر من ٤٠

---

(١) تقرير الهيئة العليا للإغاثة ١ آب/أغسطس ٢٠٠٦.

شهيداً وجريحاً، واستشهاد ٦ مدنيين بينهم ثلاثة أطفال في البرج الشمالي، وثلاثة في بلدة جبشيت، وثلاثة في بلدة شعث، وثلاثة في بلدة علي النهري، واثنان في قليا وبعلبك، وواحد في قعقعية الجسر، وسقط في عيترون ٣٨ شهيداً بينهم ١١ طفلاً إضافة إلى عشرات الجرحى.

هذا على الصعيد البشري، أمَّا على صعيد استهدافات البنى التحتية، فكان حجم الدمار كبيراً جداً.

ولم تكتف إسرائيل بهذا الانتقام، فألقت في اليوم الأخير من عدوانها أكثر من مليوني قذيفة عنقودية فوق القرى والحقول، ما تسببت بمزيد من القتل والخراب، وحرمان المزارعين من جني محاصيلهم.

خامساً: أداء حزب الله

قدَّم حزب الله في إدارته للمعركة، بشقها: الميداني، السياسي، الإنساني، الاجتماعي، والإعلامي، نماذج ناجحة، ساعدته على الصمود والانتصار، وكشفت أنَّ تحضيراته وتجهيزاته لمثل هذه الأيَّام الصعبة والمصيرية، كانت كبيرة وجدية، وأنَّه منذ دحره الاحتلال في العام ٢٠٠٠، كان يحصِّن ويستعد ويؤسس ويتسلح ويتدرب ويحشد، ليكون قادراً ليس على التصدي فحسب، بل وعلى الهجوم المضاد أيضاً، وبفضل ذلك تمكن من امتصاص الصدمات سريعاً، وارتد ليكون ندّاً في بعض الاشتباكات، ومتفوقاً في بعضها الآخر.

أ ـ المواجهات الميدانية:

أثبت حزب الله، في ساحة المواجهة، بخاصة البرية منها، أنَّه صاحب القرار، فالأرض أرضه، والشعب قاعدته المساندة، وركائزه قوية ومحصَّنة ومتينة، وسلاحه حديث ومتطور، فاجأ به الإسرائيليين وغيرهم، وقتاله احترافي، وتدريبه عال، ومناقبيته وأخلاقيات تعامله راقية، والدلائل الَّتي سنعرضها بهذا الخصوص كثيرة.

التجربة القتالية، سأفرد لها فصلاً كاملاً، أفسح فيه للقادة الأمنيين

والمقاتلين، الَّذين خاضوها، رواية التفاصيل والوقائع، وسرد الكثير من القصص والمعلومات، إلاَّ أنَّني أود أن أسجل أبرز المحطات الَّتي قلبت كلّ الموازين لصالح المقاومة:

١ ـ ركز المقاومون على قصف المواقع العسكرية، في محاولة إفهام الجيش الإسرائيلي أنَّ المواجهة يجب أن تكون عسكرية، ولا بدَّ من تحييد الطرف المدني، وإذا لم يرتدع، وأصر على توسيع الدائرة، فلتتحمل إسرائيل النتائج والحصاد المرّ، فقصفت المقاومة مراكز ومواقع وتجمعات الاحتلال العسكرية، وكان ردها ـ في البداية ـ مقتصراً على مستوى العدوان وطبيعته، وعندما استهدفت الغارات الجوية الإسرائيلية الجسور وبعض البلدات والقرى في الجنوب، قصفت المقاومة بصواريخ الكاتيوشا، العديد من المستوطنات الشمالية، وصولاً إلى صفد، موقعة في اليومين الأولين ١٥٠ إصابة في صفوف الإسرائيليين.

٢ ـ قوبل التصعيد الإسرائيلي على ضاحية بيروت الجنوبية، واستهداف مراكز ومنازل قادة حزب الله والمدنيين، برد عنيف على مدينة حيفا، والتحذير من أنَّ استهداف بيروت سيقابله استهداف لتل أبيب.

٣ ـ تمثَّلت مفاجأة المقاومة، بإطلاق صاروخ «ساعر» على إحدى البوارج الإسرائيلية، الأكثر تحديثاً وتطوراً، وتدعى «حانيت» فتمَّ تدميرها، وقتل وجرح عدد من أطقمها، وأصابت لاحقاً زورقاً من نوع سوبر ديفورا مقابل شاطىء المنصوري، فشلَّت الذراع البحرية، وانكفأت إلى عمق البحر.

٤ ـ إدخال طبريا على خط المواجهة للمرة الأُولى، اعتبر نقلة نوعية في المواجهات، ما اضطر آلاف الإسرائيليين إلى النزول إلى الملاجىء بشكل غير مسبوق.

٥ ـ استهداف المرابض المدفعية الإسرائيلية في الجولان السوري المحتل، كان رسالة واضحة إلى إمكان توسيع نطاق القتال، والتلويح بأنَّ ورقة الجولان دخلت في السجال الناري، تركز القصف على قيادة المدرعات في «يوهتان» وقاعدة «يوآف» المدفعية، ووصل الرد إلى محطة القطارات في حيفا، والبلدات الواقعة جنوبها، حيث سقطت الصواريخ على مقربة من العفولة والناصرة، وابعليا وجفعات إيلا.

٦ ـ دخول صواريخ من طراز «رعد ٢» و«رعد ٣» إلى لبنان، واستهدفت صليات عدَّة منها، عكا وحيفا، ومقر قيادة المنطقة الشمالية للجيش الإسرائيلي في منطقة صفد، ومقر قيادة العمليات الجوية في مستعمرة ميرون، والقاعدة الرئيسية لسلاح الجو في رامات دافيد الَّتي تبعد ٥٠ كلم عن الحدود مع لبنان.

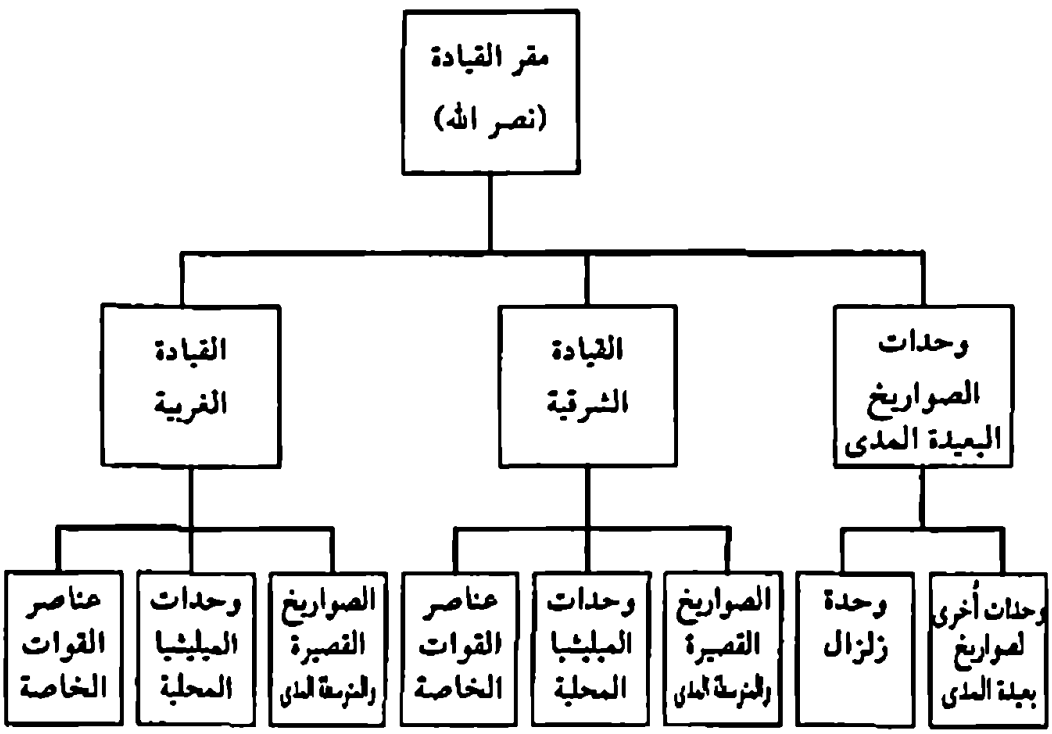
٧ ـ إسقاط وتحطيم ٥ مروحيات في مارون الراس، وتلة مريمين غرب بلدة ياطر، وإسقاط طائرة تجسس من نوع «أم. ك» في منطقة جبل الباروك.

٨ ـ إطلاق صاروخ «خيبر واحد» للمرة الأُولى، على مدينة العفولة، وكان لإطلاقه معانٍ عسكرية ومعنوية وعقيدية (نسبة للمعركة الشهيرة الَّتي خاضها المسلمون ضد اليهود)، ووصلت الصواريخ إلى منطقة بيسان الَّتي تبعد ٧٠ كلم عن الحدود وإلى مدينة الخضيرة الَّتي تبعد ٧٥ كلم عن لبنان والَّتي تفصلها ٢٥ كلم عن تل أبيب.

٩ ـ إصابة كيبوتس كفار جلعادي، الَّذي كان يستخدم كمركز لانطلاق القوات الإسرائيلية، فقتل أكثر من ١٢ ضابطاً وجندياً وأصيب ١٨ آخرون بينهم العميد غاي تسور قائد الفرقة ١٦٢.

١٠ ـ مجازر الدبابات الإسرائيلية، وسقوط العشرات من القتلى والجرحى الإسرائيليين في المواجهات البرية، كانت أبرز أوجه المعركة على الإطلاق، حيث أكدت المقاومة سيطرتها على الأرض تماماً، ومنعت الاحتلال من التقدم واقتحام القرى والبلدات الأمامية، وحوَّلت الجنوب إلى مقبرة واسعة للجنود الإسرائيليين، ففي مواجهات سهل الخيام ـ وحسب الاعترافات الإسرائيلية ـ قتل ١٨ ضابطاً وجندياً وتمَّ تدمير ١٥ دبابة من نوع «ميركافا»، ونجحت المقاومة في تحويل وادي الحجير إلى محرقة دبابات كبرى، فدمِّرت أكثر من ٣٩ دبابة وجرَّافة عسكرية، وقتل ما يزيد عن ٢٩ جندياً وجرح أكثر من ١١٠ آخرين.

تقدير لهيكلية القيادة العسكرية في حزب الله أثناء الحرب.



صواريخ حزب الله:

مصدر الإمداد	وزن رؤوسها	مداها	النظام
إيران	600ك	210 كلم	زلزال ـ 2
إيران	(10) 250/ (6) 1,300ك	140 ـ 100 كلم	نازعات
إيران	45ك	43 كلم	فجر 3
إيران	90ك	75 كلم	فجر 5
سورية	100ك	75 كلم	302م.م
سورية	؟	70 كلم	220م.م
إيران/ سورية	30ك	20 كلم	122م.م
إيران/ سورية	؟	6 كلم	107م.م

أسلحة حزب الله المضادة للدبابات:

نظام التوجيه	الاختراق	المدى	النظام
ليزر	1,200 ـ 1,100م.م	3,5م	كورنت/أ ت ـ 14
سلكي	800م.م	75م	كونكورس/أ ت ـ 5
سلكي	850 ـ 460م.م	80م إلى 1,5 كلم	متيس/أ ت ـ 13
سلكي	200م.م	3 كلم	سيجر/أ ت ـ 3
سلكي	400م.م	70م إلى 2 كلم	فاجوت/أ ت ـ 4
سلكي	352م.م	2,000 ـ 400م	ميلان
سلكي	800م.م	3,700 ـ 600م	تاو
يدوي	750م.م	460م	أر بي جي ـ 29
يدوي	330م.م	500م	أر بي جي ـ 7

المصدر: مركز واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، عن «محاور استراتيجية».

١١ ـ إفشال محاولة إنزال إسرائيلية في منطقة بوداي ببعلبك، كانت ترمي إلى خطف أحد قادة حزب الله البارزين، بعد وقف العمليات الحربية.

١٢ ـ تدمير منازل ومنشآت حيوية، وإحراق مستودعات ومحلات تجارية وصناعية، وسيارات، وحقول زراعية.

وكنت ألمس من خلال لقاءاتي وحواراتي، مع عدد من المسؤولين السياسيين في حزب الله، أثناء اشتداد المعارك، أن المسار العام للقتال يتجه لصالح المقاومة، بدليل ما كشفوه عن استعدادات وفهم عميق لمجريات الأحداث في لبنان والمنطقة.

ب ـ نصر الله يضع النقاط على الحروف:

قاد أمين عام حزب الله السيِّد حسن نصر الله المعركة باحتراف، كان يتابع الوضع الميداني لحظة بلحظة من مكان سرِّي، يرصد ردود الأفعال ويتفاعل معها، ويرسم الخطط ويعطي التعليمات وفقاً لرؤية ومنهجية سياسية عقيدية وعسكرية واضحة، يخاطب المقاتلين والنَّاس والقوى السياسية عبر وسائل الإعلام المرئية وكأنَّه بينهم، لتوضيح معالم الصورة بكلِّ تفاصيلها وظلالها، يبعث الرسائل السياسية والبرقيات الجوابية في كل اتجاه، ويخاطب القيادات والجمهور الإسرائيلي الَّذي كان يعرف أنَّه يستمع إليه، وكان يوزع اهتماماته حيث تقتضي الضرورة، وكأنَّه ليس محاصراً، لا أحد يعرف كيف يتحرك أو لحظة إطلالاته، وكان الجميع من سياسيين وإعلاميين ومراقبين وأمنيين، يتابعون ما يقوله بدقة، ويعكفون على تحليله، ويطلقون المواقف على أساسه.

كان نصر الله قائداً بكلِّ معنى الكلمة، والتاريخ لا بدَّ أن ينصفه رغم محاولات التشويه والتضليل الَّتي يتعرَّض لها، ويمكن استخلاص ذلك، من

خلال سرده للوقائع اليومية، منذ بدء إعلان الحرب حتّى وقف العمليات الحربية.

اعتبر نصر الله، أنَّ عملية الأسر الَّتي حصلت هي كعملية غزة، هدفها وضع العالم كله أمام مسؤوليته تجاه معاناة آلاف المعتقلين اللبنانيين والفلسطينيين والعرب، وقال في مؤتمره الصحفي بعد العملية في ١٢/ ٧/ ٢٠٠٦: نحن لم نفاجئ أحداً لأنَّنا منذ أكثر من عام كنَّا نقول إنَّ هذه السنة سنأتي بأسرى ونريد أن نطلق سراح الأسرى والمعتقلين. وأكد أنَّه لو جاء الكون كله لاسترداد الأسرى الإسرائيليين فلن يتمكن إلاَّ بالتفاوض غير المباشر، ورأى أنَّ كل الضغوط الَّتي يقوم بها السفير الأمريكي في لبنان جيفري فيلتمان، ومبعوث الأمين العام للأُمم المتحدة في لبنان غير بيدرسون والسفارات الأجنبية هي مجرد «تهبيط حيطان» اعتدنا عليها منذ العام ٢٠٠٠.

واعترف أنَّ حزب الله عندما ذهب لتنفيذ عملية الأسر، لم يكن يقصد استدراج إسرائيل للحرب، وكشف: الحرب هي قرار أمريكي إسرائيلي، مغطى من أماكن معينة، والحرب مجهزة وتوقيتها محدد وكانت تعتمد على عنصر المفاجأة بشكل أساسي، ولها سيناريو، وأوضح في حديثه لـ«السفير» في ٥/ ٩/ ٢٠٠٦، إنَّ الحرب لا صلة لها بالأسيرين، إنَّها خارج أي منطق أو معيار أو قانون أو ضوابط، وفي كل تجارب الحروب العربية الإسرائيلية، وتجارب المقاومة في حربها مع إسرائيل وتجارب حروب العالم في التاريخ كله، لم يؤد أسر جنديين إلى حرب، نعم الأسر استغل لتوقيت الحرب، وبرأينا هذا كان من مصلحتنا ومصلحة لبنان وأنَّه استعجل حرباً كانت ستحصل بشكل قاطع، ولذلك إذا كنت أريد أن أستعمل عبارات لا يمكن اجتزاؤها أو اقتطاعها، أنا أقول لم نخطىء التقدير، وكانت

حساباتنا دقيقة وصحيحة، وما حصل في توقيت وقرار العملية وما أدَّت إليه كان توفيقاً إلٰهيّاً ولطفاً إلٰهيّاً، ولو أنَّنا لم نذهب إلى تلك العملية، وبقينا غافلين إلى تشرين الأول/ أكتوبر لكان لبنان غير لبنان، ولكن بشكل آخر، ولكانت إسرائيل غير إسرائيل ولكن بشكل آخر، لكانت إسرائيل ومن خلال عامل المفاجأة والاستفادة من عوامل عدَّة أُخرى، لكانت راهنت على القضاء على المقاومة في لبنان، وهذا كان سيؤدّي إلى استسلام لبنان إلى أمريكا وإسرائيل، وسوف يؤدّي إلى أُفق قاس وخطير على مستوى المقاومة الفلسطينية، على مستوى موقع سوريا، على مستوى مشروع المقاومة على امتداد العالم العربي، لذلك لسنا نادمين ولم نرتكب أي خطأ وكانت تقديراتنا صحيحة، وأنَّ ما حصل هو أهم بكثير من التقديرات الَّتي كنَّا نتحسب لها.

وعندما حصلت عملية الأسيرين، وسقط عدد من القتلى، استفز الإسرائيليون ووجدوا أنفسهم أمام واقع، إمَّا أن يتحملوا ما حصل، أو يذهبوا إلى المعركة المقررة في أوائل الخريف، ومعلوماتنا أنَّه بعد التشاور مع الأمريكيين في اليوم الأول، تقرر الذهاب إلى المعركة، ونحن أفقدناهم عنصر المفاجأة، فرضنا عليهم توقيتاً غير التوقيت الَّذي أعدَّ له بدقة، وبالتالي حصلت المعركة ونحن مستنفرون ومتهيئون، وهم ليسوا جاهزين.

وكان هدف العمل العسكري الإسرائيلي، أنَّهم يريدون تدفيع لبنان أثمان العملية الَّتي قامت بها المقاومة، وإنَّني في هذه النقطة أحب أن أقول كلاماً واضحاً ودقيقاً: أنا أعرف حساسية الموقف لبنانياً وإسرائيلياً وفلسطينياً وعربياً ودولياً، وأعرف بالضبط نحن على أي نقطة أو أي موقع موجودون، نحن هدفنا أسر جنود إسرائيليين لنبادل بهم، نحن لا نريد التصعيد في الجنوب وهذه ليست نيتنا، ولا نريد أخذ لبنان والمنطقة إلى

حرب، وحصل اتصال معنا من قوات الطوارىء الدولية الَّتي أبلغتنا أنَّ هناك مسعى لوقف إطلاق النَّار فهل أنتم جاهزون؟ قلنا لهم لا مشكلة لدينا، لأنَّنا لا نملك نية التصعيد، ولكن إذا كان العدو الإسرائيلي يريد التصعيد، ويفكِّر على طريقته بأنَّه سيدفع لبنان أثماناً، فنحن جاهزون للمواجهة، ولأبعد ما يمكن أن يتصور هذا العدو[1] أو الَّذي يقف خلفه.

ووجه نصر الله في أول خطاب له بعد العملية كلمة إلى الشعب، وإلى المقاومين، وإلى الصهاينة وإلى الحكَّام العرب، وفيما خص المقاومين أكد رهانه ورهان كل لبناني وفلسطيني وعربي ومسلم وكل مستضعف ومعذب ومظلوم عليهم، «فأنتم شرفنا وكرامتنا»، بكم نحافظ على إنجاز النصر عام ٢٠٠٠، وعلى إنجاز الصمود والكرامة، وخاطب الإسرائيليين: من الآن فصاعداً، أنتم أردتم حرباً مفتوحة، فلتكن حرباً مفتوحة، حكومتكم أرادت تغيير اللعبة فلتتغير إذن قواعد اللعبة، أنتم لا تعرفون اليوم من تقاتلون، أنتم تقاتلون أبناء محمَّد وعلي والحسن والحسين، وأهل بيت رسول الله وصحابة رسول الله، أنتم تقاتلون قوماً يملكون إيماناً لا يملكه أحد على وجه الكرة الأرضية وأنتم اخترتم الحرب المفتوحة مع قوم يعتزون بتاريخهم وحضارتهم وثقافتهم، وأيضاً يملكون القدرة المادية والإمكانات والخبرة والعقل والهدوء والحلم والعزم والثبات والشجاعة، والأيَّام المقبلة بيننا وبينكم إن شاء الله.

وأعلن أنَّ المفاجآت الَّتي وعدتكم بها سوف تبدأ الآن، فالآن في عرض البحر في مقابل بيروت، البارجة الحربية العسكرية الإسرائيلية الَّتي اعتدت على بنيتنا التحتية، وعلى بيوت النَّاس وعلى المدنيين، انظروا إليها

---

(١) بتاريخ ١٤/٧/٢٠٠٦.

تحترق وستغرق، ومعها عشرات العسكريين الصهاينة، هذه البداية، وحتَّى النهاية كلام طويل وموعد.

أحدثت هذه العملية الناجحة صدمة كبيرة للجيش الإسرائيلي، ورفعت معنويات المقاومين والشعب الصامد في لبنان، كما عكست أصداءها في كل الوطن العربي والعالم أيضاً، وكشفت أنَّ المقاومة تملك سلاحاً متطوراً، وتدريباً ممتازاً، وهي مستعدة إلى كل الاحتمالات.

وقدَّم نصر الله، صورة عن أسلوب تعامل المقاومة مع مراحل التصعيد الإسرائيلي، فقال عبر محطة «المنار» في ١٦/ ٧/ ٢٠٠٦: حاولنا منذ البداية أن نتصرف بهدوء وبدقة ومن دون أي تسرع، أطلقنا مواقف واضحة، وتحذيرات واضحة، في اليوم الأوَّل ركزنا قصفنا الصاروخي على المواقع العسكرية فقط، ولم نتعرض لأي مستعمرة أو مستوطنة إسرائيلية في شمال فلسطين المحتلة، ولكن جيش العدو العاجز أمام المجاهدين بدأ منذ اليوم الأول باستهداف البلدات والقرى والمدنيين والمنشآت المدنية والبنية التحتية، ومع ذلك صبرنا وأكملنا قتالنا باتجاه الجنود العسكريين، وباتجاه المواقع العسكرية في شمال فلسطين المحتلة. وكانت هناك ضربات مهمة وموفقة جداً، وخصوصاً تلك الَّتي طالت مراكز قيادة مختلفة لألوية موجودة في المنطقة الشمالية، أو قيادة القوَّة البحرية، أو قيادة قوَّة العمليات الجوية في ميرون، وكانت الإنجازات على هذا الصعيد مهمة جداً، ولكن في المقابل نرى بأنَّ الصهاينة كانوا يركزون حملاتهم على المدنيين وعلى المنشآت المدنية، حاولوا القيام بتقدم في منطقة عيتا الشعب، واجههم المجاهدون ودمَّروا دبابة من أهم الدبابات الحديثة الإسرائيلية، وتدخلت دبابة ثانية وتمَّ تدميرها، وتدخلت دبابة ثالثة وتمَّت إصابتها، وكانت هذه الحادثة مناسبة لإذلال القوَّة البرية الإسرائيلية على تخوم جبل عامل.

ويبدو أنَّ صبرنا في الأيَّام الأُولى، فهمه العدو بشكل خاطىء، فنحن في الحقيقة صبرنا على الاعتداء وكنَّا نرد فقط على العسكريين، من أجل أن نؤكد أنَّ معركتنا هي معهم، وكنَّا نعتبر أنَّ الجميع شركاء، ولكنَّنا ما دمنا غير مضطرين لقصف الأهداف المدنية، فلماذا نلجأ إلى قصف الأهداف المدنية؟

انتظرنا وقدمنا إنجازاً آخر، عندما ضربنا البارجة الحربية الإسرائيلية قبالة شاطىء بيروت، في إشارة واضحة إلى أنَّنا نعاقب الَّذين يقصفون مدننا وبنانا التحتية ويعتدون على شعبنا، ولكن تمادي الصهاينة وعدم أخذهم بتحذيراتنا، وقراءتهم الخاطئة لما يجري، دفعهم إلى استكمال اعتداءاتهم الواسعة على جنوب لبنان وعلى البقاع، وخصوصاً على مدينتي بعلبك والهرمل، وصولاً إلى الشمال، والاتجاه إلى ضرب أهداف وبنى تحتية جديدة، ولم يكن أمامنا أي مجال اليوم سوى أنَّ نفي بوعد قد قطعناه على أنفسنا وقمنا بقصف مدينة حيفا، ونحن نعرف أهمية هذه المدينة وخطورة هذه المدينة، ولو أنَّنا استهدفنا بصواريخنا المصانع الكيميائية والبتروكيميائية لكانت حلَّت كارثة كبرى على سكان تلك المنطقة، ولكنَّنا تعمَّدنا تحييد هذه المصانع وهي تحت مرمى صواريخنا، حرصاً منَّا على عدم دفع الأُمور إلى المجهول، وحرصاً منَّا على أن يكون هذا السلاح هو ليس سلاح انتقام، وإنَّما هو سلاح ردع، سلاح إعادة المجانين في حكومة أولمرت إلى بعض التعقل وبعض التروي، وإلى التخلص من عقدة العيوب والتجبر، لا بل أستطيع أن أقول الغباء والحماقة الَّتي يتميزون بها.

وحذر من أن تحييدنا هذا، لا يعني أنَّنا سوف نبقى في هذا الموقع دائماً، ففي أية لحظة نحن نعتبر أنَّنا معنيون بالدفاع عن وطننا وعن شعبنا

وعن أهلنا، وبالتالي سوف نلجأ إلى كل وسيلة تمكننا من هذا الدفاع، طالما أنَّ العدو يمارس عدوانه بلا حدود، وبلا خطوط حمراء، ونحن سوف نمارس تصدينا بلا حدود وبلا خطوط حمراء.

وأكد في اليوم الرابع على المواجهات، أنَّنا ما زلنا بحمد الله، في كامل قوتنا وعافيتنا، ونحن الَّذين نتخذ الزمان والمكان، ولا يستطيع العدو أن يفرض علينا الوسيلة أو زمان استخدام الوسيلة، وما زلنا ندير أُمورنا بشكل دقيق ومنظم لا يتوقعه العدو الَّذي كان يتصرف على قاعدة أنَّه في الأيَّام الأُولى، تكون عادة الضربات القاسية ومن المفترض أن يحصل هناك تفكك في القيادة أو تفكك في القاعدة وهذا كله لم يحصل.

وتحدث عن نقاط القوَّة الَّتي توافرت لدى حزب الله، فقال: أهم نقاط قوَّتنا أنَّ العدو يجهل قدراتنا وإمكانياتنا، وعندما يقدِّر موقفه أو يحسب حسابه، فهو يبني على تقديرات خاطئة ومعلومات خاطئة، لذلك فهو يلجأ إلى الأكاذيب أيضاً، على سبيل المثال، في اليوم الأوَّل كل الأهداف الَّتي تمَّ استهدافها في البلدات الجنوبية، هي بيوت مدنية، ولا يوجد فيها قواعد صاروخية ولا مخازن صاروخية ولا أي شيء ممَّا ادعاه الإسرائيليون، ثمَّ يخرج الإسرائيليون ويقولون بأنَّ الجزء الأكبر من القوَّة الصاروخية لحزب الله، تمَّ تدميرها في اليوم الأوَّل، وأنا أقول للجيش الإسرائيلي بأنَّ هذه المعلومات خاطئة وغير صحيحة، فالَّذين قتلتموهم هم سكان مدنيون من نساء وأطفال، والبيوت الَّتي هدمت هي بيوت مدنية خالية من أية صواريخ تتحدثون عنها. وما أطلق حتَّى الآن هو القليل القليل من هذه الترسانة، وقدرتنا على إطلاق الكثير الكثير ما زالت قائمة.

ورأى أنَّ الصهاينة يبنون حساباتهم على قاعدة أنَّ كل ما لدى الحزب من صواريخ قد تطال حيفا أو عكا أو طبريا، أو ما أبعد من حيفا هي مجرد

عندما يدخل الإسرائيلي، يجب أن يدفع ثمناً كبيراً في دباباته وضباطه وجنوده، فهدف العدوان ليس إعادة الأسيرين، فإسرائيل تعمل على تنفيذ مشروع تجاوز حدود إطلاق سراح جنديها، ونحن أمام عملية عسكرية قد تمتد زمناً حسب التطورات الميدانية والسياسية.

ورأى نصر الله، أنَّ العملية العسكرية وصلت ذروتها ولم يبق إلاَّ الاجتياح البري، وهذا الاجتياح سيكون كارثة للجيش الإسرائيلي، وسيدفعون الثمن غالياً، ولدينا تجربة على مدى ٢٣ عاماً، وقدرة قتالية عالية ويعرفونها.

وأعلن نصر الله بعد أسبوعين من المواجهة والعدوان الصهيوني الهمجي، والصمود الَّذي يقترب من المعجزة، الدخول في مرحلة جديدة، هي مرحلة ما بعد حيفا، وقال: إذا تطورت الأمور سوف نختار الزمان الَّذي ننتقل فيه إلى ما بعد بعد حيفا، هذا أوَّلاً، وثانياً: في المواجهة الميدانية الأرضية، حتَّى الآن قام مجاهدو المقاومة بإنجازات كبيرة جداً وكبَّدوا العدو خسائر كبيرة في ضباطه وجنوده وطائراته ودباباته، ونحن اليوم نواجه في بنت جبيل، وسنقاتل كما قاتلنا في مارون الراس، كما سنقاتل في كل قرية وبلدة وموقع ونقطة[1].

وأكد أنَّ هدف التوغل الإسرائيلي لن يتحقق، وهو منع قصف المستعمرات في شمال فلسطين المحتلة، فهذا القصف سيستمر أيّاً يكن التوغل البري والاحتلال الجديد، إنَّ احتلال أي شبر من أرضنا اللبنانية سيكون وازعاً ودافعاً إضافياً لاستمرار المقاومة وتصاعدها، إنَّ مجيء جيش الصهاينة إلى أرضنا سيمكننا أكثر من أن ننال منه، من جنوده وضباطه

---

(١) رسالة عبر المنار في ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٦.

ودباباته، وسيعطينا فرصة أوسع وأكبر في الاشتباك المباشر ولاستنزاف قوات هذا العدو، بدلاً من أن يبقى مختبئاً خلف حصونه عند الحدود الدولية، مكتفياً بسلاح جوه القوي في دكّ القرى والبلدات وقتل الأطفال والنِّساء والمدنيين.

وأكد نصر الله، أنَّه بعد ١٩ يوماً على المعركة، لم يحقق العدو أي إنجاز عسكري، لا أقول أنا ذلك، هم يقولون ذلك، العالم كله يقول ذلك، والمحللون السياسيون والعسكريون يقولون ذلك، وعندما يتحدثون عن استمرار الحرب، يقولون إنَّ العدو يبحث عن إنجاز للدخول في تسوية سياسية، أمَّا تدمير البنية التحتية، وقتل المدنيين وتهجير النَّاس وهدم المنازل، فهذا ليس إنجازاً عسكرياً، هذا إنجاز همجي وحشي لا يمكن أن يسمح له لاستثماره على المستوى السياسي باختصار أهم بارجة عسكرية في قواته البحرية دُمِّرت، وهي واحدة من ثلاث من هذا المستوى، قواته البحرية تلقَّت ضربة قاسية ومهينة، وقواته البرية أهمها هو لواء «غولاني» لحقت به هزيمة نكراء، حتَّى أنَّ أحد كبار ضباط هذا اللواء قال: إنَّ القوى الَّتي دمرت في أطراف مثلث البطولة والرجولة والشجاعة، مثلث: مارون الراس ـ بنت جبيل ـ عيترون، كانت تشكل رأس حربه لواء غولاني، يعني نخبة الجيش الإسرائيلي دمّرت بأكملها بين قتيل وجريح ومعاق نفسياً[1].

وأضاف: هذه النخبة كانت تفر كالفئران من أرض المعركة، وعلى مستوى الجو محدودية في حركة المروحيات، واعتماد كلي على الطائرات الحربية، الَّتي كانت تلقي آلاف الأطنان لتدمير الجسور والعبارات والبيوت والطرقات، وقتل المدنيين، ورغم ذلك لم يستطع سلاح الجو وقف قصف

---

(١) نصر الله في رسالة عبر «المنار» إلى اللبنانيين والعرب والمسلمين والعالم، في ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦.

المستعمرات، بل دخل القصف إلى مرحلة ما بعد حيفا باقتدار.

وتساءل نصر الله: على طول الصراع العربي الإسرائيلي، متى اضطر مليونا إسرائيلي للنزوح أو البقاء في الملاجىء ١٨ يوماً وأكثر، وسيزداد هذا العدد مع توسعنا في مرحلة ما بعد حيفا، لأنَّ قصف مدينة العفولة وقاعدتها العسكرية هي بداية هذه المرحلة، وهناك مدن كثيرة ستكون في دائرة الاستهداف في مرحلة ما بعد حيفا، وفسر كلام شمعون بيريز عن أنَّ المعركة كانت معركة حياة أو موت بالنسبة لإسرائيل، بأنَّ الصمود والاستبسال الَّذي أبداه اللبناني إذا اختتم بالنصر، فسيميت العنجهية والغطرسة والعلو والروح الَّتي قام عليها كيانه، وبالتالي لا يبقى لهذا الكيان أي مستقبل.

٢ ـ التحذير من قصف بيروت:

وحذَّر أمين عام حزب الله، من قصف بيروت، لأنَّ ذلك يعني ردّ المقاومة في قلب تل أبيب، وقال بحسم: أيّاً تكن نتائج الحرب، فلبنان لن يكون أمريكياً أو إسرائيلياً، ولن يكون موقعاً من مواقع الشرق الأوسط الجديد، الَّذي يريده بوش وتريده كونداليسا رايس. وأعلن بعد دخول الحرب أسبوعها الرابع، أنَّ المواجهات أصبحت أشمل وأوسع وأشد عنفاً، إذ دخل فيها عدد من الألوية، وعشرات الآلاف من الجنود الإسرائيليين، والمئات من الدبابات والآليات الإسرائيلية، مقابل مجاهدين يواجهون بقوَّة وبسالة، ورغم مضي الأيَّام نجد أنَّ القتال ما زال في الخطوط والقرى الأمامية، وفي المواقع الأمامية.

المواجهات البرية فاجأت العدو، وقد أكدت من استنتاجهم في المعارك الَّتي خاضوها في مارون الراس، وبنت جبيل، وعيترون وعيتا الشعب، وغيرها. أكدت أمرين على المستوى الميداني:

الأوَّل: يرتبط بالعنصر البشري، فطريقة الإسرائيليين أنَّهم عندما يأتون ليحاصروا أو يقتحموا بلدة معينة، يتركون طريقاً خلفية من أجل أن يخرج منها المقاتلون أو يهربوا، أو يفروا، ولكن في كل المواجهات الَّتي خاضها المقاتلون، بقوا يقاتلون حتَّى آخر نفس، وحتَّى آخر طلقة، ولو سألتم الخبراء العسكريين، سيقولون إنَّ ما جرى في هذه المواجهات هو أشبه بمعجزة، إنَّ ألوية بكاملها، بدباباتها وآلياتها، وبتغطية كثيفة جداً من سلاح الجو، تهاجم مجموعات المقاومين في هذه البلدة أو تلك، في هذا الموقع أو ذاك، ومع ذلك هؤلاء يبقون ويقاتلون ويصمدون ويثبتون وأكثر من ذلك يبادرون ويهاجمون ويلحقون الخسائر المادية والبشرية بالعدو، هذه معجزة بالمقاييس العسكرية.

والعنصر الثاني: هو القدرة الَّتي توافرت لدى المقاومة، وهذا أيضاً من المفاجآت، القدرة الكمية والنوعية على تدمير دبابات العدو وآلياته العسكرية، مع العلم أنَّ دبابات وآليات العدو، هي من أحدث وأقوى الدبابات والآليات العسكرية في العالم، مع ذلك تصدى المجاهدون لها ودمروها، وكل التكتيك العسكري الإسرائيلي يعتمد بشكل أساسي على التوغل بالدبابات والآليات المحصنة، لكن عندما لا تستطيع الدبابات والآليات أن تتحرك ويتحرك جنود العدو وضباطه على الأرض تصبح حركتهم بطيئة، هذا هو الحال.

وأكد أنَّ الدبابات والآليات الَّتي تمَّ تدميرها، هي أعداد كبيرة، وكشف سلسلة الأكاذيب الَّتي كان الاحتلال يتلطى خلفها لإخفاء خسائره، ضارباً مثلاً مارون الراس، كان القتال دائراً ولأيَّام، ولكنَّه من الساعة الأولى قال إنَّه سيطر على مارون الراس، في معركة بنت جبيل قالوا نحن سيطرنا ودخلنا وتسلَّطنا على مدينة بنت جبيل، ولكن المدينة صمدت وقاتلت حتَّى أنَّ أحد الخبراء الاستراتيجيين الإسرائيليين كتب مقالة بعنوان: «لا نعلم هل نحن

نسيطر على بنت جبيل أم بنت جبيل تسيطر علينا»، ولفت إلى كل ما كان يردده العدو يصنف في إطار الحرب النفسية، وأشار إلى أنَّه عندما أعلنا ضربنا السفينة الإسرائيلية من نوع ساعر أربعة ونصف مقابل شاطىء صور، نفوا، وأؤكد عندما قصفنا الساعر خمسة في مقابل شواطىء بيروت، سارع الإسرائيلي إلى النفي، لكن صادف أنَّ هذه السفينة الحربية كانت قريبة من الشواطىء واستطعنا أن نصور إطلاق الصواريخ وأن نصوِّر الإصابة، وبعد أن قدَّمنا الفيلم اضطر الصهاينة للاعتراف بأنَّ هناك سفينة حربية أُصيبت، وأنَّ لديهم عدداً من المفقودين يبحثون عنهم في البحر، وبالنسبة للضربة الثانية أكد نصر الله حصولها، لكن قبالة شاطىء صور كان هناك ضباب كثيف والسفينة كانت بعيدة جداً عن الشواطىء، ولكن هذا الشيء تمَّ تحقيقه.

وبالنسبة للصواريخ، فإنَّ المقاومة قامت في يوم واحد بإطلاق ٣٠٠ صاروخ على المستعمرات، مع العلم بأنَّ الشيء المعتاد يومياً كان بين ١٠٠ و١٥٠ أو ١٧٩ أو ١٩٠، وكان ذلك مقصوداً للتأكيد بأنَّ المقاومة تملك قدرة صاروخية كبيرة، وأنَّها تستطيع أن تقصف العدد الَّذي تريد وبالعمق الَّذي تريد[1].

٣ ـ بقاء المقاتلين في الخطوط الأمامية:

وبعد مرور حوالي شهر على الحرب، بقي المقاومون في الخطوط الأمامية يقاتلون ويبادرون، وكان الإسرائيليون يتسللون ليلاً في بعض الأودية ويقومون بإنزالات في مواقع خلفية، ما يلبث المجاهدون أن يكتشفوها ويهاجموها ويوقعوا فيها إصابات، واعترف الإسرائيليون بأنَّهم كانوا ينقلون المدّ والدعم بالمروحيات ومن خلال الحيوانات، لأن تحرك

---

(١) نصر الله في رسالته عبر المنار، بتاريخ ٣/٨/٢٠٠٦.

آلياتهم ومدرعاتهم المكشوفة في أرض الجنوب، تجعلهم صيداً سهلاً لمجاهدي المقاومة، هناك حوالي ٦٠ دبابة من نوع ميركافا تمَّ تدميرها، وعشرات الجرافات وناقلات الجند، والمجموع يزيد عن مئة دبابة وناقلة جند وجرافة عسكرية.

وهناك ما يزيد عن مئة ضابط وجندي قتلوا، وما يزيد عن ٤٠٠ ضابط وجندي جرحوا حتَّى الآن في المواجهات، والعشرات منهم في حال الخطر الشديد باعتراف العدو.

أمَّا الأضرار الاقتصادية والمادية والمالية نتيجة القصف الصاروخي فإنَّ الإسرائيليين يعملون على إخفائها[1].

وبعد ٣٣ يوماً من المواجهات، خرج نصر الله في حديث مع محطة «نيو، تي، في،» في ٢٠٠٦/٨/٢٩ ليعلن، أنَّ لا جولة ثانية من الحرب مع إسرائيل، ولا مبرر للعمليات بعد الانسحاب الإسرائيلي من لبنان، فيما الجيش اللبناني الَّذي سينتشر في الجنوب سيلقى كل الدعم المطلوب، وستكون المقاومة مؤازرة له، ولا مشكلة مع قوات الطوارىء الدولية «اليونيفيل» طالما أنَّ مهمتها ليست نزع سلاح المقاومة.

ورغم تحذيره من إمكانية اغتياله بعد الحرب، من خلال غارة جوية، فإنَّه خرج للملايين المحتشدة في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦، ليخاطبها وجهاً لوجه، ويحييها على شجاعتها وصمودها، ويكشف لها المزيد من خفايا الحرب، واعتبر أنَّ الحرب النفسية الَّتي وجهت لمهرجان الانتصار، والادعاء بأنَّه سيقصف ويدمر، سقطت «فأنتم في ٢٢ أيلول تثبتون بتتويجكم لاحتفال النصر، أنَّكم أشجع من ١٢ تموز/ يوليو وأشجع من ١٤

---

(١) نصر الله، قناة «المنار» بتاريخ ٢٠٠٦/٨/١٢.

آب/ أغسطس، نعم أن أقف أمامكم وبينكم فيه خطر عليَّ وعليكم، وكان هناك خيارات أُخرى (استخدام شاشات كبيرة وإلقاء الخطاب من مكان سري). ولكن عقلي وقلبي وروحي لم تأذن لي أن أخاطبكم من بعيد».

ووصف نصر الله الانتصار بأنَّه تاريخي استراتيجي كبير، فكيف يمكن لعقل بشري أن يتصوَّر أنَّ بضعة آلاف من أبنائكم المقاومين اللبنانيين، وقفوا ٣٣ يوماً في أرض مكشوفة للسَّماء، وأمام أقوى سلاح جو في منطقة الشرق الأوسط، وله جسر ينقل إليه القنابل الذكية من أمريكا إلى بريطانيا إلى إسرائيل، وأمام ٤٠ ألف ضابط وجندي، أربعة ألوية من النخبة، وثلاث فرق من جيش الاحتياط، وأمام أقوى دبابة في العالم، وأمام أقوى جيش في المنطقة، كيف يمكن لبضعة آلاف فقط، أن يقفوا ويقاتلوا في ظروف قاسية صعبة من هذا النوع، ويؤدِّي قتالهم إلى إخراج البوارج البحرية من مياهنا الإقليمية، وتدمير دبابات الميركافا مفخرة الصناعة الإسرائيلية، وتعطيل المروحيات الإسرائيلية في النَّهار ولاحقاً في اللَّيل، وتحويل ألوية النخبة إلى فئران خائفة مذعورة من أبنائكم، في ظل تخل عالمي وعربي عنكم، وفي ظل انقسام سياسي من حولكم، كيف يمكن لثلة من المجاهدين أن تهزم هذا الجيش إلاَّ بنصر وعون وتأييد من الله سبحانه وتعالىٰ.

وأكد أنَّ تجربة المقاومة والَّتي يجب أن تنقل إلى العالم، اعتمدت على الإيمان والاستعداد للتضحية في الجانب المعنوي والروحي، كما اعتمدت على العقل والتخطيط والتنظيم والتدريب والتسليح، فالمقاومة ليست عشوائية، وليست سفسطائية، أو مشدودة إلى الأرض ولا ترى إلاَّ التراب، وليست مقاومة فوضى، إنَّما هي عالمة، عاقلة، مخططة، مدربة ومجهزة، وهذا هو سر انتصارها.

وكرر تأكيده بأنَّ الحرب كانت أمريكية بالقرار والسلاح والتخطيط

والإرادة، وبإعطاء المهلة تلو المهلة للصهاينة: أسبوع، أسبوعان، ثلاثة وأربعة، لكن الَّذي أوقف الحرب، هو عجز الصهاينة، فأكبر عدد من الدبابات دمرت في الأيَّام الأخيرة، وأكبر عدد من الجنود أيضاً قتلوا أيَّام الجمعة والسبت والأحد، والمروحيات سقطت في هذا التوقيت، عندئذٍ أدرك الصهاينة بأنَّهم أمام الكارثة، فسارع الأمريكي إلى التدخل وقبل حتَّى المسودات لتقف الحرب، أوقفوا الحرب ليس من أجل لبنان، ولا من أجل أطفال لبنان، ولا من أجل دماء النِّساء، ولا من أجل لبنان الجميل، أوقفوا الحرب فقط من أجل إسرائيل، وأتوا ليبيعوها لنا في لبنان «إنَّ أصدقاءنا الأمريكان أوقفوا الحرب»، أصدقاؤنا الأمريكان لم يقبلوا أول يومين أن يوقفوا الحرب، وأول أسبوع لم يقبلوا وثاني أسبوع وثالث ورابع أسبوع لم يقبلوا، كانوا يراهنون ـ حسب تعابير القنوات الدبلوماسية ـ على سحق حزب الله، وتصفية الحساب مع كل أصدقائه وحلفائه، وأبناء الخط الوطني السيادي الحقيقي الاستقلالي في لبنان، الَّذي أوقف الحرب بعد فضل الله عزَّ وجلَّ، المقاومون والشعب الوفي الَّذي احتضن المقاومة، المقاومة والصمود أفشلا أهداف العدوان وحققا النصر، ووجها ضربة قاسية إلى مشروع الشرق الأوسط الجديد الَّذي تحدثت عنه كونداليسا رايس وفضحا السياسة الأمريكية الخادعة الَّتي تتحدث عن حقوق الإنسان والحريات والديمقراطية والاحترام.

جـ قاسم: كنا في منطقة المعركة

لم تبتعد قيادة حزب الله عن محيط المعركة، وقد استنفرت وقتها وجهدها وانصرفت لمتابعة أدق التفاصيل المتعلقة بأجواء وأصداء ومعلومات وإدارة الحرب وذلك وفقاً لما رواه لي نائب الأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم الذي قال:

«بما أن المقاومة كانت تقوم بواجبها وبدورها بطريقة سرية ومخفية، لخصوصية الاستهداف الإسرائيلي المباشر، كنا نختار الأماكن البعيدة عن الأنظار، ونبدّل بينها بشكل كبير، بحيث لا نستقر في مكان واحد لفترة طويلة من الزمن، وكنا نعتمد على آلية في التواصل، وفي الاجتماع، تمكنا من اتخاذ القرارات التي تحتاج إلى لقاء من دون ترك بصمات أو آثار، تدل على أن الاجتماع قد حصل في هذا المكان.

كنا في داخل المعركة بطبيعة الحال، وفي منطقة المعركة أيضاً، لكن لا أستطيع أن أذكر التفصيل الذي له علاقة بالأمكنة التي تنقلنا فيها لخصوصية استمراريتنا، إذ إن معركة المقاومة ليست معركة لمرحلة محددة، هي مقاومة مستمرة، وما لم ينكشف من الأساليب للعدو، ليس من المناسب أن نكشفه نحن بشكل مباشر، لكن ما أستطيع قوله: إن التواصل لم ينقطع يومياً وفي المتابعة التفصيلية، ليس بين القيادة فقط، بل بين القيادة والإدارة السياسية من ناحية، وبين القيادة والإدارة العملياتية العسكرية مع ناحية أخرى، إلى درجة أننا في بعض الأحيان، كنا نأخذ قراراً بالتوقف عن التصريحات ليومين أو ثلاثة أيام، فنعمم هذا الأمر بفترة زمنية قياسية لا تتجاوز الدقائق على كل المعنيين بالتصريح، وكذلك إذا كانت هناك قرارات قصف، أو توقيف القصف، أيضاً كانت تعطى القرارات للقيادات الميدانية للعمليات، وقد شهد العدو، كما شهد المراسلون، بأن وتيرة القصف ليست وتيرة عشوائية، وإنما هي وتيرة منظمة ومدروسة، بدليل أنه في اليوم الذي تقرر فيه وقف إطلاق النار لمدة ٤٨ ساعة تقريباً، التزمت المقاومة يومها، وكان أمراً مفاجئاً للعدو، إذ كان يعتقد أن بعض تجمعات المقاومة في بعض المناطق، قد تكون مفصولة عن القيادة أو لديها خيارات مستقلة وهي منقطعة عن التواصل، ففوجئت قيادة العدو أن التواصل كان تاماً مع الجميع، وما يدل

على الراحة في التواصل هو الرسالة المشهورة التي أرسلها المقاومون بخط اليد، وأخذوا جواباً عليها، بما أعلنه السيد حسن نصر الله، بما سمي جواب الرسالة إلى المجاهدين.

وأكد قاسم، أننا لا نملك معلومات تفصيلية دقيقة أو أدلة قاطعة حول تورط وزراء في الحكومة اللبنانية بالدلالة على مكان المجاهدين، لكن توجد أخبار متفرقة نشرت عبر وسائل إعلام إسرائيلية وأجنبية، وأشارت إلى هذا النوع من العمل. لم نتوقف عنده، ولم نشغل أنفسنا بالتحقق من هذا الأمر، لأننا كنا نتخذ الاحتياطات اللازمة والمناسبة، وبالتالي ليست وظيفتنا أن نلاحق هذه التفاصيل وهذه الجزئيات، نعم هناك تورط لأحد الأجهزة الأمنية في لبنان، في متابعة تحركات قيادة حزب الله، وأماكن تواجدها، وإن كان المبرر أنه جزء من نشاط الجهاز الأمني ليعرف كل ما يدور، لكن في فترة الحرب لم يكن هذا الأداء مناسباً وملائماً، ويمكن أن يوضع حوله علامة استفهام. إذ إن العدو الإسرائيلي كان يبحث عن أماكن تواجد القيادة، فما هو المبرر ليقوم جهاز أمني برصد بعض التحركات، علماً بأن المعلومات تتسرب منه إلى الإسرائيلي حتى لو يكن قاصداً لهذا الأمر؟. هذه نقطة سلبية لم تكن مناسبة.

هـ ـ الوقت كله للحرب

وأضاف قاسم:

يمكن أن نقول إنه لم يكن عندنا شيء إلا المعركة، بمعنى لم يكن عندنا لا متابعات عائلية، ولا علاقات اجتماعية، ولا أوقات فراغ يستطيع أن يملأها الإنسان ببعض القراءات، أو بعض التحركات، أي أن المسار التقليدي والوقت الموزع في الأيام العادية لم يكن موجوداً أيام المعركة، فأيام المعركة لم يكن موجوداً إلا المعركة، وهذه لها مستلزماتها في المتابعة

التي لها علاقة بإنجازات المقاومة، واعتداءات العدو، والأحداث التفصيلية اليومية التي تجري، وردود الفعل، وعدد الصواريخ، وتقدم العدو في بعض النقاط، وتقهقره في نقاط أُخرى. ونجاح المقاومين في تحقيق بعض الأهداف داخل الكيان الإسرائيلي، أي أن المتابعة للجزئيات الميدانية، كانت متابعة تفصيلية إلى درجة مواكبة عدد الصواريخ وعدد الأهداف، وعدد القرى التي طالها العدوان، أو التي طالتها صواريخ المقاومة في الطرف الإسرائيلي، إضافة إلى المتابعة الواسعة لوسائل الإعلام عبر المحطات المختلفة والمراسلين المختلفين، وهنا لا يخفى أن تقدم الإعلام في عصرنا الحالي، جعل من متابعته إحدى وسائل المناخات السياسية والظروف الميدانية للمعركة، مما يهيئ للمتابع في القيادة مناخاً معيناً للتحليل والاستنتاج، إضافة إلى توجيه الإخوة المعنيين بالتصريحات السياسية من نواب وأعضاء المجلس السياسي، نظراً للدور المناط بي في المتابعة السياسية، إذن يمكن القول إن أجواء المتابعة كانت في أجزاء المعركة بمواقعها المختلفة، هذا إضافة إلى التقارير المكثفة التي كنا نطلع عليها سواء بالترجمات العبرية لما يصرّح به الإسرائيليون، أو بالتقارير السياسية والمعلومات الخاصة التي كانت تتوفر من هنا وهناك، فالملاحقة كانت ملاحقة للوقائع الميدانية والظروف السياسية لنتمكن مع إخواننا في القيادة من مواكبة الأحداث واتخاذ القرارات المناسبة، إضافة إلى الاتصالات التي كان يجريها ويتابعها الوزراء وأعضاء الشورى، فالجو هو متابعة المعركة وكل القيادة كانت بعيدة عن عائلاتها ومتابعاتها اليومية، كنا في جبهة حرب.

توجد قيادة عسكرية مكلفة بمتابعة ما تحتاجه المعركة من الناحية التنفيذية سواء في عمليات المواجهة، أو في مسألة الدعم وبالتالي هذا

اختصاصهم حيث كانت لهم طريقتهم في الإدارة وبالتالي ما كان يهمنا أن نفهم أن الأمور على ما يرام، وأن الاستعدادات والتجهيزات كافية ومناسبة، والدعم قائم، لكن الدخول في الجزئيات التفصيلية هناك من يختص به من الإخوة المتابعين.

لم تكن توقعات الحرب بهذا الحجم

ولفت الشيخ قاسم، إلى أنه عندما اتخذنا قرار أسر الجنديين الإسرائيليين، لم نكن نتوقع أن يكون هناك حملة عسكرية بهذا الحجم الذي حصل، كنا نتوقع أن تحصل ردة فعل ليوم أو يومين، وتكون محصورة نسبياً في منطقة عمليات الأسر وجوارها، ولم يكن قرار الأسر قراراً آنياً، وإنما كان قد اتخذ قبل أكثر من ستة أشهر، وأول تجربة لعملية الأسر المباشر كانت في منطقة الغجر، ويومها تحولت إلى اشتباك ولم ينجح أسر أحد الجنود الإسرائيليين، ثم قررنا مواصلة الجهد، وفي مرات عدة كان الشباب على استعداد للأسر لكن الظروف الميدانية لم تكن مساعدة، إلى أن حصل في ١٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٦م، فرصة للأسر، فتصرف المقاومون بعد أخذ الإذن المباشر بناء على توفر المعطيات التي تساعد على أسر جنود. إذن حجم العمليات العدوانية الإسرائيلية لم تكن في حسباننا، وما ذكره الأمين العام لحزب الله عن التوقعات ما إذا كان الحزب سيقوم بهذه العملية لو كان يتوقع هذه النتيجة أجاب بالنفي، والسبب في ذلك، أننا لم يكن في واردنا أن نأخذ المنطقة إلى حرب. ولو كنا نعلم أن الأسر سيؤدي إلى هذا المستوى من الحرب، لم نكن نقدم على هذه الخطوة لأننا لا نريد حرباً، ولأن موقفنا دفاعي، لكن سيبقى موضوع تحرير الأسرى واحد من الأهداف الذي سننتهز له الفرص المختلفة لتحقيقه.

أما وقد خضنا هذه التجربة. وقمنا بعملية الأسر، فقد أصبحنا أمام

حرب شاملة، ليست إسرائيلية فقط، وإنما هي أمريكية دولية إسرائيلية، بتغطية من بعض العرب، على لبنان وعلى حزب الله وعلى هذه المسيرة، ربما يطرح التساؤل: هل يعقل أن تصمدوا كل هذا الصمود، وأن تربحوا هذه المعركة وأنتم لا تتوقعون أن يكون هناك حرب، إذ إن ردة الفعل الإسرائيلية التي تحولت إلى حرب، لا تنسجم مع فشل إسرائيل التي اتخذت مبادرة الحرب، ونجاح المقاومة التي كانت في موقع ردة الفعل لحرب غير محسوبة، وهذا التساؤل يزول في الواقع عندما نعلم أن حزب الله منذ التحرير في ٢٥ أيار/ مايو ٢٠٠٠م، اتخذت قيادته قراراً بمواصلة جهود التدريب والتسليح، وتعزيز دور المقاومة، وعدم اعتبار التحرير نهاية المطاف، لأنه ما زالت مزارع شبعا محتلة، ولا زال الخطر الإسرائيلي قائماً، وكذلك وجود الأسرى لدى إسرائيل، إذن لا زلنا في حالة معركة. لكن ربحنا جولة كبيرة هي التحرير سنة ٢٠٠٠م، إلا أن الموضوع لم ينته، أمام هذه الرؤيا كنا دائماً نصرّح في فترات مختلفة خلال السنوات الست التي تلت التحرير، أن جهوزية المقاومة عالية ومتقدمة ومهمة، وأننا حاضرون للمواجهة، أي أننا كنا نتوقع أن تعتدي إسرائيل في يوم من الأيام، لم نتوقع أن يكون ذلك في ١٢ تموز/ يوليو، لكن كنا نتوقع أنه لا بد أن تأخذ إسرائيل قراراً لمواجهة حزب الله ولبنان، وعليه عندما بادرت إسرائيل لهذه الحرب الواسعة، كنا على استعداد لمواجهتها نظراً للمسار الذي اخترناه كمقاومة في تهيئة النفس لاحتمال وارد، والذي حصل هو أن العدوان كان في وقت غير محسوب بالنسبة إلينا، لكن لم يكن لمواجهة لم نستعد لها، وإنما كنا مستعدين في أي وقت، حتى لو حصل هذا العدوان قبل وقته بسنة أو بسنتين. نعم كل وقت يحصل فيه العدوان ستكون له ظروفه وإمكاناته وطريقته، وأيضاً بحسب ممارسة العدو من عدوان.

بنينا لمعركة تستمر اشهراً

وأكد لي قاسم: أنه منذ بداية ردة الفعل على العدوان الإسرائيلي ابتداء من ١٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٦م إلى نهاية العدوان، لم تلزم المقاومة نفسها أمام الرأي العام، ولا في قرارنا الذاتي بوضع جدول زمني محدد لكيفية الرد، ولا بآلية مقيّدة لردة الفعل، وإنما لاحظنا بأن مسار المعركة قد يكون طويلاً، وهذا يتطلب أن لا نصرف كل إمكاناتنا، ولا كل خططنا في الأيام الأولى، بل يجب أن نحتفظ لأنفسنا بمبادرات ومفاجآت وخطوات لنتمكن من ليّ ذراع العدو في اللحظة المناسبة التي لا يتوقعها، وهذا أمر مؤثر في كسب المعركة، أما لو رمينا ما عندنا وضربنا كل الأهداف التي نستطيعها من الأيام الأولى. فهذا يعني أننا سنبدأ بقوة، وليس معلوماً أن نستمر بالوتيرة نفسها بالأيام التي تليها، وليس معلوماً كم ستطول هذه المعركة، فالمعركة بين طرفين، وبالتالي يجب أن نأخذ بعين الاعتبار كل الاحتمالات وأبرزها أن تطول المعركة لأشهر.

وأصارحك أننا بنينا على أن المعركة قد تستمر لأشهر، لم نبن بأن المعركة قصيرة، أو أن أيامها معدودة من الوتيرة التي رأيناها في الأيام الأولى. أي في الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى وبعدها من التصريحات التي كانت تصدر عن الإدارة الأمريكية والمسؤولين الإسرائيليين، حيث كنا نجد تصميماً أمريكياً على تطويل المدة لتحقيق انتصار ميداني، وأعتقد أن طريقتنا كانت طريقة فعالة، بدليل أن وتيرة القصف الصاروخي لم تتوقف إلى آخر يوم بالطريقة التي أردناها، فربما لو قصفنا بعض الأماكن سنجد فارقاً في الأيام التي ستليها بطريقة أضعف أو أقل، وستكون الأمور مخالفة للتوقعات، من هنا ارتأينا هذه الطريقة وهذه الآلية والخيارات، وبقيت أيدينا مفتوحة لخيارات أخرى، سواء بأهداف القصف، أو بمداه، من دون أن

نربط أنفسنا برباط زمني، وكنا نربط تحركنا بما يحقق الهدف من ردع العدو، ومحاولة إيصاله إلى اليأس في تحقيق أهدافه تمهيداً لإيقاف العدوان، وصولاً إلى إنهاء سياسي لا يحقق الأهداف التي أرادها العدو، ويحقق هدفنا في تحقيق الردع المناسب، من دون الالتزامات السياسية التي تسقط ما بدأنا بها.

د ـ النشاط السياسي

تعاطت قيادة المقاومة مع التطورات السياسية بشفافية وشعور بالمسؤولية الوطنية، وهي كانت تدرك تماماً كل ما كان يخطط له على صعيد لبنان والمنطقة من قبل الولايات المتحدة وإسرائيل، وبالتفاهم والتناغم والتنسيق مع جهات لبنانية وعربية وإقليمية. فدعت كل اللبنانيين رسميين وغير رسميين إلى عدم تشجيع العدو، أو تشكيل غطاء له، لأن الوقت هو وقت تضامن وتعاون لمواجهة هذا الاستحقاق الكبير، وأبدت استعدادها لمناقشة أي موضوع أو شأن داخلي بعد توقف هذا العدوان، ودعا نصر الله الحكومة للتصرف بمسؤولية وطنية لأنها معنية بالحفاظ على البلد، وألا تجعله مكشوفاً للعدوان. كانت قيادة المقاومة حريصة على ألا يتم جرها إلى الزواريب الداخلية، من خلال زجها في مناقشات عقيمة، وجدل بيزنطي، وتحملت الكثير من السهام السياسية والإعلامية وبعضها مؤذ، عضّت على جراحها وآلامها ولم ترد، حتى توفر كل جهدها ووقتها للتصدي للعدوان. وكانت مرتاحة جداً لما رأته ولمسته من تضامن شعبي معها، فرغم كل الضحايا والجراح والدماء والمعاناة اليومية كانت بيئة المقاومة الشعبية، تؤكد عزمها على الوقوف إلى جانب المقاومة وسيدها، بكل ما تملك، مبدية الاستعداد لتقديم المزيد من الشهداء، لتبقى كرامتها وهامتها مرفوعة. وهذا الصمود عزز معنويات القيادة والعناصر الموجودة على الخطوط الأمامية.

شعروا أن ظهرهم محمي، رغم كل محاولات الدس والتحريض والإساءات.

كانت قيادة المقاومة تتابع مع كل القيادات السياسية والفعاليات الحزبية والشخصيات من مختلف التيارات، الشأن الداخلي والمبادرات التي كانت تطرح على لبنان، وكانت ترفض أي شروط مذلّة للبلد والشعب والمقاومة وتكون على حساب السيادة والاستقلال الوطني، خصوصاً بعد كل التضحيات الجسام التي قدمتها، فشعارها كانت تلخصه كلمة واحدة وهي: «الكرامة»، فالبيوت هدمت ويمكن إعادة بنائها والبنية التحتية ضربت ويعاد بناؤها، لكن من غير المسموح أن تهدر العزة والمناعة ومع ذلك كانت المقاومة منفتحة على المعالجات والنقاش السياسي. تتعاطى مع كل الأمور بمرونة، لكن دون ذلك طبعاً خط أحمر.

رأت أن لبنان بحاجة إلى إرادة سياسية كي يكسب المعركة، إرادة لا تقل عن إرادة المقاتلين في الميدان، ولا تقل عن إرادة الصامدين والنازحين والمتضامنين معهم من كل أبناء الشعب اللبناني، لبنان بحاجة إلى إرادة وطنية جامعة حتى لا تذهب كل التضحيات هدراً، وكان الحرص شديداً على أن تتولى الحكومة مسؤوليتها الوطنية من أجل لبنان وشعبه، وكانت المقاومة تتصرف بحرص على التعاون مع الحكومة ومع كل التيارات والقوى السياسية، لتقدم لبنان الموحد المتماسك لصالح الوطن، لأنها ـ حسب كلام نصر الله ـ أمام فرصة تاريخية «لتحرير كل شبر من أرضنا، واستعادة الأسرى وضمان سيادتنا الوطنية، وأن لا تبقى سماؤنا ولا مياهنا ولا إنساننا عرضة للاختراق والعدوان الصهيوني».

كانت ترد على بعض الأشخاص، في بعض التيارات السياسية، الذين يخوّفون قواعدهم من تبعات انتصار المقاومة، ويطمئنهم بأن الانتصار

سيكون لكل لبنان، بكل مناطقه وطوائفه وتياراته ومؤسساته الرسمية والشعبية، تماماً كما هو انتصار لكل عربي ومسلم ومسيحي شريف في هذا العالم وقف ضد العدوان ودافع عن لبنان بالكلمة أو بالفعل أو المساندة، وسيكون أيضاً انتصار لأهل المقاومة، ولكل الذين احتضنوهم وأكرموهم من صيدا إلى جبل لبنان الشمالي إلى جبل لبنان الجنوبي إلى بيروت وإلى الشمال والبقاع. فالانتصار سيكون حافزاً لإعادة لبنان أجمل مما كان، لبنان القوي، القوي الموحد.

وحددت المقاومة موقع لبنان بوضوح وبكلام قاطع، أنه لن يكون أمريكياً ولا إسرائيلياً، ولا موقعاً من مواقع الشرق الأوسط الجديد الذي يريده الرئيس جورج بوش ووزيرة خارجيته كوندليسا رايس. ونبهت إلى أن المجازر التي ارتكبت والمنازل التي هدمت لم تكن بسبب زلزال، بل بسبب العدوان الإسرائيلي الأمريكي، والذين هجّروا من بيوتهم ليس بسبب تسونامي أو انفجار بركان وإنما بسبب إسرائيل، لذلك لا نرضى بأن يتم التعاطي مع لبنان كحالة إنسانية بائسة نقدم لها الدواء وحصص التموين وبعض الأموال، ومن يقدم ذلك مشكوراً، إنما يجب أن يتركز الجهد على وقف العدوان.

ولاحظت قيادة المقاومة، أن الإسرائيليين والأمريكيين حرصوا وحرضوا دائماً على إحداث فتنة أو شقاق بين اللبنانيين في داخل الحكومة اللبنانية وبين القوى السياسية، والشاهد على ذلك، أن الإعلام الإسرائيلي والمعلقين والصحفيين، كانوا يركزون على أن هناك جهات حكومية لبنانية كانت تتصل بهم . وتدعوهم ألا يوقفوا هجومهم، باعتبار هذه فرصة ذهبية وتاريخية للقضاء على المقاومة، وقد كذّبت المقاومة هذا الكلام وصنّفته في خانة الدس الرخيص ومحاولة الإيقاع بين اللبنانيين، كما

كذّبت كلاماً قيل على لسان الأمريكيين الذين كانوا يرددون أنهم ينسقون مواقفهم مع الحكومة لاتخاذ القرارات في مجلس الأمن، كانت المقاومة تعرف أن الهدف هو فك التضامن القائم بين اللبنانيين، وعندما طرحت الحكومة النقاط السبع، ناقشها وزراء المقاومة بإيجابية رغم بعض التحفظات حول عدد من النقاط، لكنها كانت حريصة أن تكون الموافقة جماعية لصالح المعالجة السياسية لوقف العدوان. قدّرت المقاومة كل الجهود السياسية والدبلوماسية التي بذلت مستفيدة من الصمود الأسطوري للمقاومة والشعب. داعية إلى مزيد من اليقظة لمواجهة الاستحقاقات المقبلة، لأن العدو الذي خرج مهزوماً، سيحاول النيل من وحدة اللبنانيين وتضامنهم بشتى الطرق والوسائل.

وعبّرت عن قلقها من تقييم نتائج الحرب في لبنان، واعتبار أسبابها غير موضوعية، وإنما انطلقت من خلفيات سياسية أو مذهبية أو طائفية، فيما كل العالم يشيد بالانتصار الكبير، حتى إسرائيل نفسها اعترفت بالهزيمة ـ.

وكشف نصر الله في حوار مع «السفير» في ٥/٩/٢٠٠٦م، كيفية التواصل مع القيادات السياسية فقال: إن اتصالاته بالرئيس إميل لحود كانت دائمة عبر أحد الوسطاء من حزب الله، الذي كان يتمكن من محادثته هاتفياً أو مباشرة، وكنا نضعه دائماً بالمعطيات الميدانية والتطورات السياسية الجارية، وكان موقف لحود من المقاومة قبل العدوان وخلاله وبعده، هي مواقف مشهودة ومشكورة ومعروفة.

أما بالنسبة لرئيس مجلس النواب نبيه بري، فالتعاون والتنسيق والتفاهم معه كان يومياً وعبر خط مفتوح، وكان هناك أكثر من طريقة للحوار مع رئيس الحكومة فؤاد السنيورة، من خلال وزراء الحزب في الحكومة، وأحياناً من خلال اتصال رئيس الحكومة بالمعاون السياسي

حسين خليل، لكن ما كنا نتفق عليه في نهاية المطاف هو ما كان ينجز من خلال قناة الرئيس بري باعتباره كان يتولى الإدارة السياسية للمعركة، وكنا دائماً سواء على طاولة مجلس الوزراء أو في الكواليس في نقاش دائم مع رئيس الحكومة، وحرصنا طيلة فترة الحرب أن تبدو الحكومة قوية، منسجمة، مجمعة رغم تحفظاتنا وملاحظاتنا أو اعتراضاتنا على بعض النقاط والمواقف، لأنها الموقع الذي يفاوض دولياً بالنيابة عن كل لبنان. كنا جميعاً في المقاومة والرئاسات الثلاث والحكومة وبقية المؤسسات والقوى السياسية نخوض معركة لبنان بأسره، وليس معركة طائفة أو منطقة أو مذهب، وكانت تحصل تباينات ونقاشات حول سبل معالجة موقف معين، وما يمكن قبوله أو عدم قبوله، وهذا أمر طبيعي ومنطقي وصحي، وكان يعالج بالحوار الهادىء، وفي النهاية تفضي الحوارات الجادة والدقيقة والمسؤولة والمجهدة بسبب حساسية الموضوعات ومصيريتها بالنسبة للبنان والمقاومة، لكن في نهاية المطاف كنا نتوصل دائماً إلى نتائج مرضية ومعقولة، وهذا الأمر مكن لبنان بفعل هذا التعاون من أن يخرج بنسبة كبيرة من المحنة التي كان يعيشها.

وفي الأيام الأولى للحرب، كانت هناك اتصالات مع النائب سعد الحريري، بسبب وجوده خارج لبنان، وكان حسين خليل يتواصل معه بشكل دائم، ولكن مع اشتداد القصف واستهداف المباني والحزبيين كان استخدام الهاتف الدولي مشكلة من الناحية الأمنية، لذلك بقي الاتصال بالواسطة، سواء من خلال الرئيس بري، أو من خلال بعض الأصدقاء المشتركين والاتصال غير المباشر لم ينقطع. ووجهات النظر كان يتم تبادلها بصورة دائمة.

ولم يجر أي اتصال مباشر مع النائب وليد جنبلاط. وفي الأيام

الأولى أطلق بعض المواقف الإيجابية، فطلبت شخصياً من الأخ السيد نواف الموسوي، أن يتصل بوزير الإعلام غازي العريضي ليبلغ جنبلاط شكرنا على المواقف التي أطلقها في ذلك الحين، لكن لم يرق الأمر حتى الآن إلى مستوى إعادة الاتصال الطبيعي الذي كان قائماً بيننا وبينه قبل حوالي السنة.

وكانت اتصالاتنا مع مختلف القوى السياسية الأخرى، وخاصة المصنّفة في إطار ٨ آذار/ مارس، دائمة من خلال الإخوة في المجلس السياسي وعدد من النواب الذين أتيح لهم بعد أيام عدة من الحرب، فرصة التواصل، ومنهم الإخوة في اللقاء الوطني بدءاً من الرئيس عمر كرامي إلى الوزير سليمان فرنجية وإلى بقية الوزراء والنواب السابقين، وكذلك مع الأحزاب الوطنية التي شارك بعضها معنا، وسقط لهم شهداء أعزاء. وكان التواصل مع الرئيس سليم الحص شبه يومي، وهو كان لا يبخل علينا بالنصائح والاقتراحات والأفكار، وكانت كلها تصب في خانة حماية المقاومة والوحدة والمصلحة الوطنية العليا، وكان هو يواكب مرحلة الحرب بشكل دقيق، أيضاً الإخوة في الجماعة الإسلامية وبقية الأطر الإسلامية والجهات الإسلامية والوطنية والحزبية المختلفة، حافظنا على التواصل معهم، كذلك كان هناك اتصال دائم ويومي مع التيار الوطني الحر والعماد ميشال عون وقيادات وفعاليات مسيحية عديدة.

هـ ـ الجبهة الإعلامية

يشكل الإعلام جبهة مواجهة أساسية في أي حرب، وإسرائيل من أقدر الجهات التي تجيد التعامل في إدارة هذه المعركة، لما تملكه من إمكانات وسيطرة على وسائل الإعلام الدولية ولما لها من تحالفات تساعدها على التفرد في بث الصورة والرأي، وخبرة كوّنتها من تجارب سنوات طويلة.

وقد استغلت كل وسائل التأثير على الرأي العام، في كل حروبها السابقة ضد العرب لتشكيل العقل الأجنبي حتى بات من الصعب على أي وسيلة إعلام عربية أو دولية محايدة من إحداث اختراق وصولاً إلى الحقيقة والتواصل مع الجمهور بأسلوب مغاير.

ككل مرة، وضعت إسرائيل استراتيجيتها الإعلامية للحرب الجديدة، مركزة على نقطتين:

الأولى: استنفار كل وسائل الإعلام الإسرائيلية، والدولية لمرافقة جيشها وهو يجتاح لبنان، ليسجل انتصاراً ساحقاً ماحقاً ضد حزب الله.

الثانية: تدمير كل الإعلام المضاد، وفي مقدمه الإعلام المقاوم المتمثل في محطة «المنار» وإذاعة «النور» ومركز العلاقات الإعلامية التابع للحزب.

لم تجد صعوبة في النقطة الأولى، فسرعان ما جندت فريقاً كبيراً مسلحاً بأحدث تقنيات البث الفضائية، لينقل للعالم صورة غير مسبوقة لهزيمة «الإرهابيين» في لبنان، وتجريدهم من أسلحتهم، وأسر أعداد كبيرة من عناصرهم، وقد توافد مئات المراسلين الأجانب والعرب، إلى كل من بيروت وتل أبيب، لمرافقة الجيش الإسرائيلي ومتابعته في «نزهته» المريحة بجنوب لبنان، ولكنها سرعان ما اكتشفت وهمها، تحوَّل هذا الإعلام إلى رصد لأخطر هزيمة للجيش الإسرائيلي، وعلى الرغم من محاولات الإعلام الأجنبي المسيس لصالح إسرائيل، من نشر الأكاذيب، وامتناعه عن بث المعلومات والصور الحقيقية، سواء بالنسبة لفرار الجنود الإسرائيليين من المعركة، وازدياد أعداد القتلى والجرحى، وتدمير دبابات الميركافا، أو بالنسبة للمجازر الوحشية التي ارتكبها الاحتلال ضد المدنيين اللبنانيين الأبرياء، فإنه وبعد أيام من الحرب شعرت القيادة

العسكرية في إسرائيل أن طوابير الإعلام التي أتت بهم لخدمة أغراضها، باتت عبئاً ثقيلاً عليها يجب أن تتخلص منه، فراحت تضايق بعضهم، وتطرد البعض الآخر، وتمنع الفريق الثالث من التقاط الصور في الأماكن التي يحددها، وذلك بحجة أن نقل الصور تفيد العدو، وتقدم له المعلومات المجانية عن دقة الإصابات، وأماكنها، وتساعد على تحسين تصويبه، واتهمت البعض بأن حزب الله جندّه كي يكشف نقاطاً تعتبر سرية ومحظورة أو أنه يسرّب له المعلومات، ففرضت قيوداً شديدة، ورقابة صارمة على كل صورة أو معلومة يمكن أن تنقل عبر الفضاء، فاحتج الإعلاميون على هذا الأسلوب في التعامل، وبعضهم آثر جمع كاميراته والمغادرة، والبعض الآخر اضطر للتقيد بالتعليمات الجائرة. وهناك من بقي يعمل وفق المنظور الإسرائيلي، يقدّم مادة إعلامية ضعيفة وغير مؤثرة، ولا تعطي صورة حقيقية عما يجري، ما دفع الجمهور الإسرائيلي، والعربي والدولي، إلى متابعة قناة المقاومة، وبعض المحطات العربية الأخرى كـ«الجزيرة» وغيرها، لمعرفة تفاصيل الأحداث والوقائع، ولعبت بعض الفضائيات اللبنانية أيضاً دوراً مميزاً، فيما كانت تغطية بعضها الآخر منسجماً مع رؤية سياسية كانت تتمنى بأن تلحق إسرائيل هزيمة بحزب الله، إلا أنها شعرت بالحرج بعد ازدياد حجم الدمار والنزوح فعدلت بعض أدائها لكن ليس إلى درجة ما كان يؤمل منها، والشيء نفسه ينطبق على محطات عربية أخرى، كانت تنتظر تسجيل انكسار للمقاومة، وفقاً لرغبة بعض الحكام العرب، إلا أنها اضطرت بعد ذلك إلى تغيير بعض مفرداتها وصياغتها خوفاً من ردة الفعل الشعبية، وتجاهل الرأي العام العربي والإسلامي لها، تماماً كما عدّل بعض من يمثلها في السياسة موقفه بعد انكشاف الحقائق الميدانية. ولم يكن تعامل القيادة العسكرية مع الإعلام

الإسرائيلي بأفضل من معاملة الإعلام الآخر، الذي تحول إلى رقيب وساخر، بعد فشل الهجوم وتراجع الجيش بشكل فاضح، وكان الإعلام الإسرائيلي عندما انطلق في تغطيته للحرب، يتباهى بقوة الجيش، وقدرته على «طحن» حزب الله خلال ساعات معدودة، وشنّ حملة دعائية لا تقوم على أساس، لحث الجمهور على دعم الحكومة في قرارها، والاستعداد لحضور مشهد هو أشبه بفيلم سينمائي طويل، يرى فيه «رامبو» الإسرائيلي وهو يهزم أعداءه وحده، دون أن تصيبه رصاصة، أو شظية، أو تمس شعرة من رأسه طلقة. كان الإسرائيليون يفركون أياديهم فرحاً لأنهم سيقضون على الخطر الذي يهددهم من خاصرتهم الشمالية، وفقاً للمعلومات التي كان الجيش يسربها أو يتقصّد بثها. مع مرور الوقت، تبيّن لهذا الجمهور، أن إعلامهم كاذب ومضلِّل، وغير صادق، بعد أن عاش كابوساً مرعباً، نتيجة الأنباء التي تسربت عبر وسائل إعلام أخرى ـ وتحديداً إعلام المقاومة ـ عن سقوط مئات القتلى والجرحى في صفوف جيشهم، واحتراق عشرات الدبابات والآليات العسكرية. وعدم قدرة هذا الجيش التقدم أمتاراً قليلة في الجنوب.

انتقد أساف شنايدر في صحيفة معاريف، القنوات المرئية الإسرائيلية، فكتب: «أهلاً وسهلاً بكم في المرحلة الثانية من سيكولوجية الجماهير ضمن فنون الحرب: فقد انتقلنا من مرحلة القبضاي إلى مرحلة الوعي والحساب، وكل يوم يمر يأتي بانخفاض معين في منسوب الحماس، كل يوم ينقضي يزيل من أمامنا علامة تعجب أخرى من المطالبة الوطنية: اقضوا عليهم»!![1].

---

(١) موسى، حلمي، «إسرائيل بين سياسة الفهم الكبير.. والجيش الكبير والغبي»، «السفير»، ٢٦/٧/٢٠٠٦م

وتعرض الإعلاميون الإسرائيليون للتوبيخ من القيادة السياسية والعسكرية لدورهم في تمجيد نصر الله، وشعروا بأن هناك من يحاول تحميلهم مسؤولية إخفاق الجيش. وتحدثت صحيفة «هآرتس»، عن أن سياسة الفم الكبير لدى كبار الضباط ليست سبباً لتهدئة الخواطر، في بعض الأحيان يبدو أن بساطة عبارات السيد حسن نصر الله، وغبار المعركة الذي يلفه أكثر ملاءمة لطبيعة الحرب، واعتبرت أن وظيفة الضباط ليس استغلال المنصة والمنابر من أجل تربية العدو وإثارة حماسة الجماهير وإطلاق تصريحات سياسية.

وقالت الصحيفة في إحدى مقالاتها: يبدو أن نتيجة استعراضات القوة الخطابية قد تؤدي إلى نقيض ما خطط له وربما أن الجمهور أذكى من قادته، ولا ينظر بعين الرضا إلى الأسلوب الجديد الذي يقوم به بعض الضباط بالحديث عن خططهم وعملياتهم في الساعات المقبلة، لقد آن الأوان لإعادة الضباط العسكريين إلى حجمهم الطبيعي، وخصوصاً إلى دورهم الطبيعي.

وتندّر بعض الإعلاميين على الوسائل البدائية التي استخدمها الجيش الإسرائيلي في مخاطبة الشعب اللبناني، كإلقاء المنشورات فوق البلدات والقرى اللبنانية، أو إجراء اتصالات هاتفية عشوائية مع بعض المواطنين اللبنانيين ووصفها بأنها «هابطة».

١ ــ تدمير مبنى «المنار»

وبالنسبة للنقطة الثانية (ضرب الإعلام المقاوم). نفذت الطائرات الحربية غارات مباشرة على مبنى قناة «المنار»، ومبنى إذاعة «النور» فدمرتهما تماماً، وسوتهما مع الأرض، الإصابة لم تكن قاتلة، لأن حزب

الله كان متحسباً لهذه الضربة، كان قد نقل كل أجهزة المحطات إلى أماكن آمنة، رغم القصف استمر البث، مما أزعج الإسرائيليين الذين قادهم الظن بأن البث يتواصل من أقنية وطبقات تحت الأرض، فعادوا وقصفوا بالقنابل الأمريكية «الذكية» المباني من جديد، إلا أن البث استمر، وكان له وقع مؤثر أكثر.

لعب الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، دوراً إعلامياً بارزاً خلال الحرب فشدّ إليه الجمهور الإسرائيلي، كما اللبناني والعربي والدولي، فخطف الأضواء، وسيّر المعركة باقتدار كبير، وبلغة هادئة رغم الدمار والنار والدخان، وشن حرباً نفسية كان لها الأثر الكبير في دفة الحرب، ومن أبرز الأسباب التي سهلت له الوصول إلى ذاكرة وقلوب المشاهدين. الصدق، كان الإسرائيليون يفضلون الاستماع إليه، أكثر من الاستماع إلى قيادتهم التي فقدوا الثقة بها وبإعلامها، كان الإعلام الإسرائيلي ـ وتلبية لرغبة هذا الجمهور ـ يقطع بث كلمات وخطب الزعماء الإسرائيليين، لينقل وقائع رسائل نصر الله عبر «المنار» أو «الجزيرة» ويترجمها مباشرة، كانت لكلمات نصر الله وقعاً كبيراً في نفوس الشعوب العربية والإسلامية وشريحة كبيرة في العالم بأسره، لأنها كانت مدروسة، ومبنية على الثقة بالنفس، ودراية بخفايا الأمور، ومدركة لأبعاد وحقائق ما يجري، كما كانت تحرك المقاتلين في الميدان، وتخاطبهم وكأنهم في جلسة تنظيمية.

وقد اعترف جاكي حوجي، بتميز إعلام المقاومة وتخلف الإعلام الإسرائيلي، عندما قال: «أصبح في الإمكان الآن أن نحدد أنه في جبهة الإعلام نحو لبنان والعالم العربي، تصاب إسرائيل بهزيمة صارخة، إنها هزيمة صارخة لأن الدولة لا تستطيع أن تخرب دولة مجاورة، ولا تقول

لمواطني الدولة المجاورة ما هو المنطق الذي يقف من وراء ذلك..»[1].

وهذا ما انعكس سلباً على شعبية أولمرت وبيرتس، حيث تدنت نسبته لدى الأولى من ٧٨٪ في ١٩/٧/٢٠٠٦م، إلى ٤٠٪ في ١٥/٨/٢٠٠٦م، وتراجع تأييد الثاني من ٦١٪ إلى ٢٨٪ في نفس التاريخين السابقين، وذلك وفق استطلاعات الرأي الإسرائيلية.

أما تفاصيل استهداف «المنار» وإعلام المقاومة عموماً، والخطط التي كانت معدة لمواجهة كل التحديات المتوقعة، فحدثني عنها المدير العام لقناة المنار عبد الله قصير فقال:

مع بداية الأسبوع الرابع للعدوان وبتاريخ ٣/٨/٢٠٠٦م الساعة العاشرة والربع ورد خبر على أحد مواقع الانترنت (لوكالة معا) يقول ما نصه:

قناة «المنار» هزمت قناة «فوكس نيوز»، في مصداقية الخبر.

يعترف الخبراء الإسرائيليون بأن قناة «فوكس نيوز» الأميركية التلفزيونية هي التي تدير المعركة نيابة عنهم ضد حزب الله وأمام العالم، ولكن هذه القناة الأميركية لم تعد تحظى بالمصداقية حتى في أوساط الجمهور العبري الذي يزيد ويزيد من متابعته لقناة المنار، رغم أن الجيش الإسرائيلي أمر بقطع بثها عدّة مرات وباء بالفشل.

لقد سبق استهداف الطائرات الحربية الإسرائيلية لمبنى قناة «المنار» ومحطات إرسالها في أكثر من منطقة لبنانية وتدميرها، قراراً أميركياً باعتبار «المنار» قناة تلفزيونية تابعة لمنظمة إرهابية (وهو أمر فيه تجني واضح) وقرار

---

(١) جاكي حوجي، «إخفاق الإعلام»، «معاريف» الإسرائيلية، ٢٥/٧/٢٠٠٦م.

فرنسي بمنع بث «المنار» على الأقمار الأوروبية (وفيه مداراة أكيدة وخضوع للوبي الصهيوني في فرنسا)، ولعلّ هذين القرارين كانا قد شكلا في الأعوام القليلة الماضية الضوء الأخضر للصهاينة لممارسة الاعتداء على قناة «المنار» عسكرياً أو أنهما شكلا الغطاء السياسي و«القانوني» المصطنع لقرار جيش الاحتلال الصهيوني الأخير باستهدافها.

ومع تعرض قناة المنار صباح الخميس الواقع في ١٣ تموز/يوليو لغارة جوية إسرائيلية استهدفت تجهيزات البث والإرسال وأجهزة الاستقبال المثبتة في أعلى المبنى الرئيسي في «حارة حريك» بضاحية بيروت الجنوبية، كان قد أصبح محسوماً أن الأعمال العدوانية التي تشنها إسرائيل على لبنان، لم تكن ردة فعل (متوازنة) على عملية أسر جنديين صهاينة من قبل المقاومة الإسلامية على الحدود اللبنانية الفلسطينية المحتلة، بهدف إجراء تبادل مع عدد من المعتقلين والرهائن اللبنانيين الذين تحتفظ بهم إسرائيل منذ سنوات، بل هي عدوان واسع وحرب أعدت سيناريوهاتها مسبقاً، واتخذت من عملية المقاومة ذريعة، وهذا ما يذكرنا باجتياح إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢م عندما كانت الذريعة للاجتياح محاولة اغتيال تعرض لها سفير إسرائيل في لندن آنذاك، لأنه لا يفهم في أي مقياس أو أي منطق عسكري أو سياسي أن تستهدف وسيلة إعلامية (وإن كانت تختلف في المنطلقات والرؤى) وتصبح هدفاً عسكرياً بعد مضي أقل من ٢٤ ساعة على عملية المقاومة (العملية تمت صباح الأربعاء ١٢ تموز/يوليو).

لقد عملت إدارة القناة خلال الساعات الأولى من وقع هذا العدوان إلى إفراغ مبنى القناة من معظم العاملين، مع إبقاء فريق أساسي في الاستوديوهات الرئيسية للأخبار، للمحافظة على استمرار تغطية الأحداث، لاسيما العدوان المستمر على لبنان، بينما انهمك فريق الهندسة من خلال

استنفار لكامل الإمكانات المتاحة للعمل على تأمين متطلبات انتقال البث والإنتاج التلفزيوني من المبنى الرئيسي خلال أقل من ٤٨ ساعة، ونجح الفريق في تحقيق هذا الأمر، انطلاقاً من بعض الإمكانات المتواضعة التي يملكها والكثير من عزيمة التحدي والصمود المستندة إلى قوة الإيمان والعقيدة والإرادة الصلبة.

ومع الساعات الأولى من فجر السبت ١٥ تموز/ يوليو تعرض المبنى لغارة جوية حاقدة أدت إلى انهياره بشكل شبه كامل، إلاّ أن العناية الإلهية أنقذت الفريق العامل في الاستوديوهات، واستطاعوا الخروج سالمين تقريباً، لولا بعض الجروح البسيطة التي أصابت اثنان منهم، وكانت الإدارة قد عملت على تهيئة أبواب مخارج الطوارىء في الاستوديوهات لاستخدامها في مثل هذه الحالة.

في الدقائق الأولى من انهيار المبنى، اتصل بي مدير الأخبار والبرامج السياسية الحاج «محمد عفيف»، الذي كان قد بقي مع فريق الأخبار ليلاً في الاستديو، وأخبرني بوقوع الغارة وتهدم المبنى، وتفاهمنا على طريقة نقل الفريق ومعالجة المصابين، والانتقال مباشرة إلى المركز الذي كان قد انتهى تجهيزه للتو ليكون بديلاً عن استوديو الأخبار والإنتاج في المبنى الرئيسي، وهذا ما حصل، وبحمد الله نجحت الإجراءات المتخذة ولم ينقطع البث سوى دقيقتين فقط، هما الوقت الذي احتجناه للاتصال بمركز البث الاحتياطي للمباشرة بالبث، جعلت العدو الإسرائيلي وحليفه الأميركي (التلفزيون الإسرائيلي والـCNN) يعلنان عن فرحهما بقطع بث المنار، إلاّ أن فرحتهم لم تدم أكثر من هاتين الدقيقتين، حيث عاد البث من جديد وعاد للشاشة نورها وصوتها المدوّي.

قمت شخصياً برفقة أحد المدراء بتفقد المبنى الرئيسي صباح

السبت، وشاهدت حجم الدمار الذي ألحقته الغارة الجوية الحاقدة بكامل طبقات المبنى، وحاولت التأكد من سلامة الاستوديوهات تحت الأرض إلاّ أن حجم الأنقاض والدمار فضلاً عن الدخان المنبعث من بين ثنايا أنقاض المبنى ومداخل الاستوديوهات، حال دون تمكننا من الوصول إلى غايتنا.

لقد عملنا بعد هذه المرحلة إلى تأمين أكثر من مكان وبسرعة قياسية لتأمين استوديوهات إنتاج للبرامج السياسية والأخبار، وضمان استمرار البث إضافة إلى استقبال الضيوف في البرامج والتواصل مع المشاهدين.

لقد واسى العاملون في المنار المليون مهجر من اللبنانيين الذين خرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أنهم قالوا ربنا الله. وبقيت فرق عمل المنار من المصورين والمراسلين والمعدين والمنتجين مهجرين في أماكن بديلة ومؤقتة طيلة فترة الحرب، ولكنهم استطاعوا أن يحرموا العدو الإسرائيلي من تحقيق هدفه في خنق صوت الحقيقة والمقاومة أو في إطفاء شعلة المنار المتوهجة.

لقد كان واضحاً أن الهدف الصهيوني من استهداف قناة المنار في اليوم الأول للعدوان، ثم تدمير المبنى كلياً في اليوم الثالث للعدوان، ثم تكرر الغارات على أنقاض المبنى ظناً منهم بأن البث يتم من تحت الأنقاض، فتم استهداف الطوابق السفلية بالصواريخ الذكية الأميركية التي لم تبق للاستوديوهات أثراً، هو إسكات وإطفاء صوت وصورة هذه الشاشة التي مثلت طوال سنين، منهجاً إعلامياً مميزاً بين الزميلات حيث كانت أكثر جرأة وصراحة في فضح مخططات العدو الإسرائيلي وأساليبه الإرهابية، وكشف الحقائق التي طالما سعى العدو لإخفائها، أو عمل من خلال الدعاية الإعلامية (البروباغندا) لتحريفها وتشويهها.

«المنار» التي انطلقت عام ١٩٩١م أرضياً وعام ٢٠٠٠م فضائياً، نقلت وقائع أكبر هزيمة عسكرية وأمنية لحقت بالصهاينة في لبنان (وجنوبه تحديداً)، مما ساهم في تغيير صورة الأسطورة التي طالما عمل الإعلام الإسرائيلي على بنائها طوال حقبات من الزمن في اللاوعي العربي والعالمي.

مع «المنار» ونقلها المباشر وشبه اليومي لعمليات المقاومة الإسلامية في لبنان، بدأت صورة العدو تهتز (صورة الجيش الذي لا يقهر) وتحولت النظرة إليه تدريجياً لتصبح الصورة الأكثر واقعية والأقرب إلى الحقيقة لجيش يملك الكثير من أدوات القتل والدمار والإرهاب المتطورة، ولكنه يقع في الكثير من الأخطاء والأفخاخ ويتعرض للكثير من النكسات والضربات ويعترف بالهزيمة والفشل.

مع المنار وتحقيقاتها ورصدها لإعلام العدو وكشفها للكثير من مغالطاته وادعاءاته، بدأ المواطن العربي يستعيد ثقته بنفسه وبأمته وبمقاومته، وأصبح أكثر وعياً لما يحدث في الصراع المستمر في فلسطين والجنوب اللبناني، وأصبح أكثر ثقة بقدرة المقاومة المؤمنة بحقها والمعتمدة على نفسها والمتوكلة على ربها، والقادرة على إفشال مخططات العدو التوسعية أو منعه من الاستقرار والراحة في مناطق احتلاله.

نعم، هذا هو الإعلام الذي استهدفه القصف الإسرائيلي وكان الاستهداف جزءاً لا يتجزأ من سيناريوهات الحرب المعدّة والمقررة ضد لبنان، وهي تشمل ضرب عناصر القوة الرئيسية للمقاومة في لبنان وأبرز أهدافها هي:

١ ـ القضاء على قيادة حزب الله ممثلة بسماحة الأمين العام السيد حسن نصر الله.

٢ ـ القضاء على منصات إطلاق الصواريخ (التي تستخدم لردع الاحتلال) كقوة أساسية في توازن الرعب مع العدو.

٣ ـ القضاء على المنار كشاشة ملتزمة بمنهج المقاومة وداعمة لها، وكعامل أساسي في تثبيت صمود الناس ورفع معنوياتهم.

٤ ـ محاولة إيجاد شرخ بين المقاومة وشعبها من خلال تدمير الأبنية السكنية، وتشريد وتهجير المدنيين لتأليبهم على المقاومة.

وبعد ٣٣ يوم من العدوان المستمر الذي لم يوفر فيه العدو استخدام كل إمكاناته العسكرية جواً وبحراً وبرّاً، وبدعم واضح وصريح من الإدارة الأميركية وبعض الدول الأوروبية، وفي ظل عجز وصمت عربي ودولي إذا لم نقل أحياناً تواطؤ واضح. فشل العدوان في تحقيق أي من هذه الأهداف الأربعة، وبقيت المنار شعلة لن تنطفىء ومحجة لكل الشرفاء والمؤمنين بنهج المقاومة للاحتلال ومشاريعه في المنطقة.

العدو لم يكتف باستهداف المنار في مبناها الرئيسي، بل عمل على مضايقة واستهداف الصحفيين في الجنوب عندما تعرض فريق صحفي من قناة NTV في الأيام الأولى للعدوان للقصف المباشر، ثم عندما استهدف العديد من محطات الإرسال اللبنانية لأنه كان يظن بأن بعض هذه المحطات متضامنة مع المنار، ويحتمل أن تكون قد قدمت بعض الخدمات الهندسية لها، أو قدمت تسهيلات بث لقناة المنار كبديل عن ما خسرته.

إن ما كان يجهله العدو أن شيئاً من هذا كله لم يحصل وكانت المنار قادرة على الاعتماد على نفسها، وهي منذ اللحظة الأولى اتخذت قراراً بعدم إحراج أي من الزميلات وعدم طلب أي مساعدة منهن.

وفي اليوم الحادي عشر للحرب انتقمت إسرائيل من محطات الإرسال الأرضية للفضائيات اللبنانية في كسروان والشمال، ما أدى إلى تدميرها، وانقطاع البث الأرضي للتلفزيونات اللبنانية عن منطقة الشمال، كما دمرت هوائيات إرسال لشركتي الخلوي، وقتل أحد عناصر المؤسسة اللبنانية للإرسال سليمان شدياق، وجرح زميله شربل عقيقي، في الغارة على محطة الإرسال في منطقة فتقا ـ أدما في فتوح كسروان وأصيب الموظف التقني في تلفزيون لبنان خالد عيد بجروح خطيرة، أثناء الغارة على عمود الإرسال التابع لتلفزيون لبنان في فيع في الكورة. ودمرت أعمدة ومبانٍ ومحطات إرسال تلفزيونية وإذاعية في مناطق جبل تربل، وجبل ايطو في قضاء زغرتا شمال شرق مدينة طرابلس، وسقط جريحان أحدهما من عناصر الجيش اللبناني.

وأغار الطيران على جبل ايطو في إهدن قضاء زغرتا، مستهدفاً محطة إرسال قديمة تابعة للإذاعة اللبنانية.

سادساً: الخسائر البشرية والاقتصادية

كانت أكلاف الحرب على لبنان وإسرائيل باهظة جداً، وإذا كان لبنان اعتاد مثل هذه الخسائر جراء الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة، والتي لم تتوقف منذ العام ١٩٤٨م، فإن المسألة بالنسبة لإسرائيل كانت شديدة الوطأة في الناحيتين البشرية والاقتصادية على حد سواء، فهذه الحرب هي الأولى التي تقصف فيها المدن والقرى والمستوطنات بهذا الشكل العنيف، والمرة الأولى أيضاً التي تتسبب المواجهات فيها إلى هذا الرعب الإسرائيلي، والخسائر في البنى التحتية والاقتصادية إضافة إلى الأرواح، ما دفع إلى هجرة واسعة للمستثمرين ورؤوس الأموال، وتوقف النشاط السياحي، وإصابة المؤسسات الصناعية والتجارية بأضرار مباشرة وشلل شبه تام.

١ ـــ الكلفة اللبنانية

أطلقت الحكومة الإسرائيلية يد جيشها، جواً وبحراً وبراً، على الغارب، للانتقام من لبنان ومقاومته وشعبه، ضاربة بعرض الحائط كل القيم والاعتبارات الإنسانية والقوانين الدولية، فعمدت الطائرات الحربية إلى قصف المدن والقرى والبلدات في الجنوب والبقاع وضاحية بيروت الجنوبية، بأطنان من الصواريخ، استهدفت مطار بيروت، والجسور والطرق

الرئيسية والفرعية في كل المناطق، لتقطيع أوصال لبنان، كما استهدفت المصانع ومؤسسات الكهرباء وخزانات الوقود، ومحطات المحروقات، والمياه والمستشفيات، ولم تستثن المنازل والأحياء السكنية التي دمرت على رؤوس الأطفال والنساء، مستخدمة قنابل محرمة دولياً، وأخرى زودتها بها الولايات المتحدة أمريكية أثناء الحرب، لتطال الملاجئ.

أ ـ الشهداء والجرحى

وأشارت تقارير المفوضية العليا لشؤون اللاجئين في لبنان إلى سقوط حوالي ١٢٨٣ شهيداً بينهم ٣٠٪ من الأطفال وأربعة آلاف و٥٥ جريحاً لبنانياً، بين الثاني عشر من تموز/ يوليو، والواحد والثلاثين من آب/ أغسطس، فيما أعلنت الأمم المتحدة في ٢٠٠٦/٨/١٣م، نقلاً عن الهيئة العليا للإغاثة التابعة للحكومة اللبنانية، عن سقوط ١٠٧١ شهيداً و٣٦٢٨ جريحاً، ونزوح ٩٧٣٣٦١ مواطناً من القرى والبلدات الجنوبية ولجأ ٧٥٠ ألفاً للإقامة عند عائلات مضيفة، و١٥٠ ألفاً توزعوا في مبان عامة أو ٣٥٠ ألفاً توجهوا إلى سوريا[1].

ولم يشأ نائب الأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم، أن يكشف عن الأرقام الحقيقية للشهداء موضحاً لي أن موضوع إحصاءات عدد شهداء المقاومة والجرحى تركناه، لما ورد في وسائل الإعلام، لم نرغب أن نعطي الرقم الإحصائي الداخلي الذي توصلنا إليه، لكن أستطيع أن أقول لك بشكل جازم، أن معلوماتنا هي أن مجموعة الشهداء من الناس وشباب المقاومة الذين يشملهم من كانوا على المحاور مباشرة، أو من هم منتمون إلى حزب الله في المناطق المختلفة واستشهدوا مع بقية المواطنين، أو في

---

(١) السفير، ٢٠٠٦/٨/١٤م.

ظروف مختلفة، كل عدد الشهداء من المقاومة والناس، وصل في حده الأقصى إلى ألف شهيد، وعدد الجرحى من الجميع وصل إلى حوالي ٤ آلاف، بجراح خفيفة أو بليغة. لكن لم نتخذ قراراً بإعلان الرقم الرسمي لخصوصية شهداء المقاومة، وتركنا الأمر لاستنتاجات الكتاب والصحفيين والمراقبين، خاصة أننا شيعنا شهداءنا بشكل معلن، ودوّنت الأسماء عبر وسائل الإعلام، لكن هذا أمر نفسي إذا صح التعبير.

ويوجد عدد من المعتقلين في الكيان الإسرائيلي من منطقة بنت جبيل، وأعتقد أن عددهم قد يصل إلى خمسة معتقلين. ولم يوفر الطيران الحربي والمروحي والتجسسي من نوع «أم. ك» والبوارج الحربية، والقصف الصاروخي والمدفعي الإسرائيلي العشوائي والمركز، السيارات المدنية والمارة مسجلة أبشع المجازر في التاريخ المعاصر، أبرزها همجية في قانا، الدوير، مروحين، زبقين، عيترون، صريفا، الشياح وغيرها، فأبيدت عائلات بكامل أفرادها، وقد استخدمت في الهجمات قنابل فوسفورية وعنقودية وقنابل ذكية وغيرها من أدوات الفتك والموت.

وأحصت وكالة الصحافة الفرنسية سقوط ١١٤٥ مدنياً في لبنان ـ استناداً إلى معلومات رسمية ـ و٣٥ عنصراً من الجيش والدرك، دون أن تشير إلى الذين كانوا ما زالوا تحت الأنقاض، وذلك ما بين ١٢ تموز/ يوليو و١٣ آب/ أغسطس، وقتل أربعة مراقبين تابعين للأمم المتحدة في قصف جوي إسرائيلي على مركزهم في بلدة الخيام، وعنصر من قوات «اليونيفيل»، وإصابة أكثر من ٣٦٠٠ شخص بجروح، ومغادرة ٢٢٠ ألفاً بينهم ١٠٠ ألف أجنبي، لبنان إلى الخارج[1].

---

(١) النهار، ١٤/٨/٢٠٠٦م.

ب ـ الخسائر السكنية

على صعيد المنازل المدمرة كلياً أو جزئياً، ذكرت الإحصاءات، أن العدوان الإسرائيلي دمر ١٥ ألف منزل بالكامل، و١٥ ألف منزل آخر بشكل جزئي، و٣٠ ألفاً أصيب بأضرار مختلفة، وقد أزيلت قرى بكاملها، أو دمرت بشكل شبه تام[١].

وأكدت مصادر نقابة المهندسين اللبنانيين. أن ثمة أكثر من ٤ آلاف وحدة سكنية تم تدميرها على نحو كلي، تتجاوز مساحتها مليون متر مربع، ورأى نقيب المهندسين في بيروت سمير ضومط، أن حجم التدمير في المناطق، ناهز ٣ ملايين متر مربع بناء، حيث إن قرى كاملة أزيلت، مشيراً إلى أن حجم الدمار في قطاع البناء كان مخيفاً جداً. وحدّد مجلس الإنماء والإعمار الأضرار السكنية بأن هناك مناطق دمرت بالكامل، أما ضاحية بيروت الجنوبية مثلاً. فدمّر فيها نحو ١٢٠ مبنى، علماً أن عدد الشقق في المبنى هو ٢٠ شقة أي هناك نحو ٢٤٠٠ وحدة سكنية دمرت نهائياً في الضاحية، وقدرت نقابة المهندسين اللبنانيين المساحة المدمرة في هذه المنطقة بمليون ونصف المليون متر مربع من البناء، واعتبرت أن القذائف الإسرائيلية التي سقطت على ضاحية بيروت الجنوبية توازي ضعفي ما قصفت به بغداد جراء الغزو الأمريكي، وأكدت أن قيمة الخسارة في الضاحية بلغت نحو مليار دولار للمباني السكنية من دون المؤسسات التجارية.

وأشارت إحصاءات النقابة، إلى أن حجم الدمار في قضاء مرجعيون بجنوب لبنان، طال ٦٢٣٠ وحدة سكنية من أصل ١٢ ألف وحدة، أما في

---

(١) تقرير المفوضية العليا لشؤون اللاجئين في لبنان.

بلدة الخيام الحدودية فدمرت فيها ٢٩٠٠ وحدة سكنية من أصل ٤ آلاف. أي أنه تم تدمير ما نسبته ٧٢,٥ في المائة من البلدة، لكن الكارثة الحقيقية كانت في بلدة بنت جبيل التي حاولت إسرائيل اقتحامها أكثر من مرة، فدمرت ٤٠٧٥ وحدة سكنية من أصل ٤٥٠٠ وحدة، وفي بلدة مارون الراس لم يبق من منازلها الـ٧٠٠ سوى ٣٣ منزلاً، وقد تم تدمير ٦٦٥ منزلاً بالكامل، وتتفاوت الأرقام في القرى الحدودية الأخرى، ففي عيناتا لم يبق من منازلها الـ١٥٠٠ سوى ٣٠٠ منزلاً، وفي بلدة عيترون دمر ٩٠٠ منزل من أصل ١٥٠٠، وفي مروحين بقي ٤٥ منزلاً من منازلها البالغة ١٨٠، وتم تدمير ٢٠٤٠ وحدة سكنية من أصل ٦ آلاف وحدة في مدينتي صور والنبطية[١].

جـ ـ تدمير الجسور والطرق

اعتمدت الاستراتيجية الإسرائيلية في مقدمة خطتها، نسف وتدمير كل الجسور اللبنانية، لعزل المدن والقرى والمناطق اللبنانية عن بعضها، وقطع الإمدادات عن حزب الله في الخطوط الأمامية، ومحاصرة المواطنين الصامدين في قراهم، لدفعهم إلى النزوح أو الموت جوعاً. وقد تم استهداف ١٤٥ جسراً بين أساسي وفرعي، انطلاقاً من الجنوب، ومروراً بالمطار والجبل والبقاع وكسروان وجبيل وصولاً إلى الشمال، ومن بين هذه الجسور جسر صوفر ـ المديرج الجديد الذي يعتبر أعلى جسر في الشرق الأوسط، وجسر النملية الذي يربط ضهر البيدر وشتورة، وقدرت الخسائر بـ٢٦٢,٣٤ مليون دولار[٢].

---

(١) الشرق الأوسط، ٢٠٠٦/٨/١٢م.
(٢) الصياد، ٢٠٠٦/٨/١٨م.

وأصيبت شبكة الطرق بأضرار فادحة، وهناك ٩٤ طريقاً قطعت بسبب إحداث حفر كبيرة في وسطها، وقدرت تكلفتها بنحو مليون دولار، ولم تشر الإحصاءات إلى خسائر وسائل النقل، لصعوبة معاينتها، إلا أنها كانت كبيرة.

د ـ القطاعان الصناعي والتجاري

المصانع والمؤسسات التجارية كانت على رأس أولويات التدمير المنهجي الإسرائيلي، لما يمثله لبنان من منافس رئيسي للدولة العبرية، وما أصاب هذين القطاعين من خسائر وأضرار لم تكن الأولى من نوعها ففي كل عدوان، كانت الصناعة والتجارة هدفاً أساسياً وأشارت إحصاءات وزارة الصناعة وجمعية الصناعيين اللبنانيين وغرف تجارة بيروت، أن القصف دمر ٣٠ مصنعاً كبيراً، ونحو ١٥٠ مؤسسة صغيرة ومتوسطة، إضافة إلى عدد كبير من المؤسسات الحرفية كانت موجودة في أبنية ضاحية بيروت الجنوبية. ومن بين المصانع المدمرة: لامارتين لصناعة العلكة والسكاكر في تعنايل، وتضم ٦٠ عاملاً. شركة تريكو ستارلت، شركة تاسكو لصناعة أكياس الورق، شركة عصام ومشاركوه وشركة مايسترو لصناعة الأحذية وكلها في حارة حريك، وشركة الأمصال اللبنانية في الشويفات، وشركة بلاستيتيك وبلاستيميد في صور ومعمل فاين في كفر جرة ـ شرق صيدا، وشركة وكسيموم لصناعة الألبسة وتضم ٤٠ عاملاً. شركة دلال للإنشاءات المعدنية في تعنايل ـ البقاع، شركة وحيد للتجارة والصناعة (روتكس) ـ مصنع ماليبان للزجاج في البقاع، شركة بلحص للتجارة والصناعة في العباسية.

وبذلك خسرت الصناعة أسواقها لفترة طويلة، ما راكم الخسائر الكبيرة

إضافة إلى تعطيل اليد العاملة، ورأى المدير العام في وزارة الصناعة جرجي الخوري، أنه مع إعادة الإعمار التي تقدر بـ ١٩٠ مليون دولار في هذا القطاع. واستعادة الأسواق. خسرت الصناعة ما لا يقل عن ١٦٢ مليون دولار قيمة الصادرات شهرياً.

هـ ـ خسائر القطاعات الأخرى

لم يسلم أي قطاع إنتاجي من الخسائر المباشرة أو غير المباشرة جراء الحرب. فأحصي إحراق ٢٢ محطة توزيع محروقات، قدرت قيمة أضرارها بعشرة ملايين دولار، كما أحرقت خزانات الوقود في المطار، ومعمل الجية، قدرت بـ٨٠ مليون دولار، وبلغت خسائر الكهرباء مئة مليون دولار، وقدرت خسائر قطاع الاتصالات بنحو ٨٥ مليون دولار، وقطاع المياه بنحو ٧٠ مليون دولار. وبلغت الخسائر في المنشآت العسكرية بنحو ١٦ مليون دولار. وقدرت الخسائر التي تسبب بها العدوان على مدرجات المطار بـ٥٠ مليون دولاراً ما اضطر الطائرات المدنية اللبنانية إلى الانتقال إلى مطارات الدول العربية المجاورة لاستئناف رحلاتها من هناك. وقدر حجم الأضرار الإجمالية بنحو ٢,٥ مليار دولار، وهو رقم كبير بالنسبة إلى بلد كلبنان بلغ حجم الدين فيه نحو ٤١ مليار دولار، يضاف إلى كل ذلك الخسائر غير المباشرة، خاصة في قطاع السياحة، والناتجة عن الاستثمارات المتوقعة، وتراجع الصادرات والواردات، وواردات الدولة من القيمة المضافة والرسوم الجمركية، وتوقف النمو الاقتصادي. وتلقى مرفأ بيروت خسارة كبيرة، حيث كانت الواردات تدر عليه ٨ ملايين دولار شهرياً وتعرض القطاع الزراعي الذي يشكل ٧٪ من الناتج المحلي، إلى خسائر كبيرة، جراء العدوان، وأكدت التقارير الدولية أن قيمة هذه الخسائر، من زراعة

وصيد أسماك وأحراج بلغت ٢٨٠ مليون دولار[١]. والأضرار لحقت بالأراضي الزراعية، والتجهيزات الزراعية، وبالمواشي التي نفق منها عدد كبير، وتوقفت مواسم الحصاد، والمحاصيل المعدة للتصدير أهدرت، وأرغم المزارعون على ترك قراهم ومزارعهم والفرار خوفاً من القصف، ولم يستطع هؤلاء المزارعين من العودة إلى حقولهم بعد وقف إطلاق النار، لأن هذه الحقول باتت ملأى بالقذائف والذخائر غير المنفجرة، وكل ذلك زاد من أعباء الدين على العديد من المزارعين الذين كانوا يسددون دينهم في موسم الحصاد المميز من أيار/ مايو إلى تشرين أول/ اكتوبر للحصول على سلفات جديدة للموسم المقبل.

و ـ الكارثة البيئية

تسبب إحراق خزانات الوقود في معمل الجية الحراري (٢٨ كلم جنوب بيروت)، جراء قصفه بأكبر كارثة بيئية عرفها لبنان، وذلك نتيجة تسرب حوالي ١٥ ألف طن من المحروقات إلى مياه البحر الأبيض المتوسط، وقد انتشر جزء من الوقود شمالاً على طول الساحل اللبناني، وتركز بعضه في المرافئ السياحية والتجارية وصولاً إلى السواحل السورية، فيما توزع الجزء الأكبر على الرمال وبين الصخور وحصى الشاطئ. وأضيف إلى حريق الجية، تدمير ٥ خزانات أخرى على طول الساحل اللبناني، و٩ مرافق صناعية ومزارع لإنتاج الحليب والدواجن كما تسربت كمية من الديزل من البارجة الإسرائيلية التي استهدفتها صواريخ المقاومة، ما زاد طين المشكلة بلّة، وأشارت التقارير الدولية، إلى أن المصانع المحترقة حوت مواد خطيرة

---

(١) تقرير منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة «الفاو» نشر في ٢٧ تشرين الثاني نوفمبر ٢٠٠٦م.

تلحق أضراراً بالإنسان والبيئة، وأبدت خشيتها من إصابات بين البشر والحيوانات والطيور، وأدى استهداف المحولات الكهربائية أيضاً، كمحول سبلين مثلاً، إلى انتشار مواد سامة، لأنها تحتوي مرسبات البيفينيل المتعددة التكلور، وتناثرت كميات منها بالتبخر، أي انتشرت في الهواء، فهددت بأمراض خطيرة[1].

وقدرت تكلفة إزالة التسرب النفطي بحوالي ١٥٠ مليون دولار، وكان المرفق السياحي أكثر المتضررين من هذه الكارثة، وكذلك صيادي الأسماك.

ز ـ ضحايا القنابل العنقودية

الفضيحة الإنسانية والأخلاقية الأكبر للحرب الإسرائيلية على لبنان، تمثلت بإلقاء الطائرات الحربية أكثر من مليوني قنبلة عنقودية فوق مناطق شاسعة من الجنوب، إضافة إلى زرع حقول ألغام جديدة ضد الأفراد، لقتل أكبر عدد ممكن من المواطنين بعد عودتهم إلى منازلهم وحقولهم، وقد تم ـ حسب الإحصاءات الدولية ـ تحديد ٦٠٥ مواقع، تم فيها نثر هذه القنابل، ما أدى انفجار بعضها إلى قتل ما يزيد عن ٢٦ مواطناً وإصابة عدد آخر بجروح وإعاقات مستديمة، وأضرار مختلفة، وتسبب الذعر من هذه القنابل، إلى عدم توجه المواطنين إلى جني محاصيلهم الزراعية، وقطف مواسم الزيتون والتين والعنب وغيرها، كما أصيب عدد من الخبراء الدوليين واللبنانيين بجروح وهم يحاولون تفكيك هذه الألغام والقنابل.

---

(١) تقرير منظمة غرينبيس: «تقويم بيئي أولي لآثار الحرب في لبنان».

أضرار العدوان الإسرائيلي حتى تاريخ ٢٠٠٦/٧/٢١م
(تقديرات أولية)

أولاً البنى التحتية:	قيمة الأضرار (بملايين الدولارات)	النسبة(%)
أ ـ قطاع النقل	404	16,4
1 ـ 1 شبكة الطرق	349	14,2
2 ـ 1 المطارات	55	2,2
2 ـ قطاع الكهرباء	208	8,4
2 ـ 1 الإنتاج	99	4,0
2 ـ 2 النقل والتوزيع	74	3,0
3 ـ قطاع الاتصالات	99	4,0
4 ـ قطاع المياه	74	3,0
المجموع	785	31,9

ثانياً: المساكن والمؤسسات التجارية	قيمة الأضرار (بملايين الدولارات)	النسبة (%)
قضاء صيدا	18	0,7
قضاء صور	78	3,2
قضاء النبطية	142	5,8
قضاء بنت جبيل	142	5,8
قضاء حاصبيا	18	0,7
قضاء بعلبك الهرمل	75	3,0
قضاء زحلة والبقاع الغربي	15	0,6
قضاء بعبدا (الضاحية الجنوبية)	638	25,9
هامش تقديري لكلفة أضرار لم يتم معاينتها (20%)	244	9,9
المجموع	1464	59,4

أضرار أخرى		النسبة(%)
ثالثاً: المؤسسات الصناعية	190	7,7
رابعاً: محطات توزيع المحروقات	10	0,4
خامساً: منشآت عسكرية	16	0,6
المجموع العام: (مليون دولار أميركي)	2,464	100

المصدر: مجلس الإنماء والإعمار.

وبيّنت المسوحات التي أجراها المركز الاستشاري التابع لحزب الله لخسائر القطاعات الاقتصادية جراء الحرب أن هناك ٩٦٠٤ مؤسسات متضررة، وقدر حجم الخسائر فيها بحوالي ٣٩٧ مليوناً و٩٠٩ آلاف، و٤١٤ دولاراً، وطالت الأضرار ٤٣١٩٩ مواطناً، فيما تشغل المؤسسات المتضررة: ٢٧٢٢٥ عاملاً، وهذا العدد مرشح لأن يكون أكبر نظراً إلى تجنب العديد من المؤسسات المشمولة بالمسح التصريح عن عدد عمالها.

وتوزّعت المؤسسات المتضررة بنسبة ٤٦,١١ بالمئة في الأحوال الثابتة أي المباني، و٥٣,٨٩ بالمئة في المواد والسلع الأولية. وكانت قيمة الخسائر في قطاع الصناعات التحويلية الخفيفة هي الأعلى إذ بلغت ٤٣,٧١ بالمئة من مجموع قيمة الأضرار، وناهزت حصّة التجارة ٣٦ بالمئة ويليه القطاع الاجتماعي بنسبة ١١,٩٥ بالمئة.

وتركزت النسبة الأكبر من الخسائر في منطقة الضاحية الجنوبية لبيروت، وبلغت ٥٥,٤٧ بالمئة، يليها قضاء زحلة بنسبة ١٤,٢٤ بالمئة ثم قضاء عاليه بنسبة ٨,٧٤ بالمئة، وبعدها قضاء صور بنسبة ٧,٩٨ بالمئة. وبلغ عدد السيارات المتضررة جراء العدوان في مختلف المناطق اللبنانية ٩١١٦ سيارة تعود ملكيتها لما يقارب ٧٨١٨ شخصاً، أكثر من ثلثها في قضاء بنت جبيل، أي ٣٤,٦ بالمئة وفي قضاء صور ٨,٨ بالمئة وفي مرجعيون ١٠,٧ بالمئة وفي النبطية ٧,٤ بالمئة، وما تبقى توزع على باقي المناطق وقدرت قيمة الأضرار في الآليات بما يقارب ١٦ مليوناً و٥٨٥ ألفاً و٤١٩ دولاراً.

وبلغت قيمة الأضرار المباشرة وغير المباشرة الواقعة على المزروعات

ما يقارب ١١٤٠ مليوناً و٩٧١ ألفاً و٥٩٠ دولاراً. ويقدر عدد الأشجار التالفة أو المتضررة من جراء العدوان بنحو: ٩٦٠٧٢٠ شجرة، وما يقارب ١٢٧٠٩٠٠ دونماً من الأشجار المثمرة الأخرى، وتحديداً الكرمة، وقد بلغت قيمة خسائر الأشجار المثمرة ٥٦ مليوناً و٥٧٦ ألفاً و٥٣٢ دولاراً، أي ما نسبته ٤٠ بالمئة من مجمل قيمة الخسائر الزراعية في حين بلغت الخسائر في الأشجار غير المثمرة ٣ ملايين و٩٤ ألفاً و٢٧٦ دولاراً وما نسبته ٢ بالمئة فقط.

وبلغت مساحة المزروعات الحقلية المتضررة ٢٩٧ ألفاً و٤٨١ دونماً بقيمة إجمالية قدرها ٨١ مليوناً و٢٠ ألفاً و٤٧٦ دولاراً.

وبلغت قيمة الأضرار المباشرة وغير المباشرة التي طالت الثروة الحيوانية ما مقداره: ١٢ مليوناً و٢٣٨ ألفاً و٧٢٦ دولاراً. وقدرت خسائر الماشية بحوالي ٧١٤٦٢ رأس ماشية ناهزت قيمة خسائرها ٨ ملايين و٦٩٦ ألفاً و٨٦٠ دولاراً، أما قيمة الخسائر التي لحقت بالطيور فقد بلغت ٧٩٦ ألفاً و٤٥٣ دولاراً وقدر عددها بحوالي ١١٧٦٥٥ طيراً غالبيتها من الدجاج.

٢ ــ الخسائر الإسرائيلية

فاجأت الحرب إسرائيل بحجم الخسائر البشرية والاقتصادية والأكلاف العسكرية والصناعية والسياحية، التي تكبدتها. إذ لم تتعرض من قبل لمثل هذه الكلفة خلال حروبها السابقة مع الجيوش العربية، وهذا ما اعترف به المدير العام لديوان رئاسة الحكومة الإسرائيلية رعنان دينور، عندما اعتبر أنه «يستحيل مقارنة الحرب الجارية بالحروب التي خبرناها في الماضي».

أ ـ القتلى والجرحى والنازحين

اعترفت الحكومة الإسرائيلية بـ١٥٧ قتيلاً، بينهم ٤٠ مدنياً، والباقي جنود قتلوا خلال المواجهات مع حزب الله داخل الأراضي اللبنانية، وأصيب ٥٠٠٠ آلاف بجروح تتراوح بين الخطيرة والمتوسطة، لكن المعطيات الميدانية كانت تشير إلى أن الأرقام أكثر من ذلك بكثير، وتكفي الإشارة إلى أن الشرطة الإسرائيلية أفادت بأن ٥١ إسرائيلياً قتلوا، بينهم ٣٣ جندياً و١٨ مدنياً في الأيام العشرين الأولى للحرب وأن ١٥١٦ أصيبوا بجروح بالغة، علماً بأن القتال الصعب والقصف الصاروخي العنيف من قبل المقاومة، كان في الأيام الأخيرة من الحرب، وأكدت مصادر الجيش الإسرائيلي، أنه في الأسابيع الأربعة الأولى للحرب سقط ٦٤ جندياً وأُصيب ٣٣٦ بجروح، وقتل ٣٣ مدنياً، وذلك قبل الخسائر الكبيرة أثناء المعارك الشرسة في بنت جبيل وعيتا الشعب ودبل، حيث كانت تعمل ثمانية ألوية عسكرية، بينها ألوية المظليين وغولاني والناحال، وثلاثة ألوية من قوات الاحتياط، وأكد لي قادة محاور هذه المواجهات من رجال المقاومة الذين التقيتهم في أعقاب الحرب، أن إسرائيل أخفت الحقيقة عن الجمهور الإسرائيلي، حتى لا يؤدي الواقع إلى إسقاط الحكومة ومحاسبة القيادات العسكرية حساباً قاسياً، لأننا كنا نشهد بأم العين عشرات الضباط والجنود يصرعون يومياً وهم تحت مرمى نيراننا، وكنا نحصد في اليوم الواحد أكثر من ٤٠ قتيلاً وجريحاً، وعندما كانوا يفرون من أماكن تواجدهم ويسحبون الجثث والجرحى، نلحظ بركاً من الدماء في المكان، ما يشير إلى حجم الخسائر العسكرية البشرية الكبيرة.

إحصاءات من الحرب الإسرائيلية على لبنان

156	قتيلاً
25	مليار شيكل خسائر
33	يوماً من القتال
3970	صاروخاً (موجهاً إلى إسرائيل)
117	جندياً قتيلاً
39	مدنياً قتيلاً
5,000	جريح
311	نزيل مستشفى
12,000	منزل مهدم
750,000	شجرة محروقة
500	مخرب قتيل (قتلى المقاومة)
30,000	جندي شارك في القتال
15,000	غارة جوية (قامت بها إسرائيل على لبنان)
800	ساعة إبحار للسفن
7,000	هدف تعرض للهجوم (أهداف لبنانية)
126	منصة صواريخ دمرت (لبنانية)
4	مروحيات وطائرات تحطمت (إسرائيلية)
1	مروحية أسقطت (إسرائيلية)
700,000	وجبة غذاء وزعت على المقاتلين (الإسرائيليين)
780,000	رغيف خبز أكل الجنود (الإسرائيليون)

وكذلك اعترفت إسرائيل ـ حسب صحيفة يديعوت احرونوت في ١٥/ ٨/ ٢٠٠٦م أن ٣٩٧٠ صاروخاً للمقاومة سقطت على شمال إسرائيل، وأن ٤ مروحيات تحطمت فيما أسقطت مروحية. وذكرت صحيفة «معاريف» الإسرائيلية في ١٧/ ٨/ ٢٠٠٦م، أن تكلفة العملية العسكرية الإسرائيلية

خلال عدوانها بلغت ملياري دولار، وتجاهلت الإحصاءات خسائر الدبابات والآليات والجرافات العسكرية التي احترقت ودمرت بالعشرات، خوفاً من إحداث فضيحة كبرى، ووقف كل الصفقات التي كانت مبرمة مع دول أخرى، خاصة في ما يتعلق بدبابة الميركافا التي كانت المصانع والجيش في إسرائيل يتغنيان بقدرتها القتالية وإمكاناتها المتطورة.

واضطر أكثر من مليوني إسرائيلي، إلى النزول للملاجئ، وهي المرة الأولى التي تنزل فيها مثل هذه الأعداد للاختباء من نيران الصواريخ العربية، كما اضطر معظم سكان المستوطنات الشمالية إلى النزوح باتجاه بعض المدن الأكثر أماناً، بعد أن يئسوا من احتمال وقف قصف المقاومة، ولو قيض لأعداد كبيرة من الإسرائيليين الفرار إلى الخارج لفعلوا، وقد غصت مقرات السفارات الأجنبية بطالبي تأشيرات السفر. إلا أن الحكومة الإسرائيلية كانت تضغط على هذه السفارات، لرفض هذه الطلبات، حتى لا تشكل المغادرة سابقة خطيرة على هذا النحو، واحتمال بقاء معظم المغادرين في البلاد التي سينتشرون بها وعدم العودة ثانية إلى إسرائيل التي لا تعني لهم مقراً ثابتاً وآمناً.

ب ـ الخسائر العمرانية والصناعية

وأفادت المصادر العسكرية الإسرائيلية، أن صواريخ المقاومة اللبنانية دَمرت ٢٠٠ منزلاً تدميراً كاملاً، و٣٠ مصلحة و٢٠ مصنعاً، وكانت مدينة حيفا أكثر المدن تضرراً، وأشارت المصادر إلى أن ٥٥٠٠ منزل وعشرات المصانع والمصالح تضررت بشكل جدي، إضافة إلى نحو ٥٠٠ سيارة من ٦٠ بلدة أصابتها الصواريخ[1]، واحترقت ٧٥٠ ألف شجرة وقال رئيس

(١) الحياة، ٢/٨/٢٠٠٦

اتحاد أرباب الصناعة شرانما بروش، في حديث للإذاعة الإسرائيلية، أن قطاعات الصناعة والتجارة والزراعة في الشمال. تكبدت أكبر قدر من الخسائر فأصيب ٣٥٪ من أصل ١٨٠٠ مصنع بالشلل التام وبلغت الخسائر الصناعية ١,١ مليار دولار، وقدر انخفاض الناتج المحلي الاجتماعي بنسبة ١,٩٪ أي ١١,٥ مليار شيكل، وأكدت الإحصاءات أن الفنادق والمنتجعات السياحية باتت خالية، وقد ألغى آلاف الحجاج المسيحيين من أقطار العالم حجوزاتهم لزيارة الأماكن المقدسة في الجليل وارتفعت البطالة بنسبة ٩٪، أما الأضرار التي لحقت بالبيئة فقدرت بـ٢٢٠ مليون دولار، وأعلن وزير الزراعة الإسرائيلي أن إعادة تأهيل القطاع الزراعي في الشمال يحتاج من ٣ إلى ٥ سنوات على الأقل، وقد تعرض إنتاج الفواكه والحمضيات إلى خسائر فادحة.

جـ ـ الأثمان الاقتصادية

دفعت انعكاسات الحرب السلبية على الاقتصاد الإسرائيلي، رئيسة الكنيست داليا ايشيك (من حزب العمل)، إلى الدعوة لتأليف حكومة طوارئ وطنية لمواجهة الكوارث التي تسببت بها الحرب، وأشارت بعض الدراسات والتقارير، إلى أن خسائر الاقتصاد الإسرائيلي ـ إذا ما استثني الإنفاق العسكري ـ بلغت ٢,٢ مليار دولار، ولو استمرت الحرب أياماً أو شهوراً أخرى، فإن الوضع سيزداد صعوبة.

ووفقاً لشركة بردستريت الإسرائيلية، فإن الخسائر اليومية للإنتاج في إسرائيل وصلت إلى ٥٠٠ مليون شيكل (١١٥ مليون دولار)، وأكدت أن الرقم الإجمالي ارتفع منذ بداية الحرب وحتى ٢٢/٧/٢٠٠٦م إلى بليون دولار، إلا أن وزارة المالية و«بنك إسرائيل» قدروه بـ٧٠٠ مليون دولار، وهذه الأرقام لا تشمل تكاليف تشغيل آلة الحرب، حوالي ٢٢ مليون دولار

يومياً بحسب صحيفة «هآرتس»، هذا عدا حجم الضرر الذي لحق بالبارجة الحربية وعدد من الدبابات وتحطم المروحية العسكرية وغيرها[1]، وأمام ضغط النفقات الكبيرة، أعلن وزير المالية أبراهام هيرشزون، أنه قرر حسم ٢,٨ مليار شيكل (٦٤٠ مليون دولار) من الميزانية المقررة للوزارات، موضحاً أن تكلفة القتال بلغت حتى ٩/ ٨/ ٢٠٠٦م، حوالي ١,٦ مليار دولار الأمر الذي يستدعي تغيير هيكلية الميزانية العامة للعام ٢٠٠٧م، ويأتي الحسم لتغطية أول قسم من النفقات العسكرية للحرب، التي طلبها الجيش، البالغة ما بين ٥ إلى ٦ مليارات شيكل، وأكدت صحيفة «معاريف» أن الشمال يدفع الثمن انهيارات وإقالات وشيكات مرتجعة، وقالت: إن الخريطة الاقتصادية تكشف أن الجبهة الداخلية الاقتصادية لا تتحمل الأعباء حيث يتعاظم عدد الشركات التي وقعت في أزمة، الأمر الذي فاقم من الصراع السياسي حول التعويضات.

وأظهرت الخريطة الاقتصادية كما نشرتها صحيفة «الأعمال»، أنه بتأثير الحرب ساءت وضعية الاستقرار وسجل انخفاض عدد العاملين في إسرائيل، وبلغ عدد المقالين من أعمالهم حوالي ١٪، وبلغ عدد الشركات التي تعاني من شيكات مرتجعة إلى ١٠٧ من كل ألف شركة فاعلة، في مقابل خمسة فقط من كل ألف في الشهر الذي سبق الحرب، وأكدت مصادر وزارة الصناعة والتجارة أن نسبة البطالة سترتفع بعد الحرب من ١١,٥ إلى ١٤٪[2].

وقدرت أوساط وزارة المال كلفة الحرب بـ٥,٢ بليون دولار، توزعت

---

(١) سفاكيناكيس، جون، المستشار المالي، الأول في مركز الخليج للأبحاث، الشرق الأوسط، ٢٢/ ٨/ ٢٠٠٦م.

(٢) السفير، ١٠/ ٨/ ٢٠٠٦م.

كالتالي: ١,٦ بليون دولار نفقات المؤسسة العسكرية (عتاد وذخيرة) ١,٩ بليون لتغطية الأضرار التي لحقت بالعقارات، بليونا دولار جراء انخفاض الإنتاج القومي، ١,٥٪ نحو نصف بليون دولار مساعدات طارئة للسلطات المحلية في شمال إسرائيل[١].

ـ خسائر الدبابات:

أفراد الطاقم القتلى	المدمرة	التي اخترقت	التي تعطلت	التي قصفت	الدبابات المشاركة
30	5 +	20	40	48	400

(المصدر: «دفتر علامات جيش الدفاع» جيروزاليم بوست 24 آب أغسطس 2006م).

ـ آثار القصف الصاروخي:

الشمال	3,790
مجمعات	901
مدني قتيل	42
مدني جريح	4,262
عانوا من الصدمات	2,773
مدني قتيل مقابل كل صاروخ	0,01
مدني مصاب (كل أنواع الإصابات) مقابل كل صاروخ	1,9

٢ ـ إعادة الإعمار

خرج لبنان ومقاومته وشعبه، من الحرب العسكرية، ليجد نفسه أمام معركة من نوع آخر أقسى وأصعب، وهي إعادة بناء ما هدمته آلة العدوان الإسرائيلية، والتي تجاوزت كل التوقعات والحسابات. واعتبر لبنان

---

(١) الحياة، ٢٠٠٦/٨/١٤م.

المقاوم، أنه أمام تحدٍّ جديد، فكما صمد في حرب المواجهة الميدانية العسكرية، لا بد أن يربح حرب البناء والتشييد، بالتعاون مع الأشقاء والحلفاء والأصدقاء من مختلف أنحاء العالم.

فالإحصاءات الرسمية أشارت إلى أن الأضرار لحقت بـ١٣٠ ألف وحدة سكنية، دمر منها ٢٧ ألفاً بالكامل، ٦ آلاف منها في ضاحية بيروت الجنوبية، عدا المصانع والمتاجر والمؤسسات التربوية والمستشفيات ودور العبادة، والقطاعات المختلفة: الزراعية، الاقتصادية، المصرفية وغيرها.

المقاومة فهمت رسالة التدمير المبرمج والممنهج منذ اليوم الأول للعدوان، وهي محاولة إحداث شرخ بينها وبين الناس الذين هدمت منازلهم أو محلاتهم أو ممتلكاتهم على أنواعها، وللضغط من أجل القبول بالشروط الإسرائيلية. فسارع أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله، إلى طمأنة المواطنين في خطابه الثاني الذي وجهه إلى اللبنانيين في ١٦/ ٧/ ٢٠٠٦م، بإعادة إعمار كل ما يهدمه العدو، بالتعاون مع الدولة، ومن خلال الأصدقاء الجديين الذين لديهم قدرة كبيرة جداً على المساعدة بما أسماه «المال الطاهر والنقي والشريف بلا شروط سياسية»، مؤكداً أنه لا قلق على إعادة بناء البلد من جديد. وبعد وقف الاعتداءات، التزم ببناء البيوت والممتلكات المهدمة، وترميم ما أصيب منها، بشكل أفضل مما كانت عليه، وتم وضع خطة على مراحل، بدأت بإيجاد البدائل المؤقتة، دفع بموجبها مبلغ يتراوح بين ١٠ و١٢ ألف دولار للمنزل المهدم كلياً، حتى يتمكن صاحبه من استئجار منزل وشراء أثاث متواضع لمدة عام، وذلك حرصاً على ألا يبقى في العراء بلا مأوى، خاصة وأن الوضع سيكون صعباً مع بدء موسم الشتاء البارد، أما أصحاب المنازل المتضررة، فحصلوا على مساعدات تساوي الأضرار التي لحقت بشققهم أو أثاثهم. وتم أيضاً دفع

مبلغ لكل صاحب منزل متضرر يحتاج ترميمه أشهراً عدة لاستئجار شقة لمدة ٦ أشهر أو أكثر حسب حجم الأضرار، إضافة إلى بدل أثاث في حال تلفه الكامل، أو تعويض ما تلف جزئياً.

من جهتها الدولة، أعلنت بأنها ستقدم مبلغاً يتراوح بين ٥٠ و٨٠ مليون ليرة لبنانية لكل منزل مهدم بين الجنوب وضاحية بيروت الجنوبية على أن يدفع على مرحلتين، الأولى عند بدء الإعمار والثانية بعد الانتهاء من مرحلة الإعمار الأولى، وكذلك تقديم مساعدات للشقق والمنازل المتضررة، كل حسب الضرر الذي لحق به، إضافة إلى دفع ١٠ ملايين ليرة بدل أثاث أمام شعور المواطنين بغبن التقدير الرسمي، أعلن حزب الله استعداده لاستكمال التعويض على نفقته الخاصة حتى يتمكن أصحاب المنازل من العودة إلى أوضاعهم الطبيعية السابقة، وقدرت الفترة التي سيستغرقها إعادة بناء الأبنية المدمرة بحوالي السنة والنصف إلى السنتين وكانت ورشة إزالة الركام، وتنظيف الشوارع والأزقة، وانتشال ما تبقى من جثث كانت ما زالت تحت الأنقاض، من أصعب المحطات التي تحملت المقاومة المسؤولية عنها في بداية الأمر، بعد أن تقاعست الحكومة عن القيام بمهامها، لأسباب سياسية، لممارسة مزيد من الضغط على المقاومة وجماهيرها في آن، علها تخلق أزمات تنعكس سلباً على العلاقة بين الطرفين، ولم تتحرك الوزارات المعنية إلا بعد فترة، عندما شعرت أن التكاتف والتعاون الوثيق بين المقاومة والشعب، ازداد وقوي، وأن كل ما جرى التخطيط له ارتد على الخطة الحكومية احتجاجاً ونقمة.

وما انطبق في التعويض على المباني والمنازل والشقق المدمرة كلياً أو جزئياً، انطبق على المصانع والمعامل والمحلات التجارية والمؤسسات الصناعية والزراعية وغيرها.

وقدمت دول عربية عدة مساعدات مادية مباشرة، أو تكفلت بإعادة بناء مدن أو قرى أو بلدات تهدمت كلياً أو جزئياً. فدولة قطر مثلاً: تكفلت ببناء بلدات: بنت جبيل، عيتا الشعب، عيناتا والخيام، كما تعهدت بترميم دور العبادة والمدارس في العديد من القرى والبلدات فيما تبرعت سوريا بإعادة إعمار بلدات: قانا، صديقين والقليلة، وأعلنت السعودية استعدادها لبناء مجموعة من القرى والجسور والبنى التحتية، وقدمت إيران مساعدات مادية، وساهمت في بناء جسور وطرق ومدارس وأعادت اليمن بناء ما تم تدميره في بلدة البرج الشمالي. وساهمت دولة الإمارات العربية المتحدة، في إزالة الألغام والقنابل العنقودية وبناء ميناء الأوزاعي، والتعويض على بعض المتضررين كذلك تبرع عدد من الأثرياء اللبنانيين، في تحمل نفقات بناء عدد من الجسور المهدمة بدءاً من الجنوب، مروراً بالبقاع وصولاً إلى الشمال، كما قامت فرنسا بتركيب بعض الجسور الحديدية في القاسمية والدامور، وشاركت روسيا أيضاً بتركيب جسور أخرى.

الفصل الثاني

تفاصيل المواجهات الميدانية كما يرويها قادتها
وقراءة استراتيجية لأبعادها العسكرية

مقدمة

الكلام حول الحرب لا يكتمل، إلاَّ بلقاء الَّذين خاضوها، والَّذين أداروها، أو اطلعوا على أسرارها، واكتشفوا خفاياها، قصدتهم في أماكنهم، في قراهم وبلداتهم، وأماكن انتشارهم، استمعت إليهم بشغف، رافقت بعضهم إلى المواقع والمحاور الَّتي دارت الاشتباكات فيها، شاهدت آثار دماء الإسرائيليين، وبقايا ضمادات وثياب ممزقة وأدوية وأسلحة محروقة ومحطمة، كان المشهد غنياً عن كثير من الحوارات، أظهر مدى حجم الخسائر الَّتي مني بها الجيش الإسرائيلي، على الصعيدين البشري أو المادي، وكشف طبيعة المواجهات الَّتي كانت تدور داخل المنازل، من غرفة إلى غرفة، ومن حي إلى حي، وإلى المطاردات في الحقول، وإلى وقائع وتفاصيل كثيرة، بعضها عصيٌّ على التصديق، لم تكن مسألة لقاء عدد من القيادات السياسية والأمنية وقادة المحاور أو الكوادر الأساسية سهلة، أخذت وقتاً وجهداً كبيرين.

وضعت خطتي لمتابعة هذه التفاصيل، منذ انطلاقة الشرارة الأولى للحرب، التقيت عدداً من القادة البارزين في حزب الله، وكانوا ينقلون لي كإعلامي معلومات ظلت حية وموحية ومؤثرة وتحمل الكثير من المعاني بعد

توقف العدوان، أكملت عملي بعد الحرب مباشرة، فقمت بجولة ميدانية على المحاور الَّتي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، شاهدت الدمار الَّذي خلفته الغارات الجوية، التقيت أعداداً من المواطنين، الَّذين قاوموا بصمودهم وثباتهم في الأرض، كثير من العائلات العائدة، فقدت منزلها، أو معيلها، أو ودعت أبناً لها، وكثير منها كانت تتفقد أضرار ما تبقى من بيوتها: الحمد لله لقد انتصرنا، وكل شيء قابل للتعويض، المهم أن يبقى الوطن، وما نفع أن تبقى البيوت ونخسر الكرامة والعزَّة والشرف، مستعدون لتقديم كل التضحيات، ولو قيض لنا أن نستمر في القتال فترة أطول، لما ترددنا أن نقدِّم المزيد من الشُّهداء، يكفينا فخراً أنَّنا كتبنا تاريخاً جديداً للبنان وللعرب وللمسلمين ولكل الأحرار في العالم، فمن هذا الجنوب الصامد سيخرج نور حرية كل الشعوب المظلومة والمقهورة.

روى بعضهم قصصاً شبيهة بالخيال، عن حياتهم ٣٣ يوماً تحت القصف، حتَّى أصبحوا جزءاً من واقع غير مألوف، تكيفوا مع خروج طائرات الاستطلاع والطائرات الحربية، بدأوا يحددون أوقات الغارات، والأماكن الَّتي يمكن أن يستهدفها القصف وكان الأطفال كالكبار يراقبون مجريات الحرب، من خلال النوافذ، أو ثغرة في جدار المنزل، أو الملجأ، كما حدثني عن ذلك حسني بزي في بنت جبيل الَّذي صمد مع سبعة أفراد من عائلته، وقال: كنت أرتدي بيجاما بلون الشجر، تجنباً لطائرة التجسس، وعندما كنت أسمع صوتها أحضن أي شجرة قريبة، وأظل ساكناً دون حراك حتَّى تنفذ هدفها، كانت ترصد أدق الأنشطة، وكنت أتنقل بين المنازل لأوفر المياه لبعض العائلات، أو الخبز، كانت زوجتي تخبز على الصاج، ووفرنا بعض الدقيق تحسباً لمثل هذه الظروف.. وكان أطفالي يراقبون القصف من فتحة صغيرة في الباب، ولم يشعروا بالخوف، عكس اليومين الأولين،

وأكد أنَّ حوالي ٥٠٠ غارة نفذت على مدينة بنت جبيل، وأطلق عليها آلاف القذائف من عيار ١٥٥ ـ ١٧٥ ملم، إضافة إلى الصواريخ المختلفة.

كل الكلام النظري والتحليلي الَّذي قيل أثناء وبعد الحرب ـ على أهميته ـ لا يمكن أن يوصف الواقع كما عاشه المقاتلون، والأهالي، ولا يمكن أن يعطي انطباعاً واقعياً عن المواجهات اليومية، والبطولات الفردية، قاتلوا من زاوية إلى زاوية، موقعين عشرات القتلى والجرحى قبل الاستشهاد، الكل شارك في القتال، رجالاً، نساءً، أطفالاً، وشيوخاً، كل حسب دوره وموقعه، الجولات الميدانية واللقاءات والحوارات مع رجال الميدان، تنقلنا إلى الأجواء الواقعية، ترسم طبيعة ونمط وأسلوب وخطط هذه الحرب.

أوّلاً: إدارة الحرب

وفق رواية مسؤول حزب الله في الجنوب

اعتبر مسؤول حزب الله في جنوب لبنان الشيخ نبيل قاووق، في حديثه لي، إنَّ الحرب بدأت حسب قناعته في ٢٥ أيار/ مايو العام ٢٠٠٠، وليس كما يشير إليها البعض بأنَّها انطلقت في ١٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٦، وقال: بدأت الحرب بالتحضير لها قبل ست سنوات، فمنذ العام ٢٠٠٠ والمقاومة كانت تستعد للمواجهة الشاملة مع العدو الإسرائيلي على مختلف المستويات، سواء في بناء القدرات الصاروخية، أو في بناء المقاتل على مستوى الكفاءة القتالية العسكرية، أو على مستوى المعلومات الَّتي كانت عنصراً حاسماً في تحديد نتائج الحرب قبل أن تحصل.

دخلنا الحرب ونحن نعرف عن العدو أكثر ممَّا يعرف عنَّا، دخلنا الحرب والعدو أعمى ولا يعرف حجم قدراتنا ولا حجم تسليحنا ونوعه، ولا يعرف حجم أعدادنا وأماكن تواجدنا، ولا يعرف خططنا ولا شيئاً عن مفاجآتنا. بينما كنَّا نعرف كل ما لدى العدو من سلاح وهو لا يعرف شيئاً عن سلاحنا، كنَّا نعرف عن الأهداف داخل العمق الإسرائيلي أكثر ممَّا هو يعرف عن الأهداف داخل العمق اللبناني، صحيح أنَّه كان لديه ما اصطلح على تسميته «بنك أهداف»، لكن للمقاومة أيضاً كان هناك بنك أهداف.

عندما دخل الإسرائيلي الحرب، بنى خططه العسكرية على ما يمتلك من معلومات، ولمَّا كانت هذه المعلومات ناقصة أو مغلوطة، فالنتيجة كانت خيبة أمل وفشل. فيما كانت المعلومات لدى حزب الله عن العدو كثيرة جداً، ويكفي أن تتهم إسرائيل كبار الضباط والجنرالات، بأنَّهم متورطون بإعطاء معلومات لحزب الله، لا أريد أن أثبت أو أنفي صحة ذلك، لكن كم من الضباط والجنود في السجون الإسرائيلية متهمون بأنَّهم يعملون لصالح حزب الله، وعمر الهيب واحد منهم؟ وإذا كان هذا صحيحاً، تستطيع أن ترى في المقابل، هل استطاعت إسرائيل أن تخترق قيادة المقاومة، أو عناصر المقاومة، هنا نستطيع أن نعرف كم كان العدو أعمى، وكم كانت المقاومة قادرة استخباراتياً، والعدو أمامها مكشوف أمنياً. لقد استطاعت المقاومة أن تستدرج أحد كبار ضباط احتياط الجيش الإسرائيلي الحانان تننباوم إلى بيروت. وهذا كان عنصراً مهماً جداً في المعركة. والعنصر الآخر المهم، أنَّ إسرائيل كانت تفتقر إلى عنصر المفاجأة فهذا العنصر يحسم نصف المعركة، وفي هذه الحرب لم تفاجئنا إسرائيل، وإنَّما نحن من استطاع أن يفاجئها.. كيف؟

كان الحزب يتحضَّر للحرب منذ دحره للجيش الإسرائيلي عن جنوب لبنان في العام ٢٠٠٠، ولم يفوت دقيقة واحدة من وقته، دون الإعداد والتجهيز والتدريب للحرب، فكان على مستوى عالٍ من الجهوزية، وعندما قرر حزب الله تنفيذ عملية أسر الجنديين الإسرائيليين، ضمن ضوابط تكتم أمني مرتفع جداً، أعد خططاً تتناسب مع طبيعة العملية الَّتي سيكون لها ردود فعل، وبغض النظر عن تقديرنا بأنَّ ردَّات الفعل ستكون حرباً محدودة أو شاملة، إلاَّ أنَّه كان هناك استعداد لنتائج وردود فعل العملية، بينما لم يكن العدو مستعداً.

والنقطة الثالثة، أنَّ الهدف كان تنفيذ عملية أسر، وكان العدو يعيش حالة قلق وانتظار طالت أكثر من سنة، فاستنزف في معنويات جيشه، لأنَّه لا يمكن لجيش أن يبقى في حالة تأهب لمدة طويلة، وأعطي هنا مثلاً: عندما يكون طاقم دبابات «الميركافا» في حالة تأهب وكمين، كم يستطع أن يبقى داخل الدبابة؟ إن خرج منها سيكون عرضة للأسر، وعليه أن يبقى داخلها، ولكن ما المدة الَّتي يستطيع أن يتحملها، وإذا صبر ساعات طويلة، فكم يوماً يستطيع أن يصمد وهو سجين داخل الدبابة، تخيَّل هنا وضعه النفسي، إنَّه في النهاية لا بدَّ أن يصرخ وينكفئ، ليأتي بديل عنه، وهذا البديل سيلاقي نفس المصير، فأصبح الانتظار بمثابة الجحيم للإسرائيلي، أمَّا بالنسبة للجندي الموجود داخل موقعه، منعوه من أن يرى الشَّمس، فكان دائماً تحت الأرض، فأصبح الجنود أسرى الملجأ لأيَّام وأشهر، وقد استنزفت كل عناصر الكوماندوس الإسرائيلي وقوات التدخل والمدرعات، لأنَّهم ينتظرون عملية سينفذها حزب الله منذ عام، وكل هذا كان لصالح المقاومة، لأنَّ الجندي أصبح متعباً، وعندما حصلت عملية الأسر شكلت إحباطاً وفشلاً كبيراً للقيادة العسكرية، لأنَّها جاءت بعد عام من التدريبات والاستعدادات الإسرائيلية، فكل الاحتياطات والتدابير لم تحل دون قدرة المقاومة من إحداث الاختراق المطلوب وتحقيق الغاية المنشودة، وهذا دلَّ على فشل استخباراتي إسرائيلي، وفشل عملياتي أيضاً، فلم يكن مفاجئاً أن يقدم قائد فرقة الجليل الشمالية استقالته اعترافاً بهذا الفشل الذريع، وعمق المأزق الَّذي وصل إليه.

أ ـ تركنا العدو يكشف أوراق خطته:

وأكد الشيخ قاووق أنَّه في اليوم الأوَّل لبدء الحرب، كانت ردَّة الفعل الإسرائيلية محدودة، ابتداء من الساعة العاشرة صباحاً حتَّى قبل منتصف

اللَّيل، ولم يكن قرار الحرب المفتوحة قد اتخذ بعد. في تلك اللَّيلة، وأمام هول الهزيمة والضغط، أي أمام وجود أسرى وقتلى وتدمير ميركافا وجرحى، كل ذلك ساعد في أن يساق الإسرائيليون إلى تقديم موعد الحرب المقررة مسبقاً. وكنَّا في تلك اللحظات، أي منذ تنفيذ عملية الأسر، وبدء قصف الجسور، أدركنا أنَّهم أخذوا قرار الحرب عند منتصف اللَّيل، فظنوا أنَّ بإمكانهم أن يفاجئونا، فاعتمدوا على:

قصف ما ظنوا انَّه أماكن منصات الصواريخ البعيدة المدى، وما ظنوا أنَّه مخازن للصواريخ بعيدة المدى، وبدأوا التركيز على هذه الأهداف اعتقاداً منهم أنَّ تدمير هذه الصواريخ يحسم المعركة، ويفقد حزب الله إمكانية الرد على العمق الإسرائيلي، وراهنوا على أنَّ القوَّة الجوية قادرة أن تحسم المعركة سلفاً من خلال تدمير هذه المنصات، وتدمير مخازن هذه الصواريخ، ظناً منهم أنَّهم يمتلكون كافة المعلومات الاستخباراتية عن أماكن وحجم الصواريخ، لكن المقاومة في أوائل أيَّام الحرب، تماشت مع مخطط العدو، حتَّى ظنَّ أنَّه أنجز مهمته، أي تأخرنا في استخدام الصواريخ بعيدة المدى، وكان ذلك مقصوداً، جعلنا العدو يكشف كل أوراق خطته، ويستنفد كل ما لديه، ويعلن النصر، عندئذٍ بدأت المعركة، نحن لم نستعجل الأمر، وعندما شعرنا أنَّه ظن بأنَّه أنجز مهمته، وأعلن أنَّه ضرب قدرات حزب الله الصاروخية المتوسطة والبعيدة المدى، انطلق الحزب لاستخدام هذه الصواريخ، وقد وصلت الحكومة الإسرائيلية مرحلة إعلان النصر في الكنيست، بناء على ماذا؟ بناءً على المعلومات الَّتي قدَّمها رئيس الأركان بأنَّه استطاع أن يدمر صواريخ الحزب، إلاَّ أنَّه اكتشف أنَّ حزب الله أحسن إخفاء هذه القدرات، وما قصفه لم يكن بالأهداف الَّتي تضر بقدراته، أما كيف ذلك؟ فهذه خطة وتكتيكات المقاومة، وهذا التكتيك نجح.

استنفد العدو قدراته، وكشف خطته الحربية، بأهداف لا تؤذي المقاومة، دون الدخول بمزيد من التفاصيل، فتبين أنَّ معلوماته عن بنك الأهداف ليست فقط غير صحيحة، بل إنَّ أماكن المنصات الصاروخية يجهلها تماماً، وكذلك عدد وقدرات هذه المنصات ونوعيتها، وخطتنا باستخدام هذه المنصات يجهلها أيضاً. وهذا كله ساعد في إفشال الخطة تلو الخطة الإسرائيلية، وكان الاحتلال كلَّما يحاول تعديل خطته بناء لمعطيات اكتشفها أثناء الحرب، كنَّا نفاجئه بمعطى جديد، لذلك غير العدو كثيراً من خططه أثناء الحرب، وأصيب بإرباك، ولا تستطيع أن تتحدث الآن عن خطة واحدة حول الحرب الإسرائيلية، لقد اضطر العدو تغيير خططه أكثر من عشر مرَّات، بينما المقاومة رسمت خطة منذ اليوم الأوَّل وحتَّى النهاية ولم تتغير، ضمن مراحل هي الَّتي قررتها، كان لديها وضوح في الرؤية، نتيجة فهمها لطبيعة المعركة، وكيفية إنهائها، فصاروخ أرض بحر مثلاً كان يمكن أن يستخدمه حزب الله في اليوم الأوَّل للحرب، لكنَّه ترك البارجة الإسرائيلية تقصف بيروت أيَّاماً حتَّى استهدفها، لأنَّه اختار الوقت المناسب لاستخدام هذا السلاح، وعندما أراد أن يقصف حيفا انتظر أيَّاماً أيضاً.

إذن العدو استعجل في استخدام كامل أسلحته وأوراقه منذ البداية، بينما المقاومة لم تلجأ إلى هذا الأسلوب، إنَّما كانت ترفع من وتيرة ردها وكشف مفاجآتها وبالتدريج وفق خطة، وكنَّا نستخدم السلاح بالمواجهة بوتيرة من الأدنى إلى الأعلى، بينما الطرف الآخر كان يبدأ من الأعلى ثمَّ ينحدر إلى الأدنى، حتَّى وصل إلى مرحلة لم تعد لديه أهداف كي يقصفها، فخفت الغارات، فيما المقاومة قصفت أوَّلاً بالكاتيوشا عمقاً معيناً، ثمَّ زادت هذا العمق بنوع جديد من الصواريخ، ثمَّ زادته أيضاً وهكذا في حركة تصاعدية، كنَّا في اليوم ٣٢ من الحرب، في ذروة نشاطنا وعملنا، لكن

العدو كان في حالة من التداعي وانكفاء كل قواه الجوية، البحرية والبرية. ولو استمرت الحرب فترة أطول كنّا سنستمر في حالة تصاعدية والعدو سيستمر في حالة نزوله. نحن لم نكشف عن مفاجآتنا بسرعة، فمثلاً فبعد أكثر من ٢٠ يوماً على الحرب، فاجأت المقاومة العدو بشن هجمات برية على مواقعه الأمامية، وكان هذا الأمر يجب أن يحصل في اليوم الأوّل، جاء ذلك بعد أن ظن العدو أنَّ المقاومة أبعدت عن المنطقة، وعاش حالة ارتخاء في المواقع، ففوجيء بالعكس، حيث كانت عناصر المقاومة على الشريط الشائك تقتحم مواقعه وجهاً لوجه ما أنزل في صفوفه خسائر كبيرة، وعكس وضعاً صعباً على معنوياته، فبينما كان العدو يقاتل بالعويضة قرب كفركلا، فوجيء بأنَّ المقاومة على السياج، أو عندما وصل الإسرائيلي إلى البياضة قرب الناقورة، اكتشف أنَّ المقاومة ما زالت في اللبونة على الشريط الحدودي، هذا أشعره بأنَّ القوات الَّتي أنزلها بالمظليات أصبحت محاصرة. وهذا تكتيك مهم للمقاومة. وعنصر المفاجآت لعب دوراً في إفشال خطط العدو، وهذا يكشف القدرة التخطيطية العسكرية للمقاومة وتفوقها، كما يكشف قدرة المقاومة على إخفاء قدراتها، وهذا ما جعل الإسرائيلي يدخل المعركة أعمى، إنَّه من الفضيحة للعدو أنَّه لم يكن يعرف أنَّ لدينا صواريخ أرض بحر، ما أدَّىٰ إلى إصابة أحد بوارجه بشكل مباشر، ما جعل البوارج الحربية تبتعد ٣٠ ميلاً عن الساحل اللبناني، رغم أنَّ الصواريخ تستطيع أن تطال أبعد من ذلك بكثير.

ب ـ مفاجآت الصواريخ:

إضافة إلى مفاجأة الصواريخ ضد البوارج، كانت مفاجأة الصواريخ ضد الدروع، فالعدو صفَّح وأعدَّ الميركافا بناء لما يمتلكه من معلومات عن حجم قدرات حزب الله الصاروخية المضادة للدروع، لكنَّه فوجيء أنَّ

الحزب يمتلك أكثر من طراز من الصواريخ. بحيث إنَّ كل التصفيح لم يستطع حماية الدبابات من الاختراق وإحراقها. نحن لم نكشف أوراقنا كما أسلفت دفعة واحدة، فاستخدمنا في البداية العبوات الناسفة تحت الأرض، فامتنع عن سلوك الطرق المعبدة إلى طرق أُخرى حاولت الجرافات العسكرية أن تشقها، ففوجيء أنَّ هذه الجرافات دمرت بالصواريخ كما حصل في عيتا، كما فوجيء بوجود صواريخ تدمر الدبابات بمن فيها، وظن العدو أنَّ مدى الصواريخ الَّتي يمتلكها الحزب هو ٥٠٠ متر، فعدَّل خطته وقرر أن لا يدخل إلى القرى، وقرر التوجه إلى التلال المشرفة على القرى، فأدخل عشرات الدبابات إلى تلك المواقع، عندئذٍ استخدم حزب الله الصواريخ المضادة للدروع، وكانت مجازر الدبابات في أكثر من مكان، مثلاً في وادي الحجير، مرجعيون، الخيام وغيرها . . .

عندئذٍ سحب العدو الدبابات من أرض المعركة نهاراً، لأنَّه لم يعد يراهن عليها، خاصة وأنَّ حجم خسائره فيها وفي طواقمها كان كبيراً، فأدخلها ليلاً إلى أرض المعركة، فلاقت المصير نفسه، فاستعاض عن ذلك بالاعتماد على المشاة، لكن تبيَّن أنَّهم أمام المقاومة أقل كفاءة وقدرة واعترف العدو بأنَّ تدريباته كانت ضعيفة وناقصة، وأشاد بإمكانات المقاومة الميدانية.

ج ـ القتال وجهاً لوجه:

وحاول العدو استخدام تقنياته العالية بالإنزالات ليلاً والاختباء ببعض المنازل المشرفة على بعض القرى، وليس في داخلها، فكان من مظاهر شجاعة المقاومين. أنَّ بعضهم كان يدخل إلى الإسرائيليين داخل البيوت ليقاتلهم وجهاً لوجه على مسافة صغيرة، ومسؤول حزب الله في بلدة رشاف الحاج هادي جفَّال عندما علم عن وجود كوماندوس إسرائيلي، زحف وسط

الظلام، وتسلل إلى أحد المنازل استشهادياً بالقذائف والرشاشات واستطاع أن يطارد جنود الاحتلال من غرفة إلى غرفة حتَّى استشهد، والعدو لم يعتد على ذلك، وهناك أيضاً أحد الإخوة في عيناتا، اكتشف أنَّ الإسرائيليين تسللوا إلى المدرسة فاقتحمها، وبدأوا يفرون بين يديه وهم يهربون من غرفة إلى غرفة حتَّى استشهد، عندئذٍ أصيب سلاح المشاة بنكسة، وفرَّ الكثير من الجنود من أرض المعركة.

في هذا الوقت قرر الإسرائيليون تعديل الخطة والابتعاد عن القرى المحاذية للحدود، والاعتماد على إنزالات بالمروحيات في أماكن بعيدة عن هذه القرى، وفوجئوا أنَّ المقاتلين صمدوا وقاتلوا وألحقوا بهم خسائر فادحة، وفي تلك اللحظات أسقط حزب الله مروحية لنقل الجنود، وكان الإسرائيلي يعتمد على هذه المروحيات في نقل وسحب الجنود، وهنا وقع في مأزق جديد، فأدرك أنَّ الجنود الَّذين ينزلهم لن يكون بمقدوره استرجاعهم، كما أنَّ خطته في الإنزالات أصبحت فاشلة في الوصول إلى نهر الليطاني.

بعد فشل كل هذه الخطط، لم تجد إسرائيل وسيلة ـ لإنقاذ جيشها سوى القبول بوقف إطلاق النَّار، لأنَّ استمرارها بالمكابرة في مواصلة الحرب سيكلفها أضعافاً مضاعفة من القتلى والجرحى والخسائر الأخرى.

د ـ استعداد للحرب المقبلة:

وقال قاووق: نحن نعتبر أنَّ الحرب لم تنته، ولذلك نعد أنفسنا للحرب القادمة، وكما فاجأنا الإسرائيلي كثيراً خلال هذه الحرب، سنفاجئه بالكثير الكثير في أي حرب يفكر أن يخوضها ضد لبنان. والدليل على أنَّ الحرب متوقعة، هي تصريحات الحكومة الإسرائيلية وجنرالاتها الَّذين يطلقون

التهديدات دائماً، وإعلان الرئيس الأمريكي جورج بوش استعداده لتمويل أي حرب مقبلة، شريطة أن يعيد الجيش الإسرائيلي تدريب نفسه من جديد، والمعلومات الآن تشير إلى أنَّ إسرائيل أخذت بنصيحة بوش وهي تكثف تدريباتها للجنود والاحتياط على حدٍّ سواء، وتعمل على استخلاص العبر والدروس، وتنتظر كيف ستنفذ القرار ١٧٠١ وما يمكن أن يوفر لهم، إذن احتمال الحرب قائم ولا بدَّ أن نستعد له، وهناك احتمال آخر يتعلق بالجولان، فهناك حديث عن إمكانية تحرك هذه الجبهة، فإذا ما تحركت، فهل سيكون الجنوب بمنأى عنه، وعلينا ألا نطمئن لنوايا العدو، فتاريخه حافل بالغدر، والجيش الإسرائيلي يعيش عقدة الهزيمة، ويريد أن يستعيد ماء الوجه، وهو يضغط باتجاه استكمال المعركة، وإلاَّ سيبقى موضع سخرية جيوش العالم. وهناك من يتحدث في إسرائيل عن أنَّ الحكومة بحاجة إلى أن تؤمن قدرة الردع الَّتي تهشمت في معركتها مع حزب الله، كيف يمكن أن ترمِّم قدرة الردع؟

هل ستكون بحرب جديدة؟ يجب أن نستعد، أن نعمل، وأن نكون محتاطين لذلك، لكن الأهم أنَّ المستوطنين والجمهور الإسرائيليين لم يعودوا يثقون بقدرة جيشهم على حمايتهم وإحراز نصر أمام حزب الله، فالشعب فقد ثقته بهذا الجيش، وهنا اكتشف الاستراتيجيون في إسرائيل أنَّ هذه المعركة هزَّت أسس وركائز الكيان الإسرائيلي، لأنَّ أهم ركائز استمرارية إسرائيل هي تفوقها العسكري على العرب، وهذه اهتزت، فالجيش في نظر نفسه وجمهوره غير قادر على حماية نفسه وشعبه، فلا البوارج استطاعت أن تحمي نفسها، ولا دبابة الميركافا، ولا المروحيات ولا الجنود استطاعوا أن يحموا أنفسهم واعترف الجميع بتفوق حزب الله استخباراتياً وقتالياً، وقد انهزم الإسرائيليون وراء جيشهم معنوياً، بينما

تعززت معنويات العرب وراء حزب الله، وبات الرجل العربي يثق بنفسه أمام إسرائيل، وبات الرجل الإسرائيلي لا يثق بنفسه أمام العالم، هذا واقع. هذا هزَّ أسس إسرائيل وصناعتها الحربية، فكيف إذا تحدثنا أنَّ إسرائيل باتت تشعر أنَّ صواريخ حزب الله تهدد عمق العمق الإسرائيلي، أي حيفا، وما بعد حيفا، وما بعد بعد حيفا، وبالتالي باتوا يعيشون تحت رحمة مظلة صواريخ الحزب، فأي اقتصاد، وأي بنى تحتية، وأي سياحة، وأي استقرار يمكن أن يراهن عليه في إسرائيل؟ لقد أصبحوا يفتقدون الأمن الاقتصادي، وأمن الكيان كله، لقد انكشفوا كلياً، فلأوَّل مرَّة تفتح الملاجىء للمواطنين الَّذين كانوا ينزلون طواعية من دون صفارة إنذار، في تل أبيب، ثمَّ اكتشفوا أنَّ ما ظنوا أنَّه مظلة صواريخ باتريوت تحميهم، لم تحمهم في حيفا، فهل استطاعت هذه الصواريخ أن تحمي حيفا، وهي موجودة على جبل الكرمل؟ وهل استطاعت أن تحمي عمق إسرائيل عندما سقطت الصواريخ في الخضيرة؟ إذن الباتريوت لم تشكل مظلة تحمي إسرائيل، فكيف إذاً استطاعت المقاومة أن تستهدف الباتريوت وتدمرها في جبل ميرود، لذلك فإنَّ التداعيات كثيرة وكثيرة جداً.

دخلنا الحرب وعرفنا مراحلها وكيف نخرج منها، بينما العدو لم يعرف متى يدخل الحرب، ولم يحسب مراحلها، وبالتالي كان يجهل كيف يخرج منها. فاستطاعت المقاومة أن تخوض الحرب ٣٣ يوماً وبقيت على الحدود في اللبونة وعيتا الشعب وكفركلا والخيام، وتقصف من هذه القرى العمق الإسرائيلي، ولم تستطع إسرائيل بكل ما تملكه من ترسانة جوية وبرية وبحرية أن تنال من هذه الصواريخ، بل لم تستطع أن تخفف من وتيرة القصف، وكانت المقاومة تتعمد بأن تبدأ بـ ١٥٠ صاروخاً، وفي الأسبوع الثاني ترفع العدد إلى ٢٠٠ صاروخ، ثمَّ ٢٥٠ حتَّى وصلنا إلى ٣٥٠

صاروخاً يومياً، والحركة كانت تصاعدية في العدد والنوعية والعمق، وهذا كانت له مدلولات كبيرة، ومن حكمة إدارة المقاومة للمعركة، أنَّ المجزرة الَّتي حصلت للجيش الإسرائيلي في جلعادي، أنَّ هذا الموقع استهدف بصواريخ الكاتيوشا من خمسة مواقع متفرقة من قبل المقاومة، من شمال وجنوب ونهر الليطاني والبقاع الغربي في نفس الدقيقة، ما يعني بقاء قدرة حزب الله على التحكم والاتصال والسيطرة والقيادة حتَّى آخر مراحل الحرب، وهذه أيضاً بالغة الدلالة للإسرائيلي، وعندما كان القصف يتم من الناقورة حتَّى جبل الشيخ، كان يتم ذلك في توقيت واحد، وهذا الأمر يعرف الإسرائيلي ماذا يعني؟ إنَّه يعني أنَّ القيادة في حزب الله بعد ٣٣ يوماً من القتال بقيت على تواصل مع المجموعات ومع منصات الصواريخ في الناقورة وبنت جبيل وكفركلا والخيام، إذن ماذا أنجز الجيش الإسرائيلي؟ باختصار أنجز فضيحة.

هـ ـ من أسرار الحرب:

وكشف الشيخ قاووق: إنَّ من أسرار هذه الحرب، أنَّ بعض الأسلحة الَّتي استخدمناها كانت أسلحة إسرائيلية، غنمتها المقاومة في العام ٢٠٠٠، وهم يتحدثون أنَّ مصادر سلاح حزب الله من سوريا وإيران، فكيف إذا علموا أنَّ جزءاً كبيراً من هذا السلاح الَّذي استخدم كان من العتاد الَّذي تركه العدو الإسرائيلي أثناء الانسحاب المذل. إنَّها فضيحة تضاف إلى بقية الفضائح الإسرائيلية الَّتي تحمل المزيد من الدلالات. ومع ذلك لم تتوقف حركة التواصل وإمدادات السلاح إلى الجنوب طيلة أيَّام حرب الثلاثة والثلاثين، وكانت المقاومة أعدت خططها تحسباً لأي قطع طرقات وجسور، ولم تكن لدينا أي مشكلة في إمداد السلاح، أو إيصال الطعام إلى المقاتلين حتَّى الحدود، وكان الطعام يصل إلى المجموعات المتقدمة في

اللبونة الَّتي هي فوق مستعمرة نهاريا قرب السياج، ساخناً، والمعدّ في نفس اليوم، وهنا نحن نقدِّر دور الأُمَّهات والأخوات وكل النِّساء اللواتي شاركن في الصمود بالقرى الأمامية، وحضَّروا الطعام للمجاهدين.

ومن أبرز المعارك الَّتي خضناها كانت معركة بنت جبيل الَّتي أراد العدو أن يحسمها باحتلال هذه المدينة، وكان يكفي الإسرائيلي التقاط صورة لجنوده داخل المدينة، حيث ألقى الأمين العام لحزب الله السيِّد حسن نصر الله خطاب النصر عام ٢٠٠٠، وأعلن من هناك أنَّ إسرائيل أوهن من بيت العنكبوت.

أذكر آنذاك أنَّ قائد فرقة الجليل، جعل نصب عينيه هدفاً، الحصول على هذه الصورة في بنت جبيل، واعتبر أنَّ هذه الصورة تحسم المعركة، والآن هذا الجنرال يحاسب ويحاكم على هذا الهدف، لقد كلفته هذه الصورة كثيراً لأنَّه اتهم بأنَّه ضحى بأرواح العديد من الجنود من أجلها، وقد استخدم في محاولته احتلال بنت جبيل كل الألوية، من غولاني لإيغوز لجيفعاتي ونخبة المدرعات والجنود، وكلها هزمت أمام صمود المقاومين في تلك المدينة، وأعلن مرتين أنَّه حرَّر المدينة ثمَّ يكتشف أنَّه كان يكذب على قيادته وشعبه.

وهناك عنصر مهم لا بدَّ من ذكره، وهو إدارة هذه الحرب، فقيل إنَّ خطط حزب الله أوقعهم في إرباك، وهذا سلاح كان حاسماً في المعركة، لأنَّ قيادتهم كانت مربكة، ما اضطرها إلى تعديل الخطط يومياً، أصيبوا بضياع استراتيجي ولم يعد للجنود أي هدف، فتارة كانوا يدعون لقصف منصات الصواريخ، وتارة يطالبون باستعادة الجنود، وطوراً يدعون إلى السيطرة على المواقع الأمامية الَّتي أفرغها حزب الله وتركها لهم كطعم، ثمَّ يدعون للتوغل لمسافة كيلومترين، أو توسيع الاحتلال للوصول إلى نهر

الليطاني، كان هناك تخبط وإرباك واضحين، وقد ساهم حزب الله في الوصول إلى ذلك، ما أدّى إلى إقالة قائد الجبهة الشمالية أثناء الحرب عودي آدم، فماذا يكون مصير القوات عندما تعرف أنَّ قائدها أقيل؟ هذا أدّىٰ إلى تعميق المأزق الإسرائيلي، وأكثر من ذلك كان هناك خلل فاضح في التنسيق بين القوات، بين الجوي والبري، والبري والبحري، وكانت المقاومة تدرك هذا الخلل وتستفيد منه لتحقيق أهداف عسكرية قاتلة بالنسبة لهم، ومن طرائف الحرب، أنَّ الباتريوت أعدوه لحماية حيفا مثلاً، وهذا الباتريوت عندما يرصد الصاروخ يطلق صفارة الإنذار، وعندما نطلق صواريخنا باتجاه نهاريا، فإنَّ الباتريوت يعطي صفارة إنذار في حيفا، فينزل المواطنون إلى الملاجىء، ولكن لا يحصل قصف، وبعد قليل نطلق صاروخاً على عكا، فيطلق الباتريوت صفارة الإنذار، فيهرع المواطنون أيضاً إلى الملاجىء، ويتكرر هذا المشهد أكثر من ثلاثين مرَّة يومياً، حتَّى وصل الأمر بالإسرائيليين مرحلة تعبوا منها من صفارات الإنذار هذه، ولم ينزلوا إلى الملجأ، عندئذٍ أطلقنا الصواريخ باتجاههم وأوقعنا إصابات، وهذا كشف خللاً وأصبح مثار سخرية الجميع، والحرب كما تعلم معنويات، ولم نكتشف أنَّ صفارات الإنذار هذه كانت تستنزفهم وتشكل عبئاً عليهم إلاَّ في ما بعد، وهذه كانت من النتائج.

ثانياً: معطيات ميدانية

وأوضح لي عدد من قادة حزب الله، أنَّ المقاومة، ومنذ اللحظة الأُولى لحصول العدوان الإسرائيلي فيما سمي «تصفية الحساب» في العام ١٩٩٣، ومن ثمَّ في حرب «عناقيد الغضب» في أبريل العام ١٩٩٦، وبعد أن ألحقت الهزائم المتتالية بالعدو، كانت تتوقع الثأر منها، خاصة بعد دحر الاحتلال في العام ٢٠٠٠ وحالة الاستنهاض الَّتي شكلتها المقاومة حولها، ليس في لبنان فحسب، بل لدى الأُمَّة أيضاً، وأكد النائب السابق محمد البرجاوي أنَّه على أساس رؤيتنا الثاقبة للأُمور، وقراءتنا الدقيقة لخفايا ما كان يخطط ويدور من حولنا، جهزنا أنفسنا لأية مواجهة مفترضة، ولأي معركة يمكن أن تفرض علينا في أي وقت، وفي أي مكان، ولذلك استطاعت المقاومة خلال إعلان الحرب المفتوحة عليها، أن تمتص الصدمة الأُولى، من خلال عملية القصف الوحشي، وانتقلت إلى عملية رد العدوان، ومواجهة قوات الاحتلال في مواقعها، خاصة عندما دخلت إلى مثلث مارون الراس ـ عيترون وبنت جبيل، وهناك لمس العدو بعض بأسنا، وكنَّا نستهدفه حتَّى خلف خطوطه الخلفية، وكبدناه خسائر كبيرة في أفراد جيشه ودباباته وآلياته العسكرية، وألحقنا الهزيمة في نفوس من تبقى، ورمينا الذعر في قلوبهم،

فقد دهش الجيش الإسرائيلي ـ وحسب اعترافاته ـ بقدرة ومهارة المقاومين على التصدي، والهجوم، والقتال الميداني المميز، والروح العقيدية الَّتي تميزوا بها، رغم كثافة الغارات الجوية والقصف البحري عبر البوارج، والتمشيط المدفعي، وقد انعكست هذه الصورة على بقية المواجهات في الأيَّام الَّتي تلت ذلك، فوقع جنود الاحتلال في العديد من المصائد الَّتي نصبت لهم، وكان صراخ الجنود يسمع من أماكن بعيدة وهم ملقون على الأرض، دون أن يجرؤ المسعفون الإسرائيليون من الاقتراب منهم لإسعافهم، أو سحبهم إلى أماكن أكثر أماناً، وكذلك الحال بالنسبة للآليات والدبابات المحترقة والمعطوبة الَّتي بقيت فترة في ساحة المعركة، وهذا دليل على الإذلال والهزيمة، والخسائر الفادحة الَّتي لحقت بالاحتلال، إضافة إلى ذلك، أدخلت المقاومة وللمرة الأُولى بهذا العنف والدقة، القوَّة الصاروخية للميدان، مستهدفة المراكز العسكرية، والمواقع، والتجمعات الآلية والمستوطنات، وحتَّى المطارات، فحققت المزيد من المكاسب، والضغط الميداني الَّذي كان له الأثر الكبير في سير المعارك، من هنا فإنَّ كل إخفاقات العدو عبر عنها من خلال القصف الجوي، على صعيد استهداف ضاحية بيروت الجنوبية، أو ضرب البنية التحتية، وارتكاب المجازر، فقد أراد الاحتلال تغطية عجزه وفشله بقتل المدنيين الأبرياء في بيوتهم، وداخل سياراتهم، وفي ملاجئهم، دون أن يميز بين طفل أو شيخ أو امرأة، وقد شهدنا ذلك من خلال مجازر: قانا، النبطية، الغسانية، الدوير، حولا، الغازية، إنصارية، عيترون وغيرها من المدن والقرى الجنوبية والبقاعية، لكن كل ذلك لم يؤد إلاَّ إلى مزيد من اتساع شعبية المقاومة، وتأييدها ومساندتها لاستكمال مهمتها في صد العدوان، وتحقيق الانتصار.

أعتقد أنَّ تجربة العدوان الصهيوني علينا في أعوام ١٩٩٣ و١٩٩٦، أثبتت بأنَّه من قابل في سبعة أيَّام في حرب يوليو ١٩٩٣، ما يُسمَّى بأعتى وأقوى جيش في المنطقة، موجة العدوان، ومن قاتل ١٦ يوماً في نيسان/ أبريل ١٩٩٦ بشراسة، وبقيت الضربة الأخيرة لنا حتَّى بعد قرار وقف إطلاق النَّار، وبالتالي إيقاف العدوان على اللبنانيين، وبعد مرور حوالي شهر تقريباً على هذا العدوان والمواجهات الضارية، قلنا: من قاتل وواجه مثل هذه الاعتداءات وصمد، وقدَّم نماذج فريدة في القتال كان يدرك تماماً أنَّ النصر لا بدَّ أن يكون إلى جانبه، وأنَّ الاحتلال الَّذي هزم أكثر من مرَّة، لا بدَّ أن يدحر مجدداً، والكل كان شاهداً على الزخم للقوَّة الميدانية والصاروخية للمقاومة، من خلال أدائها الفعَّال والقوي، ولم نستخدم إلاَّ القليل القليل، وهو يتراوح بنسبة ١٠ إلى ١٥ بالمئة من قوتنا النارية وبقي لدينا الكثير الكثير الَّذي يمكن أن نستخدمه ولم نكشف عنه ولدينا الأوراق الكثيرة الَّتي يمكن أن نلعبها ولم نستعملها حتَّى تلك اللحظة، فدفع الاحتلال أثماناً باهظة لغطرسته وغبائه السياسي والعسكري وما دام هناك جندي صهيوني على الأرض اللبنانية، فنحن نعتبر أنفسنا ما زلنا في المواجهة المفتوحة، وسنقاتل حتَّى يتم طرده.

وشرح قيادي بارز في حزب الله بعض جوانب الوقائع الميدانية أثناء الحرب، فأكد لي أنَّ الجنوب شهد مواجهات على أكثر من محور، وحاول الإسرائيليون أن يزجوا بالقوات البرية على أربعة محاور أساسية، فحصل نوع من الكر والفر فيها، وما تمَّ اختراقه أحياناً لا يتعدى السبعة أو الثمانية كيلومترات في بعض النقاط، إلاَّ أنَّها لم تكن اختراقات مستقرة بالمعنى العسكري الحقيقي، إنَّما كانت اختراقات لإثبات الوجود ليس أكثر، وتسجيل انتصارات وهمية.

بالمقابل حوَّلت المقاومة هذه الاختراقات والتقدمات على بعض المحاور إلى مصائد للدبابات الإسرائيلية، وحسب الإحصاءات الَّتي ذكرها المراقبون العسكريون، فهناك أكثر من ٦٠ دبابة من نوع ميركافا، وعشرات الآليات الأُخرى أحرقت بالكامل، وسقط يومياً ١٥ و٢٠ إسرائيلياً بين قتيل وجريح، وكان الإسرائيلي يحاول الوصول إلى أي نقطة تطل على نهر الليطاني ليقول إنِّي وصلت إلى النهر، وبالتالي كان يريد أن يفرض نوعاً من الضغط السياسي من خلال أعماله العسكرية، لكنَّه تلقى صفعات قاسية في مرجعيون والخيام ودبين وعيتا الشعب، وهذه البلدات متاخمة للحدود اللبنانية مع فلسطين المحتلة. وكان تكتيك المقاومة هو استدراج القوات الغازية إلى أماكن يمكن تطويقها فيها وإنزال أكبر نسبة ممكنة من الخسائر في صفوفها، سواء على المستوى البشري أو على مستوى الآليات. وكان الإسرائيليون يتفاخرون في البداية، عن سهولة اجتيازهم لمنطقة مرجعيون الَّتي وصلوا إليها من تل النحاس والقليعة لكن سرعان ما تكشف لهم الوضع بشكل دراماتيكي، عندما تبين أنَّ المقاومة كانت تترك الجيش الإسرائيلي يتقدم في هذا المحور بضعة كيلومترات من نقطة دبين، واستدراجه إلى ساحة مرجعيون، حيث أمطرته بوابل من الصواريخ المضادة للدروع، فدمرت له ٦ دبابات، وتراجع بعدها الرتل المؤلف من ١٣ دبابة.

واعتبر القيادي أنَّ المواجهة الكلاسيكية، مع إسرائيل لا تنجح، لأنَّها تمتلك قوَّة جوية وبحرية وبرية ضخمة، وقد أثبتت التجربة أنَّ حرب العصابات والتكتيكات الَّتي اعتمدتها المقاومة، هي أنسب وسائل الردع والمواجهة وتحقيق الانتصارات. ورأى أنَّ الولايات المتحدة، حاولت إعطاء الاحتلال الفرصة الزمنية تلو الفرصة، مع منحه غطاء سياسياً عن طريق التسويف والمماطلة للوصول إلى حل ينجز فيه الإسرائيلي شيئاً على

الصعيد الميداني، من أجل استخدامه في فرض الشروط على الحكومة اللبنانية، إلاَّ أنَّ الموقف اللبناني الصعب المنطلق من إجماع داخل مجلس الوزراء، ومن تفاهم بين ثلاثة أركان رئيسية في الواقع السياسي اللبناني، المتمثل بالأمين العام لحزب الله السيِّد حسن نصر الله، ورئيس مجلس النواب نبيه بري، ورئيس كتلة المستقبل النيابية النائب سعد الحريري، حال دون ذلك. إذ جرى نوع من الاتفاق على الخطوة الَّتي اتخذتها الحكومة بشأن نشر الجيش اللبناني في الجنوب، وكان هذا المخرج مناسباً للجميع، إلاَّ أنَّ الأمريكي اعتبره غير كاف، وأصر على أن يتم العمل ضمن ما يُسمَّى بالبند السابع في الأُمم المتحدة، الأمر الَّذي رفضه لبنان رفضاً قاطعاً، وتمسك بما أسماه النقاط السبع التوافقية، واعتبر نصر الله أنَّ موافقة حزب الله على نشر الجيش في الجنوب، خطوة من أجل الحفاظ على حالة التماسك الداخلية في لبنان، والحفاظ على الوحدة، الَّتي هي مصدر القوَّة في مواجهة العدوان، إلى جانب البسالة الأسطورية الَّتي جسدتها المقاومة ومجاهدوها على الساحة الميدانية.

ثالثاً: تفاصيل المواجهات اليومية

دخلت روايات وأحاديث قادة المحاور والمقاتلين في حزب الله، الَّذين تمكنوا من صد أقوى جيش في المنطقة، وألحقوا به هزيمة نكراء، وأفشلوا خططه ومشاريعه، القاموس العسكري، وأصبحت مادة أساسية للتدريس في الأكاديميات العسكرية، غايتها التعرف إلى هذا النمط من المقاومة، وإلى الروح العقيدية والنفسية والمجاهدية الَّتي قاتلت وانتصرت، رغم الفارق الشاسع في الإمكانات المادية والعسكرية مع عدوها.

كان يسترقفني في شهادات هؤلاء المقاتلين، ملاحظتان:

الأُولى: الإيمان المتوهج في كلماتهم وعيونهم، والعميق في صدورهم، فهو بوصلة بنادقهم، يحدد لهم خطهم وخطتهم، ويضعهم أمام خيار من اثنين: الفوز بالنصر، أو الفوز بالشهادة، وفي كلا المشهدين الانتصار محقق.

الثانية: وضع العدو في حجمه العادي الَّذي رسموه، بعد أن خبروه في أكثر من مواجهة، لم يتهيبوا الغارات، ولا الدبابات، ولا كل أسلحة الدمار والإجرام، كانوا مقتنعين بأدائهم وقناعاتهم وقياداتهم، كما هم مقتنعون بأنَّهم أصحاب حق وأرض لا يجوز التخلي عنها، مهما كان الثمن.

كنت أستمع لهؤلاء المقاتلين ومعظمهم فتية تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٣٠ عاماً وأدرك أنَّهم فعلاً جديرون بالانتصار الَّذي حققوه، فمن يملك

هذه الإرادة والتخطيط والسلاح والرؤية لا يمكن أن يهزم. كنت أشعر أنّني أمام نموذج آخر لجيل هذه المرحلة، نموذج لو عممت أفكاره وطموحاته، لأصبحت المنطقة كلها أمام مسار جديد مختلف.

١ ـ المعارك على محور بنت جبيل ـ عيناتا:

كان طبيعياً أن أبدأ جولتي من مدينة بنت جبيل، الّتي شهدت محاورها على مدى أيّام عدة، ملاحم بطولية نادرة، فكل شبر فيها، وكل منزل، أو حي، أو قصر أو مؤسسة، أو ساحة تروي مشاهد تنبض بالبطولة والتضحية، هنا دارت معارك طاحنة، هناك تساقط رجال الاحتلال كأوراق الخريف، وهناك وهناك عشرات القصص حول حجم المواجهات، وقد لخص لي أحد أبرز مجاهدي محور بنت جبيل ـ مارون الراس ـ عيترون، الّذي رفض الإفصاح عن اسمه لأسباب أمنية، واكتفى بكنية «أبو حسين»، لخص تفاصيل وتطورات المعارك في تلك المنطقة على النحو التالي:

في اليوم السابع للحرب، وبعد قصف مدفعي عنيف لبلدات وقرى: بنت جبيل، مارون الراس وعيترون، وغارات مكثفة للطائرات الحربية الإسرائيلية، على مارون الراس، حاولت قوّة مشاة، الدخول من قرية صلحا اللبنانية المحتلة (إحدى القرى الجنوبية السبع)، الّتي تجاورها مستعمرة «افيفيم»، باتجاه المحور الممتد بين جل العلم الواقع في بلدة مارون وجبل كحيل في عيترون، فكان عدد من مقاتلي حزب الله بانتظارها، فتصدوا لها وقتلوا جنديين، فتراجعت القوّة الإسرائيلية وسحبت الجنديين ليلاً، وكررت تجربة التسلل من منطقة الغابة الواقعة بين مارون وعيترون، ففتحت ثغرة في الشريط الشائك، وحاولت التقدم باتجاه استراحة القدس في مارون، وكان مقاتلونا يرصدونها عند الساعة الثامنة صباحاً، وتركوها تدخل أطراف البلدة، ثمّ اشتبكوا معها، فكان المجاهدون يتنافسون للانقضاض على

الجنود من منزل إلى آخر، وكانت القيادة تدير المعركة بأدق التفاصيل لأنها تعرف تضاريس الأرض وطبيعة المواجهة وتوجه المقاتلين حسب الخطة المرسومة، وكان الجنود الإسرائيليون يفرون مذعورين أمام المجاهدين كالأرانب، ولو كنَّا بحاجة إلى أسرى، لعدنا بعدد منهم، لكن هذا لم يكن وارداً في الخطة، كانت المعارك وجهاً لوجه، وسقط لإسرائيل عدد من القتلى، ما دفعها للالتفاف على البلدة من عدة محاور أُخرى، فدخلوا من منطقة «الباط» بواسطة دبابات من نوع «ميركافا»، فدمرنا لهم واحدة في السهل، ووصلت اثنتان عند مدخل مارون الراس، فتمَّ تدميرهما، ولم يستطيعوا سحبهما، وتقدَّم مجاهد نحو إحدى الدبابات وفتحها، فوصف ما لم يصدقه، حيث شاهد جندياً إسرائيلياً، خلع ثيابه كاملة وبدأ يلطم على وجهه، فيما بقية رفاقه قتلوا، وقد بقي القتال في تلك البلدة ثلاثة أيَّام متتالية، حتَّى دخل الإسرائيليون أطرافها، وقد استشهد لنا بين ٥ و٨ مقاتلين، وقد اعترف الإسرائيليون بمقتل ١٢ جندياً، لكن أعتقد أنَّ قتلاهم تجاوزوا العشرين قتيلاً.

في تلك الأثناء انسحب مقاتلونا تكتيكياً إلى بنت جبيل، فظن الاحتلال أنَّ بمقدوره احتلال البلدة، فدخل بالدبابات من محور «الباط» وهو محور استراتيجي، ومن محور كحيل ـ بنت جبيل باتجاه المهنية، وفي هذا اليوم، تمكنا من إحراق ست دبابات وتدمير جرافتين عسكريتين إسرائيليتين (وأشار بإصبعه إلى مكان المهنية)، وقد استعان الجيش الإسرائيلي بالجرافات لفتح طرق جديدة، متجنبين سلوك الطريق التقليدية المعروفة، وفتحت الجرافات في البداية طريقاً بالقرب من مبنى فوزي الصغير[1]، وسمح لهم المقاتلون

(١) فوزي الصغير أحد العملاء الَّذين كانوا ضمن ميليشيا انطوان لحد ومسؤول محور بيت ياحون واكتسب ثروة عبر فرض الخوات والتهريب أثناء الاحتلال العام ١٩٨٢.

باستكمال مهمتهم، وكان خلفهما دبابتان، إحداهما انفجر بها لغم أرضي كبير، كنَّا قد زرعناه على الطريق، والثانية دمرت بصاروخ، وانقضوا على الجرافتين وأحرقوهما. وعلى الفور تراجعت بقية الوحدة الإسرائيلية الَّتي كانت تنتظر نتائج العملية، لتعيد رسم خطة جديدة في اليوم التالي، وكنَّا نحسب ألف حساب لكل خطوة يمكن أن يقدموا عليها، والخطة الَّتي اتبعها الاحتلال بعد ذلك، هي إدخال المشاة أوَّلاً لتأمين الطرقات، يليها إدخال المدرعات، فبدأ الهجوم بتمهيد ناري كثيف، عبر قصف عدد من المنازل والطرقات والأحياء، واستكمله بالدخول من محور خزانات بنت جبيل، وهو مكان مرتفع، توجد فيه ثلاث فيلات، تمركزوا بداخلها.

وكانت خطتنا تعتمد على السماح لهم بالتمدد والتوسع:

أوَّلاً: لاستحضار عدد أكبر يمكن اصطياده بسهولة.

وثانياً: فإنَّ عملية الانتشار تضعفهم والالتحام معهم يحقق نتائج أفضل، فعندما يتم الاشتباك مع عدد قليل من المقاتلين، وأعداد كبيرة من الجنود، نستطيع أن نقتل أعداداً كبيرة منهم، عندما وصلوا إلى محور الخزانات، لم نشتبك معهم، فتقدموا من ناحية المهنية باتجاه مظلة التحرير، فمنطقة السدر في عيناتا، وكان تسللهم يتم عادة ليلاً، لأنَّ قدرتهم التكنولوجية وأجهزتهم المتطورة، تسمح لهم بمراقبة الوضع الميداني في العتمة كما في النَّهار، إلاَّ أنَّنا كنَّا نعطيهم المجال للتقدم وفق خطة، حتَّى يتم حشرهم في منطقة محددة، وكما قال أمين عام حزب الله السيِّد حسن نصر الله: نحن لم نكن نقاتل على مستوى جغرافي، إنَّما كنَّا نقاتل ما هو أهم من الجغرافيا، وهو إلحاق أكبر عدد ممكن من الخسائر في صفوف الاحتلال.

وتقدمت فرقة إسرائيلية أيضاً من وادي بلدة عين إبل، باتجاه «خلة

المشته»، ووصلوا إلى تلة مسعود، ثمَّ أكملوا مسيرهم نحو مطعم «غراند بالاس»، وهو يبعد عن مستشفى الشهيد صلاح غندور حوالي ٢٠٠ متر، كان الإسرائيليون يتصرفون ـ حسب ملاحظاتنا لهم ـ وكأنَّ الساحة فارغة، ولا يوجد من سيتصدى لهم، وكانوا يتحدثون مع بعضهم بصوت عال، ولا يترددون في استخدام الأضواء، كنَّا ندرك أنَّ هذه التصرفات تدلُّ على خوف وقلق، ولكن عندما وصلوا إلى نقطة الخط الأحمر الَّذي رسمناه وهو المطعم المذكور ـ لأنَّ السماح لهم بالتمدد أكثر يمكن أن يقلب المعادلة ـ، بدأت الاشتباكات الأولى من هذه الجهة، فسقط خلالها عشرات القتلى والجرحى من الإسرائيليين، وحتَّى الآن، لو ذهبت إلى بعض قصور ومنازل بنت جبيل، حيث تمركزوا بها، تشاهد الدماء وهي تغطي الأرض، كما تشاهد أكياس المصل والضمادات، و«بانيوهات» الحمامات الَّتي كانوا يجمعون فيها الجثث، وسبب هذه الخسائر الكبيرة، عامل المفاجأة، فباغتناهم حيث لم يتوقعوا، وقد استخدمنا في هذه الاشتباكات أسلحة لم يكن الاحتلال يتوقع وجودها معنا، كالقذائف المضادة وغيرها، وهنا صدموا وبدأوا يفرون باتجاه منازل البلدة للاختباء، فإذا بهم يفاجؤون أيضاً بوجود مقاتلينا داخل هذه المنازل، فزادت أرقام خسائرهم، ومن تبقى لم يكن له سوى الهرب، وقد تجمعوا في قصر مسعود، في هذه الأثناء كانت بعض محطات البث المرئية والمسموعة، ونقلاً عن مصادر عسكرية إسرائيلية، تبث بأنَّ بلدة بنت جبيل سقطت بيد الجيش الإسرائيلي، وكنَّا نضحك، ونعرف أنَّ ذلك سيخدمنا لاحقاً عندما يكتشف الجميع، أنَّ هذه الأنباء عارية عن الصحة وأنَّ إسرائيل تتلقى الصفعات العسكرية على هذا المحور. بات الإسرائيليون ليلتهم هناك، وفي الصباح الباكر شن المجاهدون هجمات عنيفة ضدهم، وقد شهد محور عيناتا، ومثلث التحرير

في بنت جبيل، أشرس المعارك، وكنت أسمع أحد المقاتلين على الجهاز، وهو يردد: قتلت ثلاثة وأربعة، وآخر يقول قتلت ٧ جنود، وثالث يؤكد أنَّه قتل وجرح العشرات، كنت في البداية لا أصدق ما أسمع، إلى أن بدأ الإسرائيليون بالاعتراف، فأعلنوا في البداية عن سقوط ١٥ قتيلاً وعشرات الإصابات الأخرى، ثمَّ رفع العدد أكثر فأكثر، وهنا تأكدت أنَّ ما سمعته صحيحاً، وأنَّ الجنود الإسرائيليين وقعوا في فخ يصعب النجاة منه، والطريف أنَّه وسط المعركة كان مقاتلونا يهزؤون من الجنود الإسرائيليين الَّذين يتخلون عن أسلحتهم، ويصرخون ويشتمون قيادتهم، ويهربون باتجاه أي مخبأ، منزلاً كان أو أية زاوية، وهنا تدخل الطيران الحربي الإسرائيلي فأغار على المكان غير مكترث بوجود جنود له، إذ كانت المسافة بيننا وبين جنود الاحتلال لا تتعدى الأمتار القليلة، وهذا ما رفع عدد القتلى الإسرائيليين، وسقط لنا شهداء أيضاً، في هذه الأثناء انقض أحد المقاتلين على عدد من الجنود الإسرائيليين، فقتل بعضهم، وفر الآخرون إلى إحدى كروم الزيتون القريبة فلاحقهم، وبقي يطاردهم وحيداً حتَّى استشهد، وقد روى أحد مقاتلينا الَّذي كان يراقبه أنَّ الشهيد قتل أكثر من ١٥ جندياً إسرائيلياً لوحده، وكان مجموع القتلى الإسرائيليين في هذه المعركة حوالي ٤٠ قتيلاً، عدا الجرحى الَّذين يعدون بالعشرات، ونفذت الطائرات الحربية غارات وهمية عدة، ونشرت غطاءً دخانياً كثيفاً. وهبطت مروحيتان بين عيترون ومارون لسحب الإصابات، ثمَّ انكفأوا عن هذه المنطقة نهائياً، وفي اليوم التالي، انسحب عدد من الجنود من تلة مسعود، وبقي في حدود عشرة جنود، تمَّ محاصرتهم وقتلنا جندياً كان على السطح، وجرت اشتباكات من منزل إلى آخر، ومن غرفة إلى غرفة، فعمد الاحتلال إلى افتعال غطاء دخاني، ابتداء من منطقة الدورة، البركة، خلة المشته، شلعبون حتَّى تمكن

من سحب الجنود والإصابات، تلا ذلك غارات على قصر مسعود، فاستغربنا الأمر، لكنَّنا اكتشفنا أنَّه كان يوجد داخل هذا القصر أجهزة إلكترونية ومعدات عسكرية بالغة الدقة والسرية والحساسية وثمينة جداً، لم يتمكن من سحبها، فدمّر القصر ومحتوياته، ولو ذهبت إلى القصر لعثرت على الكثير من حطام هذه الأجهزة.

وفي اليوم الرابع عشر للمواجهة، اكتشفنا وجود عناصر على سطح قصر المراوح[1]، في منطقة الخزانات، فتشاور المجاهدون حول طريقة قتلهم، وجرت اتصالات مع القيادة بهذا الشأن ويبدو أنَّ أحد الإخوة المُكلف بالقيام بهذه المهمة، لا يعرف القصر جيداً، فقصف المكان إلاَّ أنَّ قذائفه سقطت في فيلا قريبة، وفوجئنا أنَّ تلك الفيلا كان يختبىء فيها جنود إسرائيليون، فقتل اثنين منهم، فنزل الجنود عن سطح القصر، ثمَّ صعدوا مجدداً لتركيز جهاز يعطي إشارات للطائرات لتحديد الأهداف، وكان عددهم أربعة عندئذٍ استهدفناهم بقذيفة صاروخية، وتمَّ قتلهم، وعرفنا لاحقاً من اعترافات العدو بأنَّهم تابعون لأجهزة الاستخبارات، وبعد الانتصار وتحرير بنت جبيل، تفقدنا القصر، فشاهدنا الدماء وقطع السلاح المحروقة وأشلاء وأربع نظارات، ممَّا يعزز قناعتنا بأنَّهم جميعاً قتلوا.

واعترف أبو حسين بأنَّه تم اعتماد الأنفاق أحياناً، لتوقي القصف والغارات وللتمويه، ولكن هذا جزء من تكتيكنا الحربي، إذ اعتمدنا في غالب الأحيان المواجهات المباشرة، والاشتباكات وجهاً لوجه، وفي الخلاصة كل ما حصل كان متوقعاً، وما لم نتوقعه هو أن يكون الإسرائيلي بالغباء الَّذي تجلى به، إذ كنَّا نمني النَّفس بالالتحام الميداني، سواء على

---

(١) سمي القصر بهذا الاسم لوجود مروحتين كبيرتين لتوليد الكهرباء.

مستوى المشاة أو على مستوى المعركة مع الميركافا، وبالفعل وفَّر لنا هذا الحلم، وكنَّا نسمع صراخهم وعويلهم في الأودية، ومعظم إصاباتهم كانت من الخلف، لأنَّنا كنَّا نصطادهم وهم يفرون من المعركة، وخسرنا في المواجهات على محور بنت جبيل ـ عيناتا ـ مارون الراس عشرة شهداء، أمَّا الخسائر الباقية فسقطت نتيجة الغارات الإسرائيلية المفاجئة على المنازل، واستشهد شقيقاي في هذه الهجمات أمَّا المدنيين الَّذين قضوا تحت الأنقاض فهم ٢٣ شخصاً، معظمهم من الأطفال والنِّساء والشيوخ، وأعتقد أنَّ مجمل عدد القتلى الإسرائيليين على هذا المحور يتراوح بين ٤٠ و٦٠ ضابطاً وجندياً، وقد اعترف الاحتلال بـ ٢٩ قتيلاً، وصنَّف الآخرين بالحالات الخطرة والصعبة.

وقد دمَّر الاحتلال ٨٠٠ وحدة سكنية دماراً شاملاً، وتضررت ١٢٠٠ وحدة أُخرى جزئياً، و٤٠٠ أصيبت بأضرار بسيطة، وهذا وفق آخر إحصاء أجريناه تقريباً وقد تعهد أمير دولة قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، بإعادة إعمار بنت جبيل، وعيتا الشعب، والخيام وعيناتا، إضافة لدور العبادة الإسلامية والمسيحية المتضررة.

واستكمل المجاهد أبو حسين، فرحة انتصاره على الاحتلال أثناء لقائنا به في بنت جبيل، بفرحة زفاف شقيقه المجاهد أيضاً، رغم أنَّه لم يمض على استشهاد شقيقيه أكثر من أيام معدودات، وقال مبتسماً: هذه مشيئتنا نحن الَّذين نسير على هذا النهج، الحياة يجب أن تستمر تماماً كما العطاء يجب أن يستمر، ونحن ننتقل من عرس إلى عرس، من عرس الشهادة إلى عرس الزواج، وكنَّا قبل بدء المعركة نوصي بعضنا البعض، أنَّنا يجب أن نكمل طريق الجهاد، لأنَّنا كنَّا ندرك أنَّنا أمام حرب شرسة، وسيسقط منَّا الشُّهداء، وعندما استشهد أشقائي، طلبت من القيادة والعناصر، أن لا

يعلموا أحداً بذلك، إلى أن تنتهي المعركة، لأنَّنا أمام مهمة تاريخية، ولو راقبت حجم الدمار الَّذي حلَّ ببنت جبيل، وتجولت في المحاور الَّتي شهدت القتال، قد لا تصدق بسهولة أنَّ نفراً قليلاً من المجاهدين، هم الَّذين صنعوا هذا الانتصار الكبير، وهم الَّذين دحروا احتلالاً مدججاً بالسلاح والعتاد، ومحمياً بأحدث الطائرات الحربية والمروحية والتجسسية.. إنَّها إرادة الصمود والتضحية والإيمان، هي الَّتي كتبت هذه العزة، لقد عرفت إسرائيل أنَّ لبنان عام ٢٠٠٦ ليس لبنان عام ١٩٨٢ ولا حتَّى عام ٢٠٠٠، ولا المقاومة الَّتي واجهتها يمكن أن تهزم بسهولة، والإسرائيلي باعتقادي من الصعب أن يفكر بالعودة إلى جنوب لبنان بعد كل الَّذي عاشه وعاناه وشاهده، لأنَّ كلفة أي محاولة احتلال ستزداد حجماً، مع ضراوة المواجهات، ومع ابتكار الأساليب.

٢ ـ المواجهات في دبل والطيري والطيبة:

أمَّا المواجهات في بلدة دبل (سكانها من المسيحيين) وقريبة جداً من الحدود، فكان لها نكهة مختلفة، فلم يتوقع جنود الاحتلال أن يصادفوا نفس القوَّة في التصدي كما في القرى والبلدات الإسلامية، فحاولوا أوَّلاً الالتفاف على بلدة عيتا من دبل مراراً ففشلوا، وقد أحرق للاحتلال العديد من الدبابات، ثمَّ دخلوا بفرقة مشاة، واستقروا في أحد المنازل، فرصدهم أحد المجاهدين فقصفهم بصاروخ، ما تسبَّب بمقتل وإصابة عدد كبير منهم، اعترف العدو بسبعة عشر قتيلاً، عدا الجرحى، وبعد الانسحاب وجدنا أشلاء ودماء وعتاد وأسلحة ما يوحي بأنَّ حجم خسائرهم كان كبيراً.

وفي بلدة الطيري أيضاً، رويت قصص بطولات نادرة، تكبد خلالها الاحتلال عدداً من القتلى والجرحى، وإحراق عدد من الآليات والدبابات

والسيارات العسكرية، ومن طرائف المواجهات، أنَّ أحد المجاهدين قصف بصاروخ «بي ـ ٧» إحدى الجرافات فدمرها وقتل سائقها، واقتحم نفس المجاهد الجرافة فوجد هاتفاً محمولاً، فطلب الرقم الأخير الَّذي كان يتحدث عبره الجندي الإسرائيلي، فردت عليه زوجته، فقال لها: هل تتحدثين العربية؟ فقالت: نعم، فقال: معك حزب الله؟ فقالت له: حزب الله انتهى، فرد عليها: زوجك هو الَّذي انتهى، فعلا صراخها ونحيبها وما زال الهاتف موجوداً لدى أحد المجاهدين.

وفي بلدة الطيبة، وقعت ما سُمِّي بمجزرة الدبابات، حيث تمكن مقاتلو حزب الله من تدمير عدد كبير منها، وقتل وجرح أطقمها، ويروي أحد المجاهدين أنَّه صادف ثلاثة جنود، فقتلهم، ثمَّ اتصل بالقيادة متسائلاً: هل أستطيع سحبهم، فأجابوه بالنفي، فقام بتجريدهم من الخوذات الَّتي على رؤوسهم، ومن جعب الذخيرة، والأسلحة الرشاشة الَّتي بحوزتهم وعاد بكل ذلك إلى موقعه، ويعيد بعض المقاتلين توفيقهم بهذه المواجهات، أو نجاحهم في اقتحام مواقع، أو إصابة دبابات وجنود، إلى مسائل غيبية إيمانية إذ كانوا يشعرون ـ حسب رواياتهم ـ أنَّ الله سبحانه وتعالى كان يقف إلى جانبهم، ودقة إصاباتهم كانت بهدى منه.

وقد اعترف الإسرائيليون، كما ذكروا في محطات مرئية دولية وإسرائيلية، أنَّهم كانوا يرون جنوداً يمتطون خيولاً، وضرب أحد الفرسان جندياً على رقبته، وروى أحدهم لمحطة «سي. أن أن»، أنَّه شاهد رجلاً بثياب بيضاء يحمل سيفاً على كتفه، فظن أنَّه قتل، وأغمي عليه، وعندما استفاق، عرف أنَّه أصيب بطلقة في كتفه، هذه الروايات وما يردده الأهالي والمقاتلون، رفعت معنويات المجاهدين، ومنحتهم المزيد من الطاقة والقوَّة والعزيمة، وإرادة القتال والصمود والتضحية.

٣ ـ المواجهات في الغندورية:

في طريقنا إلى بلدة الغندورية، حيث دارت أشد وأشرس المواجهات بين حزب الله وقوات الاحتلال الإسرائيلي، كنَّا نرى على جانبي الطريق قرى مدمرة، وأشلاء منازل، ومؤسسات محترقة، جرَّاء القصف الجوي البربري الإسرائيلي، وهالنا ما شهدناه في الغندورية، عندما لم نجد سوى منازل قليلة، التقينا مع مجموعة من المقاتلين الَّذين صنعوا أسطورة دحر الاحتلال، وتحدث نيابة عنهم «أبو رضا» الَّذي لعب دوراً بارزاً في القتال، ونجا بأعجوبة رغم إصابته بقدمه وعينه فقال: موقع بلدة الغندورية حساس ومهم جداً بالنسبة للجيش الإسرائيلي، فالبلدة تقع على كتف وادي الحجير، وهذا الوادي مشهور بالاجتماع الَّذي عقد فيه في العام ١٩٢١، بين المرجع الكبير السيِّد عبد الحسين شرف الدِّين وأدهم جنجر وصادق حمزة، الَّذين أطلقوا في حينها المقاومة ضد الانتداب الفرنسي.

وتحد الغندورية أيضاً من الجهة الجنوبية الغربية بلدة برج قلاويه، ومن الجهة الشمالية تحدها بلدة فرون الَّتي تقع على مشارف نهر الليطاني، والغندورية تبعد عن النهر حوالي ٤ كيلومترات، ومن الناحية الغربية تحدها مزرعة الطويري وقرية صريفا، هذا الموقع الحساس للبلدة هو فاصل طبيعي بين منطقة الشريط الحدودي السابق والمنطقة المحررة عام ١٩٨٥، وهو موقع استراتيجي لافت لكل القيادات العسكرية، بما فيها الجيش اللبناني الَّذي عندما وضع خطة دفاعية في العام ١٩٥٦، اعتبره خط الدفاع الثاني عن جنوب لبنان.

لذلك طمح الإسرائيلي إلى أن تكون البلدة تحت سيطرته، فمن خلالها تصبح كل المناطق الممتدة من مدينة صور على حدود البحر وصولاً إلى القرى المحيطة بها، تحت مرمى نيرانه المباشرة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى، كان الإسرائيلي يمني النفس بالانتقام من الغندورية، لأنَّه سبق لها في العام ٢٠٠٠، أن ألحقت به خسائر كبيرة، ثأراً لتدميرها من قبله في العام ١٩٧٨، ومحاولة إزالة معالمها عن الأرض، فكانت الأبواب الأولى للتحرير، فمن خلالها انطلقنا إلى القنطرة، دير سريان، والطيبة.

وفي العام ٢٠٠٦، شهدت البلدة والبلدات والقرى المجاورة، حرباً شرسة بيننا وبين قوات الاحتلال الإسرائيلي، وكنَّا نحضِّر أنفسنا باستمرار لمثل هذه الأيَّام، وكنَّا على يقين بأنَّ الإسرائيلي سيكرر عدوانه، وعندما بدأت المواجهات على محور مارون الراس ـ بنت جبيل ـ عيترون، بتنا على قناعة بأنَّ العدو سيتوجه إلى هذه البلدة، وعندما بدأ بالتوغل باتجاه بلدة الطيبة، استنفرنا وحداتنا، وكنَّا في أعلى جهوزية، وكانت خطتنا في البداية تتركز على القصف الصاروخي، لكن بعد التوغل، أعددنا عناصرنا لقتال المشاة والدبابات، وفي ليلة السبت قبل إعلان وقف العمليات الحربية بيومين، وعند الساعة الثامنة والنصف، وصلت أطراف البلدة خمس مروحيات، تغطيها مجموعة من الطائرات الحربية، مترافقة مع طائرات تجسس، وقد اختلطت أصوات هذه الطائرات حتَّى بات من الصعب على المقاتل التعرف إلى وجود المروحيات، وهذا أسلوب يعتمده الإسرائيليون في كل عدوان يقومون به، وأحياناً لا يكون هناك بالفعل مروحيات، لكن قيادتنا في المقاومة، ومن خلال خبرتها، ودقة رؤيتها، تأكدت من أنَّ هناك عملية إنزال مروحي بين بلدتنا وقرية فرون، فأبلغنا على أن نستعد للمواجهة، وقد عمد الطيران الحربي، وتمهيداً للمعركة أن مشط بصواريخه كل الطرق والأودية، ودمر العشرات من المنازل، ما اضطرنا إلى البقاء في مواقعنا دون حراك، وبلا ماء أو طعام أو نوم مدة ٤ أيَّام متتالية.

ووفق فهمنا لطبيعة ما يمكن أن يحصل، حددنا المنازل الَّتي يمكن أن

يلجأ إليها الجنود الإسرائيليون في الجهة الشمالية، فوضعنا مجموعات من المقاتلين بداخلها، وزرعنا عبوات حولها ضد الأفراد، وعند الساعة الواحدة فجراً، تقدمت قوات الاحتلال نحو المصيدة، وكنَّا في جهوزية وروح قتالية ومعنوية عالية جداً، فسمحنا للجنود بالدخول إلى أوَّل منزل في القرية، دون أن نقتلهم، وذلك لطمأنتهم والمجموعات الخلفية لهم بأنَّ المكان آمن ولا يوجد أحد في هذه المنازل، وكان القمر بدراً في تلك اللَّيلة، ما ساعدنا على رؤية الجنود بوضوح، ولما دخلت الوحدة العسكرية الإسرائيلية الثانية حقل الألغام فجرناه، وفتحنا النَّار من الرشاشات، فأبيدت الوحدة بالكامل وكان عدد أفرادها عشرة جنود، وحاولت قوات الاحتلال القيام بعملية التفاف على المقاتلين من مكان آخر، فوقعت في كمين آخر، حيث كانت عناصرنا بانتظارهم أيضاً، واستمر الاشتباك من الواحدة حتَّى الرابعة فجراً، في مساحة لا تتجاوز كيلومتراً مربعاً، وقد سقط لهم عدد كبير من القتلى والجرحى، ورغم التعزيزات الَّتي كانت تلحق بهم، وقد خبرنا من خلال المواجهات المباشرة مع الجنود الإسرائيليين، أنَّ الإسرائيلي جبان ويفضل الفرار من أرض المعركة، ولكنَّه في هذه الحال لم يعد بمقدوره لا القتال ولا الانسحاب، ما اضطر القيادة إلى الدفع بمئات الجنود إلى المعركة، وأحصينا في الساعة الأولى سقوط ما لا يقل عن ثلاثين جندياً قتيلاً، أما الجرحى وصراخهم فحدث ولا حرج، وهنا سقط لنا ثلاثة شهداء، في المواجهات الأولى، وفي الثانية استشهد عنصر وجرح آخر، بعد الاشتباكين انسحبنا إلى الخلف حوالي ٥٠ متراً كي نسمح لهم بالتوغل، والوقوع في فخ آخر، في هذه الأثناء اشتبكت إحدى مجموعاتنا، مع عدد من الدبابات الإسرائيلية في وادي الحجير، فأحرقوا ودمروا عدداً منها، فكان ما سُمِّي بمحرقة الدبابات فانهمر حوالي ٥٠٠ صاروخ جو ـ أرض على البلدة بهدف تدميرها، إضافة إلى قصف بري عنيف، وظنوا أنَّ أحداً لم يبق حياً في البلدة، وكنا في مكان خفي

وسط القصف، وفي منطقة تكثر فيها الأشجار، وعندما هدأ القصف، خرجنا من مخبئنا لنرى أن كل الأشجار المحيطة بنا أحرقت تماماً، وعندما فوجئ الاحتلال بوجودنا، والاشتباك معنا مجدداً، شعر بإحباط كبير، وبأن خطته فشلت تماماً، فآثر الانسحاب، وقد اعترفت إسرائيل بأن أكبر إنزال لقواتها كان في محور الغندورية، كما اعترفت بعشرات القتلى والإصابات المختلفة.

وبعد وقف العمليات، عاد الأهالي إلى البلدة، فلاحظنا وجود بقع كثيرة من الدماء التي خلفها الاحتلال، إضافة إلى حمالات وضمادات جروح، وأمصال، وقطع سلاح، وشظايا وثياب عسكرية وأشلاء جثث، ما عكس حجم الخسائر الإسرائيلية.

ويبلغ عدد الوحدات السكنية في الغندورية ١٢٥ منزلاً، دمر ٥٠ منزلاً بالقصف الجوي تدميراً كاملاً، وتضرر حوالي ٧٠ منزلاً بالقصف المدفعي المباشر إضافة إلى تدمير مسجدين وحسينية ومحطة وقود وفرن ومحلات تجارية، والملاحظة البارزة، أن جنود الاحتلال وأثناء انسحابهم من البلدة سرقوا ما خف حمله من ذهب وأموال وهواتف نقالة وغيرها.

أما بلدة الطيبة، فشهدت معارك ضارية مع الدبابات الإسرائيلية، حيث حاول الاحتلال السيطرة على موقع مرتفع يسمى «مشروع الطيبة»، وقد تحاشى إنزال مشاة، لأن مصيرهم سيكون شبيه بما حصل في الغندورية وبنت جبيل، وتصدى لهم المقاومون، فأحرقوا ودمروا عدداً من هذه الدبابات، ولو أكمل الاحتلال عدوانه، لفوجئ بأساليب وأسلحة لم يألفها من قبل. ففي غضون المواجهات كانت صواريخ الكاتيوشا و«رعد(١)» و«رعد(٢)»، و«خيبر» وغيره تنهمر على المدن والمستعمرات الإسرائيلية، موقعة قتلى وجرحى، ومحققة دماراً كبيراً، حاول الاحتلال إخفاءه عن أعين الكاميرات المحلية والدولية.

ورأى «أبو محمد» مسؤول إحدى المجموعات التابعة لحزب الله في بلدة عيتا الشعب التي تعتبر ساقطة عسكرياً لقربها من الحدود، أن البلدة شهدت مواجهات أسطورية، اعترف بها الاحتلال، إذ شكلت عقدة أمام تقدمه، فقد كان تصدي المقاومين للدبابات وجنود الاحتلال. عبرة بالغة الدلالة. وقال: في البداية حاول الجيش الإسرائيلي، التمهيد لاحتلال البلدة باستخدام وسائل نارية فاقت كل تصور، فأغار الطيران بكثافة على المنازل والحقول والطرق، واستحدثت القوات البرية عبر جرافات عسكرية، طرقاً التفافية متجنبة الدروب التقليدية خوفاً من وجود عبوات ناسفة أو ألغام، فسلكت طرق: دبل، رميش، وشددت الحصار حول البلدة، ومنعت الدخول والخروج منها وإليها وقصفت بالمدفعية كل الأحياء السكنية، وحاول قائد الوحدة العسكرية الإسرائيلية استخدام أساليب نفسية للنيل من معنويات المجاهدين، فخاطبنا بمكبرات الصوت، إلى أن نستسلم ونتوجه نحو الجدار الجنوبي الغربي للبلدة، حيث سيتم التعامل معنا كأسرى حرب، وقال مدعياً أنه الكولونيل غازي: لا داعي لسقوط القتلى ولا مبرر للحرب، تعالوا نحن بانتظاركم. وأضاف: بالطبع كنا نضحك ونسخر من هذا الكلام، ولم نرد عليه.

ومع بزوغ فجر يوم العشرين من المواجهات ازداد القصف عنفاً وحاولت فرقة إسرائيلية اقتحام عيتا الشعب، وقد رصد أحد مقاتلينا جندياً يتجه نحو أحد الأحياء، فأخبرنا بذلك، فراقبنا حركة الإسرائيليين، وإذا بالمجموعات تتحرك خلف بعضها؛ شاهدنا عشرة جنود، ثم عشرين جندياً، حتى وصل العدد إلى خمسين جندياً أو أكثر، وأصبحت المسافة التي تفصلهم عن المنازل حوالي ٢٠ متراً فقط، فحرصنا ألا يدخلوا المنازل

ليتحصنوا بها، كنا خارج البلدة، فأبلغنا المجموعة الموجودة داخل البلدة بتفاصيل ما نلحظه، وأن الجنود اقتربوا من حي الحدب الموجود فوق خلة وردة، فطلبت منا قيادتنا التصدي لهم، فخرجنا من مواقعنا للقيام بهذه المهمة، وبمجرد أن أطلقنا النار باتجاههم في البداية، حدث إرباك كبير في صفوفهم، لأنهم عرفوا أنهم كشفوا، فقصفناهم وقتلنا عدداً منهم، وكذلك فعلت المجموعة داخل البلدة، فأصبحوا في مصيدة، لا يستطيعون الانسحاب ولا الاختباء، فالنار فتحت عليهم من الأمام والخلف في آن، وهذه كانت بداية المعركة، وحاولت القيادة العسكرية الإسرائيلية استخدام كل وسائل التغطية لسحبهم، فأغارت المروحيات والطائرات الحربية وألقت عشرات الصواريخ حولهم، وقصفت المدفعية الأحياء السكنية، واستخدمت القنابل الدخانية لحجب الرؤية عنهم، وكل الهدف كان محاولة تخفيف الضغط عليهم، وسحب القتلى والجرحى من أرض المعركة، استمرت المواجهة حوالي ساعة ونصف، حتى تم سحب ٣٥ جندياً من أصل ٥٠ جندياً فوق حمالات، تراوحوا بين قتيل وجريح، وكنا نسمع صراخهم وعويلهم عن بعد.

منذ العشرين من الشهر وحتى الرابع والثلاثين من أيام الحرب، لم تفارق البلدة الغارات الإسرائيلية، ورغم ذلك لم يتمكنوا من احتلالها. وعندما وصل بعض الجنود إلى منازل مدمرة في تلة الرجم ليختبئوا بها، لاحظت قناصاً كان يطلق النار باتجاهنا ثم يلوذ بالفرار، فأبلغت القيادة بالأمر، فتعاملت معه بإطلاق صلية من الصواريخ باتجاهه، فقتلته ومن كان معه، ثم رصدنا مجموعتين إسرائيليتين في منزلين آخرين مدمرين أيضاً وقد رأينا بأم العين حوالي ١٥ جندياً. فانهمرت صواريخنا باتجاههم أيضاً، وعلا صراخهم وبكاؤهم بشكل هستيري، فعاد الطيران ليوفر لهم غطاء

دخانياً وناريا لسحبهم، ولاحظنا بعد الانسحاب أنهم تجمعوا في مكان بعيد عن البلدة اسمه المطلّ وكان عددهم حوالي ١٥٠ جندياً، فدخلنا الأماكن التي كانوا يتواجدون فيها، فلاحظنا بركاً من الدماء، وبقايا أسلحة محطمة وسليمة، وخوذ عسكرية، وأكياس المصل والدم، فجمعنا بعض الأسلحة، إلا أن الإسرائيلي لم يعترف بقتلاه وجرحاه في هذه المواجهة.

وتسللوا إلى تلة أبو طويل، بعد أن اطمأنوا بأنه لم يعد يوجد بالبلدة مقاتلين بسبب كثافة الغارات والقصف، وما أن وصلت إحدى الدبابات الإسرائيلية إلى التلة، حتى فاجأها صاروخ من أحد المقاتلين، فتطايرت أشلاء، خاصة بعد اشتعال الذخيرة التي كانت بداخلها واستمرت النيران مندلعة فيها لمدة تجاوزت الساعة والنصف، وعندما حاولت دبابة أخرى سحبها قصفت أيضاً، فاقتربت جرافة عسكرية للقيام بنفس المهمة، فدمرناها، وحتى الآن ما زالت أشلاء الدبابات موجودة فوق التلة.

ثم حاول الإسرائيليون الدخول إلى منطقة اسمها أبو نغم، وهي مقابلة للبلدة لكنهم لم يتمكنوا من المكوث فيها، بعد أن ارتكبنا ضدهم مجزرتين، أدت إلى سقوط عدد من القتلى والجرحى، وإحراق آليات عسكرية، فانتقل من بقي منهم إلى منطقة تسمى الميس، وهناك أيضاً وقعت لهما مجزرتان، ما أدى إلى انسحابهم من المنطقتين نهائياً، بعد أن شاهدناهم ينقلون إصاباتهم بالمروحيات. وحاصرنا حوالي ٢٠ جندياً إسرائيلياً في أحد منازل البلدة فأبدنا هذه المجموعة بالكامل، وعلى الفور حاولت دبابتان دخول عيتا الشعب، فقصفناهما بالصواريخ، فاقتلعنا برج إحداهما وأحرقت الأخرى وفرّ من بقي منهم خارج البلدة.

ومن المفارقات التي التقطت طائرة التجسس صوراً لها، أن أحد مقاتلي حزب الله كان يحمل صاروخاً ويطارد دبابة، فيما الدبابة تفر منه. ومن

المفارقات أيضاً، أن فتى من المقاومة، لم يكن يرتدي ثياب الميدان، ذهب لإحضار صاروخ كان موجوداً فوق تلة، ففوجىء بالإسرائيليين، فرأوه ونهروه وطلبوا منه الابتعاد، لم يشكوا لحظة أنه من أشرس المقاتلين، فعاد وقاتلهم ببسالة، وقد بترت ساقه في المواجهات لكنه كان حزيناً لأنه لم يستشهد، وأمضيت وقتاً معه داخل أحد المستشفيات، لأنني بدوري أصبت في إحدى المواجهات عندما سقط صاروخ بالقرب مني، ففقدت السمع بإحدى أذني، وأصبت بجروح في ظهري.

أما الصاروخ الذي تجمع حوله الجنود الإسرائيليون، فتم تفجيره بهم بإطلاق صاروخ عليه من قبل المجاهدين الذين كانوا يراقبون ما حصل ولاحظ أحد المجاهدين وجود مجموعة إسرائيلية في أحد كراجات البلدة، فألقى باتجاههم قنابل يدوية، وقُتل وجُرح عدد منهم.

واعترف أبو محمد باستشهاد خمسة مقاومين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٣٥ عاماً أما بالنسبة للدمار في البلدة حسب تقديره فكان حوالي ٩٠٪ وقال: هناك أحياء سويت بالأرض تماماً، لكن كل ذلك لم يفت بعضد المقاتلين، وبقينا صامدين داخل وحول البلدة حتى آخر يوم من القتال. رغم انقطاع المياه والطعام، ما اضطرنا أحياناً إلى دخول بعض المحلات التجارية للحصول على معلبات، وكنا نترك خلفنا ورقة ندوّن فيها مشترياتنا على أن ندفع ثمنها لاحقاً.

وكانت أنباء بلدة دبل في تلك اللحظات تشد أزرنا وترفع معنوياتنا حيث سقط ما لا يقل عن ٣٠ قتيلاً إسرائيلياً هناك، وقد اعترف الإسرائيليون بسبعة قتلى، وكنا نرى الذخيرة تنفجر من مواقعهم بالعين المجردة، وكان محور عيتا ـ دبل ـ القوزح ـ راميا يشتعل بالمواجهات حيث تم إحراق العديد من الدبابات الإسرائيلية.

وفي خلّة كورا الواقعة بالقرب من رميش، تم تدمير دبابات أخرى.

والطريف أننا كنا نسألهم عبر الجهاز أين الكولونيل غازي الذي دعانا للاستسلام كي يحصي خسائره، دون أن نلقى رداً.

وأضاف: كانت الليلة الأخيرة قبل وقف العمليات الحربية هي الأصعب في المواجهات تعرضنا لقصف عشوائي من كل أنواع الأسلحة، ولكن لم يصب أحد منا بجروح والحمد لله.

٥ ـ القتال في عيترون

وتحدث عدد من المقاتلين في بلدة عيترون، بأن محورهم شهد معارك شرسة، تكبد خلالها الاحتلال عدداً من القتلى والإصابات في صفوفه، وتم تدمير بعض دباباته، وقالوا: بعد التمهيد لمحاولة احتلال البلدة، بالقصف الجوي والبري العنيف، عمدوا إلى التقدم باتجاه منطقة «الباط» في خراج البلدة، كما حاولوا التقدم من منطقة «الخانوق»، فتصدينا لهم، وأعدناهم على أعقابهم، ثم كرروا التجربة من منطقة «الغابة»، فكانت مقبرة للدبابات والمشاة الإسرائيليين، فتدخل الطيران الحربي والمروحي لسحب الجثث والإصابات، ثم حاولوا دخول البلدة من «الكيلو ٩» على جبهتين: من «المحافر»، و«المطيط» و«مرج العبد» باتجاه «سمخية»، واستمرت المعركة طيلة أيام الحرب (٣٣ يوماً) دون أن تستطيع الدبابات احتلال عيترون، في حين أنها كانت مطوقة من كل النواحي، وقد أحصي مقتل ٢٠ جندياً إسرائيلياً عدا الجرحى الذين يعدون بالعشرات، وتمكن بعضنا من الدخول إلى مستعمرة «افيفيم» قرب بلدة صلحا، واقتحمنا ثكنة عسكرية إسرائيلية فيها وقتلنا وجرحنا عدداً من الجنود فيها، وسقط لنا شهيدان فقط في كل تلك المواجهات فيما استشهد ٣ آخرون في مواجهات بنت جبيل وعيناتا

وأحصي سقوط ما لا يقل عن ٣ آلاف قذيفة على البلدة، تسببت بدمار كبير، حيث دمر بشكل كلي ١٣٧ منزلاً، وطال التدمير الجزئي والتخريب ٩٠٪ من الأحياء السكنية، واستشهد ٣٤ مدنياً من أبناء البلدة بينهم ١١ طفلاً لم تتجاوز أعمارهم ١٢ عاماً. جراء الغارات الجوية على منازلهم، أما لائحة الجرحى المدنيين فتجاوزت الـ٢٥ شخصاً.

٦ ـ المواجهات في بيت ياحون

وحدثني مقاتل من بيت ياحون اسمه الحركي «فداء» عن المواجهات في تلك البلدة، فقال: تعرضت بلدة بيت ياحون في الأيام الثلاثة والعشرين الأولى من الحرب، إلى قصف مدفعي، وغارات جوية عنيفة، استهدفت الأحياء المحيطة بالمسجد والحسينية، وتسببت بدمار كبير، تمهيداً لعملية الاقتحام.

وفي صبيحة اليوم ٢٣، كنا في محيط جامع البلدة، المشرف على بلدة كونين، فشاهدنا رتلاً من الدبابات يتجه نحونا، وعندما اقتربت ناقلة جند إلى أطراف البلدة، دمرناها بصاروخ موجّه نطلق عليه اسم «ماهر»، فتراجعت بقية الدبابات، وفي ظهر ذلك اليوم، مشطت الطائرات الحربية والمدفعية الإسرائيلية الثقيلة المنطقة التي أطلقت منها الصواريخ، بقذائف من نوع «٢٤٠ملم»، تقدمت بعدها دبابتان وجرافة عسكرية باتجاه المسجد فدارت اشتباكات على بعد نحو ٢٠ متراً، وقد استخدمنا ضدها صواريخ من نوع «أر. بي. جي». وقام أحد المجاهدين بقنص الجنود الذين كانوا يمشطون المكان بالأسلحة الرشاشة المركزة على ظهر الدبابة. فنجحنا في إيقاف إطلاق النار العدوة، واتسعت حركتنا في المواجهة وعندما شعرت الدبابات بالخطر، فضلت الانسحاب إلى الخلف، وعاود الجنود

الإسرائيليون تمشيط البلدة عن بعد، بالقصف المدفعي العشوائي. وعند الساعة العاشرة مساء، تقدمت دبابة وجرافة عسكرية، على نفس المحور، فتصدينا لهما، فآثرا الفرار لكننا عاجلنا الدبابة بصاروخ فأحرقها وفي نفس الوقت، أطلقنا ستة صواريخ من نوع ماهر، باتجاه ست دبابات في التلة المقابلة للبلدة، وتم تدميرها تدميراً كاملاً، وقد قتل وجرح من كان بداخلها، وفي اليوم التالي، أي قبل وقف العمليات الحربية بنصف ساعة تقريباً، أغارت الطائرات الحربية على مسجد بيت ياحون فدمرته، كما أغارت ١٤ مرة على الأحياء المجاورة، فدمرت عدداً من المنازل.

وبعد وقف الاعتداءات، قنص أحد الجنود الإسرائيليين، مجاهداً فارتفع عدد شهداء العدوان إلى ٣ عناصر في البلدة، وأُصيب عنصران بجراح.

رابعاً: قراءات استراتيجية

رأى المحللون والخبراء الاستراتيجيون، أن المعارك في جنوب لبنان، بين الجيش الإسرائيلي الذي يمتلك أحدث وأهم الأجهزة والإمكانات العسكرية المتطورة، وبين مجموعات المقاتلين التابعين لحزب الله، وما أسفرت عنها من نتائج مذهلة، مدرسة جديدة في الحروب، أثبتت عجز الجيش النظامي في القضاء على المقاومة، بخاصة إذا كانت في مستوى تدريب وروح وعزيمة حزب الله، واعتبر الخبراء العسكريون في أحاديثهم لي، أن هذه الحرب غيّرت النظرة للصراع العربي الإسرائيلي بكل أبعادها. فأدركت إسرائيل أنها أصبحت مكشوفة أمام أخطار حقيقية تهدد مصيرها، فيما أدرك المقاتل العربي أن أوهام السيطرة الإسرائيلية في الميدان انتهت، وهو قادر على الانتصار حتى بأدوانه وإمكاناته الأقل تواضعاً من الطرف الآخر.

أ ـ خطة على مراحل

وكشف العميد الركن المتقاعد في الجيش اللبناني الدكتور أمين حطيط، أن الخطة الإسرائيلية قامت على:

أ ـ في مرحلة أولى: التدمير وتقطيع الأوصال عبر:

ـ تدمير شبكة النقل والتنقل اللبنانية من الجنوب وإليه، وإقفال كل المنافذ التي تصل لبنان بالخارج (براً وبحراً وجواً). لهدف أساسي، هو قطع أي إمداد لحزب الله.

ـ الانقضاض على مراكز القيادة لشل الحركة، وتفكيك التنظيم عبر الفتك بقيادته.

ـ إحداث المجازر والتضييق على السكان، لحملهم على التحلل من المقاومة.

ـ إنهاء المرحلة بوضع تكون فيه المقاومة مقطعة الأوصال، مشلولة الفعالية. متناثرة الأشلاء.

ب ـ في مرحلة ثانية:

اجتثاث المقاومة، وذلك بأن:

ـ تقوم القوات البرية بعملية اجتياح سريعة وغير مكلفة، تكون غايتها «تنظيف أوكار المقاومة، وتجريد من تبقى من المقاتلين من سلاحه، وسوق الباقي إلى المحاكمة.

ـ استكمال تدمير بنية حزب الله لاجتثاثه كلياً، على نمط «اجتثاث البعث» التابع لصدام حسين في العراق (طبعاً مع الفارق الجذري في الشبه بينهما أو حتى المقارنة) للقول للشعوب بعد ذلك: لا تفكروا بمقاومة لمشروعنا، فكما كانت حرب تشرين ١٩٧٣م آخر الحروب النظامية مع إسرائيل، تكون حرب ٢٠٠٦م ضد حزب الله آخر الحروب غير التقليدية التي تواجهها إسرائيل واميركا في الشرق الأوسط.

وقال: بدأت إسرائيل بتنفيذ الخطة عملانياً، وقد حددت مهلة من

أسبوع إلى عشرة أيام لتنفيذ كل مرحلة مع قابلية التمديد أسبوع لكل مرحلة، بما يؤمن انتهاء العملية برمتها في حدود ٣١ تموز/ يوليو تاريخ التجديد لقوى الأمم المتحدة في الجنوب، فيصدر القرار آنذاك وفقاً لواقع جديد تكون أميركا قد حضرت كل شيء فيه وجاءت النتائج كما يلي..

في المرحلة الأولى:

ـ الأداء الإسرائيلي: دمرت إسرائيل كل ما تستطيع تدميره في المرحلة الأولى، واستهدفت كل ما كان معداً من قبلها عبر ما يسمى «بنك الأهداف» وعددها ٤٢٠ هدفاً تقع في توصيف الأهداف المدنية ذات الصلة بالبنية التحتية اللبنانية، إضافة إلى منازل عدد كبير من المسؤولين في المقاومة الإسلامية ومقرات القيادة، وارتكاب المجازر بحق المدنيين بتحطيم البيوت على رؤوس ساكنيها وجلهم من الأطفال والنساء والشيوخ، (أحصي عدد القتلى بعد ١٤ يوم من العدوان فتبين أنه ٤١٠ منهم ١٣٢ طفلاً دون الثامنة من العمر).

ـ ظهر أن المقاومة لم تكن غافلة عن النوايا العدوانية الإسرائيلية، فاتخذت من التدابير ما جنب بنيتها وأسلحتها وقيادتها أي ضرر من «الفتك الإسرائيلي التدميري» ما أحدث الصدمة لدى إسرائيل بشكل غير مسبوق إذ تبين لقيادتها أن أعمال القصف لم تحقق شيئاً من أهداف الخطة، حيث استمرت المقاومة على جهوزيتها القتالية والقيادية والبنيوية، ثم انتقلت المقاومة في اليوم التالي لاستيعاب العدوان وبدأت بتطبيق سياسة «الردع الدفاعي» ما مكنها أن تلحق بإسرائيل خسائر مادية وبشرية لم تلحق بها منذ أن اغتصبت فلسطين في العام ١٩٤٨م، بعد أن وصلت صواريخها إلى حيفا، وامتلكت زمام المبادرة في الميدان.

الانطلاق إلى المرحلة الثانية:

ـ بدا لإسرائيل أن المرحلة الأولى لم تحقق أهدافها إذ إن فعالية القوة النارية والمستوى المعنوي للمقاومة بقيت على حالها إن لم نقل قد تصاعدت وهنا وقعت إسرائيل في مأزق شديد: إما التوقف وانهيار المشروع وتكون الكارثة السياسية على أميركا وكل أتباعها، أو المتابعة والانتقال إلى المرحلة الثانية متجاوزة إخفاقها في المرحلة الأولى، مع إضافة هدف جديد لها يتمثل في إعادة الاعتبار إلى جيشها بعد الإخفاقات الجوهرية والخسائر التي تكبدتها في المرحلة الأولى منذ أسر الجنود إلى تدمير الدبابات من نوع ميركافا (من أفضل المدرعات في العالم) إلى تدمير البارجة ساعر (ذات القدرات المميزة عسكرياً في النار والمراقبة والحماية) إلى الإخفاق الاستعلامي وما يلحق به.

ـ لكن تنفيذ المرحلة الثانية كان محكوماً بحذر إسرائيلي عسكري شديد، إذ إنها تيقنت في المرحلة الأولى من مدى عجزها عن معرفة حقيقة وطبيعة الخصم، لذلك كان لا بد لها من عملية كشف، أو سبر الغور أو جس نبض المقاومة لمعرفة قدراتها الحقيقية وللوقوف على حجم الثمن الذي عليها أن تدفعه في معرض تنفيذ المرحلة الثانية تلك. وقد اختارت العمل في القطاع الأوسط من الجبهة لأنه المحور الأفضل لها عسكرياً وسياسياً (فالقطاع الشرقي يجعلها في تماس مع سوريا، وهي لا تريد ذلك الآن، والقطاع الغربي يعطي مزايا أكبر لعمل المقاومة) لذلك كان اختيار مكان الاجتياح البري هو العمل القطاع الأوسط وكانت منطقة مارون الراس ـ عيترون هي المنطقة التي وقع عليها الاختيار لتنفيذ المهمة وكانت المعركة المفصل في الحرب كما يلي:

ومن ميزات ميدان المعركة:

ـ جغرافياً: مارون الراس قرية جنوبية تقع على أعلى مرتفع في جبل عامل (٩٢٠م) وتبعد عن الحدود مع فلسطين المحتلة ٩٠٠م. . خط حدود يمر في سهل ينخفض عن أعلى التلة حوالي ٢٠٠م، حيث يقع على الجانب الجنوبي من خط الحدود هذا مستعمرتان إسرائيليتان أهمهما مستعمرة افيفيم. ومن الوجهة العسكرية وتشرف مارون الراس شمالاً على ١٠ تجمعات سكنية لبنانية أهمها بلدة بنت جبيل، وجنوباً على الجليل الأعلى خاصة ما فيه من تجمعات سكانية واقتصادية ومنشآت سياحية.

عسكرياً: تقع تلة بلدة مارون الراس في محور عمل عسكري (هجومي أو دفاعي) بين لبنان وفلسطين المحتلة وهو المحور الأوسط في الجبهة اللبنانية، المحور الذي يُتّبع عسكرياً للوصول إلى عمق الجنوب مروراً ببنت جبيل وتبنين وجسر قعقعية الجسر على نهر الليطاني والذي يمكن النفاذ منه إلى قرى غربي منطقة النبطية فإلى الزهراني، وهو المحور الذي يعد نجاح الهجوم فيه قاطعاً للجنوب في وسطه وفاصلاً للقاطع الغربي عن الشرقي ما يجعل الدفاع النظامي عنهما في مأزق شديد قد يقال فيه إنه يقترب من الاستحالة. أما فشل الهجوم فإن من شأنه أن يغير الخطة ويحمل المهاجم إلى الانتقال إلى المحور الشرقي وفيه صعوبات الأرض وخطر الخسائر الفادحة، أو الغربي وفيه مصاعب العمل في أرض مغطاة بالبساتين والمزروعات وهي المناطق المثالية لعمل المقاومة ذات الأسلوب غير التقليدي.

أما النتائج الأولية للمرحلة الثانية فكانت مواجهة عسكرية ضارية أبداها رجال المقاومة، أوقعت الخسائر الجسيمة في القوى المتسللة إلى الحد الذي فرض على القوة المتسللة ٤ أيام من القتال حتى تتقدم ١٣٠٠ م داخل الأرض اللبنانية وبجبهة كلم واحد، وتكبدت ٧ قتلى و٢٠ جريحاً ودمر لها

٥ دبابات ميركافا. مقابل ٣ شهداء للمقاومة، وفي ذلك درس بالغ الخطورة وجّه لإسرائيل ما جعلها في حال الصدمة.

وقد اعتمد رجال المقاومة أُسلوب قتال يعتمد على المراجهة المباشرة والتصدي للقوات المتسللة وهو يختلف عن كل التقنيات وأساليب قتال العصابات القائمة على مبدأ «تجنب المواجهة المباشرة» (الفر في التقدم، والكر في السكون والتراجع). أسلوب حمل العدو على القول بأننا لا نحارب ميليشيا بل لواء من القوات الخاصة ـ قوات النخبة من الجيش الإيراني، وذلك ليخفف من حجم الهزيمة التي لطخت وجهه في مارون الراس.

ـ عدم تأثير دخول العدو إلى مارون الراس على أداء المقاومة وتحركها وفعالية المواجهة والرد والقصف، إذ ثبتت المقاومة فيما كانت عليه عسكرياً ومعنوياً من غير أي تبدل.

ـ وبالخلاصة، خرجت إسرائيل من عملية جس النبض بمحصلة مفادها أن تنفيذ المرحلة الثانية كاملاً يعني أن عليها دفع ثمن ليس بالقليل، ما أدى إلى رفع الأمر إلى السلطة السياسية لتتخذ القرار وتكون المسؤولة عنه، إذ إن الجيش لم يكن بمقدوره تحمل المسؤولية في هذا الشأن.

وبنتيجة معركة مارون الراس تغير الموقف تماماً، وأصبحت الحرب، أو قل الاستمرار في الحرب حاجة إسرائيلية خطيرة وجذرية، تتمثل في إنقاذ صورة الجيش الإسرائيلي، وانقلبت المعركة إلى معركة حياة أو موت كما يقول شيمون بيريس (نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي) ومعركة مصير مشروع بكامله في الشرق الأوسط بالنسبة لأميركا. وهنا تلاقت المصلحتان واتخذ القرار بالمتابعة، وأجهضت أميركا كل الفرص لوقف إطلاق النار، وشجعت

إسرائيل على المتابعة واعدة بالدعم العلني في كل شيء.. وكان القرار الصعب: المتابعة للتعويض أو حصد المزيد من الخسائر والإخفاقات؟!

وهكذا أحدثت معركة مارون الراس البطولية، إلى الحد الذي يمكن وصفها فيه أنها معجزة مارون الراس العسكرية التي أقامت الواقع التالي:

أ ـ ميدانياً: تفوق للمقاومة، حيث يمكن القول وبكل طمأنينة أن المقاومة في وضع المنتصر، وهنا يجب أن نذكر بعض الذين يخيفهم أو يحبطهم دخول فصيلة أو حتى كتيبة إسرائيلية إلى هذه النقطة أو تلك، لنقول لهم إن عمل المقاومة لا يكون في الدفاع الثابت الذي يحول دون الاحتلال، إنما يكون في قتل العدو المقتحم أو المحتل وتدمير عتاده وتجهيزاته والضرب في مواطن توجعه لتجعله يقتنع بأن هجومه مكلف، وأن استقراره في مواقع احتلاله مستحيل، ولذلك فإن للمقاومة أن تتبع تكتيكاً لكل ظرف أو قرية يختلف عن الآخر، فقد يكون في نمطها السد الواقف للرتل للانقضاض على الذنب (العمل، وقد يكون الوعاء المطوق المثير للرعب والناشر للفوضى في صفوف العدو، وحمل العدو على قتل بعضه بعضاً وقد يكون بالتدمير للنقاط المنتخبة.. فليست الأرض مقياساً لنجاح المقاومة مطلقة، بل إن المقياس في النجاح يتركز على نتيجة الأعمال ومدى تأثيرها على العدو وعلى قراره وإرادته، ما يعني أن تقدير نجاح المقاومة أو فشلها لا يكون صحيحاً طالما أن للمقاومة رجال يتحركون متوجهين إلى العدو ولديهم السلاح الذي يقتل أو يدمر الهدف المطلوب.. وفي الواقع القائم وبتقويم علمي نعتبر أن المقاومة ناجحة للغاية (دون الحديث عن البطولات والتضحيات إذ يبقى للحديث عنها مجال آخر) ناجحة ودليلنا على ذلك:

ـ استمرار قدرتها الصاروخية التصاعدية على تدمير عمق العدو (مع

الاحتفاظ بأوراق لم تستعمل بعد كما يصرح قادتها الذين عودوا الناس على صدقهم).

ـ استمرار قدرتها التصاعدية على قتل العدو في معارك المواجهة والالتحام.

ـ اجبار العدو على التنازل عن كل أهداف العدوان الأساسية التي كانت معلنة، واضطراره للجوء إلى البحث عن مخارج تغطي الفشل.

ـ بالمقابل نجد تخبطاً لدى العدو وتقلباً في أهدافه وخططه إلى الحد الذي يصح فيه القول أنه يعمل من غير خطة واضحة.

ـ نجحت أميركا في إطلاق شرارة الحرب، وبدأتها باليد التنفيذية الإسرائيلية تدميراً للبنان في بنيته التحتية وقتلاً وترويعاً للإنسان فيه، وكانت تظن أنها حرب قادرة على تحقيق أهدافها بمدى معقول. و«بحجم مقبول من الكوارث الإنسانية والبنيوية والاقتصادية»، ولكن وبعد أيام عدة بدا الواقع خلافاً للظن والمأمول أميركياً والمتوقع عربياً ودولياً، إذ رغم أن أميركا هيأت للحرب كل شيء بما في ذلك الموافقة العربية لا بل الطلب العربي للاستعانة بالإسرائيلي لذبح حزب الله المسلم، ورغم الإخضاع الكامل للحكومة اللبنانية الجاهزة لاتخاذ أي قرار يملى عليها بما في ذلك التبرؤ من المقاومة وعاملها والتنصل من نتائج هذه الأعمال (وقد فعلت) وصولاً إلى تعبئة جماعات المد الأميركي في لبنان (١٤ شباط) دون أن ننسى القبض على مقاليد الأمور في مجلس الأمن لمنعه من التدخل لوقف إطلاق النار.. رغم كل ذلك عجزت الحرب الأميركية على لبنان في تحقيق أهدافها، وأنتجت في مقابل ذلك مآزق للجميع وأهم المآزق ما دخلت إليه أميركا وأتباعها في لبنان والعالم العربي الساقطين في القبضة الأميركية.. وأصبحت ملامح الصورة كالتالي:

عسكرياً: عجزت إسرائيل المكلفة بتنفيذ إعدام المقاومة على مقصلة المصالح الأميركية، عجزت عن النيل من بنية المقاومة، أو الحد من فعاليتها أو حتى إخراج شيء مما تملك من ميدان المواجهة، مع «نجاح» يعترف به لإسرائيل في تدمير البنية التحتية للبنان، وإحداث المجازر المتلاحقة، وضرب أهداف مدنية ذات علاقة بالإنتاج والسياحة والاقتصاد لتكون بديلاً عن العجز في المجال العسكري المباشر، في المقابل تمكنت المقاومة من تحقيق إنجازات عسكرية تشكل كل منها مفاجأة بقدر يصعب تصديقه لو لم يكن العدو نفسه مقراً بوقوعه، وتكون شاشات التلفزة العالمية شاهدة عليه، فبعد أسر الجنود وما فيه من تحطيم لهيبة العدو المتخذ أقصى درجات الحذر والحيطة، إلى تدمير الميركافا عماد السلاح المدرع الإسرائيلي وجوهرته، إلى تدمير البارجة «ساعر» وفشل منظمة الحماية الصاروخية فيها، إلى عجز منظومة الاستعلام والاستطلاع العسكري الإسرائيلي من الوصول إلى أي هدف ناري أو قيادي أو قتالي، إلى الكارثة الحقيقية التي حلت بوحدات الصدم والاستطلاع البري عبر تدميرها وإفشال محاولات التسلل والاختراق السبع على الحدود الجنوبية. . . كلها إخفاقات جسيمة تكللت بفضائح هشاشة المنظومة الدفاعية الداخلية في إسرائيل من نهاريا إلى حيفا. . . ما أدى إلى نتيجة عسكرية واضحة: «خسرت إسرائيل الحرب» وفقاً للأهداف التي حددتها (استعادة الأسرى، وتدمير حزب الله، وتنفيذ القرار ١٥٥٩) خسارة لم تقبلها أميركا ففرضت على إسرائيل الاستمرار في عملها العسكري وتكفلت هي بالسياسة والدبلوماسية ظاهراً والدعم المادي والعسكري حقيقة.

سياسياً: في لبنان انكشف الجميع وسقطت أوراق التين فظهر لإسرائيل وأميركا «حلفاء» وبالحقيقة عملاء رأوا في الغارات الإسرائيلية على بلادهم

الأداة الوحيدة للتخلص من حزب الله الذي يعيق برأيهم قيام الدولة، وظهر الوطنيون من مختلف الطوائف اللبنانية الذين فهموا أن العدوان يطلب رأس الحرية والعزة والكرامة والسيادة اللبنانية، فوقفوا إلى جانب المقاومة وبين الفريقين من ينتظر انكشاف الغبار ليقف مع الفريق المنتصر. . أما عربياً فكانت الفضيحة التي لم نقرأ في التاريخ مثيلاً لها تكليف بتوقيع عربي يطلب من إسرائيل تخليص المنطقة من هذه «الفئة المغامرة» التي تطلب المستحيل. . أما دولياً فقد بات واضحاً أنه لا يوجد هناك «مجتمع دولي» بل يوجد قرار أميركي يسوق تحت هذا العنوان. إذ من المذهل أن نسمع في مجلس الأمن كلاماً يشجع المعتدي على عدوانه ويحجم حتى عن مقاربة فرضية وقف إطلاق النار، لأن وقف النار بالنظر الأميركي «لا يحل المشكلة»، فالمشاكل وفقاً للاستراتيجية الأميركية الحديثة لا تحل إلا بالقوة التي تسفك الدماء، وتهدم البناء، وتنشر الفوضى.

الخلاصة التي يمكن أن نخرج بها هي:

ـ عجز المهاجم المعتدي عن تحقيق النصر في الميدان، وتدخل صاحب القرار بالحرب لمنع المهاجم عن وقف عدوانه، وتكتل «المجتمع الدولي» بالمفهوم الذي حددناه خلف القرار الأميركي لدعم الحرب على المقاومة (وبكل أنواع الدعم المادية والمعنوية) لأن أميركا ترى أن عجزها عن تنفيذ أهداف الحرب، سيسبب كارثة سياسية لها في الشرق الأوسط قد تتمدد مفاعيلها إلى العالم. لهذا السبب اعتقد أن الإسرائيلي لا يملك القرار السياسي في هذه الحرب واستقل بالقرار العسكري وفوض جيشه أن يقوم بأي شيء، ويستعمل أي سلاح يراه مناسباً لتحقيق الأهداف دون أن يخشى مساءلة من محكمة أو قانون دولي. فاستمر في المهاجمة المدمرة مع عجز عن الوصول إلى المقاومين.

ـ كان مذهلاً سقوط أميركا في حرب تنفيذ القرار ١٥٥٩، عبر عدوان على لبنان للتخلص من المقاومة، سقوط كان في مهلة قياسية فالحرب التي اتخذت «كآخر الدواء» لتطبق القرار المذكور، أصبحت اليوم وبحد ذاتها مأزقاً لصاحبها، فيه الفشل والإخفاق الذي أين منه ما كان قائماً قبله.

فقد أسقطت الحرب مفاهيم رافقت قيام الدولة الإسرائيلية، وأظهرت العملية واقعاً خلاف ما كان سائداً نلخص أهم عناصره بالتالي:

١ ـ إن إسرائيل ليست القدر في الشرق الأوسط الذي يقول للشيء كن فيكون، وإن مواجهة حكيمة ومخططة وواثقة، تتيح للممانع أن يكسر الإرادة الإسرائيلية، ويمنعها من النفاذ، ويلزم إسرائيل على التراجع.

٢ ـ إن إسرائيل ليست الكيان الذي لا يقهر، أو لا يمس بضرر أو أذى، بل هي عرضة لإنزال الضرر بها والإيلام، كما تقوم هي بإيلام الآخرين، وقد بات واضحاً أن البنية الدفاعية الإسرائيلية لم تصل إلى تأمين حماية مانعة ومطمئنة للإسرائيليين، وقد بات بحجم الفضيحة الكبرى ما ظهر عليه الواقع في مدينة عكا وجوارها.. لقد كشفت حرب تموز ٢٠٠٦م أن إسرائيل ليست كما خدعت يهود العالم بأنها جنة لهم على الأرض قبل جنة السماء، بل إنها أرض يرد عليها بالقوة لدفع أي عدوان تمارسه ضد الآخرين، ردة فعل تقيم معادلة التوازن في الأخطار.. أخطار لا تحدث التوازن في الخوف لأن الفريق المواجه يتفوق على الآخر بالالتزام العقائدي والاستعداد للتضحية على قاعدة «إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة».

٣ ـ إن العالم الغربي ومعهم ويا للأسف بعض العرب لن يستطيع بعد الآن الاتكال على إسرائيل في مواجهة الحركة الإسلامية والوطنية، الرافضة لتبعية الشرق الأوسط للغرب فإسرائيل، ورغم كل ما تملك من السلاح

المتطور، وما تستند إليه من دعم أجنبي وبعض الأنظمة العربية (نقولها بمرارة) وداخلي لبناني (نقولها بحسرة وألم) إسرائيل هذه لم تستطع الانتصار وكسر إرادة الممانعة ما يعني أمر من اثنين، إما أن يقتنع الغرب باستحالة متابعة تنفيذ مشروع الهيمنة والتسلط، والنزول إلى أرض الواقع والاعتراف للآخر بحقه في الحياة والحرية والكرامة، أو التعنت والغرق أكثر وبشكل مباشر في مستنقع الشرق الأوسط على غرار الحالة العراقية.. حلان أحلاهما مر بالنسبة للغرب، وإسرائيل.

النتائج هذه أو الواقع الجديد الذي أفرزته الحرب، لا يستطيع الغرب وإسرائيل وبعض العرب تقبله بسهولة أو تحمله، لأن هؤلاء لم يجهزوا أنفسهم في الأصل لمثل ذلك، وحال هؤلاء اليوم كحال المقامر الذي ألقى برصيده على طاولة القمار فخسره، ولم يستطع تقبل الخسارة ما ألجأه إلى فعل أي شيء لتعويضها... لذلك نحن أمام مرحلة جديدة، حيث ظهرت استحالة تنفيذ القرار ١٥٥٩، واستحالة كسر الإرادة الممانعة وتفكيك حزب الله، وطبعاً استحالة استعادة الأسيرين الإسرائيليين من غير تفاوض... وإن كل المواقف والتهديدات والتصاريح التي يطلقها عناصر ذاك الفريق الخاسر حتى الآن من عرب وغرب وإسرائيلي لن يبدل الخسارة أو يجعل المستحيل ممكناً.

ب ـــ تفوق أسطوري

وحدثني اللواء المتقاعد الدكتور ياسين سويد عن أجواء الحرب، فأكد أن المقاومة أثبتت جدارتها بامتياز في الدفاع عن لبنان، واستطاعت أن تقهر إسرائيل التي كانت تعتبر أن جيشها لا يقهر، وتمكنت من منع تقدمه أكثر من كيلومترين باستثناء محور واحد، كلنا يعرف أسبابه، وهو المطلة، برج

الملوك، القليعة ومرجعيون. لأن المقاومة لم تكن متواجدة فيه، إلا أن قوات الاحتلال عندما وصلت إلى مرج الخيام، تكبدت خسائر فادحة، حيث حصلت مجزرة الدبابات، فأحرقت ١٠ دبابات وقتل نحو ٥٠ جندياً و٤٨ جريحاً، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، كان لدى إسرائيل في المرحلة الأولى من المعركة ٦ ألوية من النخبة مثل غولاني والمظليين وغيرهما، وهم يشكلون نحو ١٠ آلاف جندي، فلم تستطع أن تتقدم خلال شهر من الزمن، أكثر من ٣ كيلومترات، ابتداء من عيتا الشعب غرباً حتى كفركلا شرقاً ، ففي حولا مثلاً تقدمت كيلومترين وفي كفركلا كيلو متراً واحداً وفي بنت جبيل حصلت بطولات، وقد نصبت المقاومة هناك فخاً لإسرائيل، اضطرت قوات الاحتلال أن تتراجع بعده إلى بلدة مارون الراس، حيث كان لا يزال هناك مقاومة، وهذا يعني أن إسرائيل لم تتمكن اطلاقاً من تسجيل أي نجاح على خط الجبهة، وفي اليومين الأخيرين، رفعت إسرائيل عدد جيشها إلى ٣٠ ألفاً، وأعلن رئيس الأركان أن الجيش سيصل إلى نهر الليطاني، فتقدم إلى كفركلا والطيبة والقنطرة، حيث نزلت دباباته في وادي الحجير، فخسر ثلاثين دبابة و١٥ جندياً، ولم يصل أي جندي إسرائيلي ليبل يديه في مياه الليطاني. إذن إسرائيل خسرت المعركة البرية خسارة كاملة، وإني أؤكد لك أن هذه الحرب أمريكية بامتياز، فهي التي خططت لها، وطلبت من إسرائيل أن تنفذها، بمعنى أن إسرائيل كانت الذراع العسكرية للولايات المتحدة، والدليل أن الرئيس جورج بوش نفسه، هو الذي رفض وقف إطلاق النار، ومدد أسبوعاً تلو أسبوع لإسرائيل لاستمرار عدوانها، وأعطى أمراً فيما بعد بوقف العمليات الحربية. وكان الهدف الاستراتيجي لهذه الحرب هو القضاء على حزب الله، وبعد ٣٣ يوماً من القتال لم تتمكن إسرائيل من أن تنال من الحزب ثم بدأ الهدف يتضاءل

من القضاء على حزب الله، إلى القضاء على القوة العسكرية لحزب الله، إلى التقدم لمسافة ٧ كيلومتر تمهيداً للقوة الدولية كي تكون حاجزاً بين إسرائيل وحزب الله، وبدأت إسرائيل تطرح أهدافاً ثانوية ولكنها فشلت في تحقيق أي هدف من أهدافها، بينما إذا أردنا أن نحدد هدفاً استراتيجياً لحزب الله، فإنه كسر شوكة الجيش الذي لا يقهر، وأعد نفسه لهذا الهدف، وقد نجح أيما نجاح. وأية مقاومة تحتاج إلى ثلاثة عناصر: العقيدة، القضية والقيادة، وهذه متوافرة لدى الحزب، فالعقيدة هي العقيدة الجهادية الاستشهادية، وهي لدى حزب الله لا يمكن أن تتخلخل، وأنا أعزو ذلك إلى أن أبناء الطائفة الشيعية ـ ولنقولها بصراحة ـ يرون في استشهاد الحسين نموذجاً أعلى لهذه العقيدة، لذلك يقاتل أحدهم وهو يقول: لماذا لا أكون شهيداً كما كان الحسين؟ بينما لا تجد ذلك في الطوائف الأخرى.

النقطة الثانية هي القضية، فقضية فلسطين لا تزال لدى الحزب هي الهدف، وبالتالي يعتبر إسرائيل عدواً، لأنها اغتصبت فلسطين. وبالتالي هي بنظره شرّ مطلق. وأما القيادة فأنتم أدرى بها، هي قيادة رائعة لم تبلغها أي قيادة عربية في العصر الحديث.

وقد ظنت إسرائيل في أن حربها عبر التدمير المبرمج بالطيران للبنى التحتية اللبنانية سوف تتمكن من إخضاع الشعب اللبناني، وسبق لأمريكا أن اعتمدت هذه الطريقة في كوسوفو، ما اضطر الشعب هناك إلى رفع الراية البيضاء، لكن الشعب اللبناني لم يركع، صحيح أن إسرائيل دمرت الجسور والموانئ والمرافق الحيوية، إلا أنها فشلت في إخضاع لبنان، ذهبت لإحداث اختراقات برية ففشلت، ومن يقرأ الصحف الإسرائيلية وما يكتب فيها عن هذه الحرب يلمس نقمة من الشعب الإسرائيلي ضد قيادته السياسية والعسكرية. وهو يقول لأولمرت ارحل، وكذلك لكل القيادات الأخرى،

لماذا؟ لأنه في الحروب السابقة، لم يكن الإسرائيليون يعطون دولتهم وجيشهم الثقة التي أعطوها لهذه الدولة وهذا الجيش، مثلاً: ٧٣٪ من الإسرائيليين أيدوا هذه الحرب، و٢٧٪ لم يؤيدوها، وجاءت الغالبية لتسأل أين هي النتائج التي وعدتم بها واليوم إسرائيل تهدد بالعودة إلى الحرب، وأنا أقول إن هناك حرباً جديدة. لأن الشعب الإسرائيلي كما قال شمعون بيريز، يرى أن الحرب هي حياة أو موت، فإذا هزمت إسرائيل فيها، فإن هذا يعني أنها بدأت العد العكسي، وأي دولة عربية أو مقاومة سوف تتجرأ من الآن فصاعداً على إسرائيل، والأخيرة تتقن فن الحرب العسكرية التقليدية، ولا تحسن فن قتال العصابات، لأن أي جيش نظامي لا يمكن أن يتغلب على مقاومة، فحرب العصابات حرب مستترة، وتكتيك المقاومة يجعلك تحارب أشباحاً، فهناك الخنادق والدهاليز وغيرها، لقد دخلت قوات الاحتلال بلدة مارون الراس لكنها لم تعرف كيف تخرج منها، بينما لو كانت الحرب جيشاً مقابل جيش نظامي، فإن كل شيء يبقى مرئياً، غير أن المقاومة تضرب وتختفي وتكبد المحتل خسائر فادحة، ورجال حزب الله يتقنون فن الموت، بينما العدو الذي أتى باحتياطه، وهو يظن أن ذلك كافياً لهذه المعركة، فشل في المواجهة، فمن هو الاحتياط؟ الاحتياط هو من خدم ٤٨ شهراً في الجيش الإسرائيلي، ثم عاد إلى بيته، وتزوج وأصبح لديه أطفال، هذا الرجل لم يعد بمقدوره أن يعطي ما يعطيه المقاتل الذي أمضى حياته في التدريب والقتال. وهذا ما جرى مع الجيش الأمريكي في فيتنام، ومع الفرنسيين في الجزائر، فكما قلت فإن أي جيش مهما بلغ من القوة لا يستطيع أن يتغلب على مقاومة كحزب الله، لذلك فإن تفوق حزب الله في المعركة، وهزيمة إسرائيل، هي أحد الدوافع الأمريكية وبعض الأوروبيين والعرب وبعض اللبنانيين في المطالبة بنزع سلاح المقاومة فقد تأكد أن

الرئيس الأمريكي السادي الذي يحب أن يلعق الدم، شغوف بفتح الحروب، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، قرأت عنها في كتاب بالفرنسية، يشير إلى أن الموساد الإسرائيلي والمخابرات الأمريكية« أف. بي. آي» كانت على علم مسبق بها، والدليل على ذلك أن هذه الأحداث كانت الباب العريض الذي دخلت منه الولايات المتحدة إلى العالم تحت غطاء محاربة الإرهاب، وخصوصاً إلى العالم العربي والإسلامي، وأسأل هنا: ما دخل العراق في أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١؟ لا شيء، قال بوش: إن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، واقتحم بغداد، والحقيقة أنه لا يوجد سلاح دمار شامل، وفي العام ١٩٩٦م وضع أحد أقطاب اليمين الأمريكي المحافظ تقريراً لرئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك بنيامين نتنياهو، جاء فيه: إن الخطر الأكبر على إسرائيل هو العراق، لأن العراق يمثل القوة العربية الحقيقية التي لا تزال تعادي إسرائيل، فمصر سقطت في فخ كامب ديفيد، والأردن سقط في وادي عربة، وسوريا غارقة في مشاكلها، والجولان باق تحت الاحتلال منذ أربعين عاماً، ولذلك لا بد من ضرب العراق.

ويقول كذلك: إن الخطر الثاني هو صواريخ حزب الله. ولا بد من نزع هذه الصواريخ، أما السلاح الفردي فليبق، لأن كل اللبنانيين يحملون سلاحاً فردياً. إذاً كل الجهد والتخطيط الأمريكي ـ الإسرائيلي هو للتخلص من هذا السلاح فالقرار ١٥٥٩ صدر لمصلحة إسرائيل، وكذلك سجل القرارات الأخرى.

يقول بوش بالديمقراطية، وجاءت حماس إلى الحكم بانتخابات شعبية ديمقراطية لا مثيل لها في العالم، وباعترافه هو، ما الذي جرى؟ أدرجت حماس في لائحة الإرهاب، ولكني أسألك، أي نظام عربي تحميه وترعاه أمريكا هو ديمقراطي؟ إذاً أمريكا تعمل لمصلحة إسرائيل لا أكثر ولا أقل،

وهذا هو العصر الذهبي لإسرائيل، عندما كان الديمقراطيون في الإدارة الأمريكية بعهد الرئيس بيل كلينتون، لم تكن إسرائيل في هذا العصر، أما أنها في عهد بوش، فوضعها تعزز لدى الإدارة الأمريكية بشكل أدهشها هي قبل غيرها.

ويمكن أن نخلص إلى التساؤل: إذا كانت عملية خطف الجنديين هي سبب كل هذه المشاكل، فهل هذا يعني أن إسرائيل خلال الـ ٣٣ يوماً من العدوان فكرت بالجنديين؟ ثم إن هل تدمير البنية التحتية في لبنان وقتل الأطفال والنساء وإبادة العائلات، وتدمير المنازل فوق أصحابها، هل كل ذلك في سبيل إطلاق الجنديين من قال هذا؟ هذه هرطقة، نحن نعرف أن لبنان بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة، أصبح موئل العرب، وبات العربي يود تمضية فترة نقاهته هنا، ولم يعد يستسيغ الذهاب إلى أوروبا وأمريكا، وبذلك أصبح لبنان في نظر البعض خزانة العرب، وكلما شعرت إسرائيل أن هذا البلد سلك طريق الانتعاش والتقدم سارعت إلى ضربه، إضافة إلى ذلك فلبنان هو النموذج المعاكس للنموذج الإسرائيلي، ونحن في لبنان طوائف متعايشة ولا أقول أكثر من ذلك، وعلى ذات المستوى من حيث التركيبة السياسية والاجتماعية، بينما في إسرائيل فالدولة يهودية، والعرب فيها من مسلمين ومسيحيين هم في الدرجتين الثانية والثالثة.

لذلك فإن لبنان خصم لإسرائيل في كل المستويات، ولا يمكن لإسرائيل أن تسمح لبلد كلبنان أن يستقر. وهذه هي قناعتي، ولذلك فإن الأصوات اللبنانية الداخلية النشاز تخدم إسرائيل، وأنا وضعت استراتيجية دفاعية للبنان، ووزعتها على المسؤولين قبل الحرب، وقلت: لا يمكن أن تكون المقاومة لوحدها، كما لا يمكن أن يكون الجيش لوحده، ولا يمكن

دمج المقاومة بالجيش، فهذه هرطقة، فالمقاوم يقاتل بتكتيك مختلف، يقاتل وهو مختف، بينما الجندي يقاتل وهو ظاهر، وعندما تحوّل المقاوم إلى عسكري انتهى دوره.

جـ ـ دوافع الحرب الحقيقية

ورأى خبراء عسكريون آخرون، تابعوا الوضع الأمني والسياسي عن كثب أثناء الحرب، أن الذريعة التي حاولت إسرائيل أن تختبئ وراءها لشن العدوان، وهي أسر الجنديين لم تكن مقنعة، لأن كل المعلومات كانت تؤكد أن خطة الحرب كانت معدة قبل ذلك بسنوات، وأكد لي العميد الركن المتقاعد في الجيش اللبناني وليد سكرية، أن الدوافع الحقيقية كانت مرتبطة بالواقع السياسي الذي كان مشكلاً في المنطقة، حيث وصل المشروع الأمريكي للسيطرة على الشرق الأوسط إلى طريق مسدود، من خلال تعثره في العراق، ونجاح الحركة في فلسطين، وتوقف الانقلاب السياسي في لبنان عند نزع سلاح المقاومة، فالأمريكيون اعتقدوا أنه باستطاعة إسرائيل سحق حزب الله، مما يدفع مشروعهم خطوات إلى الأمام، ويضعف قوى الممانعة.

كذلك فإن حكومة أولمرت عانت إرباكاً في مواجهة الانتفاضة الفلسطينية. خاصة بعد خطف الجندي في غزة، فجاء أسر الجنديين من قبل حزب الله ليزيد مأزقها حرجاً في قوى الممانعة، ويضعف مصداقيتها أمام المستوطنين.

وإذا جاز لنا تلخيص دوافع هذه الحرب، فيمكننا تحديدها بالنقاط التالية:

ـ تعثر المشروع الأمريكي الذي أصبح بحاجة إلى عمل عسكري لإطلاقه.

ـ فشل الانقلاب السياسي في لبنان.

ـ تعثر تطويع الشعب الفلسطيني، بعد فوز حماس في الانتخابات.

ـ إرباك الحكومة الإسرائيلية في مواجهة عمليات أسر جنودها في غزة وجنوب لبنان.

وكانت الولايات المتحدة وإسرائيل، تأملان تحقيق جملة من الأهداف، إذا تمكنت من القضاء على حزب الله، منها:

ـ إكمال التحول السياسي في لبنان، وفرض ترتيبات أمنية على الحدود من خلال الجيش اللبناني وقوات دولية.

ـ إحكام حصار الساحة الفلسطينية وعزلها لإسقاط الانتفاضة.

ـ استعادة إسرائيل هيبتها بعد تشوهها إثر انسحابها من لبنان ومن قطاع غزة.

ـ إضعاف قوى الممانعة من إيران إلى سوريا. بشطب الذراع العسكري لقوى الممانعة على حدود إسرائيل في لبنان.

ـ دفع المشروع السياسي الأميركي المتعثر في المنطقة.

ـ إعادة الجنود الإسرائيليين الأسرى.

د ـ استراتيجية إسرائيل في الحرب

فوجئت إسرائيل بخطف جنودها، وأُحرجت بهذا التحدي، مما دفعها لخوض الحرب فوراً، دون تحضير قواتها البرية من الاحتياط.

واعتمدت في بداية الحرب عملية جوية، معتقدة أنها تستطيع بالقصف الجوي القضاء على المقاومة وإجبارها على الرضوخ، وشنت حوالي خمسة آلاف غارة في الأيام الأولى للحرب بهدف:

ـ عزل منطقة الجنوب ومنع أي إمدادات من الوصول إلى المقاومة.

ـ تدمير بنية المقاومة بضرب مقرات القيادة وقواعد إطلاق الصواريخ والبنية العسكرية.

ـ ارتكاب مجازر بحق المدنيين لتأليب المجتمع المدني ضد المقاومة.

ـ تدمير البنية التحتية للدولة لتأليب الحكم والشعب اللبناني ضد المقاومة.

أملت إسرائيل في إضعاف المقاومة إلى حد كبير، لإرضاخها لقرار سياسي بإرسال الجيش اللبناني إلى الجنوب، وإيجاد حل لسلاح المقاومة.

وإثر فشل العملية الجوية من تحقيق أهدافها. اضطرت إسرائيل وبدفع أميركي للدخول براً فدخلت بشكل محدود على محور مارون الراس بنت جبيل، كدخول اختباري، لمعرفة تسلح المقاومة، ومستوى تدريبها وتكتيكها في القتال وإرادة ومعنويات مقاتليها.

وبعد الصفعات التي تلقتها، وسّعت نطاق هجومها ليشمل كامل القطاعين الأوسط والغربي، من بلدة مركبا حتى الناقورة.

وهاجمت على جبهة واسعة الحد الأمامي المحاذي لحدودها دون الاندفاع في العمق. كما خفضت من سقف أهدافها، فتراجعت عن القضاء على حزب الله، إلى احتلال فقط جنوب الليطاني، ثم إلى احتلال شريط بعمق ٥ ـ ٦ كلم فقط.

وأدركت أن خسائرها ستكون كبيرة إن اندفعت بالعمق، بما لا تحتمله؛ لذلك دخلت فقط إلى الحدود بنطاق واسع مع سعي لتطهير الأرض بضغط أميركي، لتحقيق إنجاز ما، يخدم استصدار قرار من مجلس الأمن لاستقدام

قوات دولية، فاندفعت القوات الإسرائيلية باتجاه بلدة القنطرة ـ وادي الحجير محاولة إحداث خرق، لو نجح لتابعت الهجوم حتى البحر، لحصار منطقة جنوب الليطاني. لكنه فشل.

تميز عمل إسرائيل العسكري بالتالي:

ـ الاستخدام الواسع للطيران.

ـ الاستخدام الواسع للطيران المسير دون طيار والمسلح.

ـ الاستخدام الواسع للذخائر الموجهة (الأسلحة الذكية).

ـ اعتماد العمل وفق الشبكة المركزية والتأثير على كل هدف مكتشف على كامل عمق الوطن.

لقد فشلت إسرائيل في تحقيق أهدافها من الحرب وظهر فشلها في جوانب عدة أهمها:

ـ فشل في الاستعلام. لقد نجحت إسرائيل في تحديد مراكز حزب الله الظاهرة للمجتمع المدني، لكنها فشلت في معرفة حقيقة المقاومة ومدى استعدادها للمواجهة. فتفاجأت بأنواع أسلحة لدى المقاومة لم تعلم بها سابقاً.

تفاجأت بتحضير حزب الله للأرض كما تفاجأت بمستوى تدريب عناصر المقاومة وتكتيكهم بالقتال.

ـ نتيجة فشلها الاستعلامي، فشلت بتقدير الطبيعة المحتملة للحرب، وبتحديد أهداف يمكن تحقيقها وإعداد القوى ووضع الخطط المناسبة فخاضت الحرب بشكل خاطىء أدى إلى فشلها.

وظهر ضعف في بعض أسلحتها ومنها:

ـ ضعف في حماية دباباتها من صواريخ المقاومة.

ـ عجز الدرع الصاروخي بصد صواريخ المقاومة.

ـ عجز منظومات حربها الالكترونية في إبطال صواريخ المقاومة، أو في التشويش أو التنصت على اتصالات المقاومة وقيادتها.

ـ ظهر ضعف في كفاءة قوات الاحتياط القتالية. وحتى ألوية النخبة لم تكن على المستوى المطلوب منها.

ـ ضعف لدى القيادة العسكرية وقيادة الفرق في إدارة الحرب.

خاضت إسرائيل الحرب بشكل خاطىء بين ضعف قدراتها من جهة، والضغط الأميركي لتحقيق إنجازات من جهة أخرى، فوقعت بحالة تخبط في قرارها الاستراتيجي، ولم تحسن تحديد الأهداف الممكن تحقيقها، وإنهاء الحرب بالوقت المناسب الذي يخرجها بوضع أفضل مما وصلت إليه.

وتعويضاً لفشلها في الحرب، أمعنت إسرائيل في تكبيد المجتمع المدني الخسائر بتدمير المباني والبنية التحتية وزرع الجنوب بالقنابل العنقودية بمحاولة إيجاد شرخ بين المقاومة والمجتمع المدني.

وهكذا كانت حرب تموز يوليو انتصاراً سياسياً للمقاومة، وهزيمة لإسرائيل. فأضعفت قدرة إسرائيل على الردع، وشوهت صورتها عالمياً، وأحدثت حرباً سياسية داخل إسرائيل؛ مما يفقد إسرائيل دورها كأداة عسكرية بيد الغرب لقهر حركات التحرر بالمنطقة.

وزادت قوى الممانعة في المنطقة قوة، وأضعفت المشروع الأميركي والملتحقين به، وأيقظت الشارع العربي وأحيت الآمال، وأعادت الثقة بالنفس لمواجهة غطرسة إسرائيل. مما سيكون له تداعيات مستقبلية على

أوضاع المنطقة عامة، وقدمت النموذج لدول العالم الثالث، كيف تستطيع مواجهة دول أكثر منها تطوراً وتمتلك التفوق في التسلح والتكنولوجيا.

وعززت وضع المقاومة في لبنان ودورها بالدفاع عن الوطن. وألغت أي بحث بنزع سلاح المقاومة.

كما عززت وضع الانتفاضة في فلسطين، وأعطته الأمل بالمستقبل فرفعت مستوى صموده وأبعدت احتمال شن عدوان ضد سوريا أو إيران إدراكاً بما سيواجهه المعتدي.

لقد كشفت الحرب عورة إسرائيل، وأحدثت زلزالاً ستظل ترددداته لفترة طويلة.

لقد أسقطت العديد من مبادىء النظرية الأمنية لدولة إسرائيل ومنها:

ـ إنهاء الحرب بنصر حاسم، يدخل اليأس إلى نفوس العرب من تجربة حرب أخرى.

فهذه الحرب انتهت بفشل إسرائيل وأحيت الآمال عند العرب لمواجهتها مستقبلاً.

ـ أفشلت نظرية الحرب الصاعقة.

فالحرب كانت لتدوم أشهراً لولا قرار مجلس الأمن دون تحقيق أهداف إسرائيل.

ـ أفشلت نظرية الحرب النظيفة، وحماية المؤخرة (عمق إسرائيل) فمعدل خسائر إسرائيل العسكرية بالحرب كان الأعلى بين الحروب التي خاضتها. ولأول مرة يستهدف عمق إسرائيل في صناعتها ومجتمعها المدني. مما شل الحياة الاقتصادية.

ـ إن تعرض العمق الإسرائيلي لشلل أكبر وخسائر أكبر في حروب مستقبلية يؤدي إلى هجرة يهودية معاكسة لخارج إسرائيل، مما يضع مصير الكيان الصهيوني ومستقبله على المحك.

ـ تصدعت قدرة إسرائيل على الردع، مما يفقدها دورها، ويضع المشروع الصهيوني أمام إعادة قراءة من جديد.

ـ فشلت نظرية النصر بالتفوق النوعي. فالتفوق النوعي بالسلاح لم يؤمن النصر لإسرائيل.

ـ فشل في مبدأ حماية الدولة العظمى.

لقد أمدت أميركا إسرائيل بالوسائط العسكرية ولم تنتصر.

لكن أميركا لن ترسل جنودها لخوض الحرب نيابة عن إسرائيل. فإسرائيل هي من عليها خوض الحرب لأجل أميركا.

ـ كما كان للحرب نتائج سياسية داخل الكيان الصهيوني تمثلت بالتداعيات والخلافات وفقدان ثقة الشعب بحكامه وحتى بجيشه. حتى أن الشعب الإسرائيلي وثق بأخبار تلفزيون المنار ليعرف الحقائق. وبما يقوله السيد حسن نصر الله وليس ما يقوله قادته.

شكلت الحرب الخطوة الأولى للخروج من زمن الهزائم العربية إلى زمن الصمود والتحدي، تمهيداً لعصر الانتصارات الكبرى.

هـ ـ المفاجآت بالجملة

المفاجآت كانت كثيرة، وأحياناً بالجملة، صحيح أن أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية كانت تعرف أن لدى حزب الله عدداً من الصواريخ، لكنها لم تكن على علم بنوعيتها وكميتها، وأماكن تواجدها،

وكيفية وطرق استعمالها، وقدرتها التدميرية والمسافة التي يمكن أن تصل إليها، وكشفت كل المعطيات أن المعلومات الإسرائيلية كانت قائمة على التخمين والارتجال والعشوائية، وكان هذا النقص دليلاً على فشل الأجهزة الاستخباراتية وعجزها عن كشف الحقائق، قبل اتخاذ قرار الحرب، فكان ذلك مادة دسمة لوسائل الإعلام والسياسيين، والاستراتيجيين، للنقد والتهجم على الحكومة وأجهزتها، ومطالبتها بالاستقالة، والاعتذار من الإسرائيليين.

والمفاجأة المدوية كانت، بامتلاك حزب الله صواريخ أرض بحر، إذ كان الجيش الإسرائيلي يظن أن صواريخ الحزب تقتصر على الأرض ـ أرض، وبنطاق محدود، يصل مداه إلى الشمال الإسرائيلي، وكان ضرب البارجة الإسرائيلية على شواطىء بيروت، عنصراً مهماً في الحرب العسكرية والنفسية.

وتكشّف لكل المتابعين لسير المعارك، أن البيانات العسكرية الإسرائيلية ليست غير دقيقة فحسب، بل قائمة على الكذب والخداع، ومحاولة ذر الرماد في العيون، وبعد أن كانت تدعي بأن سلاحها الجوي استطاع أن يقصف نسبة عالية من منصات الصواريخ، كانت صواريخ المقاومة تنهمر في كل مكان، بدءاً من حيفا إلى عكا إلى طبريا، إلى كل مناطق الجليل الأعلى، وإلى ما بعد بعد حيفا، وأظهرت أنها قادرة على إصابة أي بقعة في فلسطين المحتلة، وقد أخفت بعض أسرار أوراقها العسكرية إلى مراحل أخرى، يمكن أن تشهد المزيد من التوسع في القتال وكان أثر الإصابات الدقيقة لصواريخ المقاومة، بالغاً في نفوس ومعنويات كل الإسرائيليين، على مختلف مستوياتهم، فشعروا أن الحكومة الإسرائيلية خاضت حرباً غير محسوبة بدقة، فتسببت بكارثة تحتاج إلى جهد لمسح

أضرارها المادية والمعنوية والنفسية على مدى سنوات عديدة.

وركزت المقاومة على إحداث ما سمي توازن الرعب، فصبت نار غضبها على كل النقاط المشابهة التي أغار عليها الطيران الحربي، وكان لذلك وقع مؤثر، وظهر تفوق المقاومة في المواجهات البرية، وشطب أسطورة دبابات الميركافا التي تعتبر العصب الأساسي لسلاح البر. وتعوّل عليها إسرائيل كثيراً في الاجتياحات والاعتداءات، فصواريخ المقاومة الحديثة المزودة برأسين، واحد يخترق الدبابة وآخر يفجرها ويحرقها، أحبطت كل الخطط الإسرائيلية، وألحقت بالإسرائيليين خسائر كبيرة. وأصبح الجنود مكشوفين تماماً، بل يفرون من دباباتهم لأنها أصبحت صيداً سهلاً. فانهارت القوة البرية، وفشلت أية محاولة تقدم باتجاه نهر الليطاني، أو حتى الثبات على الحدود. فظل الاعتماد على سلاح الجو الذي أنهى استهداف «بنك معلوماته» دون أن يحقق شيئاً يذكر سوى قتل الأطفال والنساء وتدمير المنازل على رؤوس سكانها الآمنين.

الفصل الثالث

آثار وانعكاسات الحرب على إسرائيل
وعلى المقاومة والشعب الفلسطيني

مقدمة

قامت عقيدة القتال الإسرائيلية على دعامتين أساسيتين، في كافة حروبها مع العرب:

الأولى: اعتماد الضربة الخاطفة، والحيلولة دون الدخول في حرب استنزاف طويلة.

الثانية: خوض المعارك فوق أرض العدو، ومنع تمددها إلى أراضيها.

هاتان الدعامتان سقطتا في هذه الحرب، فحزب الله اعتمد الدفاع الثابت في الخطوط الأمامية مع استغلال العمق الجغرافي[1] والهدف هو كسب الوقت، وتكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر الممكنة وبخاصة البشرية، في ظل عدو غير محضّر، وفي حال خسارة الأرض، فهذا لا يعني أن الإسرائيلي ربح وحزب الله خسر، فالأرض ليست مهمة لمبدأ قتال العصابات لأن الحزب يمكن أن يعيد تنظيم نفسه للقتال كحرب عصابات كما فعل عام ٢٠٠٠م، وهو أعدّ نفسه عتاداً وعدة لمواجهة طويلة وتزود بأنواع من الصواريخ الحديثة، قريبة المدى، متوسطة، وبعيدة المدى، تطال العمق الإسرائيلي.

---

(١) حنا، إلياس، الحرب الإسرائيلية على لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ص٢١١.

سبب الصدمة الإسرائيلية أنها لم تكن تتوقع هذه الجهوزية والمستوى القتالي العالي، والتكتيك والاستراتيجية اللتين اتبعتا من قبل حزب الله ما سبب إرباكاً للقيادة العسكرية، دلّ على ضعف استخباراتي، وعلى استسهال في النظرة للحرب، إذ كانت هذه القيادة تدعي بأن مقاتلي الحزب لن يستطيعوا الصمود أكثر من ساعات أمام جيش يعتبر من أقوى جيوش العالم تجهيزاً. ويمتلك تفوقاً جوياً برياً وبحرياً هائلاً، وشبكة صاروخية ومدفعية لا تضاهيها قوة في الشرق الأوسط كله، كانت تظن ـ عندما اتخذت قرار القتال ـ أن النتائج محسومة سلفاً، وما سيحصل فرصة انتظرتها طويلاً للثأر من هزيمة العام ٢٠٠٠م، وتوجيه رسالة للعالم بأن الجيش الإسرائيلي هو الأقوى والأقدر على حسم أي حرب في المنطقة، ويبدو أنها لم تفصل بين خوض حرب نظامية، يمكن أن يلعب فيه السلاح والعدد دوراً، وبين حرب العصابات التي تتطلب خطة مختلفة.

أولاً: ذهول وخلل عسكري

فشلت إسرائيل في تحقيق «بنك أهدافها»، فهي لم تستطع قصم ظهر حزب الله كما وعدت، كما لم تستطع أن تضرب قدرته الصاروخية وأبعادها إلى شمال نهر الليطاني، ولم تتمكن من استرجاع الجنديين الأسيرين اللذين أسرهما الحزب بالقوة، ورضخت لمطالب وشروط السيد نصر الله في طرق وأساليب استعادتهما عبر التفاوض غير المباشر، وإطلاق الأسرى اللبنانيين وعدد من الفلسطينيين والعرب، وكذلك فشلت في الانتقام واستعادة هيبة جيشها، ولم تجلب الحرب لها، سوى الدمار والقتل والتهجير.

نتائج الحرب، غيّرت نظرة إسرائيل إلى نفسها، على النطاق العسكري، كما غيرت نظرة العرب والعالم لها، فشعر الإسرائيلي أنه كان يعيش وهماً أمنياً، فهو لم يعد بمنأى عن الخطر، وساحته أصبحت عرضة للقصف كلما تعرضت الساحات الأخرى للضربات العسكرية الإسرائيلية، وبات على يقين بأن قوته لم يعد بمقدورها فرض حلول سياسية على أعدائها كما كان الأمر في السابق، وهذا ما أقرّ به المراقبون الذين رأوا أن إسرائيل «خسرت الحرب من الوجهتين العسكرية والسياسية»[1] وتهكموا على

---

(١) ستيفنز، بريت، عضو مجلس تحرير صحيفة «وول ستريت جورنال» الأمريكية.

تصريحات المسؤولين الإسرائيليين، التي كانت تتراجع مع تقدم الحرب، من الدعوة «لكسر حزب الله» إلى «طرد» الحزب من جزء من الجنوب، وصولاً إلى طلب «الحد» من قدرات الحزب ونشر قوة دولية كسياج أمني.

وهذا ما دفع رئيس أركان الجيش السابق الجنرال موشيه يعلون، إلى وصف قرار الحرب من قبل أولمرت بـ«الفضائحي».

وتساءل زئيف شيف أثناء الحرب هل تم تحقيق الأهداف؟[1] فخلال الأيام الأولى بدأت ترد تصريحات لقادة وضباط كبار، خلقت انطباعاً بأن أهداف إسرائيل من الحرب تتغير وتتبدل، فرغم الضربات الشديدة الجوية والبرية، لم تتعرض قدرات الحزب العسكرية لضربة فعلية، فالدافع القتالي استمر، وصمد المقاتلون وقيادتهم لم تمس، ولم تتعرض منظومتهم اللوجستية لإصابات جدية، وبقي لديهم مخزون كبير من الصواريخ البعيدة المدى، وهنا ظهرت وظيفة استراتيجية جديدة لسلاح الصواريخ، وهي إثبات لفشل سلاح الطيران من إزالتها، وإجبار إسرائيل بالتالي على خوض معركة برية، لقد اضطرت إسرائيل إلى النزول إلى البر لأنها أعلنت أن هدفها إزالة الصواريخ، فكان أن خسرت العالمين، لم تُزِل سلاح الصواريخ وخسرت المعركة البرية.

ويعترف عاموس هرئيل[2]. أن قوات الجيش الإسرائيلي التي كانت تعمل مقابل مواقع حزب الله، فوجئت بحجم المنظومة الدفاعية والهجومية التي قام ببنائها الحزب بالقرب من الحدود، حيث بدأ بعض القادة مذهولين مما شاهدوه في مارون الراس ومروحين وعيتا الشعب وبنت جبيل، وفي المقابل ادعت الاستخبارات العسكرية أنه تم تحويل معلومات واسعة بهذا

---

(١) شيف، زئيف، «هل تم تحقيق الأهداف» هآرتس، ٢٦/٧/٢٠٠٦م.
(٢) هرئيل، عاموس: «هل فشل الجيش» ،هآرتس ٢٧/٧/٢٠٠٦م.

الشأن إلى الجيش الذي ينقل المعلومات إلى الوحدات العاملة ميدانياً، وما زال الخلاف محتدماً حول هل الفشل استخباراتي أم سوء إدارة داخل الجيش؟.

وكشفت التحقيقات الإسرائيلية حول الإخفاق العسكري. عن «وجود خلل شامل في أجهزة الجيش من دون استثناء»[1] واتهمت أداء الفرقة «٩١» في سلاح المشاة قيادة الجيش بالتقصير في إعداد القوات للحرب، ونقلت صحيفة «يديعوت أحرونوت» عن اللواء في الاحتياط يورام يائير، أن هناك حالات تميزت بإخفاق ٤ ضباط برتب متدنية نسبياً.

وأشارت التحقيقات، أنه طوال شهر من القتال، لم تكن هناك إدارة لحملة عسكرية تشمل هدفاً وغايات محددة، تسعى لتحقيق الهدف بشكل سريع وواضح، فالقوات لم تتدرب بشكل كافي، ولم تكن مستعدة لتنفيذ مهامها، وكان هناك فشل في الانتقال من نشاط اعتيادي إلى نشاط في حالة حرب، إضافة إلى تغيير المهام في أوقات متسارعة، وتغيير حجم وانتشار القوات واستخدام الفرقة والكتائب والألوية التابعة لها مصطلحات ليست عسكرية، ولم تشملها نظريات الحرب في الجيش الإسرائيلي، وأخطر ما حدث كان تواجد جميع قادة الألوية والكتائب، باستثناء قائد لواء المظليين العقيد حغاي مردخاي، في غرفة القيادة الأمامية، الموجودة داخل الأراضي الإسرائيلية وليس مع الجنود في عمق الأراضي اللبنانية.

١ ــ صراع الجنرالات وحملة الانتقادات

تبادل الجنرالات التهم وحملات التشكيك، إزاء الأداء الإسرائيلي السيئ في الحرب، وأبدوا جميعهم خشيتهم من أن تجر هذه الأزمة الكثير من الويلات في الدولة العبرية. وأشار وزير الدفاع الأسبق شاؤول موفاز،

---

(١) يو. بي. آي، «عرب ٤٨».

إلى أنه شعر بالقلق منذ اللحظات الأولى لشن الحرب. وانتقد التعليمات السياسية التي صدرت للجيش فور اختطاف الجنود، وقال: تعليمات صائبة من جانب الحكومة كان يمكن أن تنهي الحادث خلال وقت قصير ومن دون تطوير المعركة إلى حرب، ولو أننا ضربنا بشكل قاسٍ البنى التحتية لحزب الله، لكان بالوسع إنهاء الحرب خلال عشرة أيام أو أقل من ذلك، ولكن الوضع لم يكن هكذا، ويعتقد موفاز أن إسرائيل أخطأت بشنها الحرب وبالطريقة التي أنهتها بها، وهي نهاية عنت التخلي عن الأسرى، وقال: ينبغي على أي لجنة تحقيق أن تفحص أداء الحكومة، ولا أعتقد أنه ينبغي لها أن تفحص الجيش، وانتقد أولمرت بشدة، داعياً إلى بناء برنامج يغير جدول الأعمال السياسية للدولة، فالقضايا التي كانت على جدول الأعمال قبل خمسة أو ستة شهور تغيرت، ينبغي إحداث التغيير وفقاً للواقع الذي نعيش فيه. ورفض في جلسة مغلقة ببئر السبع، تسويق الحرب على أنها انتصار، فذلك يثير الاستخفاف، فحزب الله قادر على ترميم قوته خلال عام، وهذا ما يمكن أن يجدد الخطر[1].

ورأى بعض ضباط الاحتياط الذين حضروا لقاء مع رئيس الأركان السابق دان حلوتس في قاعدة صرفند العسكرية، بأن «اللقاء كان مخجلاً وقاسياً»، وطالبوا حلوتس بتحمل المسؤولية والإقرار بالخطأ، وانتقد كثير من الجنرالات بشكل قاس أداء الجيش وأشاروا إلى أنه كان على القيادة أن تستخدم بشكل مغاير القوات البرية وأن تتعامل بشكل جدي مع المشاكل اللوجستية والقيادية التي تبدت، ولاحظوا أنه بخلاف الحروب السابقة، لم يكن القادة على رأس قواتهم، وإنما كانوا في غرف القيادة أمام شاشات المراقبة.

---

(١) السفير، ٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦م.

وانتقد آخرون مستوى التدريبات المتدني للقوات. واعترف الجميع أن الحرب لم تنجح في تحقيق أهدافها، ووصف بعض الجنرالات، القسم الأول من القتال كعملية رد فعل جوية مكثفة وشديدة كان يمكن لها أن تنجح في تحقيق تلك الأهداف من دون العمليات البرية، ومن هنا فصاعداً الحملة أصبحت غير مسيطر عليها، غير مركزة، غير مصممة، من دون هدف محدد، مع عمليات وأنصاف عمليات جررنا إليها.

ووجه الجنرال يوسي بيلد كلامه إلى رئيس الأركان، قائلاً: لا يمكن الانتصار بالنقاط، إما ننتصر في الحرب أو لا ننتصر، المهم هو ما يرى في الجانب الآخر، ومن الجمهور، وقال أحد الجنرالات: هذه الحرب لم تبعد الحرب المستقبلية مع سوريا، والجنود لم يفهموا في الأوامر وصف الحرب، إما أن تكونوا لم تشرحوا، وإنكم لم تعرفوا ما هي أوصاف الحرب، في الساعات الـ٣٦ الأخيرة من الحرب، جرت أمور لا تفسير لها، وهذه تتعلق بمسائل أخلاقية.

وسأل جنرال آخر حلوتس: ما كنت لترسل سرباً في غارة جوية من دون تدريب، فكيف ترسل لواء إلى الحرب من دون تدريب؟

وانتقد الجنرال يشعيا هو غابيش، إلقاء نتائج الحرب على القيادة السياسية، وقال: القيادة العسكرية أملت دوماً الحلول على القيادة السياسية، رئيس الأركان مسؤول عن أن يكون هناك نجاح عسكري.

وتوج صراع الجنرالات، باستقالة قائد الجبهة الشمالية الجنرال عودي آدم، التي فتحت الباب أمام استقالات أخرى من قادة هذه الحرب، وأحدثت ارتجاجاً كبيراً في الوسطين السياسي والعسكري، وانقسم الرأي بين مؤيد ومعارض لها، ودعا وزير البنى التحتية بنيامين بن اليعزر، رئيس

الأركان باتخاذ العبرة من هذه الاستقالة، والمبادرة إلى مثلها، كما دعا كل القادة الأمنيين المسؤولين عن الحرب إلى الاستقالة أيضاً، وكشفت استقالة آدم، عن عمق الخلافات التي دارت بين آدم وحلوتس أثناء الحرب، حول عدد من القرارات وطريقة اتخاذها، ورأى الجنرال المستقيل، أن من المسائل الأساسية التي ينبغي فحصها هي الجاهزية، التغييرات التنظيمية التي أدخلت على الجيش في الآونة الأخيرة، وتوقيت تجنيد القوات الاحتياطية وتفعيلها، وشكل اتخاذ القرارات واستخدام القوات على المستوى التكتيكي، وذلك في إشارة واضحة إلى وجود ثغرات واسعة في النقاط التي أشار إليها، واعتبر المحللون والخبراء الاستراتيجيون والإعلاميون في إسرائيل، أن آدم «دفع ثمن لعنة لبنان»، فهو فقد والده الجنرال يكوتئيل آدم، أثناء حرب لبنان الأولى في العام ١٩٨٢م، وها هو الابن بعد ٢٥ عاماً يدفع الثمن شخصياً.

٢ ــ دروس وعِبَر الحرب

فوجئ الجنرال شلومي كوهين، الذي قاد كتيبة الكسندروني، عندما زار جنوده العائدين من الجبهة، من كثرة الشكاوى التي تملأ صدورهم، فهم لم يبلّغوا أية معلومات حقيقية عن عدوهم وتجهيزاته، وقال البعض منهم: «سنرفض المشاركة في الحرب المقبلة، فنحن لدينا عائلات» وقد اتهمهم الجنرال «بانعدام الحافز»، وبعد مشادة وارتفاع اللهجة، هدد «برمي أحدهم في السجن»، فغادروا المكان مرددين: «يا للعار»[1].

ورأى قادة الألوية، أنه لدينا إحساس بأن حالوتس يبصق في وجهنا، وهذا لم يمكننا من الانتصار في الحرب».

---

(١) كابليوك، امنون، لاموند ديبلوماتيك، أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦م.

وسارعت مراكز الدراسات والأبحاث الإسرائيلية إلى إعادة قراءة تفاصيل هذه الحرب لاستخلاص الدروس والعبر منها، وكان أبرز مؤتمر عقد في هذا السياق، تحت عنوان: حرب لبنان الثانية ـ استخلاصات ومعان معمقة حول التعامل مع الإرهاب والحرب العصابية ـ في هرتسيا، شارك فيه العديد من الجنرالات ورجال الاستخبارات، وركزوا باهتمام على جمع المعلومات الاستخبارية وتقديمها وسبل بناء قوة الجيش وتدريباته وقدرته على توفير المعدات اللازمة للقوات في الحرب وسير المعارك التي جرت في جنوب لبنان، وأثرها على الجولة المقبلة، مع التركيز على أهمية عمليات سلاح الجو والمدفعية وقدرة القوات البرية على المناورة، وعلى صورة رئيس الحكومة الإسرائيلية والأمين العام لحزب الله. وآثار الحرب على الجوانب العسكرية الميدانية والاستخباراتية والجوانب السياسية. وأثر الحرب على مفهوم الردع الإسرائيلي في ضوء الصراع ضد الفلسطينيين والجهاد العالمي.

وأهم ما جاء في هذا المؤتمر، ما ورد على لسان رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية الأسبق الجنرال اوري ساغي[1]، الذي أعلن أن حزب الله استعد للمواجهة المحتومة مع إسرائيل، فيما بذلت إسرائيل جهد استطاعتها لتجنب المواجهة التي لم تستعد لها وهي لم تر في العملية حرباً وإنما ردة فعل، فوجدنا أنفسنا نعالج مشكلة من دون استعداد من جانبنا، الحكومة لم تحدد للجيش أهدافاً، برغم محاولة الجيش، وكانت هناك فجوة لا يمكن تفسيرها بين آمال الجمهور والأهداف المرصودة، وعملت إسرائيل ضمن مفهوم الاغتيالات، ولكن معالجة أمر منظمة «إرهابية» مثل

(١) موسى، حلمي، السفير، ١٢ أيلول سبتمبر ٢٠٠٦م، «مؤتمر في هرتسليا يناقش حرب لبنان».

حزب الله تتطلب استعداداً بحجم كبير آخر، وأشار إلى أن حزب الله لم يتوقع ردة فعل إسرائيل، وفشل في اختبار الوعي ـ أي مواجهة كانت تنتظره هنا، لكنه لم يفشل في الجاهزية، وفي المقابل كانت إسرائيل عديمة الوعي الكافي لمعالجة أمر حزب الله، ومستعدة فقط للرد، وليست مستعدة لعملية متدحرجة لدرجة أثارت علامات استفهام. وأكد ساغي أن الجيش استعد فقط لعملية محدودة وليس لأكثر من ذلك، فالقوات البرية وجدت نفسها غير مستعدة، غير مؤهلة، ولا تعرف المنطقة، والأهم أنها غير مركزة، سواء بسبب انعدام الفهم لدى القيادة، أو بسبب أن الجيش لم يحدد لها بشكل كاف الأهداف والغايات المطلوب تحقيقها. وقال الجنرال بورام يائير: إن المعركة الوحيدة القاسية التي جرت، هي التي وقعت مع الكتيبة ٥١ التي تورطت في بنت جبيل، وعلى رئيس الأركان أن يفهم مبادىء الحرب البرية، فبوسع طيار أن يكون رئيس أركان، ولكن عليه أن يتعلم مبادئ الحرب البرية، وهذا ليس في السماء، فلا شيء تغير عند المقاتل، لا عندنا ولا في الطرف الآخر، إنها الفسيولوجيا ذاتها والسيكولوجيا نفسها، والمشكلة لدى كل قائد ليست العتاد ولا التدريب، وإنما كيف يحرك الأفراد، وبالتأكيد تحت النيران، ولو تم التمسك بمبدأ الحركة، لجرى تجنب العديد من المشاكل التي واجهت سلاح المشاة. واعترف رئيس وحدة الأبحاث السابق في شعبة الاستخبارات العميد يوسي كوبرفيسرا أن حزب الله، هو تنظيم عسكري فريد من نوعه، يمتلك عموداً فقرياً مجرباً. وهو مزود بأسلحة جيدة، لكنه أيضاً يمتلك نقاط ضعف، وقال: ثمة فجوة استخباراتية في كل ما يتعلق بمعرفة امتلاك هذا الحزب لصواريخ أرض ـ بحر، التي أصابت البارجة حانيت قبالة سواحل بيروت، وهناك مصاعب جمة اعترضت القدرات الإسرائيلية في مجال المعلومات الاستخباراتية

التكتيكية. فرغم الجهود التي تبذل لجمع المعلومات في لبنان، كان واضحاً أنه تنقصنا تفاصيل عن المكان الدقيق لعدد من الملاجئ، مخازن الأسلحة، الأنفاق، وأهداف أخرى لحزب الله.

وانتقد قائد أركان الجيش الإسرائيلي الأسبق أمنون ليفكين شاحك، الإدارة الإسرائيلية للحرب[1]، وقال: عندما أفكر بما شعر به جنود الاحتياط أثناء الحرب لا أشعر إلا بالإهانة وأكثر من إهانة أيضاً، أشعر بالخجل، كان علينا الحفاظ على الثقة التي منحها هؤلاء المقاتلون للجهاز العسكري، لقد خناهم وخيبنا آمالهم، لقد أعطيناهم أقل مما هو متوقع من الجيش. مشيراً إلى أن إسرائيل لم تحرز تقدماً يمكن التفاخر به، وأضاف: هذه الحرب عذبتني كثيراً، شعرت من خلالها شعوراً سيئاً، لم أكن أعلم بكل التفاصيل التي حصلت في الميدان، لكن لا توجد هناك حاجة لأن أكون خبيراً بما جرى، كيف أعرف بأن أخطاء فادحة وقعت. وأكد أنه «فجع» لأن إسرائيل لم تستطع خلال ٣٣ يوماً من الحرب أن تقلل من القوة الصاروخية التي يمتلكها حزب الله. معتبراً أن النتيجة كانت «سيئة جداً.. فنحن لم ننتصر.. بالتأكيد لم ننتصر عسكرياً». ورأى أن رئيس الأركان يواجه أزمة ثقة لم يشهد لها مثيل، وهي لم تقتصر على سوء إدارته للحرب، بل على عدم الثقة به لإجراء الإصلاحات المستقبلية في الجيش، وتساءل: لا أعرف ماذا دار في عقل آرييل شارون عندما عينه قائداً للأركان؟

وأسف أمير بوحبوط، الذي تناول «الجانب المظلم في الجيش الإسرائيلي»[2]، عدم اختراق ولو محور لوجستي واحد في الجنوب اللبناني

---

(١) يديعوت أحرونوت، ٢٢ أيلول/ سبتمبر.

(٢) موقع معاريف، ٢٠٠٦/٩/١٥م.

طوال الحرب، مما شكل بكل بساطة فضيحة، وقاد هذا الإخفاق العملياتي إلى صراعات قوى داخل قيادة الجيش، وسجلت بشكل متبادل حالات قلّة احترام وتآكل قيمة الرفاقية، وجالت الشعابين، وجلس جنرالات هيئة الأركان يفكرون في الطرق لإيصال الطعام والذخائر للقوات المتواجدة على بعد كيلو متر واحد ونصف من الحدود، واستمرت الثرثرة والأفكار غير القابلة للتحقيق إلى أن رفع قائد سلاح الجو الجنرال اليعزر شكيدي يده عارضاً مساعدة الطيارين رغم المخاطرة الكبيرة، وخلافاً لأوامر هيئة الأركان التي تقضي بأن لا يساعد سلاح الجو في نقل الإمدادات حتى مسافة خمسة كيلو مترات من الحدود.

وقال قائد الجبهة الشمالية المستقيل لأصدقائه[1]: إنني أشعر كما لو أنني أعيش في فيلم هذيان، كل هذه الحرب كانت فيلماً كهذا، وببساطة لم أكن أؤمن أن هذا سيحدث، كيف وقعت كل هذه الكوارث، كل هذه الأعطاب، وكيف أن أحداً لم يسمح لنا بالعمل وتنفيذ خطط، وكانوا يدخلون إلى عظامك، وبدلاً من قيادة القوات، كنت مضطراً طوال الوقت لمناقشة خطط، وفي كل يوم يغيرون الخطط مرتين، ومصادقات على الخطط، وهكذا دواليك، فيما أنهم في هيئة الأركان، في مكاتب مكيفة ومضاءة، وأنت تضطر كل يوم للتوضيح، للإقناع والرجاء، كما أن ضابط العمليات عندك يقضي وقته في المروحية، من هكرياه إلى مقر القيادة الشمالية، وبشكل لا يتوقف، وكل نصف ساعة كانت الأوامر تتغير، والخطط تنقلب، كيف تدار حرب بهذا الشكل؟.

ورأى آدم، أن الحرب أديرت كأنها عملية صغيرة، وبدلاً من رؤية المعركة نزلوا إلى مستوى القتال في القرية، إلى مستوى العملية، إلى ثلاثة

---

(١) بن كسبيت، معاريف، ٢٠٠٦/٩/١٥م.

أو خمسة قتلى في الميدان، وصرت تخشى التحرك لأن أحداً لن يصمد أمام الضغوط، وكل معركة يحدث فيها خلل. سرعان ما تتحول إلى كارثة وطنية. لقد أردت تجنيد القوات الاحتياطية منذ البداية، طالبت بتدريب الفرق بشكل منظم، رفض رئيس الأركان ذلك، بعدها طلبوا مني شن غارات برية، والغارات أمر جيد، ولكن لهذه الغارات بداية ونهاية واعتبر أن الطلب من الخروج من بنت جبيل حسب طلب رئاسة الأركان، جنون في تلك الظروف، وبدلاً من تفعيل القوة، بدلاً من تخصيص قوات ووسائل من اللحظة الأولى ألقوا نحوي بكتيبة هنا وسرية هناك. وطوال اليوم كانوا يتحدثون ويوجهون الانتقادات قلت لهم: إذا كنتم تريدون مد العون تعالوا إلى الشمال. لتصل إلى هنا الشرطة العسكرية لتفرض النظام في الطرق وعلى خط الجبهة، لكنهم بقوا هناك.

أما عن وضع القوات، الله يستر، رجال الدبابات الذين لم يصعدوا على دبابة منذ ست سنوات، ورجال من الخدمة النظامية لم يركبوا دبابة منذ عامين، لقد رأيت قائد كتيبة مدرعات نظامية، وكانت عيناه فارغتين، لأنه كان عليه أن يدخل لبنان مع كتيبته في الليل، فيما أنه لم يقد كتيبة أبداً في الليل، وببساطة لم يفعل ذلك، لأنه لم تكن هناك تدريبات، وهو لا يعرف كيف يفعل ذلك.

وقال قائد فرقة مدرعات سابق يدعى العميد حين يتسحافي[1]: إن حرب لبنان أكدت مشكلتين رئيسيتين ترتبطان بمسؤولية القيادة. واحدة: استخدام مفهوم قتالي غير ملائم، وثانية: عدم تغيير المفهوم عندما بدا واضحاً وجوب تغييره.

وتقع المسؤولية عن المشكلة الأولى على عاتق القادة السابقين، أما

---

(١) يديعوت «فشل المفهوم ثانية»، ٢٠٠٦/٩/١٧م.

المسؤولية الثانية، فهي مسؤولية القادة الفعليين ـ قادة الدولة والجيش ـ الذين رأوا أنه من السليم شن الحرب.

واستند المفهوم القتالي لإسرائيل، الذي تبلور على مدى ١٠ ـ ١٥ سنة الأخيرة، إلى أنه يمكن تدمير قوة عسكرية هامة من خلال ضرب نقاط العدو، وفي حينه تخيل رئيس الأركان حينذاك إيهود باراك «منظومة» العدو في صورة كرة من البورسلين تكفي ضربة إزميل واحدة لتفتيتها إلى شظايا، هذا المفهوم، خلق المفهوم الأمني لإسرائيل، وترجمته هي الاستثمار في منظومات قتالية ذكية ودقيقة وبناء قوة جوية وبرية. يمكنها المس بأهداف موضعية، كقيادات العدو، تفكيك المنظومة المقاتلة وشلها. وتقوم الفرضية القتالية لهذا النهج على أساس أن قوات العدو تعمل في منظومة مركزية مراتبية ومنظمة، وهو ما كان غير صحيح بالنسبة لحزب الله في حالة حرب لبنان الثانية، فقد عمل حزب الله كمنظمة عصابات بالتسيير الذاتي، المنبسط والموزع.

حكومة إسرائيل والجيش، ادعيا أنهما استندا إلى مفهوم قتالي لا يناسب طبيعة العدو وتنظيمه، وادعيا أنهما قدرا بأنه من خلال تدمير الصواريخ بعيدة المدى. وضرب القيادات ووسائل الاتصال لحزب الله، يمكن شل المنظمة.

المشكلة الثانية، هي عدم تغيير المفهوم بعد عشرة أيام من القتال، عندما صار ممكناً الفهم بأن الأنماط القتالية يجب أن تتغير، في حرب يوم الغفران، كانت إسرائيل في وضع مشابه، الجيش والهيئة السياسية كانا أسيرين لمفهوم أمني، وقدرا بأن «خط بارليف» سيصمد أمام هجوم مصري، وبعد ثمانية أيام من القتال، فهم قادة الجيش والدولة بأن هناك حاجة إلى تغيير المفهوم والانتقال إلى هجوم في أعماق أرض العدو بشكل يهدد

عواصم الدول العربية. وفي نهاية اليوم بالفعل وقف الجيش الإسرائيلي في خط ١٠١ كم عن القاهرة، و٧٠ كلم عن دمشق، وهكذا حسمت الحرب.

في حرب لبنان الثانية، لم يتمكن القادة من تحطيم المفهوم وتبني مفهوم آخر، كالانتقال إلى خطوة برية، كان لدى الجيش الإسرائيلي المعلومات الاستخباراتية، القدرة التكنولوجية، قدرة القيادة وتدريب القوات على تنفيذ الخطوة البرية التي جاءت أقل مما ينبغي ومتأخرة أكثر مما ينبغي.

من هنا تأتي المسؤولية، أولئك الذين يدعون بأن المسؤولية عن النتائج البائسة لهذه الحرب ملقاة على عاتق القادة والزعماء الذين سبقوهم، مخطئون ومضللون، عدم جاهزية القوات هي في جزء منها مسؤولية قيادة الماضي، ولكن المسؤولية عن انعدام الفهم لما يجري في ميدان القتال، بعد أن بدأت الحرب، هي من المسؤولية الحصرية للقيادة التي تدير الحرب.

في اللحظة التي تقرر فيها دخول الحرب، فإن مسؤولية إدارة الحرب، أي «قراءة ميدان المعركة»، والسلوك بما يتناسب مع ذلك، هي مسؤولية القيادة السياسية والعسكرية التي تديرها، إن من اتخذ القرارات بمواصلة القتال على أساس مفهوم خاطئ وغير ملائم مسؤول عن نتائجه.

٣ ـ الإخفاق واليأس على لسان الجنود

وروى الجنود الإسرائيليون الذين شاركوا في الحرب على لبنان، قصصاً وروايات مثيرة، تكشف حجم الخسائر، والمفاجآت التي تعرضوا لها، والانهيارات التي شهدتها وحداتهم المقاتلة، كما تكشف الواقع المأساوي الذي عاشوه أثناء المواجهات مع عناصر حزب الله، وذلك من

خلال أحاديث أدلوا بها لوسائل الإعلام الإسرائيلية والأجنبية، أو من خلال المعلومات التي أدلوا بها أمام لجان التحقيق العسكرية، أو أثناء المواجهة مع قادتهم في لقاءات خاصة أو عامة.

وتحدث ٣٠ جندياً من رتب مختلفة، أمام لجنة الخارجية والأمن في الكنيست، عن إخفاقات الحرب، والمشاكل التي تعرضوا لها، وكشف الرائد احتياط إيال بلوم، أنه قبل أسبوع من وقف إطلاق النار، تم إرسال وحدات مظليين إلى بنت جبيل لالتقاط صورة على سطح أحد المنازل، وهم يرفعون علم إسرائيل، والهدف كان محاولة إثبات أن البلدة احتلت، إلا أن الجنود تعرضوا لهجوم من مقاتلي حزب الله، ولقي ثلاثة جنود إسرائيليين حتفهم، ولما أرسل مقاتلون آخرون من المدرعات لإنقاذ المجموعة التي تعرضت للهجوم، لقي بعضهم مصرعه أيضاً. وكان الهدف فقط معنوياً.

واعتبر عضو لجنة التحقيق راهن كوهين، هذه الشهادة بأنها مذهلة، وفظيعة، وهي تعني أن القيادة لم تستخدم الجيش بهدف الدفاع عن الدولة ومواطنيها، بل لأهداف استعراضية للحكومة، وخرجت اللجنة باستنتاج واضح: «يجب إقصاء كل من كان له دور في هذه القصة».

وذكرت «معاريف» الإسرائيلية، أن التحقيقات العسكرية، أظهرت نتائج فاجأت المحققين، وهي لا تكاد تصدق، رواها جنود من فرقة المظليين، كشفت مدى الإرباك وعدم حسن التقدير حيث قالوا: إنه خلال عملية الإنزال الفاشلة في قرية رشاف، التي كان من المفترض أن يتم احتلالها، أسقطت طائرة نقل عسكرية شحنات عدة محملة بالصواريخ والقنابل، وأوضحوا أن كل شحنة كانت تحوي مئة صاروخ لاو، و٥٠٠ قنبلة يدوية، وقال أحد الجنود: الطائرة ألقت الشحنة، وفتحت المظلة، لكن الشحنة هبطت في أرض لا نسيطر عليها، كانت تحت سيطرة قوات معادية، وفهمنا

أن العتاد ضاع، وسقط بأيدي حزب الله، وبعد وقت قصير جاءتنا أوامر من هيئات أعلى تطلب منا الذهاب لجلب الشحنة لأنه محظور أن تقع بأيدي العدو.

ومن البديهي أننا لم نذهب، ونحن لا نعرف مصير هذا السلاح.

وأشار المراسل العسكري لصحيفة معاريف فليكس فريش، إلى أنه كان من المقرر احتلال قرية رشاف خلال يومين، وتم إبلاغ قوة المظليين بأن المقاومة ستكون ضعيفة هناك، ولكن ما أن وصلت القوة إلى القرية حتى واجهت وضعاً مغايراً، واستغرق احتلال القرية أكثر من أسبوع.

وكشف الجنود للصحيفة المذكورة، أن إحدى المعارك في القرية كادت تنتهي بكارثة إطلاق قواتنا النار على بعضها، وأوضح أحد الجنود، لاحظنا جنديين قرب مبنى يعتمران خوذات لمعت في الليل، وفهمنا أنهما «مخربان»، وطلبنا الإذن لإطلاق النار عليهما، وأطلق قناص طلقة واحدة فلم يصب، وأطلق طلقة أخرى ولم يصب أيضاً، وبعدها دخل هذان الجنديان إلى المبنى، وطلبنا الإذن بتحليق مروحية فوق المبنى وتلقينا الإذن وصدر الإذن عن قائد اللواء العقيد داني، ووصلت المروحية إلى البيت، وحاولت القوة البرية تحديد المبنى للطائرة بواسطة أشعة ليزر، لكن بسبب خلل لم تتمكن من ذلك فبدأت القوة بشرح الموقع عبر رقم البيت في صورة جوية، وصادق قائد اللواء للطائرة بضرب البيت وفق رقمه على الصورة، وأشار الجندي إلى أنه طوال الوقت كنا نطلق النار على البيت والنيران تطلق علينا من البيت، وفي اللحظة الأخيرة قرر الجنود اختبار الوضع يدوياً، فوضعوا خوذة على فوهة بندقية ولوحوا بها، حينها تبيّن أن البيت المراد قصفه كان مليئاً بالجنود الإسرائيليين، والأهم أن الجنود قالوا: إن قائد اللواء الذي صادق على القصف كان في البيت نفسه.

وكشفت نتائج التحقيق في أداء لواء المظليين نفسه: تحت قيادة العميد ايال ايزنبرغ، سلسلة طويلة من العيوب والأخطاء، بينها ما جرى في بلدة دبل، وأشار التحقيق أنه خلال المعركة أصيب أحد بيوت البلدة التي كان يتواجد فيه ما بين ١١٠ ـ ١٢٠ جندياً إسرائيلياً، بثلاثة صواريخ ساعر أطلقها مقاتلو حزب الله، وقد انفجرت المتفجرات التي كانت بحوزة القوة الإسرائيلية في البيت، وبين التحقيق سلسلة أخطاء في التخطيط والإعداد للهجوم في القرية، واختيار مواضع انتشار القوات، فضلاً عن الأخطاء في إخلاء الإصابات.

وذكرت صحيفة «يديعوت أحرونوت»، أن التحقيقات أشارت إلى أن شعبة الاستخبارات أنذرت الجنود الذين في البيت بأنهم مستهدفون من حزب الله، لكن الإنذار لم يصلهم، وبعد وقت قصير أطلقت عليهم الصواريخ فقتل ٩ من الجنود وأُصيب عشرات آخرون بجروح مختلفة.

ويروي العريف الإسرائيلي افياتار شاليف لصحيفة «واشنطن بوست»[1] اللحظة التي لمح فيها مقاتلاً من حزب الله على مسافة قريبة، وهو يحمل صاروخاً يستعد لإطلاقه، فيقول: طلبنا طوافة قتالية، دخلنا إلى المنزل، اتخذنا وضعاً دفاعياً، وبدأنا بالصلاة، لا يمكن لك في هذه الحالة إلا أن تتخيل بقعة ضوء حمراء تدخل من النافذة وفي ذلك إشارة إلى قدرات حزب الله القتالية.

ويصف أفراد من لواء «ناحال» المصاعب التي واجهوها مع «عدو صعب»، فأكدوا أن المعارك كانت «قاسية»، ويقول الجندي آلون جلنيك: إنه كان يسمع أصوات انفجارات قذائف حزب الله تقترب منه أكثر فأكثر من

---

(١) السفير ٩ آب/أغسطس ٢٠٠٦م.

إحدى القرى اللبنانية، وسقط إحداها على بعد أمتار منه فألقته بضغطها وميضها أرضاً، فزحف وهو يرتجف إلى مكان آمن، مطلقاً كل الشتائم التي يعرفها.

وأضاف: أدركت أننا نقاتل جيشاً حقيقياً منظماً، هؤلاء أشخاص يعرفون جيداً ماذا يفعلون.

أما الرقيب عساف، فيؤكد أن القتال ضد حزب الله «محبط للغاية»، وقال: المفاجأة في كونهم يقاتلون بهذا الشكل وما زالوا صامدين، كنت أتوقع أن ينتهي الأمر خلال أسبوعين.

وروى الجندي رون ايفان، بأنه من مسافة معينة ترى ضوءاً أحمر ثم وميضاً أبيض، تسمع بعدها صوت القذائف، يا إلهي تشعر بالهواء يتموج من حولك كاصطدام هائل.

ويقول العريف ماتان تايلر، من لواء ناحال: إنه في الكثير من الأوقات، نستطيع رؤيتهم فقط عندما يريدون أن يلفتوا أنظارنا، ثم نجدهم يضربوننا من الخلف، يتابع مضطرباً: إنه أمر مرعب، لا تشعر أنك ضعيف ولكنك تشعر أنك مهدد، هناك دائماً شيء مجهول.

وأضاف تايلر: لا يمكنك أن تستخف بقدرة حزب الله، إنهم أسياد أرض المعركة، يعرفون المكان أفضل منا يعلمون الأماكن التي يمكنهم الاختباء فيها، والوقت الذي يمكنهم أن يتنقلوا فيه، كما أنهم يعلمون جيداً أين نحن.

أما شمويل أوين، وبراين واكسمان، ودايفد غروس، وهم ثلاثة أمريكيين جاؤوا إلى إسرائيل للتطوع في الجيش الإسرائيلي، تعبيراً عن ولائهم للصهيونية، فقد أكدوا أن المعركة ضد حزب الله، تخطت كل

التوقعات، ويشير أوين، إلى أن الجنود الإسرائيليين كانوا في السابق يتحدثون عن الحرب في لبنان على سبيل النكتة، وأضاف: ربما توقعنا أنها ستكون حرباً كبيرة، ولكن الآن، اللعنة إنها حرب غريبة كلياً.

من جهته واكسمان أكد أنه أصيب بالذهول، من طريقة تحصن «العدو» وتخفيه، واعتقد أن الجيش الإسرائيلي تفاجأ منذ البداية، هناك خنادق لا نعرف موقعها، كما أننا لا نعلم من أين تنطلق القذائف، الأمر صعب للغاية، نواجه حرب عصابات يشنها أشخاص منظمون للغاية.

وقال غروس: إن الحرب بطيئة جداً، ومثل هذا الأمر يصيبنا بالجنون، معرباً عن شكوكه في نجاح إسرائيل في وقف الصواريخ، وأضاف: تشعر أنك تقوم بإبعادهم، لكنهم ما زالوا يستطيعون إطلاق الصواريخ بشكل أكبر، إنه أمر محبط.

وأشار عدد من الجنود، أنه أثناء اجتياح العام ١٩٨٢م، وصلنا إلى مناطق على مسافة عشرة أميال خلال يومين، وذلك خلاف اليوم، فبعد أكثر من ثلاثة أسابيع من القتال تقتصر العمليات على سلسلة من القرى على طول الحدود.

وقال الملازم إيتامار آبو: عندما تسقط الكاتيوشا على بيت أحد الأشخاص في المستوطنات، سيكون من الصعب أن تشرح له أن الأمور تسير على نحو جيد، سيطالبك دوماً بإنهاء الوضع، وأعتقد أن التهديد سيستمر على الحدود.

وأكد ضباط وجنود لصحيفة «نيويورك تايمز»، أن حزب الله مدرب كجيش ومجهز كدولة، والمقاتلون مدربون بشكل جيد ويتمتعون بكفاءات عالية، إنهم مجهزون بسترات واقية، ومناظير للرؤية الليلية، ووسائل اتصالات، وفي بعض الأحيان بلباس وعتاد إسرائيليين.

وتحدثوا عن امتلاك حزب الله لمنظومة اتصالات متطورة عبر الأقمار الاصطناعية، بالإضافة إلى أنواع من الصواريخ الروسية المضادة للدبابات، والتي تعتبر الأكثر تطوراً في العالم، إذ يوجه البعض منها لاسلكياً، فيما يوجه البعض الآخر عبر اللايزر، وهي قادرة على حمل رؤوس تفجير مزدوجة، بحيث يحدث الانفجار الأول فجوة في الدبابة المستهدفة، فيما يؤدي الانفجار الثاني إلى إلحاق أكبر قدر من الإصابات البشرية، ومن أبرز هذه الصواريخ «ساعر» و«ميتيس»، إضافة إلى قذائف «أر. بي. جي ـ ٢٩» المحمولة على الكتف، وإلى جانب استخدامها ضد الدبابات، يقوم مقاتلو المقاومة بإطلاق هذه الصواريخ على المنازل التي يختبئ فيها الجنود الإسرائيليون فتحدث تأثيراً مشابهاً، خرقاً للجدار، ثم انفجار في الداخل مع الإشارة إلى أنهم استطاعوا أن يدمروا من خلالها أكثر الدبابات الإسرائيلية تطوراً «الميركافا».

وأكد الجنرال الإسرائيلي يوسي كبرماسير، أن مقاتلي حزب الله، يستطيعون استخدام هذه الصواريخ بدقة من مسافة ثلاثة كيلومترات، وقال: إن سوريا زودت الحزب بصواريخ «كورنيت» التي يتم توجيهها عبر اللايزر، ويصل مداها إلى ثلاثة أميال، والحزب لا يستخدمها إلا بعد تقدم الجنود مما يسهل ضربهم.

وقال ديفيد بن نون من لواء ناحال: الصواريخ المضادة للدبابات تشكل الرعب الأكبر للجيش الإسرائيلي، فالجنود لا يستطيعون البقاء في أي منزل، فهم لا يعرفون من أين يهاجمون، إلا أن أكثر ما يقلق الإسرائيليين، هو استخدام مقاتلي الحزب لشبكة أنفاق يخرجون منها لإطلاق صواريخ محمولة على الكتف، ثم يختفون مجدداً.

وتحدث قائد وحدة «ايغوز» في لواء «غولاني» الكولونيل موردخاي

كاهان، لصحيفة «يديعوت أحرونوت». عن أسوأ أيام المعركة، عندما خسرت وحدته أحد ضباطها وعدداً من جنودها في بلدة مارون الراس أثناء مواجهتها مع مقاتلي حزب الله، فيؤكد: «لا نعلم أين سنلاقيهم، قد يكون ذلك في خندق، أو في كهف، وأشار إلى أن مخازن الحزب ليست مجرد كهف طبيعي، إنها حفر مجهزة بالسلالم، ومداخل الطوارىء والمخارج».

ووصف الرقيب يوسف، وهو أحد عناصر الاستطلاع في لواء «بارام»، أن أحد الخنادق التي وجدها الجيش الإسرائيلي قرب بلدة مارون الراس، كانت على عمق أكثر من ٢٥ قدماً، وتحتوي على شبكة من الأنفاق وغرف للتخزين، ومداخل ومخارج عدة، ومجهزة بكاميرة مراقبة، موصولة على شاشة في الأسفل لتمكين المقاتلين من التربص بالجنود الإسرائيليين. وتعتمد المقاومة أيضاً على زرع العبوات ضد الجنود، لإعاقة تقدمهم، وعندما استطاعت القوات الإسرائيلية مواجهة العبوات السلكية عبر قطع الأسلاك والتشويش على العبوات اللاسلكية، (التي تفجر عبر موجات راديوية)، قام الحزب بتطوير أجهزة التحكم بحيث بات يستخدم أجهزة خلوية وحتى شعاعية.

وأشاد المسؤول الأسبق لقوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان، تيمور غوكسيل بالتزام عناصر حزب الله وتنظيمهم، مؤكداً أنهم لا يخافون الجيش الإسرائيلي أبداً، بعدما قاتلوه ١٨ عاماً، وأشار إلى أنه بمقدور الحزب أن يضايق الجيش الإسرائيلي، وأن يدرس عيوبه، فالحزب بات يثق بأنه يقاتل جيشاً عادياً لديه العديد من نقاط الضعف والحماقات.

ووصف غوكسيل مقاتلي الحزب، بأنهم يتمتعون بالصبر، والحرص والقدرة على جمع المعلومات الاستخباراتية التي توضح لهم قوة النيران الإسرائيلية وقدرة الجيش على التحرك، فالحزب يعلم أن المعركة غير

متكافئة، لكنه يعلم أيضاً أنه يقاتل على أرضه وإلى جانب شعبه.

وأضاف: إن مقاتلي الحزب يرصدون كل التفاصيل حول عدوهم، كما أنهم يقيمون عملياتهم جيداً، سواء لجهة أخطائهم وردة فعل الجيش الإسرائيلي، مشيراً إلى أنهم قادرون على أخذ الإسرائيليين إلى معركة مفتوحة، واستدراجهم إلى مناطق مجهزة جيداً، بعيداً عن خطوط الإمداد.

ونقلت مجلة «نيوزويك»، في المجال الاستخباراتي عن ضباط إسرائيليين قولهم: إن حزب الله نجح في اختراق اتصالات الجيش الإسرائيلي في وقت أشارت فيه صحيفة «جيروزاليم بوست» إلى إخفاق كبير على مستوى الاستخبارات الإسرائيلية في تحديد الأماكن التي يتواجد فيها قياديو الحزب والأهداف العسكرية، ما دفع بجهازي الشين بيت والموساد، إلى تخطي المنافسة التاريخية في ما بينهم، والعمل مؤخراً بشكل مشترك.

٤ ـ ذل ومهانة وجوع

وكشفت شهادات الجنود الإسرائيليين العائدين من أرض المعركة، مدى الذل والمهانة والجوع الذي عاشوه، وقسوة المواجهات، ومشاكلهم من قياداتهم، وارتباكهم وخيبة أملهم. فنقلت صحيفة «يديعوت أحرونوت» عن أحد الجنود قوله[1]: لم تكن هناك خطة واضحة، أين سنذهب، ماذا سنفعل، كان هناك تغيير في الأوامر بشكل جنوني، ويضيف: ذهبنا إلى قرية ثم غيّروا الأمر بالتوجه إلى قرية أخرى، وفي كل مرة كنا نجد مسلكاً ونستعد للدخول إلى المنطقة التي أُمرنا بالتواجد فيها، كانوا يقومون بتغيير الأوامر، وفي إحدى المرات أرسلنا إلى منطقة لمدة ساعتين سيراً على الأقدام تحت خطر صواريخ حزب الله، ثم قرروا أن نذهب إلى مكان آخر، جعلونا عرضة لأوضاع خطرة كنا بغنى عنها.

---

(١) «عرب ٤٨».

وأكد أحد المسعفين الاحتياطيين في وحدة المظليين، حالة الإرباك التي سادت صفوف المقاتلين، فأشار إلى تخبط في العمليات الحربية، وتغيير للأوامر بوتيرة عالية، «لقد وصل عتاد وغذاء إلى الجبهة في اليوم الأخير وبقيا في منطقة العدو».

وقال: «دخلنا برؤوس مرفوعة وعيون محدقة إلى الأمام، ولم ننظر إلى الخلف، لكننا خرجنا بشعور من المهانة القاسية، شعور بأنه ليس هناك قيمة لحياتنا لدى الضباط في المواقع العليا، تركونا في ساحة الحرب.

وأكد جندي آخر، أن الطائرات كانت تلقي الطعام أحياناً في مناطق يسيطر عليها حزب الله. لقد أرسلوا إلى العدو صواريخ من نوع متطور، صواريخ أغذية».

وتحدث جندي ثالث عن حالة التشتت والضياع والخوف التي عاشوها، فقال: بدلاً من أن نركز في المهمة الملقاة على عاتقنا، تركز تفكيرنا في البحث عن غذاء بعد مرور يومين دون تزويدنا بالطعام، هذا استهتار بحياتنا، لسنا مهمين لأحد.

وقال أحد الجنود: سرنا ١٧ كيلو متراً على الأقدام، حاملين عدداً من الجرحى، فقد أحد الجنود وعيه من شدة الجوع، وعند عودتنا مررنا على حمولات تزويد الطعام والمعدات مشيراً إلى أن نقصاً في التنسيق كاد يؤدي إلى مواجهات وإطلاق نار بين الجنود الإسرائيليين أنفسهم.. لقد التقينا مرات عديدة مع قواتنا ولم نعرف أنهم في المنطقة.

وقال ضابط إسرائيلي: من المفضل معرفة ما الذي حدث هناك، قبل أن نواجه جيشاً حقيقياً.. أكثر ما فاجأني هو الشعور أنه لا توجد يد توجه، كأننا نسينا أساس القتال الأساسية، وحارينا من دون براعة أو قوة أو تصميم.

وأشار أحد المسعفين، إلى أنه دخل إلى الجنوب اللبناني من دون المواد الأساسية لمعالجة الجرحى، مؤكداً أن عدداً من الجنود أصيبوا إصابات متوسطة وطفيفة، بقوا في ساحة المعركة ٣٦ ساعة قبل أن يتم إخلاؤهم إلى المستشفيات، وهذا يبين أن حياة الإنسان في الوحدات البرية أقل أهمية، فبدل شراء معدات لجنود المشاة، يفضل الجيش شراء طائرة لسلاح الجو، أعتقد أن على رئيس هيئة الأركان أن يعطي أجوبة ليس للجنة التحقيق، بل أن يحاسب نفسه، ويقوم بحسابات شخصية وأخلاقية، ماذا يشعر حين يقرأ أسماء القتلى التي تنشر في الصحف.. هذا الموت كان يمكن منعه.

وقال آخر: هدف المعركة كان إعادة الأسرى ووقف إطلاق الصواريخ على إسرائيل، وهذان الهدفان لم يتحققا.. على أحدهم أن يذهب إلى البيت!!

هذا التقصير الفاضح، والخسائر الكبيرة لقوات الاحتلال، وهذا الوضع النفسي والمعنوي والمادي القاسي الذي مروا به، دفع بالعشرات من جنود الاحتياط إلى التظاهر، ونصب خيمة أمام مقر الحكومة في مدينة القدس المحتلة، مطالبين رئيس الحكومة ووزير الدفاع بالاستقالة[1]، وبرر أحد الجنود هذه المطالبة، بأنها جاءت على قاعدة أن الحكومة لم تتعامل بجدية مع أرواح قواتنا، ودعوا إلى لجنة تحقيق للنظر في حالات «التردد» و«انعدام الثقة» التي سادت القوات في الحرب، حتى لا يتكرر ذلك في الحروب المقبلة.

وقال الاحتياطيون: إن حالات التردد تلك، ظهرت من خلال

---

(١) أف ب، رويترز، السفير.

التكاسل، وعدم اعتماد الخطط الميدانية، وفي إلغاء المهمات التي أعطيت لنا خلال المعركة، ما أدى إلى إبقائنا في المناطق الخطرة من دون أهداف محددة، في ظل عدم وجود أي رغبة لمقاتلة العدو لاعتبارات غير تخصصية، وأضافوا: هذا التردد عبّر عن عدم احترام لإرادتنا في الانضمام إلى المعركة، كما أنه يتعارض مع مبادئ القتال التي تدربنا على أساسها في الجيش الإسرائيلي. . .إنهم شعروا بحالة من «سوء الاستعداد» على مستوى الرتب العسكرية العليا إضافة إلى أجواء من النفاق وقلة التبصّر، وعدم القدرة على اتخاذ القرارات الجذرية، متسائلين: هل تم تجنيدنا من أجل لا شيء؟. وقال أحد الجنود: أزمة الثقة بيننا وبين القيادات العليا لن تحل، من دون تشكيل لجنة تحقيق شاملة، تتمتع بالكفاءة تحت رعاية الدولة.

واعترف قائد وحدات المظليين الجنرال يوسي هايمان خلال حفل تسليم مهامه إلى قائد جديد: إن قيادة الجيش الإسرائيلي أخطأت في لحظة من شدّة الغطرسة في مواجهة أعداء تحصنوا وتعززوا وازدادوا احترافاً. وأعرب عن أنه «ينتابنا شعور بالفشل والإحباط»، والمسؤولية الكبيرة تقع على عاتقي، لأنني لم أتمكن من تحضير المشاة بشكل أفضل للحرب. وتهكمت صحيفتا «نيويورك تايمز» و«واشنطن بوست» الأمريكيتان، على إعلان إسرائيل سيطرتها على بلدة بنت جبيل أثناء الحرب، فيما تبين أن المقاومة كانت تنصب فخاً للواء غولاني، انتهى بمصرع ثمانية جنود وإصابة العشرات.

وروت الصحيفة الأولى، كيف كمن حزب الله لمئات من الجنود الإسرائيليين كانوا توجهوا إلى بنت جبيل لإحكام السيطرة عليها، وأرغمهم على الانتظار حتى بعد الظهر لسحب جثث قتلاهم من المعركة، ونقلت عن قائد المنطقة الشمالية الجنرال عودي آدم، الذي كان يقود المعركة مع قائد

القوات البرية الجنرال بيني غانتز، إقراره بأن يومين من القتال العنيف، ومقتل عشرة جنود، لم يخضع بنت جبيل للسيطرة الإسرائيلية، فالمعركة جسدت الصعوبات الضخمة التي واجهها الاحتلال إذا أراد توسيع عدوانه على بلدات جنوبية أخرى، كما عكس الأسباب التي دفعت إسرائيل إلى خفض سقف أهدافها من العدوان، من تفكيك حزب الله بشكل كامل، إلى إقامة حزام أمني لا يتجاوز عرضه الكيلومترين.

ونقلت الصحيفة عن رائد في الجيش الإسرائيلي، أن مهمة غولاني كانت تكمن في ضمان السيطرة على البلدة، عبر مطاردة مقاتلي حزب الله من منزل إلى آخر، وتوقعت إسرائيل أن تواجه حوالي ٣٠ إلى ٤٠ مقاتلاً من الحزب، غير أن الإذاعة الإسرائيلية نقلت عن مسؤولين عسكريين، أن المقاومة رفعت عديدها إلى مئتين، انتظر نصفهم وصول جنود العدو. وقال الرائد: كانوا في طريقهم إلى البلدة حين أطلقت عليهم النيران من كل المباني المحيطة، موضحاً أن حزب الله استخدم أسلحة رشاشة، وقنابل وصواريخ مضادة للدبابات ومدافع هاون، وأضاف: الجنود لم يردوا على مصادر النار سوى بعد ساعة، لأنهم كانوا منبطحين أرضاً وعاجزين عن تحديد المباني التي كانت تطلق منها النار.

وأرغمت كثافة نيران المقاومين، جنود الاحتلال، على حمل قتلاهم أكثر من ثلاثة كيلومترات من بنت جبيل ومارون الراس، تحت وابل من الرصاص، لكي تنقلهم مروحيات إلى المستشفى.

وقال آدم: عملية الإجلاء كانت صعبة للغاية تحت نيران كثيفة، خاطرنا بحياة قادة الطائرات لإخراج الجنود من ساحة المعركة.

وقال جنود شاركوا في المعركة: مقاتلو حزب الله أظهروا استعداداً

للموت. واعتبرت «واشنطن بوست» تحت عنوان: «حزب الله يثبت أنه عدو مرعب»، أنه بعد أكثر من أسبوعين من الغارات والقصف، وجد الجيش الإسرائيلي نفسه أمام «قوة مرعبة معتمدة تكتيك حرب العصابات»، فقد خرج مقاتلو الحزب من الأنفاق والملاجئ والبيوت لمنازلة الإسرائيليين، ودارت أحياناً معارك بالسلاح الأبيض، وكان المقاومون مجهزون بأسلحة أكثر تطوراً بكثير من أي شيء رآه العديد من الجنود، لقد استخدم المقاتلون صواريخ مضادة للدبابات توجّه عبر الليزر. وأكد عدد من القادة العسكريين، بأنهم لم يفاجؤوا ببسالة مقاتلي حزب الله، والخسائر البشرية التي تكبدها الاحتلال، «تكشف محدودية جيش وطني حديث في مواجهة قوة عصابات مدربة جيداً».

وأبلغ ما أوردته الصحيفة. جاء على لسان المسؤول السابق في الموساد، والرئيس السابق لمعهد جافي للدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب يوسي آلفر، عندما قال: «الأمر الأكثر صعوبة من المتوقع، أجرؤ على القول، استناداً إلى ما شهدناه، أن حزب الله قد يكون أفضل قوة مسلحة عربية واجهناها في تاريخنا».

٥ ـ جيش «بدين» تلقى صفعة قوية

ورأت وسائل الإعلام الإسرائيلية، وعدد من المعلقين والاستراتيجيين، أن هزيمة الجيش الإسرائيلي دلت على «بدانته»، وضعف التدريب، وسوء التوجيهات الميدانية، واعتبرت أن خطوة الحرب جاءت متسرعة، فرئيس الحكومة سار وراء قيادة عسكرية تنقصها الدراية والكفاءة، وتسود ذهنيتها «الغطرسة والغرور»، ووفق هذه النتائج المخجلة، لا بد من العمل لتشكيل بداية جديدة، لجيش جديد، وحكومة مسؤولة، وأجمعت

المواقف، على أن القلق دخل كل نفوس الإسرائيليين، بمختلف شرائحهم السياسية والاجتماعية، بعد فشل الجيش في أداء مهمته، فالحرب نفذت بلا دراية كاملة، باستخفاف، بتردد، ودون حزم، وبطء قاتل، لذلك فإن القيادة السياسية فضلت الهرب من المأزق إلى التسوية السياسية لإنقاذ بعض ماء الوجه، وقد لعب الضغط الأمريكي في هذا المجال دوره، بعد أن وصلت واشنطن تقارير «مقززة» تكشف حالة العجز وفقدان الثقة، فقد ظهر للولايات المتحدة أن الجيش الإسرائيلي خاض حرباً لم يكن مستعداً لها، فطالبت إسرائيل بإعادة تدريب نفسها بشكل جيد، لأن مثل هذا الواقع سيقودها حتماً إلى فقدان الاحترام، وإمكانية الاعتماد عليها في أي مهمة دفاعية كانت أو هجومية.

ورأى البعض، أنه على ما يبدو كانت إسرائيل بحاجة إلى صفعة قوية على وجهها، كي تصحو من حالة الغفوة التي كانت تعيشها، وكان ثمن هذه الصفعة باهظاً: قتلى وجرحى ودمار كثيف وآلام ودموع غزيرة، فالحرب فرضت معادلات جديدة، رسمت خطوطاً جغرافية وسياسية وأمنية لم تكن تخطر على بال أحد وهذا ما فتح الباب أمام جبهات الجولان وفلسطين وغيرها للاقتداء بالنموذج اللبناني، واعتبرت التعليقات أنه من حسن حظ إسرائيل أن الحرب اندلعت في وقت لم تكن فيه طهران قادرة بعد على التهديد باستخدام السلاح النووي، فالحرب بدأت مبكرة من وجهة النظر الإيرانية، والآن وبعد الصدمة تستنجد إسرائيل بالقوات الدولية لنزع سلاح حزب الله، وهذا دليل ضعف، في وقت كانت ترفض فيه مثل هذه الدعوة في السابق.

واتضح للكتاب والباحثين الإسرائيليين، من خلال التحقيقات والتقارير الميدانية إلى أن الجيش بحاجة إلى عملية «تطهير» من رأس الهرم حتى

القاعدة، وأن يعاد تدريبه على مواجهة حرب العصابات ذات المستوى النوعي، كما هناك حاجة إلى تنشيط الخلايا الاستخباراتية «النائمة»، وإلى بذل جهد من أجل تشكيلات جديدة في هذا المجال، لكسر «السرية الكبيرة» التي يحيط حزب الله نفسه بها.

اعترف بعض المحللين والمراسلين العسكريين، بأنهم اخطأوا كثيراً عندما شجعوا في كتاباتهم، الجيش من أجل شن حرب ضد حزب الله، لأنهم بنوا موقفهم على معلومات وتصريحات تبين هشاشتها وعدم مصداقيتها، واعتذروا عن كل التعبئة التي قاموا بها لخوض المعركة، فرهاناتهم لم تكن في مكانها الصحيح، وقالوا: كنا وقحين ومغرورين، وأصبنا بعمى كامل جراء الغطرسة الفارغة: فوقعنا ضحايا المفاجأة، فحزب الله لم يفاجئ الجيش بقدرته ومستواه القتالي فحسب، بل بامتلاكه صواريخ ساعر، وأخرى أرض ـ جو أسقطت عدداً من المروحيات، وأرض ـ بحر أصابت البوارج، وبحسن إطلاقه لهذه الصواريخ ودقة إصاباته، وتدمير الدبابات، وسيطرته على البر تماماً.

وقال ضابط كبير لصحيفة «يديعوت أحرونوت»: إن الجيش الإسرائيلي يعيش إحدى أكبر الأزمات في تاريخه، وإذا لم تقع هزة أرضية حقيقية، ولا يأخذ رئيس الأركان مسؤولية شخصية ويستقيل، فإن الوضع سيتفاقم، ودعا عدداً من قادة الألوية بالاستقالة، فأزمة الثقة عميقة جداً بين قادة الألوية والكتائب والفرق، واتهم ضباط آخرون القيادة بأنها تفتقر إلى القيادة، وعلى رئيس الأركان أن يستفيق لأنه لن يستطيع ترميم ما حصل، معتبرين أن حجم الخسائر كانت كبيرة بشكل لا يحتمل، واعتبرو أن استقالة قائد فرقة الجليل العميد غال هيرش «تمت بشكل محترم، وهي تناسب مقاتلاً فشل في الحرب».

وحدد رون بن يشاي في «يديعوت» بتاريخ ٢٢/٩/٢٠٠٦م، ثلاث أولويات أو مهمات يجب أن تقوم بها إسرائيل كي تستعيد ردعها: المهمة الأولى أمنية، تقوم على توفير رد متعدد الشرائح لمشكلة صواريخ أرض ـ أرض بشتى أنواعها، حتى الأشد بدائية، بينها ابتداء بوسائل خصوصاً للهجوم التلقائي على الصواريخ الكبيرة في قواعد إطلاقها أو على مقربة منها، مروراً لاعتراض الصواريخ بمديات وارتفاعات مختلفة باستخدام صواريخ أو مضادات ليزر، أو مدفعية موجهة بالرادار، وانتهاء بتحصين الجبهة الداخلية.

والمهمة الثانية ملقاة على كاهل الجيش، وهي إعادة الذراع البري إلى الأهلية العملياتية، ففشل الحرب البرية في لبنان، كشف الكثير جداً من العيوب، في القتال ذاته، في القيادة في جميع المستويات، في منظومة القوات الاحتياطية، في الإمدادات اللوجستية، وفي التعاون المطلوب بين الأسلحة وبين الأذرع، لدرجة أنه لا مفر من الاستخلاص بأن الأمر يتعلق بإخفاق وظيفي شامل للذراع البري في الجيش الإسرائيلي.

والمهمة الأمنية الثالثة، تقع أيضاً على كاهل الجيش، وهي: تطوير وتجسيد أساليب قتالية متنوعة جديدة للقوات الهجومية، للمدرعات، سلاح المشاة والمروحيات القتالية المساندة، وكل ذلك من أجل توفير قدرات بقاء، وقدرات تنفيذ مهام أفضل في الميدان للقوات البرية.

وقدّر البعض، أن أخطر ما قتلته الحرب في لبنان، هو ثقة الإسرائيلي بممثليه[1]، وبالأقوال التي يطلقونها وبقدرتهم على تنفيذ المهام بوعودهم، وبأجندتهم التي يسوّقونها، لقد قضت هذه الحرب وبفظاظة على الأمل الأخير لدى الإسرائيلي، بأن من الجائز، من المحتمل أن أحداً هنا سوف

---

(١) شومفلبي، اطيلا، موقع يديعوت أحرونوت، ٢٢/٩/٢٠٠٦م

يحاول إصلاح ما تم تشويهه وخلص إلى القول: ليس أولمرت، ليس شارون ولا حتى نتنياهو أو دان حلوتس، فرجل العام لدينا هو حسن نصر الله، الرجل الذي برهن لنا ما تبجحنا، وقد ظننا أنهم «عصابة قتلة بائسة وظامئة للدماء، مجرد عصابة إرهابيين مثيرة للسخرية سوف نسحقها من الجو، ولكن بعد ٣٣ يوماً، أفلح في أن يفعل ما عجز عن فعله كل زعيم منذ سنوات: إيقاظ الجمهور الإسرائيلي، فالحرب في الشمال أدخلت إسرائيل في دوامة لا نهاية من التحقيقات، الاتهامات وحساب النفس، ونصر الله في هذه الأثناء، ينال التقدير، وربما أن هذا لمصلحتنا».

ويجمع القادة العسكريون والخبراء والمحللون السياسيون، على أن المشكلة الأساس لإسرائيل الآن هي الصواريخ التي يملكها حزب الله، وهذه المشكلة لا يمكن حلها من الجو فقط، إنها بالنسبة لدولة مثل إسرائيل معقدة جداً، وهذا التهديد يحولها فوراً إلى حالة دفاع، عكس النظرية التقليدية التي لا بد من نقل الحرب إلى أرض العدو.

ولخص الأديب الإسرائيلي ديفيد غروسمان، الذي فقد ابنه في حرب لبنان عمق الأزمة في إسرائيل، محذراً من بقاء النظرة على أن الحلول تأتي من فوهة البندقية، واصفاً ما حدث بالعجز والهشاشة، لأنه تبين بأن القوة العسكرية لا تستطيع وحدها ضمان البقاء، ورأى أن موت الشباب الصغار إسراف ومضيعة صارخة وفظيعة، وقد فوتت إسرائيل على نفسها الكثير من الفرص لتكون وطناً وملجأ، من خلال إقامة دولة حضارية متنورة طبيعية وديمقراطية، تقوم على المساواة الكاملة والاحترام لمواطنيها غير اليهود، وأكد أن إسرائيل سارعت إلى التقدم نحو الشيخوخة من مرحلة الرضاعة والطفولة المبكرة، لتصل إلى وضع مزمن من الانحلال والوهن ومشاعر الخيبة والفرص الضائعة.

واعتبر أن القيادة الإسرائيلية «فارغة وخاوية».

وفي حوار معه لمجلة «غلوبيل فيوبوينت»، أكد مستشار الأمن القومي الأسبق زبيغنيو بريجنسكي، أن قواعد المحافظين الجدد، التي أخذت إسرائيل منها مرادفاتها، ستقضي على أمريكا، واستطراداً على إسرائيل، وسوف تقلب الغالبية العظمى من سكان الشرق الأوسط كلياً ضد الولايات المتحدة، ستطرد أمريكا من المنطقة، وسيكون ذلك بداية نهاية إسرائيل، واعتبر أن سياسة المحافظين الجدد «متهورة وخطيرة على أمريكا وإسرائيل»، وقال: إسرائيل هزمت أعداء رسميين يقودهم في معظم الحالات أنظمة غير كفوءة، وفي الغالب فاسدة، أما حزب الله فيشن حرباً «غير متناسقة» ضد إسرائيل مبنية على الدعم الشعبي والطائفي المتزايد، إذن إسرائيل ستواجه المزيد من الصعوبات في هذه المسألة الثانية المتناقضة مع سابقاتها.

كل هذه الوقائع وغيرها الكثير، كانت سبباً كافياً لتراجع شعبية أولمرت، كما كشف عن ذلك استطلاعان للرأي أجرتهما صحيفتا «هآرتس» و«يديعوت» من ٧٧٪ إلى ٢٢٪.

وبعد الحديث عن ضعف الأداء القيادي، كشفت اللجنة المشكلة برئاسة الجنرال آفي مزراحي، ما وصفته بمئات العيوب الجوهرية في أداء القوات الاحتياطية، وأبلغ الضباط الذين قرأوا نتائج التحقيق، صحيفة «معاريف» الإسرائيلية، بأن صورة هذه القوات في الحرب، كانت أسوأ بكثير مما تم نقلها إلى وسائل الإعلام بعد توقف الحرب، وأكدت الصحيفة المذكورة، أن التحقيق المتعلق بوحدات مخازن الطوارئ في الجيش، كشف أن أكثر من ٥٠٪ من العتاد الطبي كان منتهي الصلاحية وغير مناسب للاستخدام، وأن ١٦٪ من الدبابات والمدرعات لم تكن صالحة للعمل يوم

المعركة، والجيش كان يعاني نقصاً جدياً في الإطارات، وأن قسماً من الآليات الصالحة لم تكن قادرة على التحرك، وبلغ النقص في القوى البشرية النظامية العاملة في مخازن الطوارئ ٣٥٪، وأوضح التحقيق أن الكثير من مخازن الطوارئ لم تكن تحوي البنية الأساسية اللازمة لحماية الجنود من الهجمات الصاروخية.

واعترف التقرير بالنقص الاستخباراتي، فتسبب ذلك بمعاناة الوحدات لافتقارها للخرائط والصور الجوية الحديثة، وأضيف إلى ذلك سوء تدريب الاحتياط خلال ٤ سنوات.

واعتبر المعلق العسكري للصحيفة، تفاصيل التحقيق، بأنها تهز بنية القوات الاحتياطية من أساسها، ونقل عن ضابط شارك في التحقيق أنه قال: «لم يكن هناك حجر إلا ورفعوه ليجدوا تحته تعفن خطير»[1].

ورأى أغلب المعلقين العسكريين في إسرائيل أن كل الانتقادات التي وجهت لرئيس الأركان كافية لدفعه إلى الاستقالة بعد إدانته من لجنة التحقيق التي يرأسها القاضي فينوغراد، وقالوا: إن الكثير من الشهادات التي عرضت حتى الآن أمام لجنة التحقيق تدين بقوة حلوتس وأداءه أثناء الحرب.

---

(١) محرر الشؤون الإسرائيلية في «السفير» اللبنانية.

ثانياً: التداعيات على فلسطين المحتلة

شنت إسرائيل حربها على لبنان، فيما كانت تستبيح مناطق غزة والضفة الغربية، بقصف لا مثيل له، ذهب ضحيته عشرات الشهداء والجرحى، ونسبة عالية من الدمار، وكانت تفرض حصاراً جوياً وبرياً وبحرياً قاسياً، وتمارس ضغوطاً نفسية ومعنوية. ضد الحكومة المنتخبة والشعب الفلسطيني، كان الوضع الفلسطيني باختصار عشية الحرب مأساوياً، فالخلافات الفلسطينية ـ الفلسطينية بلغت ذروتها، وكانت تترجم أحياناً صدامات دموية، وهجمات على المقرات الرسمية بحجة المطالبة بالرواتب المتأخرة، والهدف كان إسقاط حكومة حماس وتشكيل حكومة بديلة تعترف بإسرائيل، وتوافق على كل المعاهدات والاتفاقات المبرمة مع السلطة بدءاً من اتفاق أوسلو وحتى خطف الجندي الإسرائيلي في غزة. وكان الواقع العربي مشلولاً تماماً، للقيام بأي مبادرة أو خطة إنقاذية، بل إن البعض لم يكن منزعجاً ـ إن لم نقل موافقاً ـ على الضغوط الإسرائيلية على حركة حماس، التي هي ضغوط أمريكية في النهاية، للتخلص من وجود حكومة مقاومة، تسير المؤسسات الرسمية الدستورية في فلسطين المحتلة.

وكان الوضع الدولي عموماً غير مبال لما يحصل، أو أنه غير قادر على

اتخاذ أي قرار بشأن حل الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي. الأمر الذي وضع المقاومة والشعب الفلسطيني أمام أزمة مفتوحة خانقة، لا تدري كيف يمكن أن تتخلص منها، أو تجد لها حلاً.

في هذا التوقيت الصعب والحساس، جاء خطف الجنديين الإسرائيليين في جنوب لبنان، ليعطي المقاومة والشعب في فلسطين، نوعاً من الأمل بالانفراج، وذلك نتيجة التداخل الطبيعي بين المقاومتين اللبنانية والفلسطينية من جهة، وبين التحالفات والرؤى المشتركة في مواجهة التحديات والمشاكل في المنطقة من جهة أخرى، وأي نجاح كان يمكن أن يسجل في الساحتين من قبل هذين الطرفين، يعتبر كسباً وإنجازاً للطرف الآخر، ودعماً له في مسيرته الجهادية، وكما شكل انتصار حزب الله الأول في جنوب لبنان عام ٢٠٠٠م، قوة للمقاومة الفلسطينية، فإن الانتصار الثاني للحزب في مواجهة الجيش الإسرائيلي اعتبر أكبر وأهم هدية وإنجاز للمقاومة والشعب الفلسطيني، فازدادت المقاومة الفلسطينية حماساً وقناعة بخيار نهج المقاومة سبيلاً للتحرير، وعكست ذلك مسيرات حاشدة في شوارع غزة، وكل مخيمات النزوح، تعبيراً عن الفرح، والشعور بأن المقاومة اللبنانية سند أساس ومهم في معركة التصدي لأكبر وأخطر مشروع مطروح في المنطقة، ويمكن أن يفضي إلى رسم معالم خارطة جديدة لما يسمى بشرق أوسط جديد، تطلق فيها الذراع العسكرية والاقتصادية الإسرائيلية على مداها الأوسع.

وحدثني عدد من الخبراء الاستراتيجيين الفلسطينيين عن تداعيات هذه الحرب على القضية الفلسطينية، فاعتبروا أن أهم ما أسفرت عنه هو الشعور بأن إسرائيل نمر من كرتون، يمكن أن تهزم وتدمر، وجيشها قابل للاندحار، والجنود الإسرائيليون أضعف من أن يواجهوا قدرهم مع

المقاتل العربي، وأن هذا الشعور امتد إلى الاقتناع بأن جذور المشروع الصهيوني في المنطقة ضرب، وهو يمكن أن يهوي إذا استمر الجهاد والتخطيط الواعي والإرادة القوية والتضامن بين كل أطراف النهج المقاوم وحلفائه في العالم، المهم أن فكرة المشروع الصهيوني وبقائه دمرت. ووصف لي أحد قادة حركة فتح، أن الانتصار الذي حققه حزب الله أسطوري، وهو يمكن أن يؤسس لمرحلة جديدة، تعيد فتح الملف الفلسطيني بخاصة والصراع العربي الإسرائيلي بعامة، على قاعدة مختلفة عن كل المجريات السياسية السابقة، ورأى أن أبواب التسوية الجادة الآن بعد هذه الحرب أصبحت ممكنة ومرحب بها إسرائيلياً وأوروبياً وامريكياً، لأن ذلك يوفر الأمان للإسرائيليين أكثر من استمرارهم في خط الحرب والعنف الذي سلكوه منذ احتلال فلسطين حتى الآن، فبروز المقاومة كقوة حسم في لبنان، ستمتد إلى فلسطين، وستصبح خياراً شعبياً عربياً وإسلامياً يصعب إيقافه، إذا بقي التعنت الإسرائيلي قائماً.

أ ـ انعكاسات على القضية

ويبدو أن رؤية السلطة الفلسطينية للحرب قبل وفي الأيام الأولى للمواجهات كانت مشابهة لموقف العديد من الأنظمة الرسمية العربية، فهي كانت وفق ما كشفه لي مصدر قيادي في حركة حماس على يقين بأن حزب الله سوف يهزم، وأن قواعده ومؤسساته ستدمر، وأن لبنان سيعود ساحة امريكية إسرائيلية، يمكن من خلالها فرض وقائع جديدة وضرب كل قوى المقاومة المناهضة للمشروع الأمريكي الإسرائيلي في المنطقة، وفلسطين لن تكون نشازاً حيث يتم الإجهاز على حركة حماس وإسقاط حكومتها، والذهاب بعيداً في توقيع اتفاق صلح مع إسرائيل وفق شروطها، غير أن انتصار المقاومة في لبنان، شكل هزيمة لجيش الاحتلال الصهيوني،

وبالتالي انتصاراً للمقاومة في فلسطين، وانتصاراً للقضية الفلسطينية، وهذا الانتصار عزز الأمل لدى الشعب الفلسطيني بأن المقاومة يمكن أن تهزم جيش الاحتلال وكيانه، ولم يعد من المقبول الآن أن ننتظر أن تأتي الجيوش العربية كي تحرر فلسطين، وتطرد الاحتلال من أرضنا الفلسطينية المحتلة، هذا الانتصار أكد أن المقاومة يمكن أن تتحدى جيش الاحتلال، أعطانا الأمل، وأعطانا الدفع بالتمسك بخيار المقاومة في فلسطين وأكد القيادي نفسه أنه على الصعيد الميداني هناك فعلاً تداعيات حصلت سريعاً على القضية الفلسطينية، من هذه التداعيات أن هناك من أسماهم فريق التسوية في فلسطين قرأ ما جرى في لبنان بأنه هزيمة للمقاومة وبنى على هذا الأساس، وهذا ما كان واضحاً من خلال اللقاء الذي جرى بين رئيس الحكومة اسماعيل هنية، ورئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس «أبو مازن» في ١٢ آب/ اغسطس ٢٠٠٦م، وكان رأي عباس أن المقاومة في لبنان ستهزم، وأن القرار ١٧٠١ سيأتي لنزع سلاح حزب الله، وسيكون مصير قيادة حزب الله اللجوء السياسي إلى طهران، لذلك اقترح أبو مازن أن تقوم الحكومة الفلسطينية بمبادرة تسليم الجندي الإسرائيلي الأسير لدى فصائل المقاومة في غزة إلى الإخوة في مصر لكي يفاوضوا، ويطلقوا ما أمكن من الأسرى، ويمنعوا العدو من أن ينتقم من حركة حماس والحكومة والشعب الفلسطيني، باعتبار أن حزب الله عندما أسر جنديين، انتقمت إسرائيل من الشعب اللبناني ومن حزب الله، وسوف ترتد إسرائيل إلى غزة وتنتقم من الحكومة والشعب في فلسطين، لأن المقاومة أسرت جندياً إسرائيلياً. هذه كانت قراءة رئاسة السلطة الفلسطينية، بالمقابل قرأت فصائل المقاومة الفلسطينية أن انتصار المقاومة في لبنان هو انتصار لخيار المقاومة في فلسطين وهزيمة لخط التسوية وهزيمة للمشروع الأمريكي الإسرائيلي في

المنطقة، الذي بشرت به وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليسا رايس، عندما أعلنت أن هذه الحرب هي من أجل ولادة الشرق الأوسط الجديد، فالعدو الصهيوني هزم، وخطة الشرق الأوسط الجديد انهارت، والكيان الصهيوني فقد دوره كشرطي في المنطقة لحماية المصالح الأمريكية، والمقاومة الفلسطينية على ضوء ذلك تمسكت بخيارها أكثر، كوسيلة يمكن أن تحرر فلسطين وبناء الدولة الفلسطينية وعودة اللاجئين إلى ديارهم، هذه الحرب أثرت وعمقت الخلاف والشرخ بين خياري التسوية والمقاومة في فلسطين، وأصبح واضحاً أن هناك رموزاً للتسوية برئاسة أبو مازن، وهناك رموزاً لخيار المقاومة برئاسة حماس، وهناك صراع ميداني على الأرض بين مشروعين في الساحة الفلسطينية، مشروع تسوية ومشروع مقاومة، لذلك يسعى المشروع الأول بدعم أمريكي وإسرائيلي وبعض العرب إلى إسقاط الحكومة الفلسطينية الحالية، باعتبارها حكومة تقودها المقاومة، وإرسال رسالة للشعب الفلسطيني من خلال الحصار القائم على الحكومة بأن المقاومة لا تستطيع أن تقود الشعب الفلسطيني، وعليكم أن تعودوا إلى خيار التسوية حتى تحصلوا على لقمة العيش، إنهم يحاصرون الفلسطيني اليوم من أجل ضرب خيار المقاومة، وضرب الخيار الديمقراطي، ومعاقبة الشعب الفلسطيني على خياره الديمقراطي الذي جاء عبر صناديق الاقتراع بالحكومة الحالية.

نحن نعتبر أن تداعيات الحرب في لبنان، لن تقف عند حدود بسيطة إنما سيكون لها انعكاسات أكبر على القضية الفلسطينية، وعلى المنطقة بشكل عام، لأنها أسست لمشروع عربي إسلامي في المنطقة هو مشروع المقاومة والجهاد والصمود، وقد أثبت هذا المشروع رغم ظروفه وقلّة أنصاره من الدول العربية، وكبر أنصاره على مستوى الشعوب، أثبت بأنه

قادر على أن يواجه ويهزم المشروع الأمريكي الصهيوني في المنطقة، وظهر ذلك من خلال صمود مئات المقاتلين في جنوب لبنان أمام الترسانة العسكرية الإسرائيلية وآلاف الجنود الصهاينة المدججين بأحدث التكنولوجيا والأسلحة الحربية ورأى العالم كيف هشمت دبابات الميركافا في الجنوب بفعل صواريخ المقاومة، وكيف أن العدو كان ينتقم من المدنيين ومن المباني والأحياء السكنية في الجنوب والبقاع وضاحية بيروت الجنوبية، ولم يستطع أن يتقدم كما أعلن إلى منطقة نهر الليطاني.

ب ـ رؤية السلطة والحكومة

من جهته حذر أبو مازن من أن يؤدي اتساع الأعمال العسكرية الإسرائيلية على لبنان، إلى نشوب حرب إقليمية في الشرق الأوسط، ووصف العدوان على لبنان، بأنه ينبئ بمخاطر كبيرة جداً، وشدد على وقوف الشعب الفلسطيني إلى جانب الشعب اللبناني كما وقف هذا الشعب إلى جانب الشعب الفلسطيني.

وفي اجتماع عقدته لجنة الوفاق الفلسطينية المنبثقة عن الحوار الوطني، أشار أبو مازن، إلى أن العدوان مستمر على فلسطين، غير أن الأخطر هو ما يجري على الأرض اللبنانية، ودعا إلى وجوب الحفاظ على القرار الفلسطيني المستقل، لأن ترك القرار بأيد إقليمية سيقود إلى الخسارة، وتجربة حرب العراق تؤكد ذلك، علينا أن نفكر لوحدنا وأن نقرر لوحدنا، لأننا نحن نأكل الضرب والآخرين يعدون العصي.

وأكد رئيس الحكومة اسماعيل هنية، أن هناك استراتيجية امريكية تستهدف إسقاط نقاط الممانعة، وإرباك القيادات الشرعية المنتخبة، وخلق واقع جديد يكون المهيمن في المنطقة، وأضاف: أن الرسائل التي وصلت

إلى أبي مازن، أرادت أن توصل للفلسطينيين هذا المفهوم الذي ينطوي على قدر من الحرب النفسية لإرباك صناع القرار.

ودعا الدكتور جورج حبش العرب، إلى تأليف أوسع جبهة قومية شعبية لتشكيل حاضنة للمقاومة اللبنانية والفلسطينية.

وأعلنت عشر فصائل فلسطينية من دمشق، بينها حماس والجهاد الإسلامي والجبهتان الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين وجبهة النضال الشعبي أنها وضعت إمكاناتها وطاقاتها بتصرف حزب الله في مواجهة إسرائيل.

جـ ـ دعم الانتفاضة

وحول تداعيات الحرب على الفلسطينيين في الداخل والشتات، والأبعاد الاستراتيجية لانتصار حزب الله على القضية، قدم لي قادة الجهاد الإسلامي، قراءة شاملة:

نحن ننظر للصراع الدائر، باعتبارنا جزءاً من الأمة، وبالتالي فإن أي حدث يحصل في إطار هذه الأمة، ينعكس تلقائياً على القضية الفلسطينية لأنها القضية المركزية للأمة، ومن هنا فإن أثر تحرير أجزاء واسعة من جنوب لبنان في العام ٢٠٠٠م على يد حزب الله، كان بالغاً في دعم الانتفاضة، وإطلاق انتفاضة الأقصى، بعد أن وصل مشروع التسوية إلى حائط مسدود، ما هيأ المناخ لثورة فلسطينية جديدة. لذا فإن ما حصل في الجنوب انعكس إيجاباً من خلال نجاح مشروع المقاومة، وزادنا الرد المقاوم على العدوان الإسرائيلي الهمجي، تمسكاً بثوابتنا وبخيار المقاومة، باعتبار أن هذا العدو لا يمكن التعاطي معه إلا من خلال البندقية، وعلى هذا الأساس، نعتقد أن هناك انعكاساً كبيراً لما جرى في لبنان على الوضع

الفلسطيني، وتحديداً ما يجري الآن في قطاع غزة، فالنصر الذي حققته المقاومة في لبنان، نعتبره نصراً لنا، فهذه الفئة القليلة من المقاومة في لبنان التي استطاعت أن تهزم جبروت الاحتلال الإسرائيلي، الذي استخدم كل أدوات القتل والإرهاب، والحشد الكبير لقواته العسكرية وللاحتياط وللنخبة. إن هذا النصر للمقاومة يعطي المزيد من المعنويات لشعبنا الفلسطيني ومقاومته، وهذا ينعكس إيجاباً على القضية الفلسطينية بشكل عام وعلينا كحركة مقاومة بشكل خاص.

نحن نعتبر أنفسنا جزءاً أساسياً من هذه المعركة، لأنها كانت معركة الأمة، وما يجري في فلسطين ولبنان، دليل على المصير المشترك، فنحن في خندق واحد مع الإخوة في حزب الله ، مع هذه المقاومة الشريفة، ولذلك كان هذا التعاطف والتجاوب السريع في فلسطين معها، فأول مسيرة شعبية انطلقت مؤيدة للمقاومة اللبنانية أثناء العدوان، كانت في فلسطين، وذلك عندما دعت حركة الجهاد لمسيرة حاشدة داعمة ومؤيدة رغم الحصار والاعتداءات الإسرائيلية، أردنا أن نقول في هذه المسيرة إننا في معركة واحدة، وعدونا واحد، وإننا نتعرض سوية لحرب إبادة، وهذا يستدعي من الأمة العربية والإسلامية موقفاً موحداً لمواجهة هذه الإبادة، ولدعم مسيرة الشعبين اللبناني والفلسطيني في التحرير.

حققت المقاومة اللبنانية فوائد كثيرة، وعندما نقرأ نتائج المعركة التي حصلت، نقرأها في ضوء أهداف العدو، فقد وضع الاحتلال رزمة من الأهداف طمح إلى تحقيقها، لكنها باءت بالفشل، ابتداء من المطالبة بنزع سلاح حزب الله، وتفكيك المقاومة في لبنان، وفرض الشروط التعجيزية على لبنان، وإعادة الجنديين الأسيرين دون مقابل، فقبل الحرب كان الخطاب الإسرائيلي شيئاً وأثناء وبعد الحرب أصبح هذا الخطاب مختلفاً،

بعدما أذل الجيش الذي كان يدعي أنه لا يقهر على أيدي المجاهدين اللبنانيين البواسل، وكنا نلاحظ أن مطالب إسرائيل كانت تتقلص كل يوم، أثناء المواجهات، ما يؤشر إلى انتصار المقاومة، وهذا الانتصار نحن نعتبره إنجازاً للأمة وليس لحزب الله فقط، صحيح أن حزب الله أثبت أنه قادر على إلحاق الخسائر بالعدو، ويحبط كل أهدافه، ولكن هذا النصر هو هدية لكل الأمة، وعلى الأمة أن تستفيد من هذه التجربة، فهذا النموذج المقاوم في جنوب لبنان يجب أن يعمم، والمطلوب منا الآن أن نفكر بالمستقبل، وكيف يمكن أن نستثمر هذا النصر، وكيف نستطيع أن نحمي هذه المقاومة، فالمقاومة أكدت أنها قادرة على حماية الشعب في لبنان، والمقاومة في فلسطين أكدت بدورها أنها قادرة على حماية الشعب الفلسطيني في الداخل، وقادرة على ردع العدوان وإلحاق الهزيمة به، وتجعله يفكر في الأيام القادمة عشرات المرات، قبل أن يكرر عدوانه، لقد أصبح على يقين بأن الوضع الميداني اختلف، وهناك مقاومة ستواجهه وستكون له بالمرصاد. وهذا الانتصار يطرح نفسه على الأنظمة والشعوب العربية، كي يتم استثماره والاستفادة منه إلى الحد الأقصى، نحن رأينا في بداية العدوان، كيف كان الوضع العربي مهزوماً ومحبطاً، وكان في معظمه يقف ضد المقاومة بطريقة أو بأخرى، واليوم يجب أن يعلموا أن هناك ورقة قوية لدى أمتنا يجب أن ندعمها ونحافظ عليها، لا أن نعمل على محاربتها وإضعافها.

د ـ المكاسب السياسية والمعنوية

ولا بد من توضيح مسألة، فعلى المستوى السياسي نعم هناك الكثير مما يمكن الاستفادة منه، كما على المستوى المعنوي والثقافي والإعلامي أيضاً. أما على المستوى الميداني المقاوم، هناك نقطة يجب أن نلتفت

إليها، وهي اختلاف الواقع اللبناني عن الواقع الفلسطيني، واستراتيجية حزب الله في لبنان تختلف عن استراتيجية المقاومة في فلسطين ميدانياً، ففي لبنان أثبتت المقاومة أن لديها قدرة كبيرة تستطيع من خلالها أن تلحق الهزيمة بالإسرائيلي بشكل واضح، إلا أن هذه المقاومة كانت تستفيد من خلفية آمنة، فمنذ العام ٢٠٠٠م والمقاومة تعمل على إعداد نفسها وتطوير قدراتها القتالية، لكن هذا الأمر يختلف عندنا في فلسطين، وما استفدنا منه هو التجربة بشكل عام. فالمقاومة اللبنانية أصبحت نموذجاً، منظماً وقوياً، إلا أن المقاومة الفلسطينية الآن محاصرة، فهي لا تستطيع أن تحصل لا على السلاح ولا على المال، والوضع في غاية الصعوبة في الداخل، ولذلك لا يمكن مقاربة هذين الوضعين، هذا حتى قبل العام ٢٠٠٠م وكنا نستفيد من المقاومة كدرس وإنجاز، وأن فئة قليلة قادرة على هزيمة فئة كبيرة هشة، كما استفدنا من تبادل الخبرات وتوحيد الموقف السياسي والدعم المعنوي.

لكن في التفكير الميداني هناك اختلاف بين المقاومتين، فالمقاومة الإسلامية في لبنان كما أعلن أمينها العام السيد حسن نصر الله، كانت تعتمد تكتيكاً، وعدم التمسك بالجغرافيا، وهم يتحركون بأرض قادرين فيها أن يلحقوا الخسائر بالإسرائيلي والحفاظ على قدراتهم القتالية، وفي فلسطين موضوع آخر، ولو تذكرنا معركة جنين، كان هناك قرار ـ تحديداً في حركة الجهاد الإسلامي ـ ضمن حركات المقاومة الفلسطينية. القتال حتى الاستشهاد، والتمسك بالأرض، وهذا من أجل تجاوز التهجير والنزوح الذي حصل في نكبة العام ١٩٤٨م، ولنقول بشكل واضح إن شعبنا الفلسطيني، مهما حصلت مجازر لن تكون هناك مغادرة لأي مجموعة فلسطينية، حتى الاعتقال عندما كان يحاصر الإخوة في سرايا القدس وحركة الجهاد، الكثير من الكوادر كانوا يبقون في المواجهة حتى الشهادة، وحتى في مستوى

الأسلحة المستخدمة، فإن مجاهدي حزب الله استطاعوا أن يمتلكوا منظومة صاروخية قادرة أن ترعب العدو الإسرائيلي وتردعه، وأن تصل مدى الصواريخ إلى تل أبيب، وما بعد تل أبيب. ونحن رأينا ما حصل في حيفا وعكا والعفولة والمستعمرات الشمالية، إلا أن استراتيجيتنا في فلسطين تختلف فلدينا الاستشهاديون، ليس لدينا صواريخ، صواريخنا بشرية، ونحن قادرون من خلالها الوصول إلى العمق الإسرائيلي في تل أبيب وغيرها، كما نحن قادرون على إلحاق الأذى الكبير بالعدو، وهذا ما حصل على مدى أعوام الانتفاضة السابقة، لذلك نحن نقول إن المقاومة في لبنان وفلسطين، وصلت الآن إلى مستوى الوصول إلى العمق الإسرائيلي وتهزه، سواء من خلال الاستشهاديين أو الصواريخ، وهذا ما جعل الإسرائيلي يعيش في مأزق وهاجس كبير، هو المأزق والهاجس الأمني، فعندما يشعر الإسرائيلي بأن أمنه مفقوداً، وأنه غير قادر على الحفاظ على أمن جنوده ومستوطنيه. سيكون بالتالي في وضع صعب ومعقد، لأن العامل الأمني هو عامل أساسي بالنسبة للعدو الإسرائيلي، وعندما يفقد أمنه ويشعر أن المقاومة تسلبه هذا الأمن، فإنه يصبح في دائرة الخوف الدائم، ومهما فعل لتحصين هذا الأمن، فإنه سيفشل، وعندما وصل آرييل شارون إلى الحكومة توهم بأنه سيقضي على الانتفاضة خلال مئة يوم، ويحقق الأمن لإسرائيل. ولكن هذا الوهم تلاشى، وعملية السور الواقي، وجدار الفصل، ماذا يعني؟ إنه محاولة لخلق حزام أمني، وإبعاد مدى الصواريخ، وتفكيك المقاومة غير أن ذلك لم ولن يتحقق، فالأمن الإسرائيلي بقي مهزوزاً ومذعوراً، إذن المشكلة ليست لدى المقاومة، إنما المشكلة لدى النظام العربي الرسمي، ولدى جزء من السلطة الفلسطينية، وتحديداً الجزء الذي ما زال يتمسك بأوهام التسوية، ولو بالخضوع للإملاءات الأمريكية، ويريد الذهاب إلى

المفاوضات بدون أية ورقة ضغط، كورقة المقاومة، وحتى النظام العربي لو أحسن الاستفادة من ورقة المقاومة لاستطاع أن يحقق الكثير من الإنجازات، نقول ذلك على الرغم من تحفظنا على موضوع المفاوضات، إلا أن المنطق الرسمي السائد اليوم للأسف ضعيف، ما يجعل الإسرائيلي يطالب بفرض شروطه في التفاوض، وبحث أي حل طبقاً لرؤيته، بحيث لا يكون أي عنصر قوة لدى العرب.

وتحدثوا عن الرسالة التي حملها العدوان، فقالوا: العدوان الإسرائيلي كان واضحاً بكل استهدافاته، سواء من خلال ما أطلقه العدو من تصريحات ومواقف، أو من خلال ما أعلنته وزيرة الخارجية الأمريكية بأن هذا العدوان يرمي إلى رسم شرق أوسط جديد، والحفاظ على أمن إسرائيل، وفرض الحل وفق رؤية أولمرت الجديدة. هذه المواقف التي تقاطعت، والتي عبرت عنها التصريحات التي أعقبت لقاء أولمرت ـ جورج بوش، بإعادة ترتيب المنطقة بمساهمة إسرائيلية، أوضحت طبيعة الهجمة، التي تمتد من العراق، مروراً بلبنان وصولاً إلى فلسطين، فالأمريكي والإسرائيلي يعرفان أن العائق الأساسي أمام مشروعهما في إنشاء الشرق الأوسط الجديد، هو قوى المقاومة، وبالتالي لا بد من ضرب هذه المقاومة، إضافة إلى ضرب قوى الممانعة، والمتمثلة حالياً بسوريا وإيران، وهما لا يميزان الاختلاف المذهبي والعرقي ولا ينظران لهذه المسألة، رغم الاختلاف في التكتيك ووجهات النظر، لكنهما يستهدفان المقاومة كمقاومة سواء في العراق أو فلسطين أو لبنان، رغم اختلاف المقاومة في العراق عنها في لبنان نوعاً ما، لكن ما دام هناك مقاومة للمشروع الأمريكي في المنطقة فهي عدو للإدارة الأمريكية والكيان الصهيوني، وبالتالي فعندما يشن الأخير حربه على لبنان وحزب الله فإنه يعتقد أنه يستهدف أيضاً حركة الجهاد الإسلامي حركة

حماس والقيادة العامة، وقد ضربت قواعد للقيادة العامة، كما ضربت مكاتب حماس، وضرب مخيما الرشيدية وعين الحلوة، فالإسرائيلي يربط بين الشعبين اللبناني والفلسطيني، والمقاومة اللبنانية بالمقاومة الفلسطينية، وهو في الوقت الذي كان يشن عدوانه على لبنان لم يوقف عدوانه على قطاع غزة، وكثيراً من الأوقات أثناء حربه على غزة، كان يقول إن هناك علاقة مباشرة بين حزب الله والمقاومة الفلسطينية في الداخل، وكان يوزع التهم بين سوريا وإيران، هو ينظر إلى كل جوار الممانعة هذا نظرة واحدة وبالتالي يستهدف بشكل مباشر.

هـ ـ النتائج العسكرية

وعن الهزة الأرضية التي أصابت إسرائيل عسكرياً كانت الهزيمة الإسرائيلية واضحة للجميع، حيث ثبت أن نخبة الجيش، ورغم استخدامه أحدث ما لديه من قدرات عسكرية جواً وبحراً وبراً، وخاصة في المدرعات التي استخدمها على نطاق واسع، منيت بالفشل، وضرب البارجتين الحربيتين الإسرائيليتين، وتدمير الدبابات على النحو الذي حصل أحدث ذهولاً لدى الإسرائيلي، كذلك الخسائر البشرية في الجنود وفي القصف الصاروخي على المدن والمستعمرات، أكدت أن الجيش الإسرائيلي غير قادر على مواجهة المقاومة، وهذا سينعكس سلباً على المؤسسة العسكرية، وهذا ما تكشف من خلال الخلافات الحادة بين الجنرالات العسكريين، وبدأنا نسمع عن إعادة تركيب وتكوين عقيدة الجيش، وإعادة تدريبه على أسس جديدة تشمل مواجهة حرب العصابات رغم أنه استخدم أيضاً تكتيك حرب العصابات وفشل فشلاً ذريعاً، لذلك ستكون هناك محاكمات وتحقيقات وإقالات لعدد من القيادات العسكرية، وكل ذلك يوضح الهزيمة الحقيقية والعميقة للمؤسسة العسكرية والداخل الإسرائيلي، والمجتمع

الصهيوني الذي لم يعد يشعر بالأمان الآن، بعد أن لمس أن الجيش الذي لا يقهر قهر مرتين : الأولى في العام ٢٠٠٠م عندما اندحر عن أرض الجنوب، والثانية عندما هزم في العام ٢٠٠٦م، وإذا كان هذا وضع الجيش الإسرائيلي على مستوى المواجهة في لبنان فقط، فكيف يمكن أن يكون حاله في حالة المواجهة مع الأمة، وهذا سيجعل هناك قلقاً إسرائيلياً، وسيولد مشكلة لدى المجتمع الصهيوني شبيهة بتلك التي حصلت في بداية الانتفاضة في فلسطين المحتلة.

وعلى المستوى السياسي ستكون المشكلة أكبر، وهناك حديث عن محاكمات وإعادة انتخابات أو انتخابات مبكرة، وقد كشف المؤتمر الصحفي الذي عقده أولمرت في أعقاب الهزيمة، ومن خلال استطلاعات الرأي، التي أظهرت تدني شعبية الأطقم السياسية والعسكرية في إسرائيل، وكل ذلك من شأنه أن يؤدي إلى انقسامات عميقة، سنلمس تداعياتها في القريب العاجل، وهذا يعود إلى انتصار المقاومة وما حققته ميدانياً، وهذا ما قاله قائد المقاومة السيد حسن نصر الله، عندما أشار في بداية المعركة، أن الذي سيحسم الأمر ثبات المقاومة، صمود الشعب اللبناني ووحدته، وهذا سيكون له انعكاساته على المستوى السياسي الإسرائيلي.

و ـ دعم المقاومة الفلسطينية

ولولا الدعم الذي تلقاه الشعب الفلسطيني من المقاومة اللبنانية من خلال أسر الجنديين الإسرائيليين، كان الوضع مؤسفاً جداً، فهذا الأسر كان أكبر عملية لدعم المقاومة والشعب في فلسطين، وما عدا ذلك لم نشهد تحركات في المستوى المطلوب عربياً، حتى على المستوى الشعبي، أما الأنظمة فموقفها معروف وقد نفضت يدها تماماً من كل ما يجري، وبدأنا نشعر وكأن هذه الأنظمة تعتبر أن القضية الفلسطينية باتت عبئاً عليها وهي

تريد أن تتخلص منها بأي شكل، هناك للأسف الشديد عجز عربي، وحالة من التخلي عن شعبنا الفلسطيني بشكل غير مسبوق في هذه المرحلة بالذات، على الرغم مما يتعرض له من حصار، نحن نقول ذلك بمرارة، والشعب الفلسطيني اليوم يعاني كثيراً من حصار خانق بخاصة في الشهور الأخيرة، اقتصادياً، وعلى المستوى الاجتماعي فإن الشعب الفلسطيني يتعرض لمعاناة قاسية، إضافة إلى العدوان الإسرائيلي المفتوح والمستمر على شعبنا، ومحاولات الاغتيال الدائمة والقصف والتدمير وقتل الأطفال. هذا العدوان يستوجب وقفة جادة من أُمتنا، لأن وضعنا صعب، نقول ذلك بوضوح، لكننا نقول أيضاً إن الشعب الفلسطيني ما زال صامداً ويتمسك بمقاومته وحقوقه ويرفض الاستسلام، والإسرائيلي يهدف من خلال حملته إلى فرض واقع جديد، وفق رؤية أولمرت، وهذه الرؤية تريد فرض حل من طرف واحد، والحل النهائي هو دولة في غزة مع بعض القطع المتناثرة والمتفرقة في الضفة الغربية، وأن لا يكون هناك عودة للنازحين، ولا القدس، أما الأسرى فموضوع طويل الأمد، كل هذا الحل السياسي الذي يراد فرضه، رفضه الشعب الفلسطيني بشكل واضح، وأكد أنه سيستمر بمقاومته حتى يستعيد كامل حقوقه، وبالتالي فإنه من أجل ذلك يعاقب الشعب الفلسطيني ويتعرض لهذه الحملة الرهيبة والإرهابية، بضوء أخضر من الإدارة الأمريكية، وقد تصاعدت الحملة منذ لقاء أولمرت مع الرئيس الأمريكي جورج بوش في واشنطن، وفور عودته وقعت مجازر وارتكابات فظيعة في محاولة لفرض استسلام على الفلسطينيين، لكننا نطمئن الجميع أن الشعب الفلسطيني ما زال صامداً رغم كل معاناته، ولن يقبل بما يحاول البعض فرضه بالقوة. والمقاومة والحمد لله ما زالت تحافظ على بنيتها، صحيح أن هناك صعوبات ميدانية تواجهها، لكن رغم كل إجراءات العدو ما

زالت قادرة على إطلاق الصواريخ على المستوطنات، وما زالت لديها الإرادة لتنفيذ عدد كبير من العمليات، ونحن نؤكد كما أعلنت ذلك المقاومة اللبنانية أننا نخوض معركة الأمة وليست معركة فلسطين وحدها، ولا بد من دعم عربي واسع وقوي وفاعل لها وما تتعرض له هذه المقاومة، هو استكمال لما تعرض له منذ خمسين عاماً، ونأمل أن يتجاوز شعبنا الأزمة الحالية، ويواصل عملياته في العمق الإسرائيلي في القريب العاجل، وأننا نتعهد لشعبنا، بأن كل الاعتداءات والجرائم الإسرائيلية لن تمر بدون رد، ومطلوب من السلطة الفلسطينية أيضاً أن تعيد النظر بكل ما تحمله من مشاريع، فالشعب الفلسطيني يتعرض لهجمة قاسية ولحرب إبادة كبيرة، وللأسف ما زلنا نسمع من بعض رموز السلطة والذين ما زلنا معهم في حوار دائم ومفتوح، أنهم لا يزالون يتمسكون بمشروع التسوية، ومستعدون للقبول بأي حل يعرض عليهم مهما كان ثمنه. ونحن نقول إن عليهم أن يقفوا الآن في خندق الشعب الفلسطيني ويلقوا بأوهام التسوية، وما حصل في لبنان درس يجب أن نعيه جميعاً. والإسرائيلي لا يريد سلاماً، وما قاله الأمين العام لجامعة الدولة العربية عمرو موسى في بداية الأزمة واضح، عندما نعى عملية السلام. وعلى النظام الغربي أن يقتنع أن التسوية باتت غير قابلة للتحقق، وحتى الحديث عن التهدئة في فلسطين أصبحت غير ممكنة، فيما يواصل الاحتلال عدوانه، وبين الحين والآخر يعرض علينا كلاماً من هنا وهناك، من السلطة الفلسطينية والأنظمة العربية التي تريد أن يكون لها دور في التهدئة، لكن مثل هذه التهدئة غير واردة ما دام هناك تصعيد إسرائيلي، ووجود أسرى فلسطينيين في السجون الإسرائيلية، وعدوان دائم. والسلاح الوحيد الذي يمكن أن نواجه به كل المخاطر التي نتعرض لها، هو الوحدة والصمود.

الفصل الرابع

❖ لبنان قبل وأثناء وبعد العدوان.

❖ خفايا النقاشات الساخنة داخل مجلس الوزراء حول نزع سلاح المقاومة.

مقدمة

رغم صغر مساحة لبنان (١٠٤٥٢ كلم٢)، وقلّة تعداد سكانه (٤ ملايين نسمة). عدا اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون فيه منذ نزوحهم عن أرضهم في العام ١٩٤٨م، فإنه ـ أي لبنان ـ ظل محور تجاذب سياسي محلي وإقليمي ودولي، بالغ الحساسية والتعقيد، بحكم موقعه الجيوستراتيجي في المنطقة، فهو جار للدولة العبرية من جهة، وجسر تواصل مع أُمته العربية من جهة أخرى، ومدخل مهم للشرق الأوسط غربياً من جهة ثالثة.

كانت إسرائيل ترى فيه ـ في بداية تأسيسها ـ جاراً هادئاً، وقد يكون متعاوناً، مستندة إلى الاتصالات السرية والتنسيق مع بعض الأطراف المحليين، ما شجعها على التمادي في أطماعها، لقضم أراضٍ لبنانية وضمها إليها، وسرقة المياه والاعتداء على الدولة وعلى كل من يحاول منعها أو الوقوف في وجهها. وما سلسلة الأعمال الإرهابية التي قامت بها ضد لبنان منذ العام ١٩٤٨م وحتى العام ٢٠٠٧م سوى دليل واضح على ذلك. فإسرائيل كانت تعتبر لبنان بلداً ضعيفاً، تكفي فرقة من المجندات إلى احتلاله في أي وقت، لكنه أيضاً البلد المنافس لها على الصعد: الاقتصادية، السياحية، المصرفية والتجارية، والخدماتية، كما كانت ترى في تعدديته الطائفية والتوافق بين غالبية أبنائه، مثلاً تخشاه وتتجنبه بل

وترفضه، فلم تتوان لحظة على ضرب صيغة التعايش فيه، وضرب البنى التحتية، وتدمير منشآته الصناعية والتجارية، وشل حركته المصرفية، وإدخاله في متاهات الصراعات الجانبية، ومنعه من إقامة السدود المائية على نهر الليطاني وغيره. والاعتداء على أسطوله الجوي المدني للحؤول دون تواصله مع العالم الخارجي وإلحاق الأذى والخسائر به، والتأثير على نشاطه وحركته السياحية التي كانت تنمو باضطراد.

لم تستطع القوى الحية في لبنان السكوت على هذه الممارسات والنوايا الإسرائيلية العدوانية والتوسعية، فتصدت لها منذ العام ١٩٤٨م حتى الآن، رغم قلة الإمكانات وعدم توازن القوى العسكرية، إلى أن وصلت المقاومة ذروتها من خلال حزب الله، الذي دحر الاحتلال الإسرائيلي مرتين، إثر هزيمتين بالغتي الدلالة، في عامي ٢٠٠٠م و٢٠٠٦م.

هذا التطور أرعب إسرائيل، والقوى التي تساندها في الخارج والداخل أيضاً. فلأول مرة في تاريخها بدأت تعي أنها أمام مأزق حقيقي، وأن وجودها بات مهدداً، ولم تعد قادرة على رسم خرائطه كما تطمح، ولا أن تتخطى حدودها متى تشاء.

أما القوى الخارجية وفي مقدمها الولايات المتحدة، فقد أُصيبت بالصدمة، فكثفت ضغوطها على لبنان. من أجل نزع سلاح المقاومة، وفرض القيود عليها، كمقدمة لإضعافها وضربها وشل قدراتها على كل المستويات، ووضعت لذلك سيناريوهات عدة، أنتجت قرارات دولية، منها القرار ١٥٥٩ وملحقاته، والقرار ١٧٠١، وحركت القوى المتحالفة معها في لبنان، لإشغال هذه المقاومة، وإزعاجها، وإدخالها في صراعات شتى، واستكمال الضغط عليها لتجريدها من سلاحها. وسخرّت لذلك إمكانات مادية وإعلامية وأمنية هائلة، علها تحقق بالسياسة ما فشلت من تحقيقه مع حلفائها بالقوة.

أولاً: فشل الحوار والتشاور

اشتدت الحملة ضد حزب الله، بعد حدثين كبيرين هزا لبنان: **الأول:** اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، **والثاني:** انسحاب الجيش السوري من لبنان إثر صدور القرار ١٥٥٩، والذي دعا إلى نزع سلاح الميليشيات، والمقصود هنا سلاح المقاومتين اللبنانية، والفلسطينية المتواجدة في لبنان، وحصر السلاح بيد السلطة (الجيش اللبناني وقوى الأمن الداخلي) وحدها.

حاولت الولايات المتحدة، أن تستغل اغتيال الحريري لتمزيق المجتمع اللبناني، وتحريك فريق منه ضد المقاومة وسوريا وقوى المعارضة فغذت الأحقاد والحساسيات بين اللبنانيين وحرَّضت بعض الأطراف لإحداث انقسام داخلي ـ وإحياء شعور الكانتونات رغم أن كل القوى وبدون استثناء شجبت واستنكرت الجريمة، وسرعان ما تجاوب الفريق الذي راهنت عليه واشنطن فرفع نبرته السياسية العالية ضد سوريا، محملاً إياها مسؤولية الاغتيال، وحمّل الأجهزة الأمنية التي كانت قائمة الاشتراك في المسؤولية أيضاً، فأدخلوا أربعة من قادتها السجن على ذمة التحقيق، وفقاً لإشارة من رئيس لجنة التحقيق الدولية آنذاك القاضي الألماني ديتليف ميليس، الذي

حاول تسييس ملف الجريمة، وتركيز الاتهام ضد جهة واحدة هي سوريا، مستنداً إلى شهادات تبينت لاحقاً أنها مزورة، أبرزها شهادة محمد زهير الصديق الذي لجأ إلى فرنسا، التي رفضت تسليمه إلى لبنان رغم المطالبة فيه، وشهادة هسام هسام الذي عاد إلى سوريا، والذي كشف زيف ما ورد على لسانه، وبعد انتهاء فترة ميليس، كلف القاضي البلجيكي سيرج براميرتس في إكمال المهمة، ورفع كل ما جمعه إلى مجلس الأمن، ولكن الرئيسين الأمريكي والفرنسي، جورج بوش وجاك شيراك، لم يكتفيا بنتائج التحقيق، فعادا إلى مجلس الأمن ثانية، للعمل على تشكيل محكمة ذات طابع دولي للتحقيق بهذه الجريمة وجرائم الاغتيال ومحاولات الاغتيال الأخرى التي تمت في لبنان، بناء لطلب رسمي من فريق داخل مجلس الوزراء اللبناني، وبالطبع لم يكن الهدف حسب رأي المعارضة الحرص على كشف الحقيقة، بقدر ما هو محاولة للسيطرة على لبنان والضغط على سوريا، بدليل أن هاتين الدولتين رفضتا التعاون مع لجنة التحقيق.

انقسم لبنان إلى تيارين سياسيين: الأول سار في الخط الأمريكي الفرنسي، وكان ينسق مواقفه باستمرار، مع السفيرين الأمريكي والفرنسي في بيروت، أو عبر موفدين أمريكيين وفرنسيين كانوا يترددون على العاصمة اللبنانية، أو عبر اجتماع أقطاب هذا التيار في واشنطن وباريس، للتشاور والتفاهم على خطط التحرك.

والثاني: سار في ركب ما سمي بالمعارضة، وهو متمسك بالخط العروبي المقاوم، هدفه تحرير ما تبقى من أرض لبنانية، ووقف الاعتداءات، واستعادة الأسرى، ويدعو إلى التغيير والقضاء على الفساد وإقامة الدولة القادرة والعادلة وقد اعتبر هذا الفريق بأنه موالٍ إلى سوريا وإيران، أو خط الممانعة للمشروع الأمريكي في المنطقة كما كان يطلق عليه.

كان الفريق الأول حصل على الغالبية البرلمانية في الانتخابات النيابية العامة، مستفيداً من التعاطف الشعبي مع «تيار المستقبل» نتيجة اغتيال الرئيس الحريري، من ناحية، ومن التحالف الرباعي، الذي جمع هذا التيار مع حزب الله وحركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي من ناحية ثانية، لكن الانقلاب على هذا التفاهم، أخل بالموازين داخل المجلس النيابي، وتالياً داخل الحكومة، ما أدى إلى خلط الأوراق.

أما الفريق الثاني، فاتهم الأول بأنه أغلبية وهمية، ولولا الانقلاب على التفاهم، لتغيرت المعادلة، لكنه رضي بحصته داخل الحكومة، فشارك حزب الله للمرة الأولى بوزيرين هما: محمد فنيش وطراد حمادة، وتمثلت أمل بالوزيرين: محمد جواد خليفة وطلال الساحلي، بينما ظل العماد ميشال عون خارج هذه التشكيلة بعد خلافه مع الأكثرية، حول الحقائب الوزارية، فسد الفراغ رئيس الجمهورية إميل لحود بوزراء سرعان ما انقلب ثلاثة منهم عليه.

وعندما انطلقت عجلة الحوار في مجلس الوزراء. برز التباين في الرؤى والمواقف بين التيارين: السلطوي والمعارض، بخاصة في ما يتعلق بالقضايا ذات الطابع المصيري، مثل سلاح المقاومة والمحكمة ذات الطابع الدولي والقرار ١٥٥٩ وغيرها. وانعكست هذه الخلافات، على مختلف الشرائح الاجتماعية، من خلال حملات إعلامية منظمة، فارتفعت وتيرة الانفعالات والحساسيات. وخوفاً من تفاقم الأزمة، تداعى الجميع إلى عقد لقاءات حول طاولة مستديرة لبحث النقاط الخلافية، تحت عنوان الحوار الوطني اللبناني، باعتبار أن الحوار هو الأسلوب الصحيح لإيجاد الحلول والمخارج، ولاقت بعض النقاط إجماعاً مثل قضية متابعة الكشف عن قتلة الرئيس الحريري والعلاقة مع سوريا، لكن بعضها الآخر اصطدم بالرفض،

مثل مسألة سلاح حزب الله الذي أدرج لاحقاً تحت عنوان: الاستراتيجية الدفاعية عن لبنان، ومسألة إقالة الرئيس إميل لحود وانتخاب رئيس بديل.

وكان السفير الأمريكي مرافقاً لكل جولات الحوار، ويلتقي فريق السلطة وينسق معه في أدق التفاصيل. وهذا ما كشفته سلسلة التصريحات للسفير ولعدد من المشاركين وجلسات الحوار.

انفضت هذه الجلسات دون التوافق حول البنود العالقة خاصة وأن فريق السلطة حاول عرض استراتيجيته على أساس استقدام قوات دولية وفق الفصل السابع وتعديل اتفاقية الهدنة مع إسرائيل، وبقيت التجاذبات الحادة قائمة، واعتكف وزراء أمل وحزب الله، عن اجتماعات مجلس الوزراء أياماً، عندما قرر رئيس الحكومة والوزراء الذين ينتمون إلى خطه السياسي، تمرير بند المحكمة الدولية، دون إعطاء هؤلاء الوزراء فرصة لقراءة مسودة المشروع المرسل من قبل الأمم المتحدة، بالاعتماد على التصويت بدل النقاش.

وكانت هذه الحدة تقوى وتشتد باستمرار، مع الاقتراب من بند سلاح المقاومة، ونشر الجيش في الجنوب على قاعدة منع المقاومة من أداء مهمتها في تحرير الأرض والأسرى.

وتفادياً لانفجار الأزمة من جديد دعا رئيس مجلس النواب نبيه بري إلى ما أسماه جلسات التشاور، ضمت نفس الأقطاب الذين التقوا حول طاولة الحوار، عدا أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله الذي اعتذر لأسباب أمنية، لكن سرعان ما أعلنت هذه الجلسات عن فشلها، نتيجة تمترس كل فريق عند مواقفه، فأصبح الحوار بينهما كحوار الطرشان، وكانت وزيرة الخارجية الأمريكية لا تترك مناسبة، أو فرصة أثناء زيارتها

المنطقة، إلا وأن تجتمع برئيس الحكومة اللبنانية وفريق ١٤ آذار/ مارس، في مقر الحكومة، أو في السفارة الأمريكية في عوكر، لتبادل الأفكار، واطلاع كل طرف على ما لديه من انطباعات ومعلومات، وعلم من التسريبات والمواقف التي كانت تطلق بعد كل اجتماع، أن رايس كانت تحمل سلة من المطالب إلى فريق الحكومة، أبرزها تصعيد الحملة ضد سوريا وإيران، لعدم تعاونهما مع الولايات المتحدة في العراق، والتجاوب بشأن الملف النووي الإيراني والإصرار على نزع سلاح المقاومة، والتضييق على حزب الله.

وفي المقابل. كان الفريق الحكومي، يطلب من واشنطن، زيادة الدعم السياسي والمادي والمعنوي له، وممارسة الضغوط على النظام السوري، والعمل على إسقاطه، وبما أن ملف سلاح المقاومة عصي على المعالجة، كان الجميع يدعو إلى أن تكون صيغة الحل لبنانية داخلية، لأن أي خيار آخر سيؤدي إلى انفجار كبير وربما حرباً أهلية، قد تنسف كل ما بنته واشنطن في لبنان.

وبينما كان فريق السلطة يحاول محاصرة حزب الله والضغط عليه، تلبية للرغبات الأمريكية ـ الفرنسية، كان الحزب يجري محادثات صامتة مع رئيس التيار الوطني الحر العماد ميشال عون، للتوصل إلى تفاهم مشترك، بخاصة وأن الكثير من نقاط البحث كانت جامعة أبرزها: الإصلاح والمشاركة الفاعلة في الحكومة، تكون بحجم قوتهم داخل المجلس النيابي، ومحاربة الفساد المستشري، والعمل على إعادة بناء المؤسسات على أسس صحيحة ومعالجة ملفات الفقر والبطالة والهجرة، والحفاظ على سلاح المقاومة حتى استعادة مزارع شبعا المحتلة والأسرى اللبنانيين من سجون الاحتلال الإسرائيلي، ورفض القرار ١٥٥٩. بعد أن كانت هذه

النقطة مثار التباس في السابق بين الطرفين أدت إلى فراق استغله الطرف الآخر لصالحه في الانتخابات النيابية، ما أعطاه عشرة نواب شكلوا فيما بعد فريق الأكثرية.

وكان تفاهم عون مع أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله شاملاً أيضاً لنقاط أخرى مثل العلاقة مع سوريا، وتحديد الموقف من الدعم الأمريكي الفرنسي للحكومة وفريقها. وعدد من الملفات المشابهة.

هذا التفاهم، لاقى ترحيباً واسعاً من غالبية المسيحيين والمسلمين في لبنان، لكنه لاقى نقداً وهجوماً لاذعين من فريق السلطة وبخاصة بعض المسيحيين الذين شعروا بأن الأمور يمكن أن تفلت من يدهم مجدداً، فالتفاهم أعطى قوة إضافية للتيار العوني، وأعطى حزب الله مساحة واسعة للحركة، لم تفلح كل محاولات التشويه والضغط من تعطيله أو الحد من اندفاعه، حتى أصبح لاحقاً الركيزة الأساس لانطلاقة المعارضة الوطنية اللبنانية، وأعاد التوازن بين القوى، فتشكل تيار سياسي وطني قوي، متماسك، محدد الأهداف، واضح الرؤى، وقد حاولت أمريكا وفرنسا محاربة هذا التفاهم بكل ما أوتيتا من قوة وتحالفات داخلية، إلا أنهما فشلتا في ذلك فشلاً ذريعاً.

فالتحالف كان يقوى كلما تعرض للهجوم وتجلت ترجمة بنود هذا التفاهم عند المنعطفات الحساسة والخطيرة، مثل العدوان الإسرائيلي، وبعده في معارضة الحكومة، وتالياً في الاعتصام السلمي الكبير في ساحتي الشهداء ورياض الصلح وسط بيروت، وفي التظاهرات والإضرابات الأخرى.

ثانياً: تباين المواقف أثناء الحرب

كشفت أوساط مراقبة عدة، أن الحكومة وفريقها السياسي، كانا على علم مسبق بالحرب التي ستندلع ضد حزب الله، وقد أبلغت رايس ذلك بوضوح لعدد من الشخصيات التي التقتها ودعت إلى خلق المتاعب والاضطرابات في الداخل، لإشغال الحزب والضغط عليه، وتقليب الرأي العام ضده، وتسخير كل وسائل الإعلام التي يملكونها لتحميل الحزب المسؤولية الكاملة عن العدوان، وما يمكن أن يسفر عنه من قتل ودمار وتهجير، وكانت مواقف وتصريحات عدد من الوزراء والنواب والكتل السياسية توحي بوقوع الحدث لأنه جاء بناء لطلبها وتحريضها بعد أن كررت مراراً، بأن وقت الخلاص من سلاح حزب الله اقترب، ولبنان سيكون خالياً من أي سلاح غير شرعي في القريب العاجل.

واعتبرت واشنطن، أن أسر الجنديين الإسرائيليين في جنوب لبنان، هي المناسبة التي كانت تبحث عنها، فطلبت من الحكومة الإسرائيلية شن العدوان، آملة أن تنجز المهمة خلال أيام قليلة، معلنة بدء مخاض الشرق الأوسط الجديد.

١ ـ الأداء الحكومي

ظهر جلياً منذ إطلاق الرصاصة الأولى للحرب، أن الحكومة اللبنانية برئاسة الرئيس فؤاد السنيورة، كانت مرحبة وغير معترضة على الحملة العسكرية الإسرائيلية، باعتبارها ستأتي بالخلاص المنتظر، وتحقيق ما فشلت من تحقيقه عبر الحوار، بدءاً من القضاء على حزب الله وتجريده من سلاحه، ونشر الجيش في الجنوب، وصولاً إلى الإمساك بكل مفاصل السياسة الداخلية والخارجية، وفق الرؤى التي تتلاءم مع نظرة فريق ١٤ آذار مارس والقوى الخارجية الداعمة له.

حاولت الحكومة وفي جلستها الأولى أثناء العدوان، تحميل حزب الله مسؤولية ما جرى على الحدود، وليس إسرائيل، واعتبار أسر الجنديين الإسرائيليين «مغامرة» تماماً كالتوصيف السعودي ـ المصري ـ الأردني، وطالبت بعقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن الدولي، لاقتناص الفرصة وتدويل الأمر، مبدية الاستعداد «للتفاوض عبر الأمم المتحدة وأصدقاء ثابتين» لمعالجة ما جرى، وكي لا تبدو محرجة أمام المواطنين، استنكرت كأي طرف محايد، العدوان الذي يستهدف المنشآت الحيوية والمدنيين.

أيقن حزب الله، بأن الحكومة ماضية في سياسة التضييق والحصار والاستفزاز، فلم يشأ الرد، وكان ما طلبه هو ألا يخدم الداخل العدوان، وضرورة الحفاظ على الوحدة الوطنية في ظل هذه الظروف القاسية، تاركاً بحث الأمور الخلافية إلى وقت آخر.

اقتصر استنكار الحكومة على سياسة التدمير الإسرائيلية التي استهدفت الجسور وبقية البنى التحتية اللبنانية، فأجرت اتصالات واسعة مع الدول الأعضاء في مجلس الأمن، لتجنيب المنشآت المدنية، مؤكدة احترامها للخط الأزرق ولكل قرارات الشرعية الدولية، وحددت بعد جلستي عمل

استثنائيتين، أنها مسؤولة عن حماية الوطن والمواطنين، والحفاظ على الأمن، والالتزام بكل القرارات الصادرة عن مجلس الأمن. كانت تبعث من خلال موقفها، رسائل سياسية عدة للولايات المتحدة وغيرها، بالاستعداد للتجاوب مع ما يمكن أن يطرح عليها من حلول، ولما كان حزب الله يحاول أن يستفسر عن أسباب هذا الاستعجال في الطرح، كانت الحكومة توحي بأن الخطاب محاولة لامتصاص الغضب الدولي، وتمرير حلول لا تلحق الكثير من الأذى بلبنان.

ولم تمض ٧٢ ساعة على العدوان حتى عمد الرئيس الأمريكي جورج بوش، إلى طمأنة الرئيس السنيورة، بأنه حريص على مساندة الحكومة، وسيمارس ضغطاً على إسرائيل لتجنب عدد من المناطق والمؤسسات الحيوية والمدنية، حتى لا يؤدي ذلك إلى إحراج الحكومة أو إضعافها. ودعا السنيورة في اليوم الرابع للحرب. وبعد ازدياد موجة النزوح من الجنوب والبقاع، واشتداد القصف والتدمير، إلى وقف شامل وفوري لإطلاق النار ترعاه الأمم المتحدة، يفسح في المجال أمامها وأمام الدول العربية والجهات الدولية الصديقة بالتعاون مع الحكومة لمعالجة الوضع، والعمل على بسط سلطة الدولة على كل أراضيها بالتعاون مع الأمم المتحدة، وفي ذلك إشارات واضحة إلى تقديم اقتراحات حلول قائمة على نشر الجيش اللبناني إضافة إلى قوات متعددة الجنسيات في الجنوب، وإبعاد حزب الله عن الحدود.

لكن الولايات المتحدة وإسرائيل، مضتا في تنفيذ خطتهما، فلم يعيرا الحكومة ولا أي طرف عربي أو دولي، آذاناً صاغية بشأن وقف العدوان، رغم أنهما لمستا العد العكسي ميدانياً، فحاولتا أخذ متسع من الوقت لاستكمال الضغوط والهجمات العسكرية والغارات الجوية المدمرة تحديداً

علها تسفر عن نتائج أفضل فسارع السنيورة إلى توجيه رسائل خطية إلى الملوك والرؤساء العرب وضعهم فيها بالخطر الذي يتهدد لبنان، والذي يمكن أن يعيده خمسين سنة إلى الوراء، طالباً منهم بذل المساعي لوقف النار، غير أن أحداً لم يستجب، واقتصرت المواقف على العبارات الإنشائية والمجاملات.

شعر السنيورة بالحرج، لكثرة التصريحات التي أطلقها الأمريكيون والأوروبيون، وممثل الأمين العام للأمم المتحدة لتطبيق القرار ١٥٥٩ تيري رود لارسن وآخرين، دعماً للحكومة اللبنانية، وإبداء الخوف عليها، فرد السنيورة: «اتركونا ونحن نكون بخير».

وفي اليوم الثالث عشر للعدوان، أي في ٢٤/٧/٢٠٠٦م، قدمت وزيرة الخارجية الأمريكية إلى بيروت، للقاء السنيورة وفريق ١٤ آذار/ مارس. استمر اللقاء الأول حوالي ساعتين، استمعت فيها رايس إلى مطالب الحكومة، وكان أبرز ما قاله السنيورة، هو أن العدوان لا يستهدف حزب الله، بل بات يستهدف لبنان، وهو يعيد البلاد إلى الوراء عشرات السنين وظهر من النقاش الذي دار بين الطرفين، تباين في أولويات الحل، ثم استكملت رايس محادثاتها مع عدد من أقطاب ١٤ آذار/ مارس، في مقر السفارة الأمريكية في عوكر، وكان من بين الحضور: النائب وليد جنبلاط، والرئيس الأسبق أمين الجميل، والنائب بطرس حرب، ورئيس حزب الوطنيين الأحرار دوري شمعون، والنائب السابق نسيب لحود، والنائب مصباح الأحدب، والوزيرة نائلة معوض وكارلوس إده، حاولت المسؤولة الأمريكية إيهام الحاضرين بأن الأداء الإسرائيلي جيد، وهو سيخلصهم من حزب الله قريباً، لكنها اشترطت مساعدتهم في هذه الحرب، من خلال تصعيد اللهجة ضد المقاومة وسلاحها.

وفي منتصف فترة الحرب تقريباً، بدأت الحقائق الميدانية تتكشف وتبين أن قوات الاحتلال الإسرائيلية عاجزة عن اجتياح الجنوب، بعد أن تكبدت خسائر جسيمة في المجالات كافة، ما أدى إلى تعديل في لهجة الحكومة والكثير من الأطراف الأخرى، وقد عكس ذلك الرئيس السنيورة أثناء مشاركته في افتتاح المؤتمر الدولي في روما، الذي دعا فيه إلى وقف فوري وشامل لإطلاق النار، والتعهد بإطلاق الأسرى والمحتجزين اللبنانيين والإسرائيليين عن طريق لجنة الصليب الأحمر الدولي، وانسحاب الجيش الإسرائيلي إلى خلف الخط الأزرق وعودة النازحين إلى قراهم، والتزام مجلس الأمن وضع منطقة مزارع شبعا وتلال كفرشوبا تحت سلطة الأمم المتحدة حتى ترسيم الحدود، وبسط الدولة سيادتها على كامل أراضيها، وتعزيز القوة الدولية العاملة في جنوب لبنان، وإعادة العمل باتفاق الهدنة عام ١٩٤٩م، ولكن مجلس الوزراء الذي انعقد بعد ذلك اشترط على السنيورة الذي كلف بمتابعة الاتصالات والتفاوض، أن يلتزم بقرارات المجلس إزاء أي اقتراح أو فكرة يطرحها، بعد مناقشتها واتخاذ موقف جماعي بشأنها داخل المجلس، غير أنه اتضح لاحقاً أن السنيورة لم يتقيد بذلك، فتصاعد الخلاف والتوتر أكثر من مرة بينه وبين وزراء حزب الله.

وشكلت مجزرة قانا الثانية التي ذهب ضحيتها عشرات الأطفال والنساء والشيوخ، جراء القصف الإسرائيلي، نقطة تحول جديدة في الأداء الرسمي، لأن العمل الإجرامي تجاوز كل الحدود السياسية والأمنية، ليعمق الجرح الإنساني في الصميم، وأعلن السنيورة أنه من الطبيعي أن يرد حزب الله على المجزرة «فخطوة من هنا تستدعي خطوة من هناك، وطالما هناك عدوان على لبنان، فهناك رد يمارس[1].

---

(١) السفير: ٣٠/٧/٢٠٠٦م

وعقد جلسة استثنائية لمجلس الوزراء، حمّل خلالها إسرائيل مسؤولية المجزرة، وأعلن تاريخ ٣١/٧/٢٠٠٦م، يوم حداد وطني، معتبراً أن الأعمال العدوانية الإسرائيلية تقع في خانة الاعتداء على الإنسانية وجرائم الحرب، فكل ادعاءات قادة العدو لتبرير المجزرة فاشلة.

وتلقى السنيورة على أثر ذلك، سيلاً من الاتصالات العربية والإسلامية والدولية، نددت بالجريمة الوحشية، وأعلنت وقوفها إلى جانب لبنان.

وحث رئيس الحكومة الدول الإسلامية في مؤتمر القمة الإسلامية الذي انعقد في كوالالامبور، دعم وتأييد لبنان في محنته، وبكى مرتين أمام المؤتمر الطارىء لوزراء الخارجية العرب الذي انعقد في بيروت، نتيجة ما وصل إليه الوضع المأساوي في لبنان، طالباً من المشاركين تقديم العون السياسي والمادي والمعنوي للحكومة لمواجهة الأزمة القائمة.

إلا أن لهجة السنيورة وبعد اتصالات مع رايس وعدد من زعماء العالم، تغيرت عند البحث في تطبيق القرار ١٧٠١ ونشر الجيش في الجنوب، حاول رئيس الحكومة انتزاع موافقة حزب الله على نزع سلاحه، وهذا ما لم يشر إليه القرار الدولي، فثارت ثائرة حزب الله، وقد احتدم النقاش في مجلس الوزراء بهذا الخصوص، إلى أن تم التوافق على صيغة مقبولة، وهذا ما حدثني حوله كبار المسؤولين في حزب الله:

٢ ـ الخلافات بين حزب الله والحكومة

كشف لي نائب الأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم، حقيقة العلاقة المتوترة مع الحكومة، أثناء اتخاذ القرارات المصيرية، فأوضح أنه للأسف الشديد، ومنذ اللحظة الأولى توترت علاقتنا مع الحكومة، لأن البيان الصادر عنها في اجتماعها الأول بعد العدوان، تبرأ من العملية

العسكرية بالكامل. وصدر بطريقة تبين للعالم وللرأي العام أن حزب الله هو الذي دخل هذا المدخل، والحكومة لا علاقة لها ولا تتحمل أي مسؤولية، ولا تغطي ولا تتبنى.

لم نكن موافقين على هذه اللغة التي استخدمت. وبررها رئيس الحكومة بأنه يريد منها أن يستدرج قراراً دولياً كما وعد بإيقاف المعركة، تحت عنوان: إن الحكومة غير مسؤولة، وبالتالي أي عدوان على لبنان لن يطال فئة واحدة بل سيؤثر على بُنية البلد بشكل عام، وبما أن الحكومة غير مسؤولة إذن يمكن أن يتوقف العدوان.

نحن لم نتوقف عند هذا التبرؤ من كل ما حصل، حتى لا نحدث جدلاً سياسياً، في الوقت الذي كنا نحتاج فيه إلى حالة من الالتفاف والتعاون بين جميع الأطراف، إذ لا يعقل أن يثير أي إنسان جدلاً أو انقساماً في داخل المعركة، حتى لو كان رأيه مخالفاً للرأي الآخر. تحمّلنا من أجل أن نصرف الأنظار إلى المعركة بشكل مباشر، ثم بعد ذلك، من خلال المتابعة، لاحظنا أن الأداء لم يكن أداء يأخذ بعين الاعتبار تحقيق إنجاز للمقاومة وللبنان، صحيح أن رئيس الحكومة برر بالإعلام أنه كان ينقل ما كان يقال له، لكننا نفهم من خلال النقاش كيف كان الحماس باتجاه إنهاء هذا العدوان، مع إنهاء وجود سلاح المقاومة. وأحيلك إلى التعبير المشهور الذي استخدم في الأيام الأولى من رئيس الحكومة أو من فريقه، عندما كانوا يقولون نحن نريد أن ينتهي العدوان على لبنان، لكن من ضمن حل شامل، ويقصدون بالحل الشامل، إنهاء سلاح حزب الله، والتسليم بالخسارة الكاملة للمقاومة في هذا العدوان، وهذا ما كنا نرفضه، ولا أُخفي هنا، أن النقاط السبع التي أعلنها رئيس الحكومة في مؤتمر روما، لم تكن منسقة معنا كحزب، وهو بعد أن أعلنها في روما، جاء بها إلى مجلس

الوزراء وأراد أن يتخذ قراراً بتبنيها داخل المجلس، هنا حصل جدل في مجلس الوزراء، هل يعقل أن نعلن النقاط السبع من دون تنسيق؟

فاتفقنا في جلسة مجلس الوزراء، والمحاضر تشهد على ذلك، أن النقاط السبع التي أعلنت يتم الموافقة عليها من حيث المبدأ والعناوين، لكن كل نقطة من النقاط يجب أن تناقش مجدداً في مجلس الوزراء لتحديد تفصيلاتها وارتباطها بالنقاط الأخرى. أي خرجت النقاط السبع عن كونها مشروعاً تفصيلياً متكاملاً، لتكون عبارة عن إعلان مبادىء وإعلان نوايا، وهذا الإعلان يحمل التفاسير التي يطلقها كل طرف كما يفهمه، واتفقنا على هذا، لكن ما صدر بعد ذلك عن مجلس الوزراء من تصريحات وخاصة من رئيس الحكومة، حاولت أن تؤكد بأن النقاط السبع متفق عليها مئة بالمئة ولا يوجد من يخالفها، وبالتالي هي أُمور محسومة ومنتهية، دون التعرض لوجود تفاصيل ونقاش وعودة إلى مجلس الوزراء.

حاولنا أن نعبّر عن هذه الإشكالية من دون أن نحدث بلبلة، وبرز في وسائل الإعلام وقتها بشكل واضح، أننا معترضون على تفاصيل النقاط السبع، وموافقون على المبدأ، وأنه يجب أن نناقش لاحقاً، حتى أن الاقتراح الأول الفرنسي الأمريكي، لم يكن اقتراحاً من أمريكا وفرنسا فقط، علمنا أن بعض من في الحكم في لبنان، ولا أُريد هنا أن أدخل في التسميات، كانوا قد أعطوا موافقة على أن يكون هناك قوات متعددة الجنسيات، وأن يكون هناك فصل سابع، ووجدنا أن هذا الأمر كارثة، لأنه سوف يؤدي في النهاية إلى تحقيق كل أهداف إسرائيل بالسياسة بالوقت الذي لم تحقق فيه هذه الأهداف بالعمل العسكري، ولم تستطع أن تتقدم شبراً واحداً، ولم تستطع أن تمنع الصواريخ من الانطلاق إلى داخل فلسطين المحتلة.. رفضنا وأعلنا أننا سنستمر في المواجهة وصد العدوان، وبالفعل

أثّر موقف رجال المقاومة في صد الاعتداءات وبالاستمرار بالعمليات، وأثّرت هذه الشجاعة المنقطعة النظير، وكذلك الالتفاف الشعبي غير المتوقع من قبل الآخرين الذي شكّل حاضنة حقيقية على الرغم من التهجير والصعوبات، وأقصد هنا بالالتفاف الشعبي من الحاضن والمحضون على حد سواء على مجريات الواقع أذهل الإسرائيليين والأمريكيين ومن وراءهم ومن معهم، بأن هذه المقاومة صامدة، وهذا الشعب صامد، إذن كيف يمكن أن يستمروا، هنا جرى تعديل القرار باتجاه القرار ١٧٠١ الذي كانت لنا تحفظات عليه، لكن قلنا إنه من حيث المبدأ يمكن القبول به، وبعض التفاصيل يمكن مناقشتها لاحقاً.

دخلنا إلى مجلس الوزراء من خلال الوزيرين محمد فنيش وطراد حمادة، ولا زلت أذكر هذه الحادثة لما لها من أثر مرّ، وكان اليوم هو يوم سبت، والتاريخ هو ١٢ آب/ اغسطس ٢٠٠٦م، وكل الأجواء تشير إلى أن القرار ١٧٠١م سيتخذ ويقرر وأن وقف الأعمال العدائية مطروح في أن يكون يوم الاثنين ١٤ آب/ اغسطس الساعة الثامنة مساء، وفي جلسة مجلس الوزراء السبت بعد الظهر، تم نقاش القرار ١٧٠١، وعرض الوزراء ملاحظاتهم، كانت لدينا ملاحظات، وحركة أمل كان لديها ملاحظات، وحتى بعض الوزراء الآخرين كانت لديهم ملاحظات، لكن الاتفاق تم في نهاية المطاف على الموافقة على القرار ١٧٠١ مع بعض التحفظات التي لا تمنع الموافقة.

هنا انبرى رئيس الحكومة في داخل الجلسة، وقال: وماذا عن سلاح حزب الله في جنوب نهر الليطاني؟ فقال له الوزير فنيش: هذا الأمر نناقشه بيننا ولا علاقة له بالقرار ١٧٠١، فأصر رئيس الحكومة سماع الجواب على هذه المسألة، وهو يريد الجواب الذي يؤدي إلى: إما تسليم السلاح إلى

الدولة، أو لقوات الطوارىء، أو سحبه بالكامل، أي يريد منطقة منزوعة السلاح. فرفض الوزير فنيش هذا المنطق، وإذ بعدد من الوزراء من فريق السلطة ينبري ليدافع عن وجهة نظر رئيس الحكومة، ويطرح أحدهم بأننا يجب أن نعلن عدم الموافقة على القرار ١٧٠١، كضغط على حزب الله، على قاعدة أنه لو خرج مجلس الوزراء بعدم الموافقة على القرار الدولي، سيقال إن الحزب لا يريد وقف الأعمال العدائية، وهو يتحمل مسؤولية الاستمرار في المعارك، وهنا ناقش الوزير فنيش كممثل عن الحزب، أننا يجب أن نفصل بين الموافقة المتحفظة التي تعني سريان القرار ١٧٠١، وبين مناقشة موضوع السلاح الذي ليس له علاقة بهذا القرار، وبعد جدل طويل، تم الاتفاق على إعلان مجلس الوزراء الموافقة على القرار ١٧٠١، شرط أن تنعقد جلسة في اليوم التالي، يوم الأحد لنقاش موضوع السلاح، وقد وافق فنيش لننتهي من موضوع القرار ١٧٠١، وعندما طلب أن تكون الجلسة الاثنين أو الثلاثاء كي نأخذ وقتنا لنقاش هذا الموضوع والإجابة الداخلية لأنه شأن لبناني، أصر الرئيس فؤاد السنيورة أن يكون الجواب يوم الأحد، وقبل وقف الأعمال العدوانية يوم الاثنين الساعة الثامنة، بحجة أن الدول الأوروبية التي تريد أن ترسل قواتها من ضمن قوات الطوارىء الدولية «اليونيفيل»، لا تقبل إلا إذا عرفت ما الذي سيحصل لسلاح حزب الله، أي إذا عرفت واطمأنت إلى أنه لن يكون هناك سلاح في تلك المنطقة.

أمام الضغط والظروف المعقدة تمت الموافقة أن تكون الجلسة يوم الأحد وبعد أن غادر فنيش جلسة مجلس الوزراء عقدت قيادة حزب الله اجتماعاً وقررت أن تجيب أن السلاح ليس له علاقة بالقرار ١٧٠١، وأننا نتعهد بأن لا يكون هناك ظهور مسلح، لكن ليس مطروحاً نزع السلاح، لأننا سنحقق في السياسة ما لم تحققه إسرائيل في الحرب ولمصلحة إسرائيل،

وإذا أصر مجلس الوزراء على هذا الأمر، فنحن لن نلتزم بأي خطة لسحب السلاح، فإما أن نتفاهم لأن يكون الحل بالتفاهم على النتيجة، وإما أن يأخذ الآخرون الخيارات التي يريدونها لكن لن نسلم هذا السلاح ولن نعطي إسرائيل مكسباً سياسياً كبيراً، وأبلغنا هذا الموقف إلى رئيس مجلس النواب نبيه بري، وبدأ مسعاه لكي لا تنعقد جلسة مجلس الوزراء يوم الأحد بعد الظهر، فتتفجر من داخلها، لأنه سيكون هناك مأزق كبير بين من يريد نزع السلاح ومن لا يقبل بنزع السلاح، وستصبح المشكلة بيننا، وهذا لن يسهل انتشار الجيش ولا مجيء قوات الطوارئ، وسيصبح عقدة أمام القرار ١٧٠١، وبنتيجة المداولات تم الاتفاق على تأجيل الجلسة إلى يوم الثلاثاء أي بعد وقف الأعمال العدائية يوم الاثنين، ثم تأجلت مرة أخرى إلى يوم الخميس، إلى أن اتفقنا على صيغة، أعلنها مجلس الوزراء لاحقاً، وكانت صيغة مكتوبة اتفق عليها خارج الجلسة، بالتزام المقاومة بعدم وجود مظاهر مسلحة وتسهيل عمل الجيش وقوات الطوارىء في حفظ الأمن في منطقة جنوب النهر، على أن لا تحصل مداهمات ولا تفتيش عن الأماكن المختلفة، أما شباب الحزب هناك، فهم شباب القرى، وبالتالي سيكونون كمواطنين عاديين، من حقهم أن يتجولوا وأن يتنقلوا وانتهت المسألة عند هذا الحد.

هنا من خلال الاستعراض يتبين تماماً، أن الحكومة لم تكن تعمل لتحتضن نتائج عمل المقاومة، ولتكون متماسكين أكثر في مواجهة العدوان، بل كانت تسبب إرباكات وتعطي إشارات خاطئة ربما ساهمت في تطويل مدة العدوان. نعم لم يصل الأمر إلى أن نتصادم ونكون في اتجاهين متعاكسين، لأنه في النهاية هناك وقائع لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار، ومن يريد أن يخلص البلد من المأزق، لا يمكن أن يتصرف إلا بتفاهم مع الأطراف

الأخرى، والحمد لله استطعنا أن نقطع هذه المرحلة، بانتصار سياسي وعسكري كبير، بدأنا نلمس نتائجه من خلال إعلان الهزيمة الرسمية والمتكرر يومياً في إسرائيل بما حصل من هذا الصمود الرائع. نحن تعبنا في الحرب من طريقة أداء الحكومة، وكان يمكن أن يكون الأداء أفضل، وكان يمكن أن لا تعطل بعض الأمور أو تؤجل، كذلك كانت هناك جوقة إعلامية سياسية تحاول أن تضع العراقيل أمامنا من خلال ما كانوا يثيرونه من تساؤل يومي تقريباً، حول من سبّب العدوان ومن يتحمل مسؤولية العدوان، في الوقت الذي يفترض أن يكون اتجاه المعركة هو في صد العدوان وليس في السؤال عن الأسباب والنتائج، إلا بعد أن ينتهي هذا العدوان.

استطعنا أن نقطع هذه المرحلة، لكن لا نخفي أننا تألمنا من طريقة المتابعة التي لم تكن مناسبة مهما أعطيت من مبررات، وكان يمكن أن نكون أكثر تماساً، وربما حققنا أفضل في المتابعة التفصيلية، على كل حال هي مرحلة مرت ولم تنعكس على النتائج النهائية لانتصار المقاومة بحمد الله تعالى.

أ ـ فنيش يكشف التفاصيل

بدوره وزير الطاقة والمياه محمد فنيش (حزب الله). شرح لي بالتفصيل، المناخ الذي ساد داخل أروقة مجلس الوزراء، أثناء العدوان، والنقاشات العاصفة التي دارت بينه وبين رئيس الحكومة، فقال:

كان مجلس الوزراء بقسمه السلطوي منذ بداية العدوان، يتعاطى مع الموضوع باتهام للمقاومة، وتحميلها المسؤولية، وبقي هذا الأمر على مدى الأسبوع الأول من الحرب، تم التعبير عنه بالبيان الذي صدر عن مجلس الوزراء، الذي أشار إلى أن الحكومة لم تكن على علم. ولم تكن لتتبنى ما

حصل. وقد اعتبرنا هذا الكلام تبرؤاً من المقاومة، وحاولنا أن لا نبرز الخلافات السياسية بيننا وبين هذا الفريق. من خلال إيجاد مخارج لبقاء الحكومة متماسكة، لكنهم أصروا على موقفهم، واكتفينا بالاعتراض، لكنه كان واضحاً في حساباتنا أنهم كانوا يريدون هذا الموقف للقيام بنشاط دبلوماسي علّه يساعد الحكومة بعلاقاتها الدبلوماسية، أن تحد من تمادي الإسرائيلي في إطالة أمد العدوان، وتبين أن الموضوع عكس ذلك، إنه تعبير عن موقف سياسي إذا ربطناه في المواقف اللاحقة، يتماهى مع المشروع الأمريكي، ويريد أن يحقق من خلال العدوان ما كان مطروحاً على طاولة الحوار من رؤيا لهذا الفريق، وهناك محطات عديدة تؤكد هذا الاستنتاج.

أولاً: كشفت لغة بيان مجلس الوزراء وكأن إسرائيل أصبحت خارج دائرة الأعداء للبنان وتحولت جلسات كثيرة للمجلس إلى التركيز على أن المشكلة بوجود المقاومة وليس العدوان الإسرائيلي.

وعندما طال أمد العدوان، خفّت لهجة التشكيك، وتبين أنه ليس صحيحاً أن المقاومة تتحمل المسؤولية، ولا التحليل القائل أنه لولا عملية أسر الجنديين الإسرائيليين لما كان هناك عدوان، تبين أن هناك مشروعاً إسرائيلياً وأمريكياً غير متصل بالعملية إلاّ من حيث الاستفادة من توقيتها كذريعة لقرار أمريكي لتصفية حساباتها مع المقاومة، واعتبار هذه العملية الفرصة المؤاتية لحسم الوضع السياسي في لبنان، بعدما فشلت الوسائل الأخرى في إيصال القرار ١٥٥٩ إلى أهدافه. ومنها جوهرياً بالحسابات الأمريكية، موضوع المقاومة. وبتقديري أن الموقف الأمريكي من القرار ١٥٥٩ لا يعنيه الوجود السوري في لبنان، ولا يعنيه الانسحاب السوري، ولو قبل السوري إنهاء دور المقاومة، لم تكن لدى الأمريكي مشكلة أن تبقى سوريا أو تغادر، المشكلة الأساسية في هذا القرار الدولي في زاوية

الحسابات الأمريكية هي المقاومة، لأن ذلك يمس بأمن الكيان الصهيوني، ويحدّ من قدرة هذا الكيان على إعادة لعب دور مساعد للمشروع الأمريكي في المنطقة، مما جعل الأمريكي يأتي إلى العراق بنفسه، بدل أن تقوم إسرائيل بلعب هذا الدور، وبالتالي تبين أن الكلام عن مسؤولية المقاومة في غير محله، وفريق السلطة لم يقتنع، لكنه مع حجم الاعتداءات والوحشية الإسرائيلية، بدأ على الأقل يخجل من أن يجهر بموقفه السجالي معنا بتحميل المقاومة مسؤولية العدوان.

ثانياً: المحطة الثانية كانت قد بدأت مع الجهود العربية في مرحلة ما قبل العدوان، منها موضوع قمة الخرطوم، التي ذهب أثناءها رئيس الحكومة فؤاد السنيورة على أساس أنه لا يريد أن يكون ضمن الوفد مع رئيس الجمهورية إميل لحود، ذهب كي يساجل في مسألة إدراج كلمة المقاومة في البيان الختامي للقمة، ويفصح عن موقف واضح، أن الموضوع هو التقاط فرصة سياسية مؤاتية، ضمن تناغم سياسي مع الأمريكي، من أجل عدم إعطاء المقاومة قوة دعم لتصديها لدورها ومشروعها، وعدم السماح للمؤسسات العربية الرسمية أن تعبّر عن هذا الدعم، وهذا كان متناغماً مع مواقف بعض الدول العربية التي حملت المقاومة منذ بداية العدوان المسؤولية. واعتبرت أن ما قامت به «مغامرة» وكان واضحاً أن السنيورة مناقض لما طرحه مع البيان الوزاري، وكان يظن مع فريقه أنه يمكن أن يفصل بين المقاومة والحكومة، وأن الحكومة لا تغطي المقاومة، وعمل المقاومة لا يحظى بالمشروعية الداخلية، وكان استحضار لكل المرحلة السابقة التي شكلت برأيي المناخ المؤاتي لمثل هذا العدوان، إذ لم يكن عبثاً تناول المقاومة بالتجريح والتشكيك في خطاب قوى ١٤ آذار/ مارس، أي فريق السلطة، والتصويب على المقاومة بمناسبة وبغير مناسبة كان كل ذلك تمهيداً لتحضير الرأي العام

اللبناني لإسقاط هالة المقاومة في نفسه ولجعل المقاومة مشروعاً يتناقض مع إجماع اللبنانيين، وتصوير الأمر كأن المقاومة نقيض لمشروع الدولة وهي ضد اتفاق الطائف، وهذا ما مكّن الإسرائيلي من توظيفه والاستفادة منه في كل مراحل العدوان، من ضمن الآلة الإعلامية الإسرائيلية التي جعلت العدوان كأنه دعم للدولة اللبنانية في مواجهة المقاومة بالاستناد إلى رأي هذا الفريق، وكانت هذه إحدى الثغرات الكبيرة التي استفاد منها الإسرائيلي باسم أداء الفريق الحاكم، ليقول إنه قادم لدعم حكومة السنيورة وهو يقاتل جهة خارجة عن القانون، وجهة خارجة عن الشرعية الرسمية، ووظف ذلك في المنتديات الدولية، فالمندوب الإسرائيلي في مجلس الأمن كان يستشهد بأقوال وزراء لبنانيين ليبرر عدوانه، ويعتبر بأنه استناداً لهذه الأقوال فإن ما يقوم به الإسرائيلي ليس متعارضاً مع الدولة اللبنانية، وأن مشكلة الدولة ليست مع إسرائيل إنما مع المقاومة. وللأسف أعطى هذا الفريق للإسرائيلي سلاحاً إعلامياً سياسياً في المحافل الدولية كي يغطي عدوانه.

ثالثاً: موضوع المشاريع، حيث كنا في البداية نقول إن موقف الحكومة يجب أن يكون حازماً تجاه المؤسسات الدولية، وليس هناك أي كلام سياسي قبل وقف الاعتداءات، وكان فريق ١٤ آذار/ مارس داخل الحكومة، يعبّر بطريقة أخرى ويقول بأنه يريد حلاً شاملاً، وهذه المقولة ـ وهنا كنا نسجل تناغماً في المواقف وتطابقاً ـ ليس فقط في المضمون إنما حتى في المفردات، بين واشنطن وباريس وتل أبيب وبيروت وبعض العواصم العربية، لأن الحل الشامل يعني إعطاء ذريعة للعدوان الإسرائيلي للاستمرار، لأن هذا الحل قد يستغرق وقتاً، وبمقولة الأمريكي فإن الحل الشامل يعني إنهاء المقاومة وإجبارها على الاستسلام، وبمقولة الفريق الحاكم، أنه كي يتم وقف العدوان لا بد أن نجد حلاً لمشكلة مزارع شبعا وسلاح المقاومة، وكنا نقول: إن مقولة

الحل الشامل التي تطلبونها، ظاهرها استرجاع المزارع وباطنها إطالة فترة الاحتلال، لأن الحل الشامل لا يفرض لا بأسبوع ولا بأسبوعين ولا ثلاثة أسابيع وكأنكم تسمحون لإسرائيل أن تتملص أمام المجتمع الدولي وللولايات المتحدة أن توظف المؤسسات الدولية بانتظار الحل الشامل، وهذا ما حصل، إلى أن وقعت مجزرة قانا، عندئذٍ أحرج رئيس الحكومة، واتصل به رئيس مجلس النواب نبيه بري، وقال له: ليس هناك أي كلام قبل وقف العدوان لأن كل المبادرات الدولية، وزيارات الموفدين الدوليين كانت تركز على:

١ ـ نزع سلاح المقاومة.

٢ ـ انسحاب حزب الله من جنوب نهر الليطاني.

وهذا كان واضحاً في أداء مجلس الوزراء الذي كان متناغماً من قِبَلِ هذا الفريق سياسياً، خارج دائرة المواجهة الجارية، فبينما كانت المقاومة تسجل صموداً وبطولات رائعة، وكان العدوان يتقهقر أمامها، هذا الاستثمار الميداني لم يكن له علاقة في الحركة السياسية التي كانت في مكان آخر.

هذا الانفصال الذي فرضه فريق السلطة في العلاقة بين الوظيفة الدبلوماسية ودور المقاومة، هو الذي تسبب بالسماح للأمريكي بإطالة أمد العدوان، وفي تقدير قرار لمجلس الأمن بقوات متعددة الجنسيات بناء للفصل السابع.

رابعاً: كانت هناك محطة مفصل، هي محطة مؤتمر روما، فقبل ذهاب السنيورة إلى روما، طلب مني أن ألتقيه، فاجتمعنا، وأخبرني أن وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليسا رايس زارته وأبلغته سبع نقاط، وطلب مني أن

أناقشه، وقال: لن آخذ موقفاً يقسم اللبنانيين، فأثنيت على ذلك، وقلت له: هذا هو الموقف المطلوب، وقال: سأذهب إلى روما وعندما أعود نكمل النقاش.

وفوجئنا أنه عندما سافر إلى روما أطلق المبادرة ذات البنود السبعة.

ب ـ كدنا نفترق لولا تدخل لحود

وأضاف فنيش: وإذا أجرينا مقارنة بين هذه البنود وما طرحته رايس، نلاحظ أن السنيورة حاول أن «يتشاطر»، بتضمين مطالب وزيرة الخارجية الأمريكية ضمن البنود السبعة، دون أن يتشاور معنا، ودون أن يكون هذا قرار مجلس الوزراء، وعندما التقينا داخل مجلس الوزراء، دار نقاش بيني وبين السنيورة، وسألته: كيف تتفرد باتخاذ مبادرة بهذا المستوى دون أن يناقشها مجلس الوزراء، عندئذ أصر هو أن يقر مجلس الوزراء البنود، فأجريت نقاشاً حول البنود وما يحتويه، وخلصت إلى القول: إن هذه المبادرة ليست مقبولة من قبلنا، لأنها لا تؤدي إلى وقف العدوان، ولا تؤدي إلى وقف إطلاق نار، وعودة المهجرين فوراً، لأن المطلوب في البنود عودة النازحين بشكل ملتبس من خلال ربط عودتهم بمجيء القوات الدولية، صحيح أن الكلام كان يدور حول «اليونيفيل»، إنما رايس كانت تقصد القوات المتعددة الجنسيات، لكن الكلام عن اليونيفيل تناول صلاحيات يفهم منها أن المقصود ليس إدراجها تحت البند السادس، وحسب تعبير السنيورة، أنه صحيح ليس تحت البند السادس، إنما ٦,٩، وهكذا لو أتينا بمبادرة رايس وغلفناها بغلاف لبناني تظهر وكأنها مبادرة وطنية، وقد استمر النقاش حوالي ٤ أو ٥ ساعات حول هذه النقطة، ونحن رفضنا حسم الموضوع بالتصويت داخل مجلس الوزراء، وقلنا له: أنت عبّرت عن رأيك، فلا تلزمنا به في مجلس الوزراء، ونحن لسنا مضطرين للتصويت، ونحن مختلفون في فهمنا لمجموعة من البنود، وكاد مجلس الوزراء يخرج

على فراق، لولا تدخل الرئيس إميل لحود بحكمته، وفتح مخرجاً، ورد على بعض الوزراء الذين أصروا على التصويت حتى لا يتسبب هذا بانقسام، ومقولة أننا لم نلجأ إلى التصويت من قبل فريق ١٤ آذار ليست صحيحة، ففي كل المسائل المصيرية أثناء الحرب التي كنا نختلف حولها، يهدد هذا الفريق بالتصويت، والمخارج التي كانت تطرح هي لإبقاء الحكومة موحدة شكلاً، لأن العدوان ما زال مستمراً ولم نصل إلى حلول.

إذن مقررات روما لم نوافق عليها، وأبدينا تحفظات على الكثير من بنودها، لكن مخرج الرئيس لحود كان: إننا وافقنا، لكن أي بند من هذه البنود يحتاج إلى نقاش تفصيلي داخل مجلس الوزراء حتى نخرج من مسألة الخلاف حول التفسير، وقبلنا كتسوية، وسجلنا تحفظاتنا واعتراضاتنا، فالموافقة على مقررات روما هي موافقة في الإطار العام، لكن عندما نصل إلى التطبيق فإن أي بند من هذه البنود يحتاج إلى جلسة وزارية.

هذا كان المخرج، وقبلناه كي نتوصل إلى تسوية، وكانوا هنا يضعوننا دائماً أن نقبل بالخيار السيئ أو الأكثر سوءاً، وليس القبول بالخيار الذي يعبّر عن قناعتنا، وعن حوار حقيقي بين مكونات الحكومة.

جـ ـ دهاليز القرار الدولي

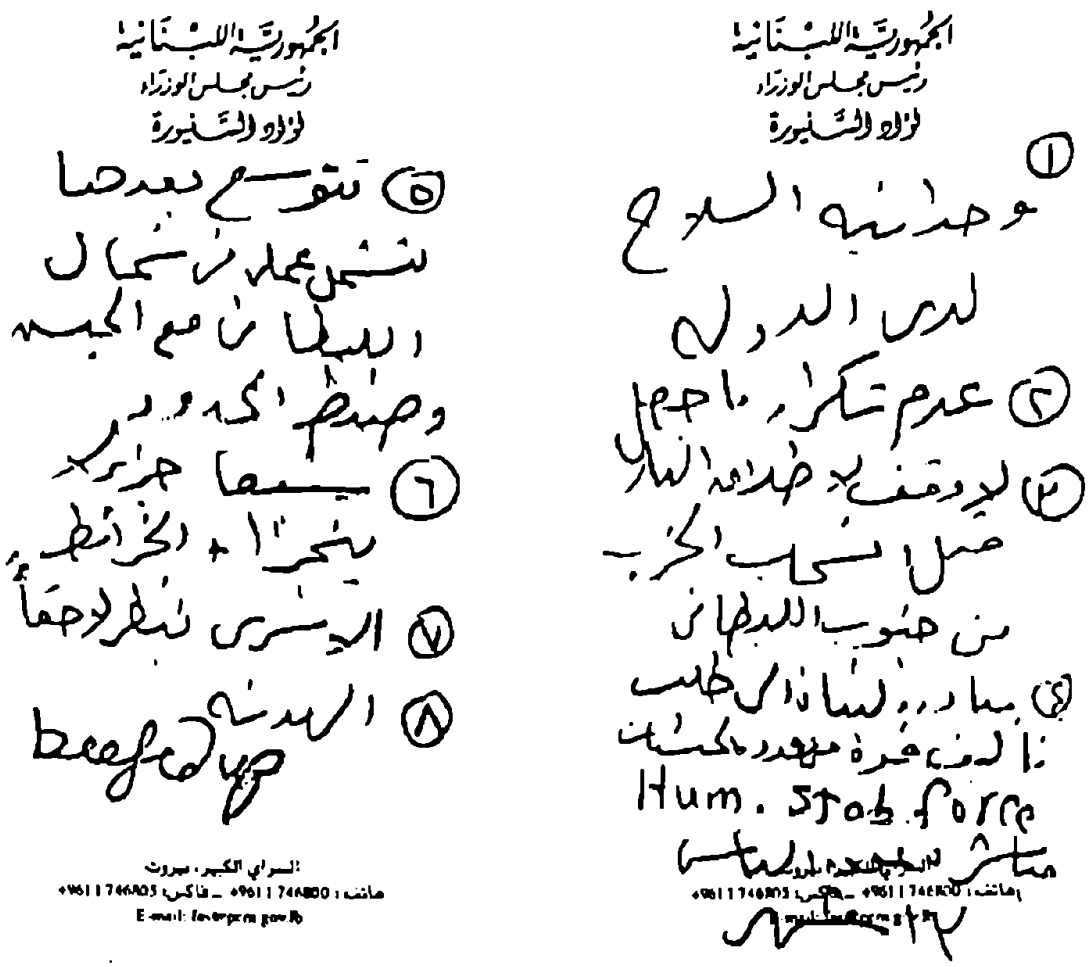
وأوضح الوزير فنيش أنه وما أن انتهينا من مؤتمر روما، حتى دخلنا في دهاليز القرار الذي سيصدر بناء على الفصل السابع في مجلس الأمن، عندئذٍ حصل إشكال كبير، وعقد وزراء خارجية الدول العربية مؤتمرهم في بيروت، والعجيب أن المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة جون بولتون، حليف هذه المجموعة الوزارية اللبنانية، كان يبدي استغرابه من رفض الحكومة، لأنها هي التي أبدت موافقة في الأساس، وتساءل وزير خارجية

دولة قطر حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني، عن أسباب هذا «اللعب»، وقال: إنهم موافقون، وتكرر نفس الأمر في مؤتمر وزراء الخارجية العرب في لبنان، إذ لم يقبل السنيورة إدراج كلمة دعم المقاومة في هذا المؤتمر، واختلف في الرأي مع بعض وزراء خارجية الدول العربية أثناء الجلسة، وحتى بعد أن تكشفت أهداف العدوان، وبعد كل عمليات التدمير التي حصلت جراء هذا العدوان، كان هناك إصرار على عدم إعطاء المقاومة قوة دعم سياسية، وعندما فضحت المقاومة القدرة العسكرية الإسرائيلية لم يعد بمقدور الأمريكي أن يتحمل مسؤولية إطالة أمد الحرب، وبدا له أن هناك عقماً إسرائيلياً.

فالإسرائيلي كان يعمل على قاعدة إخلاء جنوب الليطاني من سلاح المقاومة، وكل المبادرات كانت تركز على هذا البند، لكنه ميدانياً لم ينجح في الوصول إلى هذا الهدف، فالمقاومة بتكتيكاتها وقدرتها على الصمود، لم تمكن الإسرائيلي من تحقيق أي شيء ميدانياً، وبالتالي تعذر تطبيق ذلك عملياً، حتى لو صدر قرار سياسي، هذا الأمر، مكّن من أن يكون هناك إمكانية تعديل في القرار بموقف عربي، وثبات ميداني، لكن للأسف، عندما نعود لقراءة المناظرة بين المندوب اللبناني وزير الخارجية بالوكالة آنذاك طارق متري، والمندوب الإسرائيلي، ليس لنقص بكفاءة متري، لكن لأن سقفه السياسي بأن الحكومة لا تلتزم بالمقاومة، بدا المندوب الإسرائيلي هجومياً على لبنان من خلال هجومه على المقاومة، بينما الموقف اللبناني دفاعي لأنه لا يريد أن يتبنى المقاومة. وهذا سبّب أمام الرأي العام العربي ظهور الموقف اللبناني بأنه ضعيف والموقف الإسرائيلي أمام العالم بأنه قوي، فالمنطق الذي استخدم من قبل فريق السلطة في لبنان أثناء العدوان ركز على: الطائف، الدولة، ووحدانية السلاح، وكنا نسأل: ماذا تريدون

دعم صمود البلد في مواجهة العدوان وقطع الطريق عليه، أم أنكم تريدون توظيف العدوان لتحقيق هدف سياسي لكم؟ بدا واضحاً داخل مجلس الوزراء دعوات بالفصل بين المقاومة ما قبل العدوان وبين العدوان القائم، ولا تجعلوا هذا العدوان وسيلتكم لتحقيق الهدف السياسي الذي تريدون، فما كان يقوم به رئيس الحكومة من طرحه لوحدانية السلاح ومشروع الدولة، يعطي الإسرائيلي مادة إعلامية وسياسية، بينما المشكلة التي كانت مطروحة هي كيف نوقف العدوان وكيف ندعم صمود المقاومة لمنع العدوان من الوصول إلى أهدافه؟.

هذا النقاش داخل مجلس الوزراء كان دائماً مضنٍ، إلى أن وصلنا إلى موضوع الرد على مبادرة القرار ١٧٠١، فكان الطرح لنلعب ورقة الجيش اللبناني، ولنقدم شيئاً. يسحب حجة الفراغ الأمني في الجنوب بعد الانسحاب، وقيل إن لدى لبنان الاستعداد لإرسال جيشه إلى الجنوب، ووافقنا كي تكون هذه ورقة بيد المفاوض اللبناني، كي يقطع الطريق أمام المشروع الأمريكي الذي يريد استخدام مجلس الأمن لاستقدام قوات متعددة الجنسيات بناء للفصل السابع، وعندما اجتمعنا في مجلس الوزراء. كنا على استعداد لقبول ذلك، فحاول فريق ١٤ آذار في ذلك أن يطرح بالمقابل موضوع سلاح المقاومة ومواقعها، وسلاح المخيمات. عندئذ قلنا إن هذا النقاش غير مطروح الآن، وعندما نصل إلى ذلك نحن مستعدون للبحث في كل نقطة، ونحن الآن موافقون على الاستعداد لإرسال الجيش إلى الجنوب لتستفيدوا بها كورقة في المفاوضات، وعندما يتم قبولها يمكن أن نتكلم في مواضيع أخرى، لماذا تعملون على حرق المراحل؟


الجمهورية اللبنانية
رئيس مجلس الوزراء
فؤاد السنيورة

① وحدة الموقف
لدى الدولة
② عدم تكرار ما حصل
③ لا موقف يحمي المقاومة
حتى انسحاب الحزب
من جنوب الليطاني
④ مساندة لبنان لكل جهد
لإنشاء قوة متعددة الجنسيات
Hum. Stab. Force
مباشر

الجمهورية اللبنانية
رئيس مجلس الوزراء
فؤاد السنيورة

⑤ توسع بعدها
لتشمل عملها شمال
النهر مع الجيش
وضبط الحدود
⑥ سعياً حثيثاً
لتحرير الخرائط
⑦ الأسرى لنطرح جميعاً
⑧ الهدنة
beach head

السراي الكبير: بيروت
هاتف: 9611 744800 ـ فاكس: 9611 744805
E-mail: forempm.gov.lb

* صورة تنفرد بنشرها، تتضمن ثماني نقاط، كتبها رئيس الحكومة فؤاد السنيورة بخط يده إلى حزب الله، كشرط للقبول بوقف إطلاق النار، أبرزها طلب لبنان تأليف قوة متعددة الجنسيات. تنتشر جنوب الليطاني بعد انسحاب الحزب منه، على أن توسع عملها بعد ذلك إلى شمال النهر مع الجيش اللبناني وضبط الحدود.

د ـ أسوأ جلسات مجلس الوزراء

وتوقف فنيش عند أصعب محطة له في مجلس الوزراء. وقال:

كان واضحاً أن كل الحلول لديهم لا تعنيهم بشيء حتى موضوع الجيش وما يهمهم هو نزع سلاح المقاومة، وهذا المطلب لم يكن محلياً، بل كان

فيه تقاطع غريب من بيروت إلى باريس إلى تل أبيب، والتطابق كان كاملاً في التعبير والمضمون أيضاً. وصدر القرار ١٧٠١ بعدما أثبتت المقاومة عجز الأمريكي ـ الإسرائيلي، عن تحويل دور القوات الدولية وعدم قدرة إسرائيل بإنهاء المقاومة وإبعاد سلاحها.

وهنا فوجئنا بأن الرئيس السنيورة، كان يرسل إلى الأمم المتحدة مسودات لم نناقشها في مجلس الوزراء، وفي هذه المسودات تعهدات بنزع سلاح المقاومة، وكان يربط هذا الأمر بموضوعات أخرى، لكن عملياً كان يؤخذ هذا البند والباقي مؤجل. وهذه كانت من مآخذنا على السنيورة. وبالتالي من كان يقود هذه العملية الدبلوماسية، كان هناك جهد دبلوماسي بأن لا يمر هذا العدوان قبل أن يتمكن هذا الفريق من إنجاز هدفه بنزع سلاح المقاومة، وتجلى ذلك بشكل واضح وسافر يوم السبت ١٢ آب/ اغسطس في الجلسة التي سبقت ساعة إيقاف الأعمال العدوانية، أثناء مناقشتنا للقرار ١٧٠١، وكانت لدي مطالعة حول نقاط الإجحاف في القرار، ونقاط التحفظ، وختمت الكلام، أننا مع ذلك سنتعامل مع هذا القرار بما يخدم مصلحة البلد. فانتصبوا وكأنهم لا يقبلون تحفظاً، وقالوا: إذا كنتم أنتم متحفظون فنحن أيضاً متحفظون ولا نريد القرار، وقلت: هل تريدوننا الموافقة من دون شروط، فالإسرائيلي لديه تحفظ، فماذا تقولون، وأنا لا أريد أن أكون أقل من المندوب القطري في الأمم المتحدة الذي أبدى تحفظه على القرار في مجلس الأمن.

أنا أقول لدي هذه التحفظات وقدمتها ومع ذلك قلت سأتعامل مع القرار بما يخدم مصلحة البلد.

وأعاد السنيورة طرح موضوع نزع سلاح المقاومة، وسألنا ماذا يعني ذلك؟

قال الصواريخ، إما أن تسلموها للجيش اللبناني قبل دخول الجنوب، أو تسحبوها إلى شمال نهر الليطاني، وبالطبع كان باقي فريق السلطة متناغماً معه.

قلت له: أنت تطلب شيئاً لم يدرج في القرار، وحصل جدل طويل، قال: كلا يوجد هذا في القرار.

قلت: القرار عندما يتحدث عن منطقة منزوعة السلاح، فإنه ربط ذلك بالحل الشامل، فنحن لم نحرر مزارع شبعا وتلال كفرشوبا، ولا غيرها. ودخول الجيش ليس له علاقة بنزع سلاح المقاومة، ونحن نعد بعدم انتشار أي مظاهر مسلحة معلنة من قبلنا مطلقاً.

قال: كلا، نحن سنداهم أماكن الحزب، وسننزع السلاح.

قلت: أنت تحاول أن تعمل ما عجز الإسرائيلي عن القيام به، ثم نحن نناقش قراراً ليس مشروطاً للموافقة عليه بتسليم السلاح، وهذا كان تصريح الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان. وهذا شأن داخلي، ونحن كلبنانيين سنكمل حوارنا في هذا الموضوع.

قال: لن أوافق على إرسال الجيش إلى الجنوب، دون الموافقة على نزع سلاح المقاومة، وتسليم صواريخكم للجيش، أو نقله إلى شمال نهر الليطاني.

قلت له: هل شمال النهر مقبول؟ أنت تسعى لتحقيق هدف إسرائيل، وليس لضرورات لبنانية، لأنه ماذا يعني القبول بصواريخ شمال النهر وليست مقبولة جنوب النهر، فهذا الكلام غير ممكن، واستمر الجدل حوالي أربع ساعات، وقد تعمّد السنيورة عقد جلسة لمجلس الوزراء قبل اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي. كانت الجلسة يوم السبت وهو لم يكن مضطراً لذلك

وكان بإمكانه تأجيلها ليوم الأحد وبعد مطالبته بتأجيل الجلسة وافق على جلسة صباح الأحد، وعدنا لنطالب بأن تكون الجلسة مسائية لمعرفة نتائج اجتماع الحكومة الإسرائيلة فوافق.

وقال أحدهم داخل الاجتماع: إذا كنت لست مفوضاً بحسم القرار يمكن تأجيل الجلسة حتى يتسنى لك مراجعة بقية قيادة حزب الله.

فسألته: ما الذي حشركم لعقد الجلسة السبت؟ ثم إنني مفوض، وقلت لكم رأيي بالقرار ١٧٠١، وكيف يمكن أن نتعامل معه، وإذا كنتم أنتم ترفضون هذا القرار أعلنوا ذلك بأنفسكم.

وأخيراً أقروا مخرجاً أشاروا فيه، إلى أننا يجب أن نخرج ونقول كلنا لدينا تحفظات لكننا وافقنا مع التحفظ، ثم سنعود غداً لمتابعة النقاش في موضوع سلاح المقاومة.

وكانت هذه الجلسة من أسوأ جلسات مجلس الوزراء التي حضرتها.

هـ ـ قرونا الاستقالة والرئيس بري تدارك الأمر

وتحدث فنيش عن الخط الأحمر والاستقالة وتابع: بعد ذلك التقيت بقيادة الحزب بحضور السيد حسن نصر الله، وكان القرار أننا نحن نتجنب أي مشكلة في الداخل، لكنهم يصرون على الفتنة الداخلية، وما فشل الإسرائيلي في تحقيقه يحاولون هم تحقيقه، وكلفوني أن أذهب إلى جلسة مجلس الوزراء لإبلاغهم خطنا الأحمر، وتحميلهم مسؤولية قرارهم، وتخرج بعد ذلك من الجلسة وتعلن استقالتك من الحكومة.

وجرى اتصال مع الرئيس بري، وأبلغناه قرارنا ووضعناه بتفاصيل ما حصل، فتدارك بري الأمر، واتصل بالسنيورة وعطل الجلسة، حتى لا تحدث أزمة في البلاد.

وكان واضحاً أنهم يريدون تحميلنا مسؤولية عدم الموافقة على القرار ١٧٠١، لأن البعض رأى في أن هذا القرار لم يأت بما يرغب به، وهو يحتاج إلى ذريعة لرفض القرار بالاتكاء على المقاومة. ثم فتحنا موضوع السلاح، وكان المطلوب هو إطالة أمد العدوان. لكن المواطنين لم ينتظروا القرار ١٧٠١ ولا قوات اليونيفيل، وعادوا بالآلاف إلى قراهم ومنازلهم، الأمر الذي خلق أمراً واقعاً جديداً عليهم. ومنذ ذلك الوقت برزت أهمية أن تكون هناك حكومة فيها شراكة بقواعد مختلفة عن الحكومة الحالية.

و ـ تواطؤ داخلي

واتهم السيد حسن نصر الله، عناصر في الداخل، بالتواطؤ في طلب الحرب ومواصلتها، وعندما كان الإسرائيليون يقررون وقف القتال، بسبب العجز، تلح عليهم هذه العناصر بألا يفعلوا ذلك، ويستمروا في العدوان، وتساءل في حوار أجرته معه قناة «المنار» في ١٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٧م، ماذا سيحصل لو هزم حزب الله والمقاومة وكل حلفائها الذين حموها في هذه الحرب؟ ـ وأجاب: إن أول شيء كان سيحصل، هو إحداث تغيير ديمغرافي كبير في لبنان، وفي الحد الأدنى سيكون عدم السماح لمهجري الجنوب والبقاع الغربي بالعودة إلى بلداتهم وقراهم، وبالتالي تحويل الجنوب والبقاع الغربي وكل المنطقة المحاذية لإسرائيل إلى لون مختلف، وبالتالي التمهيد إلى تقسيم لبنان إلى دويلات، وكانت الحرب ستتواصل على سوريا، لإسقاط النظام فيها، وإيجاد حالة من الفوضى العارمة الداخلية، لتؤدي أيضاً إلى تقسيم سوريا إلى جانب العراق الذي يتحضر للتقسيم.

وكشف نصر الله، أن بعض الجهات الرسمية في لبنان، كان يعمل لمنع عودة المهجرين، بحجة عدم وجود وقف إطلاق النار واحتمال تعرض

المواطنين للخطر، غير أن هذا الفريق فوجئ بتدفق الأهالي إلى قراهم وبلداتهم يوم الاثنين الساعة الثامنة صباحاً، بعد إعلان إنهاء الاعتداءات، تماماً كما فوجئت أمريكا وإسرائيل، وترافق ذلك مع الطلب الرسمي اللبناني بعدم العمل على رفع الأنقاض، وتأجيل مساعدة المهجرين والتباطؤ الشديد في ملف الإعمار. لكن إرادة الحياة والصمود والتضحية أفشل كل الرهانات التآمرية.

ز ـ المطالبة بوعد شرف لتسليم السلاح

وكشف المعاون السياسي للأمين العام لحزب الله حسين خليل، جانباً من المعاناة التي كان الحزب يعيشها أيام العدوان، مع السلطة اللبنانية، التي حاولت أن تلعب دور الوسيط للأمريكي والإسرائيلي في نزع سلاح حزب الله، فالرئيس السنيورة، مارس ضغطاً لمقايضة السلاح بوقف إطلاق النار أثناء المفاوضات التي كانت تدور بينه وبين رئيس مجلس النواب نبيه بري بحضور خليل الذي سأله: أنت وكيل عن إسرائيل أم رئيس وزراء لبنان؟

وشرح خليل تفاصيل المعاناة التي كان يعيشها بري في محادثاته مع السنيورة الذي كان يتنصل دائماً من الاتفاقات التي كانت تعقد معه، إلى حد دفع بري إلى مخاطبته: «لا يمكنني أن أستقبل منك شيئاً إلا مكتوباً».

كما كشف خليل، عن رسائل بعث بها النائب سعد الحريري، إلى قيادة حزب الله أثناء العدوان، طلب في إحداها من أمين عام الحزب السيد حسن نصر الله، وعد شرف بأن يسلم الحزب سلاحه مقابل وقف العدوان، وقدّم في مؤتمر صحفي عقده في ١٣ كانون الأول ديسمبر ٢٠٠٦م، نصاً مكتوباً بخط يد الرسول الذي بعثه الحريري إلى الحزب وهو رئيس فرع المعلومات في قوى الأمن الداخلي المقدم وسام الحسن، تثبت هذه الحقيقة، مشيراً

إلى أن لديه الكثير من الرسائل الأخرى التي يمكن الكشف عنها في وقتها في هذا السياق وغيره.

وعن كيفية اللقاء وما دار فيه، أوضح خليل، بناء لإصرار كبير من قبل الحسن، لنقل رسالة الحريري، باعتبار أن هناك أمراً ضرورياً، تم ترتيب وضع أمني معين لنا وله، وفي أول اللقاء، كان كلامه: إنكم رأيتم الأمور والوضع الدولي أين يسير، الأمور ذاهبة باتجاه الفصل السابع، وهذا يعني كارثة موجودة وعلينا أن نرى كيف سنخرج من هذه المحنة، فرد عليه خليل، لا أحد يهوّل علينا بهذه الأمور، هناك حرب وانتصارات للمقاومة، وأي قوات ستأتي سنتعامل معها كما نتعاطى مع الإسرائيليين في ذلك الحين كان يتم التحضير لمشاريع قرارات في الأمم المتحدة، وكان ذلك واضحاً في المسودة الفرنسية الأمريكية وما بعدها..

وأكد أن النائب الحريري، كان يريد التزام شرف من السيد نصر الله، لتحديد الوقت لتسليم السلاح من أجل وقف هذه الحرب، وقال: من المعيب أن يطلب منا ذلك ونحن في هذا الجو والانتصار، نخوض أشرس المعارك، هذا شأن داخلي.

فأجاب الحسن: هذا ينص عليه اتفاق الطائف. فقلنا هذا الأمر المطلوب خطير جداً وأنا أخجل أن أنقله إلى السيد نصر الله، وهو في هذا الموقع من إدارة السياسة والحرب والمعركة والانتصارات. فطلب منا نقل هذه الرسالة بإصرار. وانتهينا من ذلك على أن نأتيه بجواب رسمي، وأنا ذكرته في وسائل الإعلام والمختصر أننا نطلب عدم مقاربة هذا الموضوع في أثناء الحرب، وننصحكم بذلك، وقلت: «عندما تضع الحرب أوزارها، يعود النقاش على طاولة الحوار وبشكل طبيعي، لأن هذا الأمر شأن داخلي لبناني، قبلنا بمناقشته قبل الحرب».

وبين الجلسة الأولى والثانية أبلغته الجواب، وبعث الحسن برسالة مع أكرم سعد، وهو أحد المسؤولين في التعبئة التربوية بالحزب، ومما جاء فيها:

أولاً: أبلغت الشيخ سعد باجتماعنا وتفاصيله، وأوضحت له خوفكم واعتراضكم على القوة الدولية. ورغبتكم بأن تكون تحت إمرة الأمم المتحدة، وأن لا تأتي تحت البند السابع. هذا جوابنا.

ثانياً: كما حرصت على توضيح ما أشرتم به لجهة إصراركم على الحكومة، لأن تعمل على عدم ذكر نزع سلاح حزب الله ضمن القرار الذي سيصدر عن مجلس الأمن، على أن تكون ترجمته العملية من ضمن تطبيق اتفاق الطائف «شأن داخلي»، كي لا يظهر الأمر كأنه يفرض عليكم من أمريكا وإسرائيل.

ثالثاً: لقد عاد واتصل بي صباحاً الشيخ سعد، ليسألني عن موضوع التزام الشرف من قبل سماحة السيد، تجاه موضوع السلاح، وطلب مني أن أسألك إن كان هناك جواب.

حـ ـ مصادرة سلاح المقاومة

وبدت على الشيخ قاسم والوزير فنيش، علامات الأسى، وهما يحدثانني عن مصادرة السلطة لسلاح حزب الله أثناء العدوان؛ فقال قاسم:

حصلت حادثة مشهورة بشأن مصادرة السلاح المتجه للمقاومة. وأعلن عنها بشكل واضح في الفترة الثانية للعدوان، فبعد أسبوعين تقريباً صودرت شاحنة محملة بالسلاح داخل الأراضي اللبنانية من قبل الجيش اللبناني، وعندما سألنا عن السبب ونحن في المعركة، قالوا بأن الأمر مرتبط بقرار سياسي له علاقة برئاسة الحكومة، وجرى اتصال حول هذا الأمر برئيس

الحكومة فؤاد السنيورة، وكان الاتصال عاصفاً، وفهمنا فيما بعد، أن الأمور لم تعد تتابع على مستوى التضييق على السلاح كما كانت في السابق، بسبب الأجواء المحمومة والظروف المعقدة، ثم عندما أعلن أمين عام حزب الله هذه الحادثة، صدر بيان عن الجيش اللبناني، يؤكد مصادرة الشاحنة، لكن يرد أمر الإفراج عنها إلى القرار السياسي من الحكومة، يعني عكس ما حصل، وهو أن الحكومة هي التي أخذت القرار السياسي بمنع مرور السلاح، نحن لم نتوقف عند هذا البيان الذي صدر عن الجيش والذي يؤكد مرة أخرى بأن بقاء السلاح المصادر بالحد الأدنى، هو ناتج عن عدم وجود قرار سياسي بالإفراج عنه، والنتيجة واحدة بالنسبة إلينا. . لم تحصل حوادث أخرى بعد ذلك. إضافة إلى نقطة هامة، أننا لم نكن نجاهر في نقل السلاح بين المناطق، لتغذية ما يحصل في الجنوب، وإنما كانت لنا حركتنا المخفية والمتسترة، ما ساعد على سد النقص الذي احتاجته بعض المواقع، من دون تأثير على بنية الدعم، وللعلم، كل ما قامت به إسرائيل من قصف لشاحنات وسيارات وما شابه لم يطل أي شاحنة أو سيارة أو وسيلة لنقل السلاح، وأستطيع أن أجزم أن لنا شهيداً واحداً من مجموعة الدعم والنقل في أثناء المعركة، والباقون هم شهداء أحياء، أي لم يتعرضوا بشكل مباشر للطيران الإسرائيلي، لأن طبيعة الدعم كانت طريقة مدروسة وخفية، إضافة إلى ذلك فإن ما كان موجوداً في المواقع الأمامية كان يعتبر بالكفاية الذاتية التي لا تحتاج إلى دعم متواصل ومكثف، وإنما تحتاج إلى دعم جزئي ومحدود، وهذا ما سهل عملية التواصل.

وتكررت مصادرة سلاح المقاومة، بعد انتهاء الحرب أيضاً، عندما ضبطت القوى الأمنية شاحنة سلاح متجهة من البقاع إلى الجنوب. وكشف الوزير فنيش عن كيفية تعاطي مجلس الوزراء مع السلاح أثناء الحرب، فقال:

في إحدى جلسات مجلس الوزراء، جرى همس بين وزير الدفاع الياس المر ورئيس الحكومة ووزير الداخلية بالوكالة أحمد فتفت فسأل الوزير: ما الأمر؟ لم يجب أحد، وبعد إلحاح الوزراء، قال المر موجهاً كلامه إلى فتفت: أنا أعرف الضباط الذين يعملون لديك، فلا تصدق كل ما يقدمونه لك.

سألنا: ما القصة؟

قال: جاءت معلومات لوزير الداخلية، بعثها لقيادة الجيش، بوجود شاحنة تحمل سلاحاً وصواريخ، فكشفنا على حمولتها فوجدناه زيتاً.

انتفضت عندئذ وقلت لفتفت: أصبحت المعلومات عندك التفتيش عن كيفية تمرير السلاح للمقاومة، ولو افترضنا أن الشاحنة كانت محملة سلاحاً، هل هذا ممنوع؟ ورفعت صوتي:

سجل عندك أن من حق المقاومة، أن تحصل على سلاح، وأن يصل إليها السلاح في أي وقت، وليس مسموحاً لأحد منعه.

أنا أقدم لك مشهداً يكتمل من المعلومات التي كشفها السيد نصر الله وموجودة لدى الإخوة في الحزب.

كان يبدو أن لدى فريق السلطة وجود التزام بمنع السلاح عن المقاومة أثناء العدوان الإسرائيلي، هل هذا يمكن أن يصدقه عقل، ففي الوقت الذي نقدم فيه التضحيات الجسام، وتتواصل فيه الاشتباكات يقوم البعض بالتضييق على المقاومة لمنع وصول الإمداد لها. هذا الأداء هو الذي حكم الحكومة على المستوى الميداني والأمني أثناء الحرب.

٢ ـ لحود: دعم مطلق للمقاومة

اتسمت مواقف الرئيس إميل لحود بالانحياز الكامل للمقاومة، قبل وأثناء وبعد العدوان، فلم تهزه التهديدات الإسرائيلية ليقينه بأن اللبنانيين سيزدادون وحدة وتماسكاً، وثباتاً خلف مقاومتهم، وكانت رغبته أن يقف العرب وقفة شجاعة، لتدارك المخاطر المحيطة بهم ورأى أن نتائج الاجتماع الطارئ لوزراء الخارجية العرب لم يكن على قدر المستوى، وقام لحود بجولات على مراكز النازحين، للاطمئنان إلى أوضاعهم، معلناً أن لبنان لن يتخلى عن السيد نصر الله. داعياً كل اللبنانيين إلى مساعدة أشقائهم المهجرين من قراهم. واحتضانهم في هذه المحنة القاسية.

وفي أحاديثه للفضائيات الأجنبية أطلق سلسلة من المواقف المؤيدة والمساندة للمقاومة، فأكد أن الجيش اللبناني سيتصدى للعدوان، معلناً رفض إقامة منطقة عازلة في الجنوب، كما يسعى البعض.

وقال لمحطة «راي» الإيطالية: إن الوصول إلى حل، يستدعي العودة إلى جذور المشكلة، وإيجاد حل حقيقي جيد يكون شاملاً وعادلاً للشرق الأوسط وللبنان. وحذر في حديث لمحطة «سكاي نيوز» البريطانية، من أن إسرائيل تدفع الناس إلى اليأس وإذا وصلوا إلى هذا الحد يمكنهم القيام بأي شيء.

وأكد في حديث لمحطة «أن بي سي» الأمريكية، أن لبنان لا يملك جيشاً بإمكانه مواجهة الجيش الإسرائيلي، لكنه سيدافع عن الأرض بأفضل ما يستطيع.

كما أكد لمحطة «آي. بي. سي نيوز» الأمريكية أيضاً أن لبنان سيخرج من أزمته أقوى مما كان عليه، وهزيمة حزب الله صعبة جداً والتاريخ سيذكر أن حزب الله تمكن من الوقوف في وجه إسرائيل، نافياً الوقوع في فخ

المواجهة بين الجيش اللبناني والمقاومة، وقال: إن إسرائيل لا ولن يمكنها إخضاع لبنان، والحرب مهما طالت لن تستطيع القضاء على المقاومة التي هي من صلب الشعب اللبناني، وليست مستوردة من سوريا وإيران كما يحاولون الإيحاء بذلك، وكشف لمحطة «آي. آرتي. آي» الآسيوية، أن إسرائيل هي من تقوم بتحقيق الشرق الأوسط الجديد لأمريكا.

وحذر لحود في حديث إلى تلفزيون «إي بي ان» البريطاني، من أن بقاء إسرائيل في مزارع شبعا، يعني استمرار القتال.

وأعلن في حديث إلى التلفزيون الفنلندي، قبل وقف القتال بثلاثة أيام، عن مفاجأته لمشروع القرار الأمريكي الفرنسي، لأنه لم يشتمل على بند من خطة النقاط السبع التي يدعمها كل اللبنانيين، آملاً أن يؤدي قرار لبنان إرسال ١٥ ألف جندي لبناني إلى الجنوب إلى تعديل هذا المشروع بما يتماشى مع خطة النقاط السبع.

وفي حديثه إلى صحيفة «كلارين» الأرجنتينية، شدد لحود على أن إسرائيل خسرت الحرب، وفشلت في تحقيق أهدافها، ولم يعد بإمكانها التراجع، لأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية، وبالتالي فهي ستستمر في عدوانها، وأكد في مقابلة مع تلفزيون «آي. بي. سي» الأسترالي، أن مسألة سلاح حزب الله شأن داخلي، وهو غير مرتبط بأي شكل من الأشكال بخارج لبنان.

وقال في حديثه لصحيفة «لوس أنجلس تايمز» الأمريكية؛ حتى لو وصل الجيش الإسرائيلي إلى الليطاني، فستواجهه المقاومة، وسيضطر للانسحاب، مشدداً على أن اللبنانيين لا يريدون أن يقوم الجيش اللبناني بنزع سلاح حزب الله، لأنهم يعتبرون أن المقاومة حررت الأرض.

ووصف لحود، في حديث لشبكة «بي. بي. سي» البريطانية، ما حصل

من مواجهات خلال شهر من الحرب الإسرائيلية على لبنان، من وجهة النظر العسكرية، بأنه انتصار حقيقي لا بد أن يسجله التاريخ العسكري.

وفي حديثه إلى صحيفة «نيويورك تايمز»، قال لحود: إن إسرائيل لم تستطع أن تحقق أيّاً من أهدافها التي وضعتها، وهي نزع سلاح حزب الله وفرض شروطها على لبنان، لذلك عملت على اعتماد سياسة الدمار الشامل والأرض المحروقة، مشيراً إلى أن الإدارات الأمريكية المتعاقبة كانت صديقة لإسرائيل، لكنها لم تصل إلى ما وصلته الإدارة الحالية من دعم مطلق.

٤ ــ بري: السياسي المقاوم

لعب رئيس مجلس النواب نبيه بري، قبل وأثناء العدوان، دور المقاوم السياسي؛ فتوزعت اهتماماته على ثلاثة خطوط: المتابعة الميدانية، وإجراء الاتصالات مع البرلمانات العربية والإسلامية والدولية، وكبار الشخصيات السياسية في العالم، لوقف العدوان، وحث الأمم المتحدة على مساعدة اللبنانيين، والاتصالات والمشاورات الداخلية للحفاظ على الوحدة الوطنية، ومنع حدوث أي شرخ قد يستغله العدو للنفاذ منه لإثارة الفتن والخلافات، ومتابعة شؤون النازحين من الجنوب والبقاع الغربي، والعمل على تأمين مأوى ومساعدات غذائية لهم.

لم يهدأ بري لحظة واحدة، طيلة أيام الحرب، وكان منزله في عين التينة ببيروت. بمثابة خلية النحل، التي تعمل في كل الاتجاهات. وقد فوضه حزب الله بالتحدث باسمه بشأن تبادل الأسرى والمعتقلين، وفي الكثير من المتابعات السياسية الداخلية والخارجية، وبلغ التعاون والتنسيق بين حركة أمل وحزب الله أثناء العدوان ذروته، فشكلا معاً جبهة متراصة

قوية، لمواجهة أخطار العدوان، وكل محاولات طعن المقاومة في الظهر.

الرئيس بري كان شريكاً في التصدي، عملاً وقولاً، فاعتبر أن قضية الأسيرين الإسرائيليين هي ذريعة، وما يحصل جريمة مدبرة، محذراً من أن عدم وقف النار، سيجعل المنطقة كلها في خطر، محملاً الأمم المتحدة مسؤولية جريمة مروحين، عندما أغار الطيران الحربي الإسرائيلي على مدنيين رفضت قوات الطوارىء إيواءهم من خطر القصف، وانتقد بشدة أداء الأمم المتحدة التي وصفها بأنها تركع دائماً، وقال: إن هذه الحرب هي حرب على كل اللبنانيين، وأبلغ وزيرة الخارجية الأمريكية في اليوم الثاني عشر من المواجهات عندما زارته في عين التينة، أن الحل يجب أن يتم على مرحلتين: الأولى وقف فوري لإطلاق النار، والشروع في التفاوض لتبادل الأسرى، وعودة النازحين إلى أماكنهم، والثانية: الاستعداد لبحث كل الأمور الأخرى ومناقشتها ضمن الأطر المطروحة.

ووصف بري لقاءه برايس بالمتوتر، ورأى في شروطها التي كانت تطرحها خطراً على وحدة لبنان، فهي اشترطت تنفيذ مطالبها رزمة واحدة، وتتضمن:

- نزع السلاح في المنطقة العازلة جنوب نهر الليطاني.
- نشر الجيش اللبناني في الجنوب وإنشاء قوة دولية هناك.
- لم تعط أولوية لوقف إطلاق النار.

وأعلن بري بوضوح، رفضه نشر قوات من الحلف الأطلسي على حدود لبنان الجنوبية، واقترح نشرها داخل الحدود الإسرائيلية[1]، مؤكداً أن لا

---

(١) إذاعة «بي. بي. سي» البريطانية، ٢٦/٧/٢٠٠٦م.

أحد يستطيع أن يفرض علينا، ولاسيما على أهل الجنوب، ما ليس في مصلحة لبنان عامة والجنوب خاصة، وقال: هم يريدون نزع سلاح حزب الله، ونحن نريد نزع السلاح الإسرائيلي.

وانتقد بري الموقف العربي، داعياً الحكام إلى التنبه إلى أن ما يحصل في جنوب لبنان، هو آخر بيارق الأمل في سبيل سلام شامل في المنطقة، فإذا ضيعت هذه الفرصة، فالبديل الأكيد هو حروب متتالية في منطقة الشرق الأوسط، لا بل انقلابات متتالية، وسأل: هل نعاقب لأننا نقاتل إسرائيل، أم نعاقب لاعتبارات أخرى مذهبية وطائفية؟

وقال: لن نسمح لأحد بأن يخلق شرخاً في العلاقات اللبنانية ـ اللبنانية، لأن هذا هو مفتاح النصر لإسرائيل.

وأعلن رئيس مجلس النواب اللبناني، عن بالغ تأثره لجريمة قانا، وطالب بفتح تحقيق دولي، ورأى بأنه بعد هذا العمل الوحشي، فإن شروط تبادل الأسرى قد تغيرت وأنه أصبح بحل من أمرهم كما أعلن رفضه لمشروع القرار الأمريكي الفرنسي، لأنه وضع لمصلحة إسرائيل وليس لمصلحة لبنان، مؤكداً تمسكه بالنقاط السبع التي طرحها الرئيس السنيورة.

وفي اليوم الأخير للمواجهات، دعا بري النازحين للعودة فوراً إلى ديارهم، والثبات في أرضهم، لتفويت الفرصة على محاولة الضغط بهذه الورقة، وإفشال كل الخطط التي حاولت أن تباعد بين المقاومة وجمهورها. ووجه التحية إلى المقاومة «التي حققت ما توقف الآخرون عن الحلم به».

٥ ــ فريق السلطة ينتقد المقاومة

كان فريق السلطة، المتمثل بقوى ١٤ آذار/ مارس، أو ١٤ شباط/ فبراير كما تسميه المعارضة، متجانساً في مواقفه أثناء العدوان، فحمّل

المقاومة مسؤولية ما حصل، منتقداً بشدة التفرد في اتخاذ قراراتها في الحرب والسلم، وكان هذا الفريق يتابع عن كثب ردود الأفعال والمستجدات من خلال السفير الأمريكي في بيروت جيفري فيلتمان، أو اللقاءات والاتصالات مع وزيرة الخارجية الأمريكية كوندااليسا رايس، ولخص هذا الفريق موقفه، في البيان الذي أصدره بعد اجتماعه في ١٥/ ٧/ ٢٠٠٦م، عندما أعلن رفض تفرد أي فريق في لبنان بقرار الحرب والسلم، وتأييد الحكومة ومطالبتها بممارسة سيادة غير منقوصة عبر مؤسساتها الشرعية ولاسيما الجيش اللبناني، وجاء البيان متابعة للبيان الأول الذي أصدره في يوم العدوان الأول. الذي انتقد فيه أيضاً «تفرد حزب الله بقرارات مصيرية لا تعرف نتائجها، وقد تؤدي بلبنان إلى المجهول»، وشارك في هذا الاجتماع، الرئيس الأعلى لحزب الكتائب أمين الجميل، والوزير جو سركيس الممثل لـ«القوات اللبنانية» في الحكومة، والنائب بطرس حرب، والنائب السابق فارس سعيد.

ولم تقتصر تعبيرات هذا الفريق على اللقاءات الجماعية، فتولى كل قطب سياسي فيه، إلى استخدام وسائله الإعلامية، أو الوسائل التي وضعت في خدمته من قبل الإدارة الأمريكية في حينها، لتشويه صورة حزب الله، واعتباره خارجاً عن سرب الإجماع اللبناني، ويعمل لحساب أجندة سورية إيرانية، ويقود البلاد إلى الخراب، والهدف من الحملة في بداية الحرب كان معروفاً، وهو زرع اسفين من الشك بين المقاومة وقواعدها الشعبية، ومحاولة قطع الطريق أمام تعاطف الشعوب العربية والإسلامية مع المقاومة، واستعداء الدول ضدها.

فبعد ساعات قليلة من بدء العدوان الإسرائيلي على لبنان في ١٢/ ٧/ ٢٠٠٦م، اعتبر رئيس الهيئة التنفيذية في القوات اللبنانية سمير جعجع، أنه

ليس من الجائز أن يرهن فريق لبناني مصير كل الشعب اللبناني بقرار منه، داعياً إلى أن تكون كل القرارات بيد مجلس الوزراء.

ورأى رئيس تيار المستقبل النائب سعد الحريري، الذي عاش طيلة فترة العدوان خارج لبنان، «أن أولئك المغامرين وضعونا في موقف حرج بسبب مغامراتهم غير المسؤولة، ونحن نطالب بمحاسبة أولئك المغامرين الذين زجوا لبنان في أزمة هو في الواقع في غنى عنها»[1].

وكان الحريري عبر تصريحه هذا يكرر الموقف السعودي نفسه، الذي اعتبر أن ما قامت به المقاومة «مغامرة غير محسوبة»، وهدد الحريري في حديثه لـ«الجزيرة» في ١٧/٧/٢٠٠٦م، بأن المحاسبة ستكون بعد انتهاء الأزمة. «فلبنان لا يستطيع أن يكون البلد الذي يريدون مقاتلة إسرائيل عبره، ومن أراد محاربة إسرائيل، فعليه أن يفتح جبهاته ويحاربها»، غامزاً بذلك من القناة السورية وجبهة الجولان المحتلة.

لكن هذا الخطاب بدأ يتعرج مع تواتر المعلومات عن انتصارات مذهلة حققها حزب الله في الجنوب، وشعر الجميع بحرج شديد أمام الشعوب إزاء مواقفهم الحادة السابقة. فأعلن الحريري لاحقاً: «إن تيار المستقبل وحزب الله في سفينة واحدة، ولا أحد يستطيع أن ينهي حزب الله، لأنه جزء من الشعب اللبناني»[2].

أما رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي النائب وليد جنبلاط، فلم يشذ عن قاعدة فريقه في الحكم، فقال في حديث للتلفزيون المصري: السيد نصر الله لا يستطيع أن يستفرد بقرار الحرب والسلم ويقول لنا كدولة وشعب: أنا

---

(١) صحيفة عكاظ السعودية، ١٧/٧/٢٠٠٦م

(٢) محطة «العربية» الفضائية، ١٨/٧/٢٠٠٦م.

موجود وعليكم أن تتحملوا ما أفعل. واعترف بأن حزب الله سجل انتصاراً هاماً بغض النظر عن نتيجة ما سيؤول إليه العدوان الإسرائيلي، لأنه استطاع كسر شوكة إسرائيل، لكنه تساءل ما إذا كان السيد حسن نصر الله، سيهدي هذا النصر للدولة اللبنانية، أم للنظام السوري أو للجمهورية الإسلامية الإيرانية، كي تحسن شروط التفاوض على الركام اللبناني؟

وكان العنوان المشترك لدعوات هذا الفريق، في كل المناسبات والمؤتمرات، هو «التخلص من سلاح حزب الله»، وذلك استجابة للمطالب الأمريكية الإسرائيلية، علماً بأن هذا الفريق يدرك تماماً صعوبة ما يلح عليه.

٦ ــ القوى المعارضة: تأييد ومساندة

أشادت مختلف القوى والتيارات الوطنية السياسية والروحية والحزبية، بنجاح المقاومة في أسر جنديين إسرائيليين، كمدخل لإنهاء ملف الأسرى والمعتقلين اللبنانيين الموجودين في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وأعلنت مساندتها لكل خطوات المقاومة في الدفاع عن لبنان، ووصف رئيس الوزراء الأسبق سليم الحص العملية، بأنها جريئة ونظيفة لأنها لم تصب أي مدني يهودي واحد بأذى، ورأى أن موقف الحكومة أخطأ، إذ تبرأ من العملية ولم يصرّ على مبادلة الأسرى. وحذر من الفتنة معتبراً الإسرائيليين بأنهم أسوأ من النازيين.

وشاطره الرأي، رئيس تكتل الإصلاح والتغيير العماد ميشال عون الذي شدد على أن قضية الأسرى اللبنانيين في إسرائيل محقة، وضرب إسرائيل للبنى التحتية أمر مخالف لكل قواعد الحرب، لأن عملية حزب الله عسكرية محض، والرد كان يمكن أن يكون عسكرياً فقط.

وانتقد وزير الخارجية فوزي صلوخ، مواقف بعض الدول العربية تجاه

حزب الله، مؤكداً أن الحزب يعمل في خدمة القضايا العربية، فيما وجه رئيس الوزراء الأسبق عمر كرامي التحية للسيد نصر الله والمقاومة. على تصديها البطولي، داعياً إلى تناسي الخلافات وتوحيد الصفوف في هذه المرحلة، واعتبر المعركة التي يخوضها حزب الله هي معركة فاصلة في النزاع العربي ـ الإسرائيلي، مشدداً على أن الوحدة والتوافق يجب أن يكونا خطاً أحمر.

وطمأن رئيس تيار المردة الوزير السابق سليمان فرنجية الشعب، وكل أنصار المقاومة، بأن المقاومة أقوى بكثير مما يفكر البعض، وأن الذي يراهن على هزيمتها سيأخذ تأشيرة هجرة.

ورداً على الحملات التي استهدفت المقاومة، رأى نائب صيدا أُسامة سعد، أن من يستحق الحساب اليوم قبل الغد، هو الذي سهل العدوان وتواطأ معه، وغطى العدوان ولا يزال.

وحيا رئيس الحزب الديمقراطي اللبناني الوزير السابق طلال ارسلان المقاومة، وقال: لا تسوية إلا تلك التي ستفرضها المقاومة على أرض المعركة.

واعتبر رئيس الوزراء السابق نجيب ميقاتي، أنه ليس مقبولاً أن يقف الإخوة العرب متفرجين على تدمير الوطن، والمطلوب وقفة عربية جامعة لحماية لبنان وصيغته الفريدة، لأن المخطط الإسرائيلي لا يتوقف فقط عند حدود لبنان.

وخلص الداعية الإسلامي فتحي يكن، إلى استنتاج، بأن مسار الأحداث العسكرية ومآلاتها ونتائجها، جعل الباب مفتوحاً أمام متغيرات جذرية على النظام الدولي الذي تتزعمه الولايات المتحدة، كما على النظام العربي العاجز وبالتالي على الحياة السياسية في لبنان.

ونتيجة لموقفه المؤيد لحزب الله، حاولت إسرائيل تصفية العماد عون جسدياً من خلال استهداف منزله أثناء العدوان، وقد روى لي عون تفاصيل تلك المحاولة بالقول:

تلقيت هاتفاً من أحد الأصدقاء في باريس، يقول لي: انتبه، فإن تهديد رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت، بضرب الأطراف الداعمة لحزب الله، جدي، وأنصحك بإخلاء منزلك فوراً، وحتى الآن لم ألتق هذا الصديق لأسأله عن كيفية حصوله على المعلومات، ولم أشأ التحدث إليه في هذا الأمر عبر الهاتف، ولكن اللافت أن هذا التنبيه جاء قبل ضرب الجسور في كسروان التي قيل في حينها أنها كانت استعاضة عن ضربي أنا شخصياً، وقد كلفت فريقاً برصد ما تبثه المحطات المرئية والمسموعة الإسرائيلية لتلمس الحقيقة، فتبين أن «القناة ٢» كانت تعلق باستمرار على مواقفي أثناء الحرب، وكنت أعلنت أننا لا نقبل بقوات ردع دولية تتولى مهمة الجيش الإسرائيلي، وتعمل على محاربتنا، وإنما لا مانع بتعزيز قوات الأمم المتحدة الموجودة في الجنوب، وقد نشرت بشكل مشوه ومقلوب في صحيفة الفيغارو، ونقلته القناة المذكورة، وقالت: إن العماد ميشال عون ضد قوات دولية توقف العنف في لبنان. والصحفي الذي نشر هذا الكلام يدعى جورج مالغرينو الذي سبق وأن اعتقل في العراق.

ثم وصلت رسالة إلى أحد معاوني الإعلاميين عبر الهاتف من الخارج، هددتني شخصياً. في ظل هذا الواقع أشعرنا ثلاث سفارات بالموضوع: الأمريكية والفرنسية والأمم المتحدة في بيروت «الاسكوا». وفي هذه الفترة ضربت الجسور في منطقة كسروان، وبعد فترة سمعنا من أحد الجنرالات

الإسرائيليين الذي أدلى بشهادته أمام لجنة التحقيق، أنه في اللحظات الأخيرة أعطي أمراً بضرب الجسور بدل ضرب منزل العماد عون.

وقبل ذلك بأربع وعشرين ساعة، كانت المحطة اللبنانية للإرسال «ال .بي. سي»، تبث أن طائرة الاستطلاع الإسرائيلية من نوع «أم. ك» تحوم فوق منزل عون في الرابية، وكررت ذلك مراراً، كما قامت محطة «المستقبل» ببث النبأ أيضاً، مع تركيز المحطتين على أن عون ضد قوات دولية لوقف العنف في لبنان، واستمر البث في هذا الإطار من الساعة الرابعة صباحاً وحتى المساء، وفوجئنا بالضربة بعد ٤٤ ساعة، علماً بأننا أرسلنا تصحيحاً للخبر المتعلق بالموقف من القوات الدولية، ولم يستجب له، ولم يصحح. وكذلك روجت المحطتان المذكورتان لأخبار أن أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله، وعدد من قيادات وعناصر الحزب يتواجدون في منزل عون بالرابية، علماً بأن ذلك ليس صحيحاً. وكان يمكن أن ينفذوا عملية القصف ثم يعتذروا كالعادة بوجود معلومات خاطئة.

وأكد عون أن طيلة فترة الحرب لم يغادر منزله. وكان الاتصال بالسيد نصر الله صعب، إلا أننا كنا نستطلع الأخبار بطريقة غير مباشرة، ثم إنني شخصياً لم أحاول الاتصال به لأنني كنت أدرك حجم الخطر الذي كان يعيشه، وأدرك خطورة الاتصال معه هاتفياً بسبب الرقابة الشديدة.

وكان أحد الصحفيين الإسرائيليين يدعى نسيم آلوني، سرَّب بأن أحد الوزراء اللبنانيين، أفشى سر المكان الذي يحتمل أن يتواجد فيه نصر الله، وتم قصفه، وهو الصحفي نفسه الذي فضح أخبار ثكنة مرجعيون، عندما تلقت الفرقة الأمنية اللبنانية من جيش وقوى أمن داخلي، أوامر من وزير الداخلية بالوكالة أحمد فتفت، باستقبال الجنود الإسرائيليين في الثكنة، وتسليمهم أسلحتها أثناء الحرب، وتقديم الشاي لقوات الاحتلال، وقد

كشف آلوني حينها اسم الوزير والسفير اللذين أشارا إلى المكان، ولست أدري إذا كانت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية سرّبت معلومات صحيحة أم لا، لكني أطلقت يومئذ على ما حصل، أن إسرائيل عينت ضحية وعينت القاتل، فعندما تتهم وزيراً لبنانياً بأنه يحدد مكان وجود السيد نصر الله، كأنها تقول إذا حصل شيء لهذا الوزير فإن قاتله يصبح معروفاً. ولكن الحمد لله لا الوزير قتل ولا السيد نصر الله اكتشف مكان وجوده أو تم قصفه.

ثالثاً: اعتصام المعارضة السلمي وسط بيروت

تجمعت لدى المقاومة ـ بالأدلة والوثائق والمعلومات والمعطيات ـ أن حكومة السنيورة اختارت طريقاً يلتقي أو يتصل مباشرة بالمشروع الأمريكي المعدّ للمنطقة، وأبرز بنوده القضاء على كل مواقع القوة التي تشكل المقاومة رأس حربتها، ليتسنى لهذا المشروع من السيطرة وفرض تسوية سياسية تخدم المخطط الإسرائيلي.

الاسلوب الحكومي كشف نفسه منذ اللحظة الأولى للغارات الإسرائيلية، فتبين أنها كانت على علم مسبق بهذه الخطوة، وهذا ما كشفه مراسل محطة الـ«سي. أن. أن» ريتشارد وولفي، عندما تحدث عن اتصال أجراه الرئيس بوش مع السنيورة، وطالباً منه اتخاذ مواقف سلبية من حزب الله.

لم يراع السنيورة الدماء التي كانت تسيل، ولا التضحيات الجسام التي كان يقدمها المقاومون وأبناء الجنوب والبقاع الغربي أيام المواجهات، فعمد إلى توجيه اتهامات قاسية للمقاومة، متنصلاً من كل ما يجري، وصادر شاحنة أسلحة كانت متجهة للمقاومة في الجنوب، وعندما اكتشف هول ما حصل من دمار وخراب، ومن انتصارات باهرة للمقاومة، ومن اتساع رقعة

التأييد الشعبي اللبناني والعربي والإسلامي والدولي لهذه الإنجازات، حاول تخفيف حدة خطابه، إلى أن جاء وقت حسم النتائج سياسياً، فعمد إلى استغلال بعض الظروف لنزع سلاح المقاومة، وإبعاد ما تبقى إلى شمال نهر الليطاني، ونشر قوة متعددة الجنسيات، وإدراج البند السابع في القرار ١٧٠١. إلا أن كل ذلك تم إفشاله، فحاول من خلال الضغط والتهويل منع عودة النازحين إلى قراهم وبلداتهم لتحقيق شيء ما ولما فوجئ بالاندفاعة الشعبية القوية إلى الجنوب، عمد إلى تأخير المساعدات، وتقديم العون لإزالة الركام والخراب، عله يتسبب بإيجاد متاعب للمقاومة، وتذمراً من الأهالي فسقط الرهان مجدداً.

كان سلاح السنيورة في كل ممارساته، يستند إلى الأغلبية الوزارية، باعتماد التصويت بدل الحوار الهادئ، فضاق صدر المقاومة ومعها بقية قوى المعارضة من هذا الواقع، فطالبت بمشاركة فاعلة بقدر حجم تمثيلها الشعبي، والنيابي، من خلال ما يسمى بالثلث الضامن، أو المعطل، لكن الحكومة رفضت ذلك، مستندة إلى دعم أمريكي ـ فرنسي كبير، فهذا الثنائي اعتبر أن ما تطالب به المعارضة يعني تفريغ الحكومة السنيورية من مضمونها، وتعطيل حركتها. ومنعها من اتخاذ أي قرار يتماشى مع خطتها بشأن المحكمة الدولية أو غيرها، بل إن تلبية أي مطلب للمعارضة يعتبر انتصاراً جديداً لحزب الله وللمقاومة، ما سيزيد من شعبيتها ويعزز مكانتها، وهذا أمر يناقض تماماً خطة إضعاف المقاومة وتجريدها من سلاحها.

حالت أمريكا دون التوافق اللبناني الداخلي، ما دفع المعارضة إلى إعلان الاعتصام السلمي الحاشد، في ساحتي الشهداء ورياض الصلح وسط بيروت، فنزل أكثر من مليون ونصف من المواطنين من مختلف التيارات والمذاهب والأحزاب إلى الشوارع، هاتفين ضد السنيورة وحكومته،

ونصبوا خيماً قبالة السراي الحكومي. ولو أرادت المعارضة أن تقتحم السراي منذ اللحظة الأولى لانطلاقتها، لكان بإمكانها فعل ذلك، غير أنها ارتضت الخيار الديمقراطي السلمي، تجنباً لإراقة أي نقطة دم.

وعندما عاد بعض المعتصمين من مكان الاعتصام، فوجئوا بمجموعة مسلحة تابعة للحكومة، فاغتالت الشاب أحمد محمود، وجرحت عدداً آخر عند مفرق قصقص على مداخل ضاحية بيروت الجنوبية، وكادت الأمور أن تفلت لولا مسارعة أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله، إلى توجيه دعوة عبر محطة المنار، دعا فيها المواطنين إلى التزام الهدوء، والامتناع عن الرد، مؤكداً أنه مهما سقط من شهداء فالمعارضة متمسكة بخيارها السلمي الديمقراطي، ودعا الأجهزة الأمنية إلى تحمل مسؤولياتها، واعتبر محمود واحداً من شهداء المقاومة.

كان السيد نصر الله، يدرك تماماً، أن الحكومة نصبت للمعارضة كميناً، من خلال جرها إلى حرب الشوارع، ففوتت الفرصة بالعض على الجرح.

وبدل أن تتجاوب حكومة السنيورة مع مطالب المعارضة، رفضتها، وشنت هجوماً عنيفاً ضد المعارضين، متهمة إياهم بأنهم يخدمون المشروع السوري ـ الإيراني في لبنان، وأمام هذا التعنت، وبعد أن فشلت كل المساعي والمبادرات العربية والإسلامية من التوصل إلى تسوية بين الجانبين، صعدت المعارضة من تحركها، فانطلقت التظاهرات العمالية تحت سقف المطالب الاجتماعية، ثم اتبعتها المعارضة بإضراب أُريد له أن يكون سلمياً في كل لبنان وأقفلت العديد من المحلات التجارية والطرق، فتصدت لها ميليشيات السلطة، حيث دارت اشتباكات بالأيدي وأحياناً بالسلاح بين عناصر تابعة لـ«القوات اللبنانية» التي يترأسها سمير جعجع،

وعناصر ومؤيدي «التيار الوطني الحر» الذي يترأسه العماد ميشال عون، وكانت صدامات أخرى بين عناصر «القوات» و«تيار المردة» الذي يرأسه الوزير السابق سليمان فرنجية، واتسعت التوترات لتشمل بيروت والطرق المؤدية إلى الجنوب، فعاد نصر الله إلى دعوة الجميع للانسحاب من الشارع وإنهاء الإضراب بعد أن أوصل الرسالة وتكرر المشهد في الثالث والعشرين من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٧م، والشرارة انطلقت من جامعة بيروت العربية، عبر مشادة بين طالبين، واحد تابع لتيار المستقبل الذي يرأسه النائب سعد الحريري، وآخر من حزب الله وتبين لاحقاً أن الأمر كان مدبراً (وفق مصادر المعارضة) إذ ظهر فجأة عدد من القناصة التابعين لجنبلاط وجعجع، فقتلوا وجرحوا عدداً من الطلاب والمارة، وتصدى آخرون لمواطنين عائدين من أعمالهم إلى منازلهم، ينتمون إلى الطائفة الشيعية.

الهدف كان إدخال البلاد أتون الفتنة المذهبية والطائفية، والعودة بالبلاد إلى الحرب الأهلية، فسارع حزب الله وبقية أطراف المعارضة إلى تعطيل صاعق التفجير، بسحب كافة عناصرهم من الشارع، وقدموا للجيش وقوى الأمن صوراً وإثباتات ومعلومات وافية، عن القناصة والذين أطلقوا الرصاص، بالأسماء وتم توقيف عدد منهم، بينما الباقي لاذوا بالفرار وهم جميعاً ينتمون إلى تيارات السلطة.

وجرت اتصالات عربية إسلامية مجدداً. أبرزها سعودية ـ إيرانية لتطويق ذيول هذه الإشكالات، وكذلك تحركت الجامعة العربية عبر أمينها العام عمرو موسى، إلا أن كل ما تم عرضه للتسوية أجهض نتيجة التدخلات الأمريكية والفرنسية.

واتهمت الحكومة أطراف المعارضة، بأنها تريد تعطيل إقرار مشروع المحكمة ذات الطابع الدولي، لكشف قتلة الرئيس الحريري، إلا أن

المعارضة كانت تعلن يومياً أنه مع إقرار المشروع، لكن بعد مناقشة بعض ما ورد فيه لإزالة الهواجس والالتباسات واتهمت بدورها الحكومة بأنها لا تريد المحكمة وتعمل على تعطيل الحل ولخصت المعارضة مطالبها بثلاثة عناوين:

ـ **الأول:** إيجاد الطرق العملية للمشاركة المتوازنة في الحكومة التي تسلب قدرة التفرد عن أي طرف من الطرفين، فلا المعارضة باستطاعتها أن تتفرد، ولا قوى السلطة كذلك، فتكون تركيبة المشاركة قادرة على أن تلجم اندفاع الطرف الآخر ليبقى بحاجة إلى شريكه في الوطن، وعندها تتحقق المشاركة دون غالب أو مغلوب.

ـ **الثاني:** ضرورة إنجاز الخطوات العملية التي تؤدي إلى إقرار المحكمة ذات الطابع الدولي بشرطين أساسيين: أولاً أن لا تكون محكمة سياسية، بل محكمة جنائية، وثانياً تكون وفق القواعد الدستورية المعتمدة في لبنان، عندها نحصل من خلال النتيجة الجنائية على تحديد القتلة والمجرمين، فيحاسبون ونتخلص من التسييس ومحاولة استخدامها للمعادلة الإقليمية والدولية، وبالتالي إذا مرت بالطرق الدستورية نكون قد حمينا البلد.

ـ **الثالث:** إعادة إنتاج السلطة بانتخابات نيابية مبكرة، وبقانون عادل كي لا نبقى في دائرة الحديث عن قوى أغلبية وقوى أقلية، وإنما تصير الأمور إلى المجلس النيابي الذي تتوزع فيه القوى بحسب التمثيل الشعبي، فإذا كان القانون عادلاً، عندها ينصف الجميع ويكون لهم التمثيل كل على قاعدة المشاركة.

وشرط بحث هذه العناوين، هو أن يتم ضمن قواعد أساسية أبرزها: رفض الوصاية الأجنبية، ورفض تسلط فريق على آخر، ورفض أن يكون

لبنان جزءاً من منظومة سياسية دولية، وأن لا يكون معبراً لتصفية الحسابات.

واعتبرت مصادر قيادية في المعارضة أيضاً أنه لا يمكن أن نفصل ما يحصل حالياً عما حصل من عدوان على لبنان، لأن الإدارة للعدوان هي نفس الإدارة التي تدير الوضع السياسي اليوم. هذه الإدارة مرتبطة بالموقف الأمريكي الإسرائيلي، فأمريكا تريد من لبنان أن يكون معبراً للشرق الأوسط الجديد، وقد صرحت وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليسا رايس بذلك، وهي تتابع التفاصيل الميدانية، وعندما شعرت أن الأداء السياسي لفريق ١٤ شباط/ فبراير من يعالج مشكلة الأمن الإسرائيلي، قررت هذا العدوان الكبير على لبنان، والذي كان من المفترض أن يكون في أيلول/ سبتمبر، أو تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠٠٦م، لكن الظروف قربته بعد عملية الأسر.

وعندما لم يحقق هذا العدوان نتائجه تابعت أمريكا بالسياسة لتحقق ما تريد. وهي تراهن على عدم مشاركة حزب الله وأطراف المعارضة الأخرى في الحكومة بشكل فعال، وإبقاء القرار الاستراتيجي بيد جماعة ١٤ شباط/ فبراير، يساعد على تمرير اتفاقات وصفقات سياسية تؤكد الوصاية الأمريكية على لبنان، وتحقيق الأهداف التي تريدها أمريكا في جعل لبنان جزءاً من الشرق الأوسط الجديد.

إذن ما يجري في لبنان اليوم، ليس خلافاً بين فئات لبنانية، ما يجري هو تحرك أدوات أمريكية لمتابعة المشروع الذي فشل عسكرياً لمصلحة تأطير سياسي له علاقة بالمنطقة ككل، ويضع لبنان في الأفق السياسي الغامض، وما نطالب به نحن أن نعمل معاً كلبنانيين في شراكة بعيداً عن الالتزام في أن نكون جزءاً من تركيبة الشرق الأوسط الجديد. ونحن سنتابع في الممانعة والتصدي والصمود، ورفض منهج الاستثناء، ورفض الوصاية

الأجنبية، وهذا الأمر سيأخذ وقتاً، لأننا لا نتعاطى مع مشكلة داخلية، نحن إذا قلنا اليوم إننا بالسياسة نواجه الموقف الأمريكي الدولي لفريق المعارضة في لبنان نكون منصفين، ليست المعركة السياسية اليوم بين فئات في الداخل اللبناني، هي معركة بين المعارضة والقوى الدولية التي تريد أن تضع يدها على لبنان، وتؤدي خدمات لإسرائيل وأمريكا وغيرهما. هذا الأمر إذا ما أضفناه إلى قرارنا بالتحرك السلمي. ومراعاة عدم الوصول إلى الفتنة الطائفية وتعقيدات الوضع الداخلي اللبناني وخصوصياته، يجعل التحرك طويل الأمد، ويجعل الصمود المطلوب أكبر، والمعاناة أطول، وهذا أمر متوقع بالنسبة إلينا، لكن لن نقبل أن تكون النتيجة لمصلحة الوصاية الأمريكية، والاستمرار في الاستئثار بالسلطة، لأن هذا الأمر سيخرب لبنان.

رابعاً: إفشال الفتنة المذهبية

لم يبق أمام الولايات المتحدة سبيلاً لإغراق لبنان ومقاومته سوى إشعال فتيل الفتنة الطائفية والمذهبية، استناداً إلى خبرتها وتجربتها في العراق، فوضعت خطة أعدها خبراء في تركيبة وتعقيدات الساحة اللبنانية، محددة أهدافها بالتالي:

١ ـ إدخال حزب الله في صراعات الشوارع والأزقة الداخلية، بدل بقائه مستنفراً ويعمل على استكمال تجهيزاته واستعداداته الميدانية في الجنوب، قبالة قوات الاحتلال الإسرائيلية.

٢ ـ تمزيق الوحدة اللبنانية وتحديداً الوطنية، وتقليص دعم وإسناد المقاومة.

٣ ـ خلق خطوط تماس بين الأحياء والشوارع والمدن والقرى في كل أنحاء لبنان، ومترسة كل فئة خلف طائفتها أو مذهبها.

٤ ـ التصويب على الخلاف السني ـ الشيعي كعنوان أبرز لهذه الخطة، لإشعال حرب مذهبية تذهب بكل إنجازات لبنان في مجاهل النسيان.

٥ ـ توسيع دائرة هذا الخلاف ليعم المنطقة كلها، لتطويق إيران، وإحداث شرخ بين طهران وبقية العواصم العربية.

واضعو الخطة اعتبروا أن إمكانية نجاحهم فيها، يمكن أن يعوضهم عما خسروه في حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦م، وقد يتوافر حل يحصدوا فيه بالسياسة ما لم يحققوه بالمواجهة العسكرية.

كان التركيز الإعلامي والسياسي للحكومة وأقطابها، منصباً على توتير وحقن الأجواء المذهبية، ومن المفارقات أن أكثر المحرضين على الصدام السني والشيعي، لم يكونوا من المذهبين، وهم يمثلون طوائف ومذاهب أخرى، ما يكشف أن عناصر الفتنة أرادت من الاقتتال ـ في حال حدوثه ـ إضعاف السنة والشيعة معاً، كي يمسكوا هم بأوراق البلاد القوية.

حزب الله وبقية أطراف المعارضة تنبهوا لهذه المكائد فعطلوها.

أ ـ الدور الأمريكي في الفتنة

وكشف الصحفي الأمريكي سيمور هيرش، في تقرير مطول في مجلة «نيويوركر»، التدخل الأمريكي في الشؤون اللبنانية، وإثارة الفتن الطائفية وخاصة بين السنة والشيعة، وتمويل رموزها، ومحاولة تغليب فريق على آخر، ودعم حكومة السنيورة في مواجهة حزب الله والمعارضة بشكل عام، ومنع التوافق اللبناني على أي حل سياسي ينقذ البلد من أزماته.

وأكد هيرش، بناء لمصادر معلوماته الواسعة والوثيقة، أن الولايات المتحدة، دعمت ما سمي بـ«ثورة الأرز» بالمال والمساعدات، وقد وزع جزء من هذا المال على ما اصطلح على تسميته «مجموعات جهادية». مشيراً إلى أن هناك ثلاث مجموعات تم دعمها حتى الآن في لبنان، من خلال أطراف داخل بعض أجهزة الأمن، بالتعاون ربما مع «القوات اللبنانية» وسمير جعجع. وبعض هذا العون كان يأتي من أمريكا[1].

---

(١) السفير، ٢٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٧م، ص١٤ و١٥.

ولفت إلى أن جعجع كان منزعجاً من التفاهم الذي تم بين السيد حسن نصر الله والعماد عون، و«قواته» كانت متورطة في مساعدة مجموعة جهادية سنية متسللة، بشكل مباشر أو غير مباشر.

ونقلاً عن مصادره قال هيرش: إن بعض الأموال التي تحصل عليها الأجهزة الأمنية اللبنانية، و«القوات اللبنانية» التابعة لجعجع، تأتي من مساعدات أمريكية لم تخصص من قبل الكونغرس لهذا الغرض، وهذه نقطة مهمة جداً، وقال: إن هذا المال يشتري سلاحاً، وهناك أموال كثيرة أيضاً تتدفق من دول الخليج عموماً، واعترف أن الولايات المتحدة، تضع أموالاً وأشخاصاً داخل غرفة العمليات في لبنان. ورأى أن واشنطن تقف الآن ضد أية تسوية أو حل وسط للأزمة اللبنانية، وكشف أن الإدارة الأمريكية تعاونت مع الحكومة السعودية السنية ـ كما أسمى حكومة السنيورة ـ في لبنان، في عمليات سرية تهدف إلى إضعاف حزب الله، كما شاركت هذه الإدارة في عمليات تستهدف سوريا وإيران.

وبحسب المسؤول في وزارة الخارجية الأمريكية في عهد الرئيس بيل كلينتون الذي عمل سفيراً لإسرائيل، ويعمل حالياً وزيراً لمركز «صابان» حول سياسة الشرق الأوسط في مؤسسة «بروكينغز»، مارتن انديك: إن الشرق الأوسط يتجه نحو حرب باردة خطيرة بين السنة والشيعة، وأنه من غير الواضح ما إذا كان البيت الأبيض مدركاً تماماً الاستراتيجية لسياسته الجديدة فهو لا يضاعف رهانه في العراق فحسب، بل يضاعف الرهان عبر المنطقة، وذلك قد يصبح شديد التعقيد وكل شيء مقلوب رأساً على عقب.

وبحسب مسؤولين أمنيين وعسكريين حاليين وسابقين، فإن عمليات سرية تم تنفيذها في لبنان.

وأفاد مسؤول استخباراتي كبير ومستشار حكومي أمريكي، أن الولايات

المتحدة الأمريكية أعطت دعماً سرياً لحكومة السنيورة، وأننا في خضم برنامج من أجل تعزيز القدرة السنية على مقاومة النفوذ الشيعي، كما أننا نوزع المال هنا وهناك بقدر ما نستطيع.

واعترف: «أننا نمول الكثير من الأشرار الذين لديهم عواقب محتملة غير مقصودة».

وقال مسؤولون أمريكيون واوروبيون وعرب لهيرش: إن حكومة السنيورة وحلفائها سمحت لبعض هذه المساعدات أن تصل إلى أيادي سنية راديكالية صاعدة في شمال لبنان والبقاع وحول المخيمات الفلسطينية في الجنوب، هذه المجموعات ولو صغيرة، ينظر إليها على أنها حاجز في وجه حزب الله، وفي الوقت ذاته، فإن علاقاتها الايديولوجية مرتبطة بتنظيم «القاعدة».

وأضاف نقلاً عن الباحث في مركز أبحاث «منتدى الصراعات» في بيروت الستيركروك، الذي أمضى ٣٠ عاماً في جهاز الاستخبارات البريطانية «أم. أي ٦». أن الحكومة اللبنانية تفتح المجال أمام هؤلاء الناس، وذلك قد يصبح خطيراً، وإحدى المجموعات السنية المتطرفة «فتح الإسلام»، انشقت عن مجموعتها الأم الموالية لسوريا «فتح الانتفاضة». في مخيم نهر البارد في شمال لبنان، وفي الوقت ذاته، عضويتها تقدر بأقل من مئتين، وقيل لي إنه خلال ٢٤ ساعة، تم إعطاؤهم الأسلحة والمال من قبل أشخاص عرّفوا عن أنفسهم بأنهم ممثلون عن مصالح الحكومة اللبنانية، ربما للإجهاز على حزب الله، أكبر هذه المجموعات «عصبة الأنصار»، تتمركز في مخيم عين الحلوة، وقد تلقت الأسلحة والعتاد من أجهزة أمنية داخلية وميليشيات مرتبطة بحكومة السنيورة. وكشف أن النائب سعد الحريري الذي ورث عن والده أكثر من أربعة مليارات دولار بعد اغتياله، دفع ٤٨ ألف دولار ككفالة للإفراج عن أربعة عناصر من مجموعة إسلامية

عسكرية من الضنية، وكان هؤلاء الرجال أوقفوا خلال محاولة تأسيس دولة صغيرة في شمال لبنان، وأشارت «مجموعة الأزمات»، إلى أن الكثير من المقاتلين، تدربوا في مخيمات القاعدة في أفغانستان.

وبحسب تقرير المجموعة، استخدم سعد الحريري فيما بعد غالبيته البرلمانية، للحصول على العفو من أجل ٢٢ إسلامياً في الضنية، وسبعة مقاتلين مشتبه بهم في تورطهم في مؤامرة تفجير السفارتين الإيطالية والأوكرانية في بيروت، كما أنه رتب استصدار عفو عن جعجع المدان بجرائم قتل أربعة سياسيين، بمن فيهم اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رشيد كرامي العام ١٩٨٧م.

واعترف مسؤول نافذ في حكومة السنيورة للصحفي الأمريكي، أن هناك جهاديين ستّة يعملون داخل لبنان، ولدينا موقف ليبرالي يسمح لأصناف «القاعدة» بأن تتخذ لها تواجد هنا.

وتبريراً لدعم السنيورة وحكومته، قالت الرئيسة السابقة لمجلس العلاقات الخارجية الأمريكية ليسلي جيلب: إن سقوط حكومة السنيورة ستعتبر إشارة في الشرق الأوسط إلى انحدار الولايات المتحدة وصعود التهديد الإرهابي، ولذلك أي تغيير في توزيع السلطة السياسية في لبنان، يجب أن تواجهه الولايات المتحدة، ونحن لدينا تبريرنا في مساعدة أي أحزاب غير شيعية تقاوم هذا التغيير، يتوجب علينا أن نقول ذلك علناً، عوضاً عن الحديث عن الديمقراطية.

ب ـ تركيبة المعارضة السياسية

رغم أن المعارضة، ليست من لون طائفي أو مذهبي واحد، إلا أن قوى السلطة في لبنان، حاولت أن تستخدم مصطلحاً خبيثاً يشتم منه أن هذه

المعارضة شيعية، بالقول: «معارضة حزب الله وملحقاته». وذلك لإثارة المشاعر، وافتعال الأزمات المذهبية، بينما حقيقة الأمر أن الخلاف في لبنان سياسي بامتياز، وهو بين فريقين متباعدين في التوجه، واحد له وجهه العربي الإسلامي المقاوم، وآخر له وجهه الغربي التسووي.

ونظرة سريعة إلى تركيبة المعارضة تكشف تنوعها إذ تضم أطرافاً سنية ومسيحية ودرزية بارزة، وهي إضافة إلى حزب الله وحركة أمل الشيعيتين، تضم: التيار الوطني الحر برئاسة العماد عون، ويمثل الأكثرية المسيحية في مجلس النواب، ورئيس تيار المردة الوزير السابق سليمان فرنجية (مسيحي ماروني). ورئيس منبر الوحدة الوطنية ـ القوة الثالثة، رئيس الوزراء الأسبق د. سليم الحص (سني ـ بيروت) ورئيس التجمع الوطني اللبناني رئيس الوزراء السابق عمر كرامي (سني ـ طرابلس)، رئيس هيئة العمل الإسلامي الداعية الدكتور فتحي يكن (سني ـ طرابلس) وهذه الهيئة تضم العديد من الجماعات والشخصيات الإسلامية السنية أيضاً، ورئيس الجماعة الإسلامية برئاسة الشيخ د. فيصل المولوي (سني)، رئيس التنظيم الشعبي الناصري في صيدا أسامة سعد (سني ـ صيدا) رئيس بلدية صيدا د. عبد الرحمن البزري (سني ـ صيدا)، حزب الاتحاد برئاسة وزير الدفاع السابق عبد الرحيم مراد (سني ـ البقاع)الأمير طلال أرسلان (درزي). الوزير السابق وئام وهاب (درزي)، الحزب السوري القومي الاجتماعي (من مختلف المذاهب والطوائف) حزب البعث العربي الاشتراكي (سنة وشيعة)، حركة الشعب برئاسة النائب السابق نجاح وكيم (مسيحي). جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية (سنة)، حزب طليعة لبنان العربي الاشتراكي برئاسة عبد المجيد الرافعي (سني)، المرابطون (سنة ـ بيروت)، المؤتمر الشعبي اللبناني برئاسة كمال شاتيلا (سني ـ بيروت)، تجمع اللجان والروابط الشعبية (من مختلف

الطوائف والمذاهب)، الحزب الشيوعي اللبناني، وعدد كبير من الهيئات والجمعيات والتنظيمات والشخصيات الوطنية الأخرى مقابل المعارضة، تشكلت قوى ١٤ آذار/ مارس، وتضم «تيار المستقبل» وهو عمودها الفقري، برئاسة النائب سعد الحريري، و«القوات اللبنانية» برئاسة سمير جعجع، والحزب التقدمي الاشتراكي برئاسة النائب وليد جنبلاط، إضافة إلى عدد من الوزراء والنواب الحاليين والسابقين، والهيئات الشعبية المنتشرة في بعض أحياء بيروت والشمال والبقاع.

جـ ـ الحرب الأهلية خط أحمر

قبل إعلان الاعتصام السلمي وسط بيروت، وأثناءه وبعده، وضعت المعارضة في أجندتها ضوابط أساسية، التزمت بها، وحافظت عليها، ودفعت دماً كي لا يتم تخطيها، وأبرزها: أن الفتنة الطائفية أو المذهبية حرام، وجريمة بحق الشعب والوطن، والعودة إلى الاقتتال الداخلي أو الحرب الأهلية خط أحمر ممنوع تجاوزه، وأي رصاص يطلق على المواطنين وفي الداخل، هو رصاص إسرائيلي، وسلاح المقاومة هو لمقاتلة العدو الإسرائيلي، والتصدي لخروقاته، ولحماية وصيانة الوطن وسيادته وحريته. واعتبر أمين عام حزب الله في غير مناسبة، أن التحريض المذهبي خطيئة وجريمة تاريخية ودينية وإنسانية وسياسية كبرى. وإذا أخذت مكانها الطبيعي تحرق الجميع. التحريض المذهبي لعب بالنار، ومن يحرض طائفياً أو مذهبياً هو خائن.

حاولت الحكومة الاختباء خلف العنوان المذهبي، سعت إلى أن تظهر للسنة في لبنان والعالم العربي أن المعارضة تستهدف حكومة السنة في لبنان، وهذا بالطبع ليس صحيحاً، وكان السيد نصر الله يرد، لو كانت

الحكومة حكومة السنة في لبنان، لكنت أول المطيعين لها، إلا أنها حكومة فيلتمان (السفير الأمريكي) في لبنان، ولمزيد من التأكيد على وحدة السنة والشيعة في المعارضة، أمّ الداعية يكن (سني) الصلاة في جموع الشيعة والسنة وسط بيروت، وقد حاول بعض أقطاب الحكومة (وهم خارج المذهبين المذكورين)، إلى تحريض العديد من الدول السنية وتحديداً في الخليج، ضد الشيعة في لبنان، للإساءة إلى حزب الله والمقاومة، لكن سرعان ما تكشفت الحقائق للزعماء والمواطنين العرب، فانفضح أمر هذا الادعاء وسقط.

الفصل الخامس

تداعيات الحرب: عربياً، إقليمياً ودولياً

مقدمة

لم يستطع النظام الرسمي العربي، أن يتصوَّر بأن حرباً حقيقية يمكن أن تندلع مجدداً بين إسرائيل أو أي طرف عربي، سواء كان جيشاً نظامياً أو مقاومة. بسبب عدم التكافؤ العسكري من ناحية، والواقع الصعب الذي تمر به المنطقة من أزمات، سواء في العراق وفلسطين أو السودان والصومال وغيرها، من ناحية ثانية، ووجود الأساطيل والقواعد العسكرية الأمريكية المكثفة القادمة لإعادة رسم خارطة الشرق الأوسط، من جهة ثالثة.

كان النظام العربي يعتبر أن أي «تحرش» بإسرائيل، أو الولايات المتحدة في هذه الحقبة «ضرب من الجنون». وتحدّ في غير توقيته، يمكن أن يجر الأمة كلها إلى صراع مرير لا طائل له ولا قدرة لأحد على تحمله.

غابت عن الأمة العربية، منذ رحيل الرئيس جمال عبد الناصر وانتهاء فترة الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفياتي، صورة العنفوان والقوة والإرادة الصلبة، لتحل محلها، صورة اليأس والتسوية ومسايرة المخطط الأمريكي، فانسحبت مصر من موقعها الريادي المتقدم، إلى المواقع الخلفية بتوقيعها تسوية سلمية مع إسرائيل في عهد الرئيس محمد أنوار السادات، ومن ثم تطبيع العلاقات بين الجانبين، ورغم أن اتفاقية كامب ديفيد

وملحقاتها ظلّت فوقية، ولم تستطع أن تلامس الطبقات الشعبية، إلا أن النظام المصري بعد رحيل السادات وتولي الرئيس حسني مبارك مقاليد الحكم، ظل في المسار نفسه، وبات هذا النظام مع أنظمة «الاعتدال» العربي الأخرى، بعيداً عن تبنّي أو دعم مواقف المقاومة. وداعياً للاعتراف بالدولة العبرية، متناغماً تماماً مع الرؤية الأمريكية للصراع. وغياب مصر عن المواجهة هو غياب للرهان على قدرة العرب على التصدي، باعتبار مصر القوة الأكبر والأهم في أي حرب، ولأنها إحدى دول الطوق للكيان الصهيوني.

انسحاب مصر، أعقبه انسحاب دولة جوار أخرى تملك أطول خط حدود مع فلسطين المحتلة. وهي الأردن، وبذلك ضاقت مساحة الحدود المفتوحة للمواجهة، إضافة إلى محاصرة قوة المقاومة الفلسطينية في الداخل، عبر منع وصول أي إمداد قتالي لها، ما جعلها تصارع باللحم الحي، بالحجارة والسكاكين، والأسلحة الرشاشة والصواريخ المحلية الصنع، التي تسبب «إزعاجاً» أكثر مما تسبب حسماً للمعارك.

وبين التسويات العربية الموقعة مع إسرائيل، استغلت الأخيرة الوهن العربي، فشنت اجتياحات عدة ضد لبنان، في أعوام: ١٩٧٨ و١٩٨٢ و١٩٩٣ و١٩٩٦، إلى أن اضطرت للانسحاب بعد تصاعد المقاومة اللبنانية عام ٢٠٠٠، وقامت بارتكاب مجازر رهيبة في فلسطين، واجتاحت قطاع غزة أكثر من مرة، واقتحمت المدن والقرى في الضفة الغربية، واغتالت العشرات من القيادات الفلسطينية، واعتقلت الآلاف، ولم يتحرك النظام الرسمي العربي بالشكل المطلوب، وكأنه أصيب بحالة من الشلل التام. ووجدت واشنطن الفرصة متاحة لها لاقتحام المنطقة، فكانت حرب العراق العام ٢٠٠٣، وإسقاط نظام صدام حسين، وإشعال فتيل الصراعات والقتل

والنهب والتدمير والتخريب في العراق، ما أشعر هذا النظام بأنه أمام خيار من اثنين: إما الاستسلام والسير في الطريق الأمريكي ـ الإسرائيلي، وإما السقوط كما حصل للنظام العراقي. فقدم النظام العربي دعماً وتأييداً للجيوش الأمريكية، وفتح لها المطارات، وأمدها بالنفط والمساعدات وكل الخدمات اللازمة، حتى ظنت أمريكا أن كل شيء مباحاً أمامها، ولم يعد يوجد ما يقلق مخططاتها في الهيمنة، حاول النظام الرسمي أن «يتكيف» مع الواقع الجديد، بدل أن يسارع إلى رفضه ومحاربته، ولو من باب الدفاع عن الذات، والشعور بأنني «أكلت يوم أكل الثور الأسود».

والحديث عن النظام العربي الرسمي، يسحب نفسه بالطبع على كل المؤسسات والمنتديات والهيئات والمراكز والجمعيات الخاضعة له، ابتداء من الجامعة العربية، وما يندرج تحت كل عناوين منظمات المجتمع المدني.

كان الوضع العربي عشية الحرب الإسرائيلية على لبنان باستثناء الموقف الرسمي السوري، بحالة لا تسرّ صديقاً إنما تسرّ عدواً، فدخل هذا العدو عش الدبابير، ظناً منه أنه سيلقى قتالاً سهلاً، يستعيد من خلاله هيبته التي سقطت في هزيمته الأولى في عام ٢٠٠٠ على أرض الجنوب.

أولاً: المواقف العربية الرسمية
قبل وبعد العدوان

فاجأت المواقف الرسمية العربية، بعد أسر حزب الله لجنديين إسرائيليين، الرأي العام العربي، والكثير من المراقبين والمحللين الإعلاميين والاستراتيجيين بتحاملها على المقاومة وقرارها:

١ ـ السعودية والمغامرة غير المحسوبة:

وكان أبرز هذه المواقف، ما صدر عن مصدر سعودي مسؤول، عندما أعلن «أن السعودية، كانت ولا تزال تؤمن بحق الشعوب الواقعة تحت الاحتلال بجميع أشكاله، ورفض إجراءاته غير الشرعية الرامية إلى طمس الهوية وتغيير الواقع على الأرض، ومن هذا المنطلق كانت المملكة تقف دوماً وبكل إمكاناتها مع المقاومة الفلسطينية المشروعة التي تستهدف مقاومة الاحتلال العسكري وتتجنب إيذاء الأبرياء، ومن المنطلق نفسه، وقفت المملكة بحزم مع المقاومة في لبنان حتى انتهى الاحتلال الإسرائيلي للجنوب اللبناني»، موضحاً؛ والمملكة إذ تستعرض بقلق بالغ الأحداث المؤلمة الدامية التي تدور الآن في فلسطين ولبنان، تود أن تعلن بوضوح أنه

لا بدَّ من التفرقة بين المقاومة الشرعية وبين «المغامرات غير المحسوبة» التي تقوم بها عناصر داخل الدولة، ومن وراءها دون رجوع إلى السلطة الشرعية في دولتها، ودون تشاور أو تنسيق مع الدول العربية، فتوجد بذلك وضعاً بالغ الخطورة، يعرّض جميع الدول العربية ومنجزاتها للدمار، دون أن يكون لهذه الدول أي رأي أو قول.

وختم المصدر السعودي المسؤول بيانه: إن المملكة ترى أن الوقت قد حان لأن تتحمل هذه العناصر وحدها المسؤولية الكاملة عن هذه التصرفات غير المسؤولة، وأن يقع عليها وحدها عبء إنهاء الأزمة التي أوجدتها[1].

وفي اليوم الثالث للعدوان، حمَّلت السعودية المقاومة في لبنان وفلسطين مجدداً، المسؤولية عن كل التردي الحاصل، وذلك على لسان وزير خارجيتها سعود الفيصل، الذي دعا في الاجتماع الطارئ لوزراء الخارجية العرب، إلى «عدم الاستمرار في تكرار الأخطاء»، وقال: إن الجميع يعلم ذلك علم اليقين، ولا يحتاج إلى مزيد من الإقناع أو الدخول في مزايدات عبثية، وأي محلل موضوعي للأوضاع العربية خلال نصف القرن الأخير، لا بدَّ أن يستنتج أن الأوضاع المتردية التي نعاني منها، جاءت نتيجة قرارات مرتجلة انفعالية اتخذها الذين اتخذوها دون تفكير في العواقب، وجاءت النتيجة كارثية، وأن المصارحة مهمة مهما كانت جارحة»[2].

وبعد أن أثارت هذه التصريحات ردود أفعال مستهجنة ومستنكرة، في الأوساط السعودية والعربية الأخرى والإسلامية، سارعت السعودية إلى

---

(١) وكالة الأنباء السعودية، ١٣/٦/٢٠٠٦.
(٢) الشرق الأوسط، ١٦/٧/٢٠٠٦.

شرح «ملابسات» موقف الرياض، فقال الفيصل: «نحن لم نتهم أحداً بعينه في القتال في لبنان، الهدف هو أننا لو دخلنا في صراع نحسب حساباتنا».

وتطوّر الموقف بعد صمود المقاومة، وتقديم وجه مضيء للأمة العربية قاطبة، من خلال انتصاراتها في الحرب، وبدأت السعودية تعدّل من لهجتها، خاصة وأن الشارع العربي خرج من قمقمه ليعلن تأييده وتشجيعه ودعمه للمقاومة، فأعرب ولي العهد السعودي الأمير سلطان بعد لقائه الرئيس الفرنسي جاك شيراك في باريس، عن قلقه من الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان والأراضي الفلسطينية، التي تستهدف التدمير المتعمد للبنى التحتية وانتهاك حقوق الإنسان واستهداف المدنيين الأبرياء، والاغتيال والاعتقال والتنكيل وضرب مقار الأطفال والنساء، وأعلن تأييده لنشر قوات دولية على الحدود اللبنانية الإسرائيلية.

وسعت السعودية بعد ذلك إلى وقف إطلاق النار، خلال لقاءات مع الرئيس الأمريكي جورج بوش، الذي استغرب هذا الموقف، لأنه يتناقض مع الموقف في بداية الحرب، لكن المتحدثة باسم البيت الأبيض أرين ريتشير، رأت أن أهداف واشنطن والرياض مشتركة، هدفها مساعدة الشعب اللبناني وترسيخ سيادة الحكومة اللبنانية، وبناء قوات لبنانية أقوى تنتشر في كل الأراضي اللبنانية.

وأعلن الملك عبد الله بن عبد العزيز، تأييده ومساندته للبنان، واستعداده لتقديم الدعم له حتى يتخطى هذه المرحلة الصعبة، منوهاً بتضامن اللبنانيين وبدور الحكومة ورئيسها خلال فترة العدوان، إن في المواجهة السياسية أو الديبلوماسية.

ومسايرة للموقف الرسمي السعودي، حاول داعية سعودي إلى إصدار فتوى بتحريم مساعدة حزب اللّه، وتقديم أي عون للمقاومة، ما أثار حفيظة

العلماء والمثقفين والإعلاميين السعوديين، إذ جاءت هذه الفتوى بمثابة تحريض إسرائيل على ضرب المقاومة، وإنهاء أي حالة ممانعة للعدوان، ولكن بعد أيام من الحرب، وحملة واسعة من الانتقادات لهذا الداعية، تراجع الأخير عن موقفه، وقال: إن هذه الفتوى قديمة، ولا تهدف الإساءة للمقاومة وحزب الله الآن.

٢ ـ البيان المصري ـ الأردني:

كان البعض يتوقع أن تبادر كلٌّ من مصر والأردن، ليس إلى قطع علاقتها مع إسرائيل، ووقف التطبيع، إنما بتجميدها. وسحب السفراء من تل أبيب، احتجاجاً على العدوان الإسرائيلي، إلاَّ أن البعض الآخر أسقط من يده هذا الرهان، ورأى أن ارتباطات النظامين بالمشروع الأمريكي أعمق مما يتصوره الكثيرون، وأضعف من أن يصل القرار إلى اتخاذ موقف حاسم أو رادع للعدوان.

فبعد الموقف السعودي، الذي حمل المقاومة مسؤولية التوتير، صدر في القاهرة بيان مصري ـ أردني مشترك، ظهر وكأنه استكمال للبيان الأول، إذ حذَّر من انجراف المنطقة إلى مغامرات لا تخدم القضايا والمصالح العربية، منبهاً إلى خطورة انزلاق المنطقة نحو أجواء حرب تقوّض فرص السلام، وتفتح الباب أمام دائرة جديدة من العنف والتوتر لا يعرف أحد مداها، مؤكداً على ضرورة التزام جميع الأطراف الإقليمية بأقصى قدر من ضبط النفس والمسؤولية، وعدم القيام بأعمال تصعيدية غير مسؤولة، تستهدف جر المنطقة إلى أوضاع خطيرة، وتورطها في مواجهات غير محسوبة، تتحمل تبعاتها دول المنطقة وشعوبها[1].

---

(١) الأهرام، ١٥/٧/٢٠٠٦.

ونلاحظ أن كلا البيانين السعودي، والمصري ـ الأردني، تضمنا عبارات متشابهة عندما وصفا عمل المقاومة بالمغامرة، وغير المحسوبة، ما اعتبره البعض أنه توافق ضمني على توصيف موحد لما حصل، رغم أن الأخير حاول التوازن قدر الإمكان في بعض مفرداته، عندما طالب بالوقف الفوري للعدوان، وتجنيب المدنيين والبنى التحتية من القصف في كل من لبنان وفلسطين.

وبعد الضجة التي حصلت إثر إصدار هذا البيان، سارع الرئيس المصري إلى نفي وجود جبهة سعودية ـ مصرية ـ أردنية سرية ضد المقاومة، وقال لصحيفة «الوطني اليوم» الناطقة باسم الحزب الوطني الحاكم: «لا أحد يشكك في حق الشعوب في مقاومة قوات الاحتلال، ولكن هذه المقاومة يتعين أن تلتزم بحسابات الربح والخسارة، وأن إشعال الموقف تخفيفاً لمكاسب محدودة، يتجاهل الهدف الأساسي للفلسطينيين وهو إقامة دولتهم المستقلة، وأن التصعيد الإسرائيلي في لبنان يجر المنطقة إلى منزلق خطر[1].

وشدد مبارك رفضه التدخل في الشأن اللبناني، معتبراً أن حزب اللّه شأن لبناني داخلي يهم اللبنانيين ولا تتدخل مصر في أي أمر يتعلق به.

وتصاعد التوتر بين مصر وسوريا، نتيجة هذه المواقف، بعد خطاب الرئيس بشار الأسد، الذي وصف بعض القادة العرب بأنصاف الرجال، واعتبر مبارك هذا الكلام بأنه استفزازي ولن يرد عليه.

واكتفى كل من الرئيس مبارك والملك الأردني عبد اللّه، بعد لقاء قصير

---

(١) كيوان، مأمون، المواقف العربية والإسلامية، إدانة العدوان وتضامن مع لبنان، «شؤون الأوسط»، صيف ٢٠٠٦، ص ٣٤.

بينهما في عمان، إلى إصدار موقف يخفف من حالة الاستياء الشعبية ضدهما، فشددا على «أهمية الحفاظ على وحدة وسيادة لبنان، وعدم التدخل في شؤونه الداخلية، ووقوف الأردن ومساندتهما للشعب اللبناني، لتجاوز آثار الحرب، ودعمهما لجهود الحكومة اللبنانية في عملية إعادة الإعمار»[1].

ويبدو أن الموقف لم يذكر المقاومة، ولا دعمها على الإطلاق، بل كان التركيز على دعم حكومة السنيورة، لذلك فإن الدعم الأردني من خلال تقديم بعض المساعدات الطبية، واستضافته للطائرات المدنية اللبنانية على أراضيه، لم يلق أي صدى شعبي في لبنان، رغم أنه خطوة إيجابية، لأنه ربطه بموقف سياسي سلبي، وفي محاولة منه لتلطيف الأجواء، دعا الملك الأردني إلى وقف فوري لإطلاق النار على الجبهتين اللبنانية والفلسطينية، وإلى تسوية شاملة في المنطقة، معرباً عن قلقه من احتمال توجه المنطقة لأيام صعبة، محاولاً تبرير التهم المحورية الموجهة إليه، معتبراً أن تنسيقه مع مصر والسعودية ليس وحيداً، بل هناك تنسيق مع دول عربية أخرى، داعياً إلى ترك لبنان واللبنانيين كي يقرروا ما يشاؤون دون تدخلات أو ضغوط خارجية.

وكان أمين عام حزب اللّه السيد حسن نصر اللّه يكرر في لقاءاته المتلفزة، على أنه لا يطلب من العرب دعماً ولا مشاركة في القتال، وكل ما يطلبه منهم الوقوف على الحياد والصمت.

وكشف مراسل الـ «سي. ان. إن» ريتشارد وولفي في مجلة «نيوزويك» الأمريكية[2]، العلاقة بين الموقف الأمريكي الداعم والدافع للحرب، وبين

---

(١) السفير، ٢٠٠٦/٩/١١.

(٢) نيوزويك، ٣١ تموز/يوليو ٢٠٠٦.

البيانات التي صدرت من السعودية ومصر والأردن، التي هاجمت حزب اللّه وحماس، من خلال ما دار في أول اجتماع في البيت الأبيض ضم الرئيس بوش ووزيرة خارجيته كونداليسا رايس، ومستشار الأمن القومي هارلي، بعد أسر الجنديين الإسرائيليين، فقال: ركّز بوش على كسب دعم الأصدقاء من القادة العرب، وأجرى ـ وإلى جانبه خطه الهاتفي الآمن «بروفة» على ما يحتاج أن يقوله لكل من الملك الأردني عبد الله والرئيس المصري حسني مبارك ورئيس وزراء لبنان فؤاد السنيورة، يقول بوش لهؤلاء القادة: إنه يحاول أن يهدئ الوضع بتحذير إسرائيل أن لا تسقط الحكومة الفتية في بيروت، ويشرح لهم ما يرى أنه مخاطر، ويضيف في البروفة: إيران تحاول أن تسيطر على المنطقة، وأن إسرائيل قد تدمر حكومة بيروت، وسوريا قد تجتاح لبنان بحالة فوضى، مع ذلك فإن الهدف الرئيسي هو كسب اتفاقهم على أن الشرير هو حزب اللّه، وكل ما يحتاجه الأمر هو فرض ضغط على الرئيس السوري بشار الأسد الذي يؤيد الجماعات المتطرفة، ويقول بوش للقادة العرب المذكورين: إن المجرم الحقيقي في هذه القضية هو الأجنحة المتشددة لكلٍّ من حماس وحزب اللّه.

بعد ذلك يتابع المراسل: تمضي المكالمات جيداً، يوافق القادة العرب الرئيس الذي كان ينصت إليهم، بينما ينصت الحاضرون عبر سماعاتهم الهاتفية، وكان يتكلم معهم بوش ومسؤول الأمن القومي، وفي الختام يرفع الأخير إبهامه نحو الأعلى (علامة تحقيق الهدف) بينما تبتسم رايس.

٣ ــ الدعم السوري:

لم تكن دمشق على علم مسبق بعملية أسر حزب اللّه للجنديين الإسرائيليين، لكنه لو تسنى لها اكتشاف هذا السر لما مانعت، لأنها على يقين بأن وسيلة استعادة الأسرى اللبنانيين والعرب من السجون الإسرائيلية

لن تكون بغير هذه الوسيلة، وهي تعتبر أن أي إنجاز للمقاومة اللبنانية هو إنجاز لها، باعتبار أن الطرفين في خندق أمامي واحد، في مواجهة المشروع الشرق الأوسطي الجديد، والتهديدات الإسرائيلية والأمريكية المستمرة.

دعمت سوريا المقاومة منذ لحظة العدوان الأولى بكل إمكاناتها، وفتحت أبوابها لإيواء النازحين من الجنوب والبقاع وبقية المناطق اللبنانية الأخرى، طيلة فترة العدوان، وقد تناغم الموقفان الرسمي والشعبي تجاه تأييد الحزب، واستنكار العدوان، بشكل أكد عمق العلاقات الأخوية الثنائية، رغم الحساسيات التي يشعر بها بعض اللبنانيين، بخاصة قوى ١٤ آذار/ مارس للحكومة السورية.

ولو حاولنا قراءة البيانات والتصريحات التي أطلقها الرسميون في دمشق، والقوى والهيئات الشعبية والثقافية والنقابية السورية، لتوصلنا إلى نتيجة واحدة، تدعو إلى رص الصفوف والاستعداد لمواجهة أي عدوان يستهدف سوريا كما استهدف لبنان، وتوفير كل سبل المساعدة للمقاومة، كي تتمكن من الصمود وصد العدوان الإسرائيلي، ورأت أن انتصار المقاومة في هذه الحرب، لن يكون انتصاراً لحزب اللّه، ولا للبنان فحسب، وإنما لسوريا أيضاً، وقد فتحت باب التبرع لدعم اللبنانيين، وسهلت كل إجراءات الحدود.

ونشطت سوريا عبر كل القنوات العربية والإسلامية والدولية الديبلوماسية، لكشف أهداف ومخططات الحرب الإسرائيلية، واستمرت الاتصالات شبه اليومية بين الرئيسين السوري واللبناني بشار الأسد وإميل لحود، لمتابعة التطورات لحظة بلحظة، واعتبر الأسد، أنه عندما يفشل طريق التفاوض نحو السلام، لا تبقى سوى المقاومة بكل أشكالها،

المسلحة والثقافية والسياسية، ورأى أن دعم المقاومة هدفه السلام وليس الحرب، وأكد أن المقاومة أثبتت ثلاث حقائق:

الأولى: إن القوة العسكرية مهما عظمت، عندما لا تمتلك عقيدة وأخلاقاً، ولا تستند إلى حقوق مشروعة، ولا تبنى على سياسة مبدئية تنتج الهزيمة.

الثانية: إن المقاومة التي تمتلك الإيمان والعزيمة والصمود، وتحتضن رؤية ومبادئ وأهداف الشعب، لا بدَّ أن تنتصر.

الثالثة: تأكيد محدودية القوة الإسرائيلية رغم تفوقها.

وحمَّل الأسد قوى ١٤ آذار/مارس في لبنان مسؤولية الدماء التي تسببت بها الحرب، التي جاءت كرافعة سياسية لهذه القوى، وقد شعرت دمشق بارتياح كبير لما حققته المقاومة، من انتصار ميداني، لأن ذلك منحها فرصة جديدة لكي تلعب دوراً إقليمياً له وزنه الفاعل، بعد أن كان هذا الدور محاصراً ومقموعاً ومهمشاً نتيجة الضغوط الأمريكية.

٤ ــ الدور القطري:

لعبت دولة قطر دوراً ديبلوماسياً ناشطاً، إقليمياً ودولياً، في دعم المقاومة، ووقف إطلاق النار، وتعديل القرارات الدولية بما يخدم النص اللبناني. وبرز ذلك خلال اجتماعات وزراء الخارجية العرب، وفي الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، ولم يكن هذا الموقف مرتبطاً على الإطلاق بالرد على الموقف السعودي كما حاول البعض أن يؤشر إليه، إنما هو موقف أخوي نابع من قناعة قطر أميراً وحكومة وشعباً بالحفاظ على المقاومة، وتقديراً لدورها البطولي، ومساعدة الشعب اللبناني في محنته، وهذا الأمر ليس مستجداً على دولة قطر تجاه اللبنانيين، فسبق أن قامت قطر

بأدوار مشابهة كثيرة في محطات لبنانية صعبة أخرى، بخاصة أثناء الاجتياحات الإسرائيلية المختلفة.

وكانت زيارة الأمير القطري الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني إلى لبنان بعد وقف الاعتداءات الإسرائيلية، واختراقه الحظر الإسرائيلي، حركة لافتة، فتحت الباب أمام الكثير من الشخصيات الدولية والعربية للاقتداء بها، وقد حيا الأمير المقاومة الباسلة لانتصارها الكبير، وقال: نحن مع أي بلد يدافع عن أرضه، ورداً على دعوات البعض نزع سلاح المقاومة، أوضح: «إن منع السلاح عن اللبنانيين والسماح بوصوله إلى الإسرائيليين أمر غير مقبول، ومن يؤمن بهذه النظرية، يريد وضع لبنان في قفص يكون صيده سهلاً من قبل إسرائيل في أي ظرف».

وكانت زيارة الشيخ حمد إلى ضاحية بيروت الجنوبية لتفقد آثار العدوان الإسرائيلي على تلك المنطقة، حدث بالغ الدلالة، إذ كان الزعيم العربي الوحيد الذي زار المناطق المدمرة، عبَّد بعدها الطريق لوفود رسمية أجنبية عدة لتتخذ خطوة مشابهة، وأعلن الأمير القطري عن استعداد بلاده لإعادة إعمار أربع مدن وبلدات تعرضت للدمار في جنوب لبنان، كما قدَّم مساعدات لإعادة بناء المدارس وترميم دور العبادة.

واتهم وزير الخارجية القطري حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني مجلس الأمن بالوقوف مكتوف اليدين ومشلولاً وغير قادر على وقف المذابح التي يتعرض لها لبنان.

٥ ـ دور الإمارات والكويت:

حيّت دولة الإمارات العربية المقاومة، وتصدّيها البطولي للعدوان الإسرائيلي. وقدمت دعماً مادياً للمتضررين اللبنانيين، فأعادت بناء ميناء

الأوزاعي، وساهمت في إزالة الألغام والقنابل العنقودية التي خلفها الاحتلال، وأعلن السفير الإماراتي في سوريا يوسف مدفعي في ١٠/٨/ ٢٠٠٦، أن بلاده تؤازر وتدعم المقاومة اللبنانية وتقدم المزيد من الدعم الإنساني والمعنوي للبنانيين.

وأكد البرلمان الكويتي، دعم المقاومتين اللبنانية والفلسطينية، وأدان الصمت العربي والدولي إزاء ما يجري من قتل وتدمير وتشريد، داعياً الشعوب العربية والإسلامية كي تهب وتدعم المقاومة. معتبراً أن الثمن الذي يدفعه لبنان هو نيابة عن الأمة كلها، وانتقد بعض التصريحات العربية التي حاولت الإساءة للمقاومة ودورها.

واعتبر وزير الخارجية الكويتي الشيخ محمد صباح السالم الصباح، أن أهداف العدوان الإسرائيلي على لبنان خبيثة، وليس المقصود فيها استرداد الجنديين، وإنما تدمير الأمة العربية كلها وليس لبنان فحسب، وأن العدوان الإسرائيلي كان شاملاً على جميع مظاهر الدولة اللبنانية، وأن إسرائيل استهدفت النموذج اللبناني في التعايش السياسي والاجتماعي الذي تحقق عبر الطبيعة الديمقراطية والحرية والتعايش السلمي في لبنان[1].

٦ ـ المواقف العربية الأخرى:

تميز الموقف اليمني، بدعمه الواسع للمقاومة، وللبنان في تصديه للعدوان الإسرائيلي الشامل. وقد دعا الرئيس اليمني علي عبد الله صالح، منذ اليوم الأول للعدوان، رئيس القمة العربية آنذاك الرئيس السوداني عمر البشير، إلى عقد قمة عربية طارئة لبحث الوضع المتردي في لبنان وفلسطين والعراق، وأبلغه أنه قدم للأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى،

---

(١) السفير، ٢٣/٧/٢٠٠٦.

مذكرة يطلب فيها عقد قمة عاجلة في صنعاء أو القاهرة أو في أية عاصمة عربية، لكن للأسف الشديد لم تلب هذه الدعوة، لأن تلبيتها ممنوعة أمريكياً، ما أدى باليمن إلى سحب الدعوة «خشية تعميق الانقسامات بين الحكومات العربية»، ووصف صالح مواقف بعض الدول العربية، بأنه كان موازياً لدعم العدوان الإسرائيلي على لبنان، وقال: لولا غياب الوحدة العربية، فإن إسرائيل لم تكن لتغامر في عدوانها.

وأعلن البرلمان اليمني، عن تأييده الكامل للمقاومتين اللبنانية والفلسطينية، وناشد البرلمانات العربية والإقليمية والدولية إلى إدانة العدوان وتحميل إسرائيل مسؤولية الجرائم التي ترتكب.

وانتقد الرئيس السوداني الصمت الدولي، واصفاً دعاوى الشرعية الدولية بالكذب.

وقال: إنه يؤيد المقاومة في فلسطين ولبنان ودارفور، معتبراً أن العدو واحد. ودعت الجزائر إلى وقفة عربية حازمة لوضع حد للهجمة الإسرائيلية على كل من لبنان وفلسطين.

ثانياً: تخبط جامعة الدول العربية

مواقف جامعة الدول العربية، انعكاس طبيعي لمواقف الأنظمة الرسمية التي تتشكل منها، وبما أن غالبية هذه الأنظمة لا تملك قرارها، أو منخرطة في مشاريع وأحلاف خارجية، فإن الانقسام والخلاف بقي السمة الغالبة على وضع هذه المؤسسة العربية الكبيرة، فتعطل دورها، وشلت حركتها بحجة أن الإصرار على عقد اجتماعات لها في الظروف الساخنة قد يؤدي إلى تعميق الأزمات بدل حلها، وهذا ما لاحظناه عند أكثر من مفصل سياسي حساس عاشته الأمة والمنطقة، فأي مؤتمر قمة عربي لا توافق على توقيته وعلى توصياته ومقرراته الولايات المتحدة مسبقاً، لا يكتب له النجاح، ولا حتى مجرد مسايرة المناخات الشعبية السائدة، الأمر الذي تسبب بضياع فرص كبيرة، وبخلق أزمات ثقة بين الأنظمة العربية وشعوبها، وحتى بين الأنظمة في ما بينها، وفشل انعقاد قمة عربية واحدة، أثناء وبعد العدوان الإسرائيلي على لبنان، مثال صارخ على ذلك.

أ ـ الاجتماعات الوزارية:

وعندما عقد اجتماع على المستوى الوزاري في مقر الأمانة العامة في القاهرة، في ١٥/٧/٢٠٠٦، أي بعد ثلاثة أيام على الحرب، فإن الوزراء

عكسوا مواقف أنظمتهم حول تحميل حزب اللّه مسؤولية هذه الحرب، فانقسموا إلى ثلاث فئات:

الأولى: ضمت السعودية، مصر، الأردن، الكويت، العراق، الإمارات، البحرين ورئاسة السلطة الفلسطينية، وهي اعتبرت أن خطوة حزب اللّه في أسر الجنديين الإسرائيليين لم تكن محسوبة أو مسؤولة، وغير موفقة في توقيتها، وجاءت بمعزل عن التشاور مع الحكومة اللبنانية (وهذا الكلام غير دقيق، لأن الحزب أعلن غير مرة أنه سيقوم بهذا العمل في أي لحظة، وحمل بيان الحكومة نصاً بهذا المعنى).

الثانية: ضمت سوريا، لبنان، اليمن والجزائر ورأت أن أسر الجنديين، عمل مشروع لإطلاق الأسرى والمعتقلين اللبنانيين من السجون الإسرائيلية، وهذا حق طبيعي أقرته المواثيق الدولية، وأعلنت دعمها للمقاومة.

الثالثة: تألفت من السودان، المغرب وليبيا، التي رفضت تحميل حزب اللّه المسؤولية عما حصل، مشيرة إلى أن عمله كان مبرراً، لكن هذه الفئة رأت بأنه كان على الحزب واجب التنسيق مع الحكومة حتى لا تتسبب النتائج بإحراجات للبنان على المستوى الدولي.

وبعد نقاشات كادت تنسف الجلسة، وتؤجج الخلافات، ارتأى الوزراء بضرورة التوصل إلى ما تمت تسميته بـ «الحل الوسط»، وهو في الواقع ليس سوى توافق مع رؤية الفئة الأولى، أو بمعنى آخر، محور الفريق الأمريكي، فحذر البيان الختامي من تصرفات يقوم بها البعض، يمكن أن تضر بمصالح الأمة العربية، وفي ذلك غمز من قناة حركتي المقاومة في لبنان وفلسطين: حزب اللّه وحماس. واعتبر أن هذه التصرفات يمكن «أن تتيح لإسرائيل، وأطراف أخرى من خارج الوطن العربي، العبث بأمن الدول العربية مثلما

يحدث في لبنان حالياً». وكشفت اللقاءات المغلقة بين الوزراء العرب، تباعد الرؤية في النظر إلى المقاومة، فرأى وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل أن حزب اللّه ارتكب خطأ عندما قام بأسر الجنديين، وهذا يمكن أن يجر المنطقة إلى حرب كبيرة، وهذا ما لا نقره أو نقبله، فيما ساند موقف آخر، وتحديداً السوري والجزائري واليمني، عمل المقاومة، مقدماً نصوصاً دولية تعطي الحزب مبررات خطوته، وحذر وزير الخارجية السوري وليد المعلم، من خطورة مثل هذه الحوارات، التي لن يستفيد منها إلا العدو، ودعا إلى تجنب أي كلام يمكن أن يشجع إسرائيل المضي في حربها ضد شعب عربي، ونقل عنه قوله:

«بينما أنا في الطائرة من دمشق إلى القاهرة لحضور الاجتماع، رأيت البوارج الإسرائيلية تقصف المدن اللبنانية، فحلمت أن الاجتماع الوزاري سيخرج بمواقف داعمة للبنان ولحزب اللّه، ولكن رأيت حتى قبل الاجتماع، أن بعض الأطراف خرجت بمواقف أفشلت الاجتماع قبل أن يبدأ».

لكن الأمير فيصل وصف أحلام المعلم بـ «الشيطانية»، فيما حاول وزير خارجية قطر تهدئة النفوس. وساند الموقفين الأردني والكويتي، السعودية، لكن وزير الخارجية اللبناني فوزي صلوخ قلب الطاولة، عندما قال:

«إن ما يسميه الإخوة بالتوريط، هي ظواهر ناشئة عن حالة خيبة ومرارة موجودة لدى كافة الشعب العربي، وشعوبنا سوف تحاول عاجلاً أم آجلاً أن تأخذ الأمور بأيديها، إن لم نكن كحكومات جادين وحازمين في إتاحة بارقة من الأمل أمامهم».

واعتبر صلوخ، أن المقاومة أنقذت الموقف العربي وحررت لبنان،

ورفعت رأس العرب والعروبة في أعمالها الجريئة والإنسانية والمدنية المتجردة من كل شيء، وهمها الوحيد أن تحرر ما تبقى من أرض لبنانية، والإفراج عن الأسرى اللبنانيين القابعين في السجون الإسرائيلية منذ ٢٦ عاماً، وتحرير مزارع شبعا.

ونعى أمين عام جامعة الدول العربية عمرو موسى، عملية السلام في المنطقة، داعياً مجلس الأمن إلى اجتماع عاجل لدراسة الوضع المتفجر من كل جوانبه، وإذا فشل في ذلك، فليس أمامنا حديث سوى السلاح، ورأى أن القوى العظمى سلمت عملية السلام برمتها إلى إسرائيل، وبدأنا نسمع عن حق الدفاع الشرعي لإسرائيل، برغم أنها دولة احتلال، بما يتناقض مع القانون الدولي، وأعلن الوقوف إلى جانب الشعب اللبناني، فالمسألة ليست مسألة حزب اللّه أو غيره، الجسور التي تضرب وتقصف هي ملك للبنانيين. وكذلك البيوت، نحن مع لبنان كله.

وأخيراً قرَّر الاجتماع الوزاري، واتقاء لردود الفعل الشعبية الغاضبة، إدانة العدوان الإسرائيلي، والتضامن مع لبنان، ودعم الشكوى اللبنانية أمام مجلس الأمن، والدعوة لوقف إطلاق النار، والتزام لبنان احترام قرارات الشرعية الدولية والخط الأزرق، ودعم بسط سلطة الدولة اللبنانية على كامل أراضيها، وممارسة سيادتها في الداخل والخارج، واعتبار استمرار عمليات التدمير والقتل الإسرائيلية ضد لبنان، يزيد المشكلة تعقيداً ويؤدي إلى زعزعة الاستقرار والأمن في المنطقة.

وأمام الصمود الأسطوري للمقاومة، والخسائر الفادحة التي تكبدتها إسرائيل، ارتفعت الأصوات العربية المساندة للمقاومة، وتغيّرت لهجة الإعلام الرسمية والخاصة، الأمر الذي فرض على النظام العربي، التعامل مع الواقع بلغة مختلفة، وهو ما دفع بالسعودية إلى الدعوة لمجلس وزاري

عربي طارئ في بيروت في السابع من آب/ أغسطس ٢٠٠٦، أي بعد حوالي شهر من العدوان، وانكشاف عجزه وفشله.

ورغم الانتقادات التي رافقت هذا الاجتماع، لأنه عقد بإذن من إسرائيل التي كانت تحاصر لبنان، وبموافقة أمريكية، لأنها شعرت بخيبة أمل إسرائيلية في الحرب، فإن إيجابيات عدة سادت الخطاب العربي، فتلاشت حملات التجريح والتشهير بالمقاومة، وتركز الكلام على دعم لبنان وإعادة إعماره، وحمل نقاط لبنان السبع التي أقرتها الحكومة بالتوافق مع كل الأطراف بما فيهم حزب اللّه، إلى مجلس الأمن، لنقلها إلى كل من الولايات المتحدة وفرنسا اللتان كانتا تعدان صيغة نهائية لمشروع قرار يصدر عن المجلس، وبالفعل نجحت المساعي العربية، رغم ما تعرضت لها من ضغوط ومحاولات تهميش، إلى تعديل نص القرار ١٧٠١ ليس إلى مستوى الطموح، وإنما إلى المستوى المقبول مرحلياً.

ب ـ فشل انعقاد القمة:

كان منطق العقل والضمير يقضي بإسراع العرب للتداعي، لعقد قمة عربية طارئة في أي بلد عربي، للوقوف إلى جانب لبنان، في مواجهة الحرب الإسرائيلية، ومساندة الشعبين الفلسطيني والعراقي، اللذين يعيشان أحلك وأقسى مراحل حياتهما جراء ممارسات الاحتلالين الإسرائيلي الأمريكي.

لكن ذلك لم يحصل، لا قبل ولا أثناء ولا بعد الحرب، ما أثار الكثير من الانتقادات، ولم تستطع اليمن التي دعت إلى قمة عاجلة إلى توفير موافقة ثلثي أعضاء الجامعة، فكان ذلك مبرراً لغض النظر عن هذه الدعوة لعدم توفر النصاب المطلوب، والحقيقة أن الخلافات بين الرؤى العربية من الحرب من ناحية، والضغوط الأمريكية ـ الإسرائيلية من ناحية أخرى، هي

التي أدَّت إلى إفشال عقد القمة، وإلى الامتناع عن المشاركة في القمة الإسلامية التي انعقدت في ماليزيا في ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٦، لتدارس العدوان الإسرائيلي وتداعياته على لبنان والمنطقة.

ويبدو أن الأنظمة العربية، اكتفت باللقاءين الوزاريين في القاهرة وبيروت، حيث أدلى كل فريق برأيه، ولم يكن هناك من إضافات جديدة، يمكن أن تطرح في أي قمة، وبقي التسويف في لقاء الرؤساء والملوك العرب قائماً حتى صدور القرار ١٧٠١، الذي كان مخرجاً للجميع، باعتبار أن ما ورد فيه أفقده ضرورة انعقاده، وبما أن الأنظمة الرافضة للقمة لم تستطع البقاء متمسكة بذرائعها، فقد حاولت أن تعلن أخيراً موافقتها شرط أن يتم ذلك وفق إعداد جيد، وبما أن هذا الإعداد الجيد غير متوافر، بسبب أو بآخر، فإن كل شيء ظل معطلاً حتى فقدت الدعوة معناها، وحاولت السعودية تبرئة نفسها من الوقوف وراء تعطيل القمة، من خلال إعلان وزير خارجيتها، في الاجتماع الوزاري الطارئ في بيروت أثناء العدوان، عندما قال: «إن ما تردد تلميحاً أو تصريحاً، إن المملكة تقف في وجه قمة عربية طارئة، تعالج الموقف في لبنان، لا يمت إلى الواقع بصلة مطلقاً»، وأعلن أنه مفوض بإعلان استعداد حكومته، ليس فقط لحضور قمة عربية طارئة، بل للدعوة إلى عقدها في مكة المكرمة، في الوقت الذي يتفق عليه القادة العرب، وأن شرط المملكة الوحيد لعقدها هو الإعداد الجيد لها»[1].

وأمام التسويف والمماطلة، غاب الإجماع العربي، وغابت معه المخاوف الإسرائيلية والأمريكية، فانكشف الوضع العربي على حالة عجز لم يشهدها من قبل، ولو حاولنا أن نستعيد صورة كل المآزق والحروب

---

(١) الحياة، ٨/٨/٢٠٠٦، ص ٣.

العربية. فإننا نلحظ تقصيراً من مؤسسة القمة في مواجهتها، والبحث عن علاج شاف لمعضلاتها.

وإذا كان البعض تمسك بكلمة من هنا أو هناك، أو بموقف أدلى به هذا المسؤول العربي أو ذاك، بشأن تبادل وتقاذف الاتهامات حول الحرب، واعتبارها ذريعة لفشل القمة أثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان، فإن ذلك لم يكن مقنعاً، لأن الجميع أدلى بدلوه في هذا الإطار، وكان من الطبيعي أن تتعدد الآراء وتختلف وجهات النظر، وما يعزز القناعة بأن الفشل لم يكن وليد خطاب أو تصريح، هو أن المسألة تكررت عند كل المنعطفات التاريخية الحساسة من الصراع العربي الإسرائيلي، وهو ما يؤكد أن الأزمة أعمق وأشمل وأبعد وأخطر مما أعلن وتم تداوله، فالقضية الأساس تندرج في إطار صراعات أعم.

ومهما كانت النتائج، فإن أحداً من العرب، موالياً أو معارضاً للحرب، لم يستطع أن يخفي إعجابه بأداء المقاومة في لبنان، وافتخاره بالانتصار الذي حققته، لأنها أعادت له جانباً من كبريائه المهشم، ووضعت الأمة العربية في مكانة تليق بوجودها، بخاصة أن هذا الانتصار جاء بعد سيل من الهزائم والانكسارات، ما شجع العالم على غزو المنطقة، وتهجير سكانها والسيطرة على ثرواتهم.

ثالثاً: الموقف الشعبي

كان الموقف الشعبي العربي والإسلامي، على امتداد فترة العدوان الإسرائيلي على لبنان، داعماً ومشجعاً لحزب اللّه، ولم تشهد الأمة مرحلة من الترقب والانتظار والمتابعة كما حصلت طيلة الـ ٣٣ يوماً من الحرب، فكانت الشعوب ترقب خطب وتصريحات أمين عام الحزب السيد حسن نصر اللّه، بلهفة وشوق أمام شاشات التلفزيون، وهي تذكرنا بمرحلة مشابهة وحيدة في التاريخ أيام الرئيس جمال عبد الناصر، عندما كان يطل على الشعوب العربية ليعلن موقفاً، أو يطلق صرخة أو نداء.

أظهرت الجموع العربية حماساً منقطع النظير للمقاومة، وكانت تهلل وتكبر كلما حققت المقاومة انتصاراً في موقع أو مواجهة، وتخرج إلى الشوارع بعفوية مطلقة، لتعلن تأييدها العلني لنصر اللّه، ولحسن أداء المقاومة، دون أن تتقيد بتحذيرات أو ممنوعات.

خرجت الجماهير لتهتف بملء حناجرها، ضد الأداء السلبي للأنظمة، وللمشاريع الأمريكية، وضد الهمجية الإسرائيلية، خرجت لتنفس عن حالة احتقان وغليان بلغ الذروة، ولو كانت هذه الجماهير منظمة ومهيئة للعب دور أكبر، لحصل طوفان جرف كل العفن العربي، لكن التعبير ظل في إطاره

العفوي الطبيعي، ولم يصر إلى تجييره بشكل يؤدي وظائف أكبر، وعلى الرغم من محدودية ردود الأفعال، إلاَّ أنها كانت كبيرة وعظيمة ومؤثرة، وحققت التالي:

١ ـ فرضت على الأنظمة العربية التراجع، وعدَّلت أفكاراً، لأن هذا الضغط كان سيتصاعد لو لم يجار بعض الحكام هذا الصوت الهادر.

٢ ـ بعثت برسائل إلى إسرائيل، بأن كل اتفاقاتها للتسوية والتطبيع فشلت، وهي لا تعني الأمة بشيء.

٣ ـ خاطبت الدول الكبرى، بأن التمرد الشعبي يمكن أن يزداد قوة، حتى يصل إلى حد اقتلاع القواعد، من خلال التطوع في جبهة مقاومة أشمل.

وأسقط هذا المد الشعبي، كل الحساسيات الطائفية والمذهبية التي حاولت أمريكا وإسرائيل اللعب عليها، لشق الصف العربي، بخاصة بين الشيعة والسنة، وكان لخروج الجماهير المصرية في تظاهرة حاشدة في جامعة الأزهر، ورفع صور نصر اللَّه وأعلام حزب اللَّه والهتاف: «أعلناها أعلناها حزب اللَّه يتولاها»، أثر بالغ في إفشال المخطط الأمريكي، ومنذ اليوم الأول للعدوان، خرج الآلاف من أنصار حماس، من كافة المساجد في غزة، إلى الشوارع، مطالبين الشعوب العربية بالتضامن مع فلسطين ولبنان، ورفعوا لافتات تحيي حزب اللَّه ومقاومته. كما خرج آلاف العراقيين في مسيرة حاشدة في ضاحية مدينة الصدر في بغداد والكوت والعمارة، نددت بالاحتلالين الأمريكي والإسرائيلي، وحمل المشاركون العلم اللبناني، وهتفوا لحزب اللَّه، معلنين استعدادهم للقتال ضد إسرائيل، ودعا السيد مقتدى الصدر العراقيين إلى الوقوف صفاً واحداً مع الشعب

اللبناني، طالباً إليهم نبذ الفرقة، لأن الوحدة سلاح الشعب اللبناني أمام العدو المشترك، كما أدانت هيئة العلماء المسلمين في العراق العدوان، وحثت المجتمع الدولي على رفض الصمت والتحرك لدعم لبنان، وانطلق حوالي ألفي متظاهر من أمام المسجد الحسيني الكبير وسط عمان، دعماً للبنان ومقاومته، ونظم الكويتيون تظاهرة دعم للبنان أمام البرلمان الكويتي، لوحوا فيها بأعلام حزب اللّه، ورفعوا شعارات مؤيدة له، وكذلك خرجت مظاهرات مماثلة في البحرين، تأييداً للحزب، وانطلقت تظاهرات حاشدة في دمشق، أمام مقر الأمم المتحدة. ناشدت بالعمل على وقف العدوان على لبنان وفلسطين، وحذرت جماعة الإخوان المسلمين، من خطورة الصمت العربي إزاء ما يحصل، والذي سيتجاوز شره إلى المحيط العربي والإسلامي، وأدان حزب اللّه الحجاز، السعودي، السلطات السعودية التي انتقدت حزب اللّه.

وفي تونس، تجمع مئات المواطنين في ١٧/ ٧/ ٢٠٠٦، يمثلون نقابات مهنية، عبروا عن استنكارهم للحرب الإسرائيلية على لبنان وغزة.

وفي طهران، تظاهر الآلاف دعماً للبنان، وألقيت كلمات اعتبرت أن اليوم هو يوم القيامة وتحرير فلسطين، ولن تكون هناك بقعة من الأرض بمنأى عن هجمات حزب اللّه، لقد جاء اليوم الذي يعود فيه كل شخص إلى وطنه، يوم عودة الفلسطينيين إلى ديارهم، وعودة الإسرائيليين إلى البلاد التي جاؤوا منها أصلاً.

وفي السعودية، شارك أهالي القطيف في ٢٢/ ٧، في مسيرة تضامنية مع الشعب اللبناني، حملت رايات حزب اللّه، وهتفوا لنصر اللّه، ورددوا شعارات «الموت لإسرائيل»، ووجهوا نداء لوقف الحرب على لبنان وفلسطين، ومحاسبة إسرائيل لخرقها القوانين الدولية.

ودعا عالم الدين السعودي محسن العواجي، إلى مناصرة حزب اللّه في حربه ضد القوات الإسرائيلية «بكل وسيلة مشروعة»، منددا بمن يقف موقف الحياد من المسلمين.

واتسعت دائرة التأييد الشعبي بعد مرور حوالي ١٥ يوماً على العدوان، فتظاهر المئات أمام القصر الرئاسي الأندونيسي في جاكرتا، مطالبين بإرسال قوات عسكرية لمساعدة حزب اللّه ضد الإسرائيليين، وفي فرنسا، نفذت مجموعة شبابية لبنانية اعتصاماً مفتوحاً في ساحة السوربون، عرضت فيه صور الجرائم الإسرائيلية بحق اللبنانيين لا سيما الأطفال، وحجم الدمار الذي خلفه القصف الإسرائيلي على الأحياء السكنية، وتجمع المئات في محيط السفارة الإسرائيلية في واشنطن، حاملين توابيت ترمز إلى ضحايا العدوان الإسرائيلي على لبنان. وتظاهر الآلاف من اليساريين والقوميين في مصر، منددين بمواقف الرئيس حسني مبارك والحكام العرب، ورفعوا صور نصر اللّه وأعلام حزب اللّه، ورددوا هتافات منها: «يا نصر اللّه يا حبيب، اضرب اضرب تل أبيب»، «جيل وراء جيل، ح نعاديك يا إسرائيل»، «أين الجيوش العربية؟»، وطالبوا بطرد السفير الإسرائيلي من القاهرة. وفتح أبواب التطوع للجهاد وقد طوق المتظاهرون بمئات من عناصر الشرطة المصرية، وفرقوهم باستخدام العصي والهراوات.

رابعاً: تأييد رجال الدين

وكان لافتاً، ظهور الرجل الثاني في تنظيم القاعدة أيمن الظواهري في شريط مصور بثته «الجزيرة»، توعّد فيه بشن هجمات ضد إسرائيل وأمريكا، للردّ على الهجمات الإسرائيلية على لبنان وغزة، منتقداً الحكومات العربية والإسلامية التي تبيَّن «بما لا يدع مجالاً للشك أنها عاجزة ومتواطئة».

وتظاهر العشرات من نشطاء الحزب الديمقراطي العربي، أمام مبنى السفارة الأمريكية في تل أبيب، بينهم العضو العربي في الكنيست الإسرائيلي طلب الصانع، وطالبوا بوقف فوري للعدوان على لبنان.

وأصدر رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الدكتور يوسف القرضاوي، بياناً لمناسبة مرور أسبوعين على المواجهات البطولية التي يخوضها «جند اللّه» في فلسطين ولبنان في مواجهة «أعداء اللّه الصهاينة»، دعا فيه إلى دعم الجهاد في لبنان وفلسطين بالنفس والمال واللسان والقلم، واستنكر كل أساليب التخذيل والتعويق والانتقاد.

وفي العراق، أصدر المرجع الشيعي الأعلى آية اللّه علي السيستاني بياناً، حذر فيه من أن العالم الإسلامي لن يسامح الدول التي ستقف في وجه إطلاق نار فوري في لبنان، في إشارة إلى الولايات المتحدة.

وأكد المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر محمد مهدي عاكف، أنه مستعد لإرسال عشرة آلاف مجاهد إلى لبنان للقتال إلى جانب حزب اللّه.

واعتبر إسلاميو الأردن، أن بقاء السفيرين الإسرائيليين في كل من عمان والقاهرة بعدما سحبت فنزويلا سفيرها من تل أبيب «أمر مخجل».

ورأى الداعية السعودي الشيخ سلمان العودة، أن من أهداف القرار ١٧٠١، حفظ ماء وجه إسرائيل في المواجهة العسكرية التي لم تأتِ بنتيجة مع حزب اللّه، وقال: الحرب تعتبر انتصاراً للأمة العربية والإسلامية.

وأعلن العلامة السيد محمد حسين فضل اللّه، دعمه المطلق للمقاومة، ودعا الشعوب للتحرك لتأخذ دورها في الرد على العدوان.

كما أعلن الكُتّاب والفنانون في مصر وليبيا وسوريا ولبنان وعدد من الدول العربية الأخرى، تضامنهم مع حزب اللّه، وأعلنوا تمسكهم بالمقاومة، ومساعدة لبنان في حربه الأخيرة.

هذا التأييد، كانت له مفاعيله، وأسّس لمرحلة وعي جديدة، ستزداد وضوحاً مع الوقت، فقد برهن الشعب العربي أنه يرفض الاستسلام والانخراط في مشروع الشرق الأوسط الجديد، كما يرفض الاعتراف والتطبيع مع إسرائيل، وهو مع خيار المقاومة لاسترجاع كل الحقوق العربية، وزاده الانتصار إيماناً بقدرته على تحدي كل الصعاب. فوحدت الحرب صفوفهم وتوجهاتهم، وأزالت حواجز الشك والحساسيات والخلافات من نفوسهم، ورسخت لديهم قناعات دعم المقاومة في كل من لبنان وفلسطين وفي كل جزء عربي آخر.

خامساً: التداعيات الإقليمية

لم تقتصر تداعيات الحرب على لبنان والعرب، وإسرائيل فحسب، بل تجاوزتها إلى الشأنين الإقليمي والدولي. لأنها حملت في طياتها الكثير من الحسابات والدلالات، والمعاني السياسية والأمنية والاستراتيجية والاقتصادية والثقافية وغيرها، وكان لإيران وتركيا النصيب الأوفر من هذه التداعيات.

١ ـ إيران:

منذ خطف الجنديين الإسرائيليين، والأنظار والاتهامات تركزت على الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وربطت التصريحات والدراسات والمواقف، بين هذه العملية وما يحصل في العراق تارة، وبينها وبين ما يحصل في فلسطين تارة أخرى، وبينها وبين الملف النووي الإيراني وتصاعد الخلافات مع الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية ثالثة، لذلك لم يكن مستغرباً أن تعلن واشنطن وتل أبيب في بداية الحرب، أن الهدف هو ضرب الذراع العسكري الإيراني في لبنان (أي حزب اللّه)، وإعادة رسم الشرق الأوسط الجديد وفقاً للنتائج المتوخاة، وهو ما دفع وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر، إلى القول: «لقد تركز انتباه العالم على

القتال في لبنان وقطاع غزة، لكن السياق يفضي حتماً إلى إيران»[1].

وأطلق العنان بعدها لتحليلات كثيرة، حول موقع إيران الإقليمي، وتحالفاتها في المنطقة، وأثر ذلك على الوجود الصهيوني، والمصالح الأمريكية عموماً والغربية خصوصاً، والعلاقات العربية الإيرانية الحالية والمستقبلية، وحاولت الأبحاث والتصريحات الكثيرة أن تؤلب السياسيين والكتل الحزبية والرأي العام العربي ضد مخاطر الزحف الإيراني، وتغلغله في الساحة العربية، وصولاً إلى محاولة دق أسافين خلافية مذهبية بين الطرفين، باعتبار أن هذه الوسيلة هي أسهل الطرق إلى إحداث فتنة من ناحية، وإلى إشغال إيران في معركة جانبية تستنزفها خارج الاهتمام الأساس من جهة أخرى، وركّزت الانتقادات على أن تمويل حزب اللّه مادياً وعسكرياً يتم من إيران عبر سوريا، وأن الحرس الثوري الإيراني هو الذي يشرف على عملية التدريب والتسليح، وأن بعض عناصره هم الذين أطلقوا صواريخ «سي ـ ٢٨٠» على البارجة الإسرائيلية حانيت مقابل سواحل بيروت وأغرقوها.

ولاحظنا أن هناك كماً كبير من التلفيقات والتهم، سبقت في هذا المجال، حاولت أن تشوّه صورة التعاون بين إيران وسوريا وحزب اللّه، غير أن الوقائع كانت تأتي دائماً لتكشف زيفها وتسقطها، إذ ثبت أن للحزب أجندته وسياسته وتقديراته وحساباته الميدانية، لا يستطيع أحد أن يتدخل فيها وإن كانت تتقاطع أحياناً مع رؤى الحلفاء، لأن كل نشاط مدروس لعمل الحزب لا بدَّ أن يأخذ باعتباراته الواقع المحلي والإقليمي والدولي، وهو قارئ جيد للتطورات، والتحولات الحاصلة في العالم، وقد أصبح

---

(١) صحيفة واشنطن بوست، ٢٠٠٦/٧/٣١.

ناضجا بتجاربه السياسية والميدانية، ما يمكنه من اتخاذ قراراته بحرية، وبعمق، وباستشراق مستقبلي دقيق.

وتكشَّف للكثيرين، أن محاولة ربط بعض الدول والأطراف المحليين والإقليميين والدوليين بين عملية «الوعد الصادق» والملف النووي الإيراني، بأنه غير علمي وغير موضوعي، وكذلك الربط بين رغبة دمشق في الانتقام بعد خروجها من لبنان وبين هذه العملية، والغريب أن هذه الجهات حاولت أن تتعامى تماماً عن نوايا ومشاريع ومخططات إسرائيل للثأر من لبنان بعد هزيمتها الأولى على يد حزب اللّه في العام ٢٠٠٠.

حاولت إيران أن تنأى بنفسها عما حصل، فنفت تحريضها على عملية الأسر، وعلى احتمال التدخل العسكري إلى جانب حزب اللّه، واعتبرت أن ما حصل هو «جزء من خطة أمريكية للشرق الأوسط الأكبر، وأن تدمير بلد لا يتناسب مع أسر رهينتين»[1].

وساندت إيران بقوة الحزب إعلامياً وسياسياً، وعملت على كشف كل حملات الكذب والأضاليل وتحريف الحقائق التي لجأت إليها وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية، وما أطلقه السياسيون الغربيون من تصريحات عدائية، تارة لها صلة بالملف النووي. وتارة أخرى مرتبطة بالحرب في العراق.

أعلنت طهران أنها تقف إلى جانب المقاومة والشعب اللبناني، وأكدت أنه لا توجد بين لبنان وإيران أية معاهدة دفاع مشتركة تسمح لها من المشاركة في القتال، ولكن هناك معاهدة بين دمشق وطهران، وأي اعتداء

---

(١) رفسنجاني، هاشمي، رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام في إيران، في خطبة الجمعة بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٢١.

على طرف يعتبر اعتداء على الطرف الآخر، وإذا «ارتكبت إسرائيل حماقة واعتدت على سوريا، فإن ذلك سيشكل عدواناً على العالم الإسلامي، وسيكون الرد قاسياً عليها»[1]

كان موقف الدعم الإيراني المعنوي والسياسي مهم جداً أثناء الحرب، فهو جاء في وقت تخلى فيه العالم كله بما فيه العرب عن حزب اللّه، وكانت حركته لا تهدأ في الاتصالات والمشاورات مع الكثير من الدول وبالأخص مع منظمة المؤتمر الإسلامي في ماليزيا وغيرها، للحد من آثار العدوان، ووقف الأعمال البربرية الإسرائيلية، وكانت مواقف مرشد الثورة السيد علي خامنئي تعطي دعماً معنوياً كبيراً لقيادة ومقاتلي حزب اللّه، لما يربط بينهم من صلات روحية ودينية وسياسية ونفسية عميقة، فكان يردد دائماً «إن الأيادي القوية لحزب اللّه، حالت دون تحقيق حلم الصهاينة»، واصفاً إسرائيل «بالورم السرطاني الخبيث». وهو ما يذكرنا بتوصيف الإمام الخميني الذي كان يقول: إسرائيل غدة سرطانية يجب استئصالها.

ورأت التصريحات الإيرانية، أن الهجمات الإسرائيلية تجسّد الطبيعة العدوانية للكيان الصهيوني، وأشادت بصمود لبنان ومقاومته في وجه إسرائيل، ورفضت المطالب بنزع سلاح حزب اللّه، واعتبرت أن الجرائم والفظاعات التي شهدتها الأسابيع الأخيرة، وانتهاك القيم البشرية في فلسطين ولبنان، أثبتت مرة جديدة، أن وجود الصهاينة في المنطقة يشكل كياناً شريراً وسرطانياً وورماً خبيثاً، وأراد الصهاينة أن يكون لبنان لقمة سائغة لهم، ولكن سواعد حزب اللّه حرمتهم من ذلك، واعتبرت أن الأمريكيين عمدوا إلى تحويل منطقة الشرق الأوسط إلى ساحة حرب

---

(١) نجاد، محمود أحمدي، ١٤/٧/٢٠٠٦.

ونزاع، حفاظاً على أمن الكيان الصهيوني، وأن وجود إسرائيل يتناقض مع السلام في المنطقة.

ولم تكتفِ طهران بالتأييد اللفظي والمعنوي فقط، إنما تعهدت بالمشاركة في جهود إعادة إعمار ما هدمته الحرب الإسرائيلية، في المنازل والمدارس والمستشفيات والجسور والطرق ودور العبادة، وكان لهذا الدعم المباشر أثر إيجابي في نفوس اللبنانيين الذين نكبوا أو تضرروا، جسدياً أو مادياً.

لا شك أن نتائج الحرب عكست نفسها على النظرة لبناء شرق أوسط جديد، وفق الرؤية والاستراتيجية الأمريكية، لقد استطاع حزب اللّه أن يحد من اندفاعة هذا المشروع، إن لم نقل إلى إفشاله تماماً، وهذا الانتصار أعطى إيران فرصة للاندفاع في تحقيق مشروعها الشرق أوسط الإسلامي الجديد، الذي يختلف بتكوينه ومنطلقاته وأهدافه عن المخطط الأمريكي، فالولايات المتحدة عملت منذ طرح فكرتها، على إنشاء منطقة خالية تماماً من أية مقاومة، تكون فيها إسرائيل صاحبة القرار والمشرفة على تنفيذ المشاريع الأمريكية، تضرب أية قوة ممانعة، تعمل على تفكيك وتجزئة البلدان المحيطة، وتساهم في نشر ما سمته واشنطن «الفوضى المنظمة». بينما الفكرة الإيرانية قائمة على النقيض تماماً، تطوير ودعم قوى المقاومة، وتحرير الأراضي المحتلة، وتدمير الكيان الصهيوني، وخلق تحالف عربي إيراني قوي ومتين، وتشكيل جبهة إسلامية عريضة تكون قادرة على حماية نفسها، وبناء ذاتها، ويكون لها وزن ودور دولين على مختلف المستويات.

مع انتصار حزب اللّه على إسرائيل، بدأت الدوائر الأمريكية والصهيونية وبعض حلفائهما في المنطقة، تشعر بالخوف من دور جديد لإيران في رسم خارطة الشرق الأوسط وتحديد هويته، فهذا الانتصار كان

انتصاراً مباشراً لإيران، سواء من الناحية السياسية والمعنوية، أو من الناحية العسكرية، حيث تأكد فعالية السلاح الذي تمتلكه طهران في ضرب السلاح الأمريكي الذي حاربت فيه إسرائيل ودمرته، وبنتيجة هذا الانتصار أيضاً، بدأت ـ وللمرة الأولى في التاريخ المعاصر ـ ترتفع الأصوات بعدم إمكانية أن تلعب إسرائيل دور القاعدة الأمريكية أو الغربية في المنطقة، وأنها قابلة للهزيمة، وأنه يجب إعادة النظر بكل السياسيات والتحالفات الأمريكية في المنطقة، وعدم إمكانية تجاهل طهران ودمشق، من رسم أي معالم أو خطة جديدة للشرق الأوسط.

فرضت نتائج الحرب معادلة لا يمكن تجاهلها أو تخطيها، فهي منحت إيران المحاصرة والتي تتعرض لضغوط اقتصادية وسياسية ومعنوية شتى، إضافة إلى التهديد بضربها عسكرياً بشكل شبه يومي من قبل أمريكا وإسرائيل، منحتها فرصة لالتقاط أنفاسها، والشعور بالقوة إزاء الهجمة الشرسة التي تستهدفها وتحاول تعطيل برنامجها النووي، وأصبح لزاماً على العالم اليوم الاعتراف والتعاطي مع إيران كقوة إقليمية ذات أثر مهم، يصعب القفز فوقها، وستعمد طهران لاحقاً ـ وطبقاً لهذه المحصلة ـ أن تتمسك ببرنامجها النووي السلمي، وبكل طروحاتها الأخرى.

٢ ـ تركيا:

تتطلع تركيا منذ وقت غير قصير، إلى إعادة نفوذها خارج حدودها، بعد أن اضطرتها الظروف السابقة إلى الانكفاء داخل هذه الحدود، وهذا ما عبَّر عنه بوضوح وزير الخارجية عبد اللّه غول، عندما أعلن: «إن تركيا لا يمكن أن تحبس داخل الأناضول». ورغم كل الاعتراضات على مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير، ظلّت تركيا تعتبر نفسها جزءاً من هذا المشروع، وعندما طرحت مسألة إرسال قوات في إطار الأمم المتحدة إلى جنوب

لبنان، لم تترد الحكومة في إبداء استعدادها للمشاركة في عديدها، على أساس أن الفرصة حانت كي تدخل تركيا مجدداً إلى عمق القضايا العربية من النافذة اللبنانية، بعد أن جربت ذلك أيضاً من خلال البوابة الفلسطينية، وإمكانية لعب دور الوسيط بين إسرائيل والفلسطينيين. وكان الرأي العام التركي وصل ذروته في الوقوف إلى جانب حزب اللّه أثناء العدوان، كما المعارضة، وقد تم التعبير عن ذلك بالتظاهرات والمسيرات والبيانات، والكتابات والتحليلات الإعلامية، وكان الأتراك يتابعون عبر الشاشات الصغيرة والإذاعات ووسائل الإعلام المكتوبة. انتصارات الحزب الميدانية بفرح عارم، واعتبرها البعض جزءاً من الدفاع عن تركيا نفسها في وجه الخطر الصهيوني الداهم، وكانت صور المجازر والاعتداءات الإسرائيلية تهز مشاعر الأتراك، وتدفعهم للمطالبة بالتطوع إلى جانب الحزب، وكشفت استطلاعات الرأي التي أجريت في تلك اللحظات، أن الغالبية العظمى للأتراك زاد حقدها على الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، حتى بلغ الذروة.

واكتفى الموقف الرسمي التركي في بداية الحرب بشجب استهداف المدنيين الأبرياء، والمطالبة بوقف إطلاق النار، مع إبداء استعداد للقبول بمجموعة تركية ضمن «اليونيفيل»، وهذه النقطة أخذت سجالاً واسعاً بين حزب العدالة والتنمية الحاكم والمعارضة التي أبدت خشيتها من أن تتحول هذه القوة لمواجهة حزب اللّه أو تجريده من سلاحه.

واشترط الرئيس التركي أحمد نجدت سيزير، أن تنال الخطوة إجماعاً تركياً، وألا تكون قوة حرب: إلا أن المعارضة (حزب الشعب الجمهوري) وحزب الوطن الأم وحزب الطريق المستقيم، دعت إلى عدم الاستعجال، إلا أن الحكومة قررت بالتصويت في ٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦، وبأكثرية

٣٤٠ صوتاً من الحزب الحاكم، ومعارضة ١٩٢ وامتناع واحد عن التصويت أن تشارك في قوات الأمم المتحدة العاملة في لبنان، معتبرة أن في ذلك رسالة واضحة إلى جهات عدة تدل على نهج الحكومة الحالية، وفي الوقت ذاته حرصت هذه الحكومة أن تبقى خطوطها مفتوحة مع إيران وسوريا وغيرهما على الرغم من محاولة أطراف عربية إلى شدها بعيداً في إطار يتناقض مع القناعات الشعبية، ولم تفلح السعودية في كسب ود هذه الحكومة رغم محاولة إغرائها باستثمارات بقيمة ٢٥مليار دولار تقوي الاقتصاد التركي وسلطة العدالة والتنمية[١]، وظلّت متمسكة بأفضل العلاقات مع طهران ودمشق.

وبحكم حساسية الوضع في جنوب لبنان حرصت أنقرة من خلال القوة التركية المشاركة في عداد القوات الدولية أن تلعب دوراً متوازناً، والابتعاد عن أي خلافات أو صراعات محلية لبنانية، أو أي صدام مهما كان حجمه وشكله مع حزب اللّه، لأن أي وضع خلاف ذلك سيعطي ذريعة للمعارضة لتهشيم دور وممارسة الحكومة وبالتالي العمل على إسقاطها.

---

(١) نور الدين، محمد، «الحرب الإسرائيلية على لبنان»، ص ٣٦٤.

سادساً: التداعيات الدولية

إذا كانت الحروب الإسرائيلية السابقة، كانت تعتمد على التشاور مع الولايات المتحدة، أو طلب الإذن منها حتى لا يسيء التوقيت إلى السياسة الأمريكية في المنطقة، فإن هذه الحرب اختلفت عن سابقاتها بالمشاركة المباشرة للولايات المتحدة فيها، تخطيطاً وتجهيزاً ودعماً لوجستياً ودبلوماسياً ومادياً وعسكرياً ومعنوياً. باعتبارها حرباً تأتي في سياق مخاض الشرق الأوسط الجديد الذي تعدّ وتعمل له واشنطن بكل قواها، وكانت تظن ـ استناداً لمعلومات مغلوطة وتقارير منحازة ـ إن هذه الحرب ستجلب لها الانتصار السريع، لتوظيفه في أماكن أخرى، في ظل المأزقين العراقي والفلسطيني، وكذلك الملف النووي الإيراني. هذه المشاركة المباشرة، أفصح عنها بوضوح وليام كريستول أحد منظري الإدارة الأمريكية، عندما قال: «حرب إسرائيل في لبنان هي حربنا، لأن تل أبيب تخوض المعركة ضد كل من يحاول خلخلة استقرار الغرب».

لذلك كان طبيعياً أن تتحمل الولايات المتحدة وزر نتائج هذه الحرب، تماماً كإسرائيل والسقوط المدوي فيها، كان فضيحة للأولى كما للثانية، فأربكت كل الحسابات وأعادت الأمور إلى دون نقطة الصفر.

أ ـ التعاون الأمريكي ـ الفرنسي:

بعد أن شعرت الولايات المتحدة بصعوبة مهمتها في العراق، وتعقيدات الحل مع طهران، وحاجتها لمزيد من ممارسة الضغوط على سوريا وحزب اللّه وحكومة حماس في فلسطين تحركت باتجاه إعادة تصحيح علاقاتها مع بعض الدول الأوروبية. التي اعترضت على الغزو العراقي، وكانت تحاول الابتعاد عن السياسات الأمريكية. وكانت فرنسا في رأس قائمة أولويات هذا التحرك لاعتبارات عدة، أهمها: أن فرنسا ضليعة في فهم المنطقة وأساليب التعامل معها، وفقاً لتجربة تاريخية طويلة، ونتيجة لعلاقات تجمعها مع بعض الدول والشخصيات السياسية في المنطقة، ورأت أن التعاون المشترك في ما بينهما يمكن أن يخدم الاستراتيجية الأمريكية ويوزع العبء على أكثر من طرف، وتالياً مشاركة أوروبية شبه إجماعية مع الولايات المتحدة، لاستكمال حلقات طوقها حول الدول «المتمردة»، لإخضاعها وتقليم أظافرها. ويبدو أن فرنسا التي باتت معزولة، وجدت في هذا المسعى الأمريكي تلبية لرغبة طالما تمنتها، فهي تريد الحصول على حصتها من نفط العراق، والعودة إلى الشرق الأوسط من الباب الواسع، كما تريد الانتقام من سوريا وتصفية الحسابات معها لأسباب مصلحية، ولضرب كل القوى المساندة والحليفة لدمشق، واستفرادها و«ترويضها»، وكان لبنان الساحة الأكثر مواءمة لباريس لتحقيق مطالبها، وهو ما يتلاءم ويتوافق تماماً مع الهدف الأمريكي، وقد أنتج التعاون الأمريكي الفرنسي بخصوص الملف اللبناني السوري استصدار قرار عن مجلس الأمن يحمل الرقم ١٥٥٩، الذي دعا إلى انسحاب سوري فوري من لبنان، وتجريد حزب اللّه والفلسطينيين من أسلحتهم، وبسط الجيش اللبناني سلطته وسيادته على كامل الأراضي اللبنانية، حتى الحدود مع فلسطين

المحتلة، وإحكام المراقبة على الحدود مع سوريا. لكن أحداً لم يستطع نزع السلاح المقاوم بالقوة، وتوافق اللبنانيون على أن هذا الأمر شأن داخلي، يتم مناقشته بالحوار، ولا شأن لأي طرف إقليمي أو دولي به، غير أن بعض الأطراف المحليين حاولوا دائماً استغلال هذه الورقة للتلويح بها ضد سوريا بين حين وآخر، متهمينها بأنها تواصل تهريب السلاح إلى المقاومة، ودعم حلفائها في لبنان، والتدخل في الشؤون الداخلية.

ومهما قيل عن ضعف هذا القرار وعدم دستوريته، فإنه كشف عن نوايا تفجيرية في لبنان، أمريكية ـ فرنسية ـ إسرائيلية، فجاءت عملية اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري، لتثير غباراً سياسياً كثيفاً يعمي الأعين عن الرؤية الصحيحة، بينما كل وسائل الإعلام المرتبطة بالإدارتين الأمريكية والفرنسية، نصبت نفسها قاضياً لتصدر الأحكام المسبقة ضد سوريا، رغم عدم البدء بالتحقيقات، أو كشف أي ملابسات حول الحادث، ما أثار الشكوك والريبة لدى البعض ولم يبرئ واشنطن وإسرائيل من احتمال افتعال مثل هذا العمل الإجرامي الكبير، وكشفت كل التحقيقات والمؤتمرات الصحفية التي عقدها رئيس لجنة التحقيق الأول القاضي الألماني ديتليف ميليس بأنها كانت مبنية على شهادات مزورة وكلام منسوب إلى «مجهولين»، فقط لإثبات أن القيادة السورية هي التي وقفت وراء عملية الاغتيال، وعندما عزل ميليس وجاء القاضي البلجيكي سيرج برامرتز لاستكمال التحقيق، حاول أن يبتعد عن تسييس الموضوع وحصره في إطاره القانوني، فلم يوجد اتهامات مباشرة لأي طرف، ولم يتمكن من التوصل إلى المزيد من المعلومات رغم التقارير المتفائلة التي رفعها إلى مجلس الأمن، واتضح من كل هذه التحقيقات، أنه أريد استهداف القادة الأمنيين الأربعة الكبار في لبنان الذين كانوا يعملون في فترة الوجود السوري،

لـ «تطهير» كل الجهاز الأمني من هذا الفريق. كما أريد إثارة النعرات والفتن الداخلية، وإيصال بعض الرموز الحليفة لأمريكا إلى المواقع النيابية والوزارية، مستغلين ظروف دماء الرئيس الحريري وغيره.

وعندما شعرت كل من واشنطن وباريس، أن كل هذه المحاولات لم تنجح في نزع سلاح المقاومة، ولا في النيل من سوريا، ولدت فكرة توجيه ضربة عسكرية إلى كل من سوريا وحزب اللّه، يمكن أن تمتد إلى طهران إذا اقتضت الضرورة ذلك، وكان هذا التفاهم قبل قيام حزب اللّه بأسر الجنديين الإسرائيليين، ولما نفذت العملية، كانت التوقعات تشير بأن عملية تبادل للأسرى ستتم دون تصعيد أو تجاوز لما سبق وان تم التوصل إليه سابقاً على هذا الصعيد، إلا أن المسألة اتجهت إلى حرب مفتوحة، كانت فيها إسرائيل أداة المواجهة، بينما كانت أمريكا جسر الإمداد، وفرنسا التغطية السياسية، والضغط المحلي اللبناني عبر حلفائها.

ب ـ قمة الثماني لحماية إسرائيل:

حاولت الولايات المتحدة ـ الممسكة بزمام القرارات والمؤتمرات الدولية ـ أن تصيغ البيانات والتوصيات والقرارات، بما يبرئ إسرائيل من جرائمها، ويحمّل أطراف المقاومة المسؤولية عن كل ما جرى، كما حاولت أن تستدرج العالم إلى اتخاذ قرارات تعطيها بالدبلوماسية ما فشلت في تحقيقه ميدانياً، وهذا ما سعت إليه في اجتماع ما سمي بمجموعة الدول الثماني في سان بطرسبرغ، عندما ثبتت الشروط الإسرائيلية لوقف إطلاق النار، واعتبار أن الأزمة كانت «ناجمة عن جهود القوى «المتطرفة» لزعزعة استقرار المنطقة، لإحباط آمال الشعوب الفلسطينية والإسرائيلية واللبنانية في الديمقراطية والسلام».

وعدَّد بيانها النهائي، أسباب التصعيد، مشيراً إلى أطراف المقاومة، دون التطرق إلى أي مسؤولية تتحملها إسرائيل عن ذلك، فلفت إلى إطلاق حماس للصواريخ على الأراضي الإسرائيلية وخطف جندي إسرائيلي، وانتهاك حزب الله للخط الأزرق وقتل وخطف جنود إسرائيليين، وخلص إلى توجيه إنذار إلى عدم السماح لهذه العناصر المتطرفة وأولئك الذين يدعمونها من إغراق الشرق الأوسط في الفوضى، والتسبب في نزاع أوسع، داعياً هذه الأطراف بوقف هجماتهم فوراً، معتبراً أن ما تقوم به إسرائيل هو نوع من الدفاع عن النفس، متمنياً عليها ممارسة ضبط النفس لتجنب إصابات في صفوف المدنيين وإلحاق أضرار بالبنى التحتية، ورأى أن الأولوية الأكثر إلحاحاً للحل الدائم حسب تقويم الدول الثماني، يتطلب التالي:

- عودة الجنود الإسرائيليين في غزة ولبنان سالمين.

- وقف قصف الأراضي الإسرائيلية.

- وقف العمليات العسكرية الإسرائيلية وانسحاب مبكر للقوات الإسرائيلية من غزة.

- إطلاق الوزراء والنواب الفلسطينيين[1].

وحض المؤتمرون إلى تطوير خطة قراري مجلس الأمن ١٥٥٩ و١٦٨٠ في ما يتعلق بلبنان، ودعم الحكومة اللبنانية في نشر الجيش في كل أنحاء البلاد، وخصوصاً في الجنوب. ونزع ما أسموه سلاح الميليشيات، وتمنوا درس مجلس الأمن لإمكان إرسال بعثة دولية للأمن والمراقبة في الجنوب.

---

(١) الحياة، ٢٠٠٦/٧/١٦.

وبعد يوم واحد على تبني الشروط الإسرائيلية لوقف الحرب، أجمع قادة الدول الثماني تمسكهم بضمان أمن إسرائيل، وتشكيل قوة دولية مؤلفة من ثمانية آلاف عنصر، يوازيها «حزام للمراقبة» للانتشار في الجنوب ولما طلب أمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان منحه بعض الوقت لتشكيل قوة مدربة، دعا رئيس الوزراء البريطاني، إلى أنه كلما سارع مجلس الأمن باتخاذ قراراته بشكل أسرع كلما كان ذلك أفضل، داعياً إلى عدم استخدام حق النقض «الفيتو» من أي جهة لإعاقة نشر هذه القوة، وقال في مؤتمر صحفي: «أي بلد، سواء سوريا أو إيران أم أي بلد آخر، له تأثير على حزب اللّه يجب أن يستخدم هذا التأثير في وضع كهذا»، ولم يتطرق إلى ما هو مطلوب من إسرائيل أو الدول التي تدعمها.

واقترح رئيس الحكومة الإيطالية رومانو برودي، أن يكون قوام القوة ثمانية آلاف عنصر، وحدد دورها بـ «حفظ السلام»، وليس كما قال أنان «قوة استقرار». وأعلن الرئيس الفرنسي جاك شيراك، أنه يؤيد منح القوة الدولية «وسائل رادعة»، ما يكشف الكثير من النوايا الخبيثة التي يخبئها هذا التعبير، معتبراً «أن الشعب اللبناني التعس يتحمل وزر سلوك عنيف ومنحرف».

وبينما تريثت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل في اتخاذ قرار بشأن المشاركة، دعا الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، إلى ضرورة موافقة لبنان وإسرائيل. وإعطاء الأولوية للطرق السياسية والدبلوماسية وإسناد دور محوري للأمم المتحدة. وكشفت المتحدثة باسم الحكومة الإسرائيلية ميري ايسين، أن ما يزعجها هو انتشار حزب اللّه على الحدود الشمالية، وتساءل السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة جون بولتون الذي تعتبره إسرائيل المندوب السادس لها في الأمم المتحدة، إن كانت هذه القوة ستفوض في

نزع سلاح حزب اللّه، موضحاً رغبته في تحقيق هذه الأمنية. ولكن الرئيس الأمريكي جورج بوش، رأى بأن بيان قمة الثماني سيساهم في التهدئة عبر معالجة أسباب العنف، والأسباب برأيه تكمن في الأنشطة التي يقوم بها حزب اللّه، المدعوم من سوريا والممول من إيران، ولذلك لا بدَّ من «اجتثاث» هذا السبب.

ولم تكن كندا بعيدة عن الموقف الأمريكي، فرفض رئيس ورزائها المحافظ ستيفن هاربر، إدانة إسرائيل في مقتل الكنديين السبعة في العدوان على لبنان، معتبراً أن إسرائيل كانت دائماً «الضحية».

جـ ـ مؤتمرا روما واستوكهولم:

نشطت الولايات المتحدة على الدوام، في إعاقة أية دعوة لوقف العدوان الإسرائيلي على لبنان في مراحله الأولى، بغية إعطاء المزيد من المهل لإسرائيل لإحداث اختراق يوفر لها غطاء لفرض حل سياسي على أساسه، وكانت طيلة تلك الفترة تسوّف وتماطل، وتخترع الحجج لتبرير تلكئها هذا، وعندما أيقنت أمريكا أن كل ما قامت به لم يخدم ولن يخدم الحرب الإسرائيلية، بدأت تميل إلى عقد مؤتمرات بحثاً عن حلول سياسية، تؤمن لها غطاء الهزيمة، بذريعة التجاوب مع المجتمع الدولي. وعلى ضوء ذلك، عقد في روما اجتماع ضم وزراء خارجية ١٤ دولة مثلوا: الولايات المتحدة، إيطاليا، فرنسا، ألمانيا، بريطانيا، اسبانيا، اليونان، قبرص، كندا، روسيا، تركيا، الأردن، السعودية ومصر، شارك فيه رئيس الحكومة اللبنانية فؤاد السنيورة، وأمين عام الأمم المتحدة كوفي عنان، والممثل الأعلى لسياسة الاتحاد الأوروبي الخارجية خافيير سولانا، ورئيس البنك الدولي بول وولفوتيز، وقد عبَّرت هذه الدول، عن قلقها الشديد للوضع في لبنان، والعنف في الشرق الأوسط وبحثت في الإجراءات الملموسة التي

يمكن أن تقود لبنان إلى وطنٍ حر ومستقل وديمقراطي يتولى السيطرة على كل أراضيه، وتقديم المساعدة للحكومة اللبنانية لمواجهة التحديات السياسية والاقتصادية والأمنية.

واعتبر المشاركون «أن إطار القرارات الدولية ، والتي تشمل إعلان مجموعة الثماني الصادر في ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠٦، والقرارات: ٤٢٥، ١٥٥٩ و١٦٨٠ الصادرة عن مجلس الأمن الدولي، ووثيقة الوفاق الوطني الواردة في اتفاق الطائف، واتفاق الهدنة للعام ١٩٤٩، تشكل المبادئ التي توجه جهود ومسؤولية المجموعة الدولية في مساعدتها لحكومة لبنان وشعبه»[١].

وركّزوا على الدعوة لنشر القوات المسلحة اللبنانية في كل مناطق البلاد، ونزع أسلحة الميليشيات، معتبرين أن الحل الدائم في الشرق الأوسط يجب أن يكون إقليمياً، متعهدين بالعمل للتوصل إلى سلام دائم وكامل.

ولم يخرج مؤتمر استوكهولم، الذي استضافته حكومة السويد بالتعاون مع لبنان والأمم المتحدة في ٣١ آب/أغسطس ٢٠٠٦ وضم ممثلين لأكثر من ٥٠ مؤسسة دولية، في استنتاجاته عن كل المؤتمرات الدولية السابقة، التي تعمل لحماية إسرائيل، ونزع سلاح حزب اللّه، فرغم أنه انعقد تحت عنوان «إنعاش لبنان»، وتأمين مساعدات مالية وإنسانية للشعب اللبناني، تقدر بـ: ٩٤٠ مليون دولار، إلاّ أنه دعا إلى تنفيذ قرار مجلس الأمن ١٧٠١ بالكامل، متضمناً البنود المتعلقة بتأمين الحدود اللبنانية، ووضع حد لدخول السلاح، باستثناء التابع للحكومة اللبنانية.

---

(١) السفير، ٢٧/٧/٢٠٠٦.

د ـ القرار ١٧٠١:

بعد شهر من الحرب الإسرائيلية المفتوحة على لبنان، عقد مجس الأمن الدولي اجتماعاً، لبحث المستجدات الأمنية والسياسية، وإصدار قرار لم يخرج في شكله ومضمونه عن كل القرارات السابقة، التي ترتكز إلى الانحياز الفاضح لإسرائيل، وإدانة حزب اللّه، وحلفائه في «محور الشر» إيران وسوريا، فأعرب المجتمع الدولي بقراره الذي حمل الرقم ١٧٠١، عن القلق من التصعيد المستمر «منذ هجوم حزب اللّه على إسرائيل في ٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٦، والذي أدى حتى الآن إلى سقوط مئات القتلى والجرحى لدى الطرفين، وسبَّب أضراراً فادحة في البنى التحتية المدنية، وأدى إلى نزوح مئات الآلاف من الأشخاص في الداخل». وشدد على وضع حد للعنف، وإطلاق سراح الجنديين الإسرائيليين فوراً وبدون شروط دون حسم مسألة الأسرى والمعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية، ورحب بنقاط الحكومة اللبنانية السبع التي تقضي بسيطرة الجيش على المناطق، ومنع تواجد أي أسحلة غير السلاح الشرعي.

ورأى أستاذ القانون الدولي في الجامعة اللبنانية الدكتور خليل حسين، أن هذا القرار شكّل سابقة في التعامل الدولي مع الكثير من القضايا التي تهدد السلم والأمن الدوليين، من خلال العديد من النقاط والاعتبارات الواردة فيه، فثمة العديد من علامات الاستفهام التي تطرح إن كانت لجهة ما يهدف إليه القرار في المرحلة الحالية أو لجهة النتائج المترتبة على العدوان، أو بمعنى آخر ثمة أسئلة كثيرة ستطرح حول ما بعد العدوان والتي ستشكل مأزقاً للوضع اللبناني كما الإسرائيلي، أقل ما يُقال فيها أنها تسوية الممكن محلياً وإقليمياً ودولياً. في الشكل يمكن الإشارة إلى بعض الملاحظات منها:

ـ جاء القرار بعد مضي شهر كامل على العدوان وتخلي مجلس الأمن عن صلاحياته المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة ونظامه الداخلي، لجهة وجوب عمله على حفظ الأمن والسلم الدوليين.

ـ كان القرار بمثابة مشروع التسوية الممكنة، بين أطراف بعضهم يملكون الحل والربط في الموضوع، وبعضهم الآخر فاوضوا بالوكالة، وربما سيجنون مكاسب سياسية أكثر من الأطراف الأساسيين أنفسهم.

ـ ثمة تخبط وتأويل واضح في صياغة العديد من فقرات القرار لجهة إبراز مطالب الأطراف المعنية بالموضوع، ما سيجعل القرار نفسه مناسبة للخلاف على تفسير العديد من الفقرات الواردة فيه.

ـ تمَّ عطف القرار على العديد من القرارات السابقة المتعلقة بالوضع اللبناني، ومنها القرار ٤٢٥ و٥٢٠ و١٥٥٩ و١٦٨٠ واتفاقية الهدنة، ما يدخل أطراف إقليميين ودوليين، ربما تعقد أساس الموضوع، وتعلق تطبيقه إلى آجال مرتبطة بحل بعض القضايا الإقليمية العالقة، بدءاً من مواضيع الصراع العربي الإسرائيلي وصولاً إلى الملف النووي الإيراني.

ـ لم يأتِ القرار بغالبية فقراته متوازناً، لا شكلاً ولا مضموناً، فيستعمل تعابير مختلفة في الشدة «إذ يعرب عن قلقه الشديد» الفقرة (٢) في معرض تحميل حزب اللّه مسؤولية العدوان، «إذ يشدِّد على الحاجة» في الفقرة (٣) في معرض معالجة «الإفراج غير المشروط عن الجنديين الإسرائيليين المخطوفين»، في المقابل استعمال تعابير مخففة جداً لمعالجة المطالب اللبنانية «يأخذ في الاعتبار» و«يشجع الجهود» عند الإشارة إلى موضوع السجناء اللبنانيين المعتقلين في إسرائيل؛ وكذلك في الفقرة (٥) «إذ يرحب بجهود رئيس الوزراء اللبناني» و«يرحب بالتزام الحكومة اللبنانية بتواجد قوة دولية».

ـ إن القرار بشكله ومضمونه لن يكون نهائياً، لجهة مساراته، ذلك بما ورد في الفقرة التنفيذية (١٧)، التي عهدت للأمين العام تقديم تقرير لمجلس الأمن عن تطبيق القرار خلال أسبوع، ومن ثم دورياً، دون ذكر المدة اللاحقة، ما سيجعل بنوده وتفسيراته بشكل عام عرضة للتغيير وفقاً للتقارير اللاحقة.

وإذا كان شكل القرار يبدو بداية لحفلة خلافات قوية في المستقبل، فإن مضمونه لا يقل خطورة، لأسباب واعتبارات كثيرة منها:

ـ كما هو واضح من تصريحات الأطراف ذات الصلة بالقضية، بأن القرار اتخذ وفقاً للفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة، فإن كنه القرار ومسار تنفيذه وأهدافه وحتى نص بعض الفقرات فيه، تدل على أنه يقع ضمن الفصل السابع، وعليه أن تنفيذ القرار مرتبط باستعمال القوة بصرف النصر عن رغبة ورضا الأطراف ذات الصلة بالوضوع، فمثلاً ما جاء في الفقرة التنفيذية (١٢) «. . . يسمح لقوات (اليونيفيل) القيام بكل التحركات الضرورية في مناطق نشر قواتها وفي إطار قدراتها، للتأكد من أن مناطق عملياتها لا تستخدم للأعمال العدائية بأي شكل، ومقاومة المحاولات عبر وسائل القوة لمنعها من أداء مهماتها بتفويض من مجلس الأمن». إن كل التحركات الضرورية تعني ما تقرر هذه القوة لتنفيذ مهامها دون أي حدود واضحة، كما أن إجازة استعمال القوة كما هو وارد في النص، هو مرتبط بالتفويض من مجلس الأمن والذي يعتمد في الأساس على منطوق القرار ٤٢٥ لعام ١٩٧٨ المتعلق باليونيفيل، ومن المعروف أن ذلك القرار يتمتع بفرادة خاصة، لجهة اعتباره أنه أعلى من الفصل السادس وأقل من الفصل السابع، لما ورد في متنه أن مهام قوة اليونيفيل هي «تثبيت السلم والأمن» وليس «حفظ» أو «فرض» الأمر، الذي يوحي بأن التفويض هو في الفصل

السابع وليس السادس. علاوة على ذلك ما استند إليه القرار ١٧٠١ في الفقرة (٥) لجهة عطفه على اتفاقية الهدنة، والصادرة ضمن الفصل السابع للميثاق. وكذلك الفقرة التمهيدية (١٠)، «الإقرار بأن التهديد الذي يتعرض له لبنان يشكّل تهديداً للسلام والأمن العالميين» وهي من المواضيع التي يجب على مجلس الأمن اتخاذ قراراته في الفصل السابع لحماية الأمن والسلم الدوليين.

ـ وبدلاً من الإعلان الفوري لإطلاق النار دعا إلى وقف الهجمات من جانب حزب اللّه، ووقف كل العمليات الهجومية العسكرية من جانب إسرائيل، الأمر الذي يستشف منه على الأقل في المرحلة الراهنة، غير محددة التوقيت بقاء إسرائيل في الأماكن التي تحتلها دون إعطاء فرصة مجابهتها من المقاومة، وإلا اعتبر هذا العمل خرقاً للقرار من جانب المقاومة.

ـ لم يدع القرار إلى انسحاب الجيش الإسرائيلي وربطه بنشر الجيش اللبناني وقوات اليونيفيل بالتوازي، وفقاً للفقرة التنفيذية (١١).

ـ ثمة تناقض واضح بين الفقرتين التنفيذيتين (٤) و(٥) في الأولى «يجدد دعمه القوي للاحترام الكامل للخطّ الأزرق»، وفي الثانية «يجدد أيضاً دعمه القوي. . . . لسلامة أراضي لبنان وسيادته واستقلاله السياسي ضمن حدوده المعترف بها دولياً، كما هو منصوص عليه في اتفاق الهدنة العام بين لبنان وإسرائيل في ٢٣ آذار/ مارس ١٩٤٩» وهو خلط ولبس لجهة توصيف وتكييف وترسيم وتحديد الحدود الدولية. فوفقاً للخط الأزرق اعتبر مجلس الأمن الدولي أن إسرائيل طبقت القرار ٣٤٢٥، وأخرجت مزارع شبعا من نطاقه، فيما اتفاقية الهدنة تدعو للهدنة وبالتالي لا تنهي الأعمال العسكرية وحالة الحرب المرتبطة باتفاقات لاحقة كاتفاقيات سلام أو ما

شابه. فضلاً عن أن مزارع شبعا كانت خاضعة لاتفاق الهدنة (١٩٤٩) قبل احتلال قسم منها في العام ١٩٦٧ وفي مراحل تالية.

- ثمة مسائل ملتبسة في الفقرة التنفيذية (٩) «دعم الجهود لتأمين في أسرع وقت ممكن اتفاقات مبدئية بين حكومة لبنان وحكومة إسرائيل على قاعدة وعناصر حل طويل الأمد كما ورد رابعاً في الفقرة (٨)، ويعبّر عن نيته في أن يكون معنياً بشكل فاعل»، فما هي هذه الاتفاقات المبدئية وما هي حدودها ومضمونها، هل هي أمنية بحتة كما هو ظاهر، أو معلن في الفقرة (٨)، أم ثمة قضايا أخرى تابعة يمكن أن تكون جزءاً من تلك القضايا المبدئية تمتد إلى اتفاقات سياسية لاحقة؟.

- سيتمّ إعادة نشر قوات اليونيفيل بعد زيادة عددها وعدتها في الأراضي اللبنانية فقط ودون أن تكون موازية للجهة المقابلة، مع تسجيل أمور لافتة لوظيفتها وطبيعة عملها. فوفقاً للفقرة التنفيذية (١٢)، «دعماً لطلب الحكومة اللبنانية نشر قوة دولية لمساعدتها على ممارسة سلطتها على كامل الأراضي، يسمح لقوات (اليونيفيل) القيام بكل التحركات الضرورية في مناطق نشر قواتها وفي إطار قدراتها، للتأكد من أن مناطق عملياتها لا تستخدم للأعمال العدائية بأي شكل، ومقاومة المحاولات عبر وسائل القوة لمنعها من أداء مهماتها بتفويض من مجلس الأمن «فكيف يمكن التأكد من الأعمال العدائية في الجانب الإسرائيلي، وما هي الطرق والسبل والكيفية التي ستحدد فيها هذه القوات تحديد الأعمال العدائية في مناطق تواجدها؟ وما هي حدود القوة التي ستستعملها؟ أسئلة كثيرة تطول بطول الأهداف غير المعلنة في القرار.

- إشراك قوة اليونيفيل من الناحية العملية بأمور سيادية لبنانية كمراقبة المطارات والموانئ وفقاً للفقرة التنفيذية (١١) كما وردت مكررة في الفقرة (١٤) للتأكيد على المهمة.

ـ إن أخطر ما في الحالة السابقة إعطاء دور تقريري وتنفيذي لقوات اليونيفيل، بما هو ممنوع أو مسموح إدخاله إلى لبنان، ذلك ما ورد في المقطع (ب) من الفقرة (١٤)، «غير أن هذا المنع لا يطبق على الأسلحة والمعدات المتصلة والتدريب أو المساعدة التي تسمح بها الحكومة اللبنانية، أو (اليونيفيل) كما تنص عليه الفقرة (١١)»، «فورود» أو قد سمح لهذه القوات تحديد حالات المنع أو السماح بشكل صريح لا لبس فيه، ذلك بمعزل عن طلب الحكومة اللبنانية. الأمر الذي يضع لبنان تحت سلطة إن لم يكن تحت وصاية دولية فعلية.

ـ إن تمديد انتداب قوة اليونيفيل إلى سنة قادمة وفقاً للفقرة التنفيذية (١٦)، وفقاً لعزم مجلس الأمن «إعطاء دعم إضافي لهذا الانتداب وللخطوات الأخرى. . .»، يعطي الانطباع بأن مهامها ستكون واسعة وشاملة أموراً غير منظورة في القرار، أو متعلقة بالظروف التي تمَّ فيها اتخاذ القرار، سيما وأن القرار انتهى بفقرة أخذ مجلس الأمن على عاتقه إبقاء الموضوع قيد نظره الفعلي.

وعلى الرغم من التساؤلات والملاحظات العديدة ثمة إيجابيات يمكن النظر إليها في مضمون القرار وهي تعبير عن حالة التراجع الأميركي والإسرائيلي عن الكثير من المطالب السابقة التي وردت في المشروع الأمريكي الفرنسي الأول ومنها:

ـ تمَّ الأخذ بالعديد من النقاط السبع الواردة في مشروع الحكومة اللبنانية وإن لم تكن في الترتيب كما وردت أو بنفس القوة التي طرحت.

ـ ثمة تراجع أمريكي إسرائيلي كبير عن بعض القضايا وأن لا تصنف في القضايا الاستراتيجية كموضوع الأسيرين.

ـ ثمة تفهم دولي لبعض القضايا اللبنانية المحقة، والتي أشير لها في القرار بطريق غير مباشر، كمزارع شبعا والأسرى وغيرها.

ـ ثمة وعود دولية كما في السابق لإنشاء بيئة لحل أزمات المنطقة، عند ذكره للقرارين ٢٤٢ و٣٣٨.

ـ ثمة اعتراف دولي لوزن بعض القوى في المنطقة كإيران وسوريا في حل بعض القضايا، وإن لم يذكرا بالاسم.

وفي المحصلة يمكن القول إنه اتفاق الممكن، لم يسجل نصراً ولا هزيمة لأحد أطرافه، إلا أن غريب المفارقات في هذا القرار، أنه لم يأتِ معبّراً عن الاستثمار السياسي للعدوان، فرغم أن إسرائيل لم تتمكن من تحقيق أي نصر عسكري على الأرض قابل للاستثمار، سيفسر أنه لمصلحتها، وعلى الرغم من أن المقاومة تمكنت من الصمود في وجه خامس قوة عسكرية في العالم، ستتحمل أوزار عدوان لا تقوى دول كبرى على تحمله، فإن أصعب القرارات وأخطرها ما يمكن أن تتضمنه من أمور غير معلنة.

الفصل السادس

أثر الحرب على مستقبل
الصراع العربي الإسرائيلي
تقرير فينوغراد: إعلان الفشل

مقدمة

حقق الانتصار الذي أنجزته المقاومة اللبنانية، جملة من المتغيّرات الاستراتيجية، السياسية والعسكرية والفكرية والإعلامية والاقتصادية، ليس على حاضر الكيان الصهيوني، وخطط ومشاريع الولايات المتحدة فحسب، بل على مستقبل الصراع العربي الصهيوني برمته في المنطقة.

الانتصار أرسى ثقافة جديدة، مبنية على الثقة بالذات العربية، بقدرة المقاوم والجندي العربي على المواجهة وإلحاق الهزيمة بإسرائيل، أسقط كل حواجز الخوف والتردد، وفتح مجالاً واسعاً لقراءة مختلفة لصناعة التاريخ العربي.

الانتصار حجَّم الغطرسة الصهيونية، والتهديدات الأمريكية، وكشف هشاشة البنية الإسرائيلية القائمة على الدعم الخارجي، وشجَّع المقاومة العربية على استكمال مشوارها، لاستعادة الأرض والكرامة العربية، وتغيير نظرة العالم للأمة.

١ ـ فشل المشروع الصهيوني:

لأول مرة في تاريخ الكيان الصهيوني، ارتفع الشعور لدى اليهود عموماً، وفي فلسطين المحتلة خصوصاً، أن مشروعهم الاستيطاني

التوسعي، لم يعد له مكان، لا في الذاكرة ولا في الحسابات الصغيرة والكبيرة، ولا في الآفاق المستقبلية، وإذا كانت المقاومة اللبنانية استطاعت مواجهة جيشه المجهز بأحدث العتاد العسكري، ومنعه من الانتصار، وتوجيه ضربات مؤلمة له ميدانياً، وفي عمق المناطق المحتلة، فإن ذلك يعني أن العد العكسي لأسطورة إسرائيل الكبرى والصغرى بدأ، وقد قرأ الإسرائيليون على اختلاف شرائحهم في الداخل والخارج، هذه الرسالة بوضوح، وفهموا أنهم أمضوا حياتهم أكثر من نصف قرن على مسكنات وادعاءات فارغة، حتى إذا ما جاءت ساعة الحقيقة انكشف الواقع، وذاب الجليد، وزال ضباب الوهم عن العيون.

فهموا أن بقاءهم في «أرض الميعاد» بات مرهوناً بعامل الوقت ليس إلا، متوقعين مستقبلاً أسود، بعد تطور الترسانة النووية الإيرانية، واشتداد سواعد الفتية العرب، وتبدل المعادلات الدولية التي تلجم اليد الأمريكية من التمادي في دعم إسرائيل بلا حدود.

الحرب ضربت أكبر عامل ثقة لدى الإسرائيلي، هزت قناعاته، وهذا التصدّع هو أخطر ما خرجت به الحرب من نتائج، وستكشف انعكاساتها مع مرور الشهور والسنوات المقبلة، اكتشف المستوطن بنفسه هشاشة وضعه، فبدأ يفكر بالمغادرة، والتوجه نحو مناطق أكثر أمناً واستقراراً، بخاصة أن المجالات مفتوحة أمامه في الدول الغربية المتقدمة، حيث قَدِم معظمهم منها، والدليل الحجوزات الهائلة للسفر من إسرائيل بعد أن توقفت عجلة الحرب، والأرقام والإحصاءات الإسرائيلية والعالمية، كشفت أن أعلى نسبة هجرة مضادة من إسرائيل، جاءت بعد الحرب مباشرة، وهي هجرة ليست مؤقتة بل نهائية كما أعلن المهاجرون أنفسهم، وهذا الأمر أرعب الحكومة الإسرائيلية وكل الزعماء الإسرائيليين لأنهم شعروا بخيبة أمل كبيرة

لدى جمهورهم، وفهموا أن هذه الهجرة هي في بداياتها، وستكبر مع الوقت ككرة الثلج، ولم تفلح كل مساعي التعطيل والضغط والإكراه التي مارستها الحكومة، من وقف موجة الهجرة هذه، لأن اليهودي القادم من أوروبا أو أمريكا أو غيرها، تحت تأثير عاطفي أو مصلحي أو دعائي، ومزاعم بأنه سيعيش في أرض العسل واللبن، أدرك أن كل ما قِيل له لا يستند إلى حقيقة فهو مجرد شخص محتل لأرض الغير، ويمضي حياته في صراع مفتوح مع الموت والدم، وفي حالة استنفار دائمة، إنه يعرف بأن الدار التي يقطنها ليست داره، ولا الأرض التي يزرعها ويستغلها هي أرضه، فهو مغتصب لكل سبل حياته، وبالتالي لم يعد أمامه مبرر يقنعه بالبقاء رغم دعوات الحاخامين المستمرة بالتشبث بالأرض المقدسة.

كل الأحاديث التي أدلى بها المهاجرون، تدل على حالة إحباط ويأس وفشل، وقد نشطت الحركة الصهيونية العالمية، في منع أعداد كبيرة من هؤلاء في الإدلاد بتصريحات لوسائل الإعلام الأمريكية والإسرائيلية، خشية انتشار العدوى لبقية اليهود والشعور بقرب نهاية مشروعهم في فلسطين. غاب التباهي اليهودي في العالم عن قوة «دولتهم»، وغاب الإحساس بالأمان، وساد القلق نفوسهم، فبدّل بعضهم خطابه تجاه تسوية مع سوريا، أو مع الفلسطينيين أو اللبنانيين، وبعضهم الآخر بدأ يتحدث عن أن أسلوب الحرب لم يعد مقنعاً، ولا بدَّ من وسيلة أخرى لمناقشة الأزمات كالتفاوض مثلاً، وهذه «العقلنة» لم تهبط فجأة لولا الأداء القتالي المميّز لحزب اللّه في قلب المعركة.

أرست نتائج الحرب، أسساً جديدة للتعاطي مع مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي، فالكيان الصهيوني الذي كان يتوهم أن حدوده الشمالية أكثر أماناً من غيرها، وأقام المصانع في المستوطنات المنتشرة على طول شريطها

الشائك، وركّز حركته السياحية، وأشاد المواقع الاستراتيجية العسكرية، وأنشأ أحدث المزارع وسرق المياه من لبنان كي يرويها دون استئذان أو تفاوض، هذا الكيان شعر بأن هذه الحدود التي كان يصفها بالأضعف ويغبط النفس على وجودها، تحوّلت إلى الجحيم الذي يهدده بالحريق، والنزف المستمر، فالمقاومة اللبنانية والمتمثلة هنا بحزب اللّه، نجحت ليس في إدخال الرعب إلى تلك المستوطنات وإلى قلب الحكومة الإسرائيلية فحسب، بل إلى إلحاق الهزيمة بها وتهديد وجودها ونموها، مهما أرسل العالم من جيوش حماية ورقابة، ومهما عظم التأييد الدولي والإقليمي وبعض العربي واللبناني لهذا الكيان. هذه المستجدات أثرت على معنويات ورغبات الكثير من اليهود في البقاء، وإذا أضيف ذلك إلى قناعة راسخة في أن بقية الحدود العربية لن تبقى أسيرة اتفاقات وهمية من ناحية، وعجز من ناحية أخرى. فإن النتيجة تكون مزيداً من الشعور بالضياع وتغليب فكرة الرحيل على العيش في دوامة الموت البطيء.

لقد تبيَّن أن إسرائيل لم تعد قدر الشرق الأوسط، بل كابوساً يمكن التخلص منه بمجرد الصحوة من سبات الضعف والتردد، فهذه الإسرائيل ومن خلفها الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية، وقرارات مجلس الأمن، لم تستطع الوقوف في وجه مقاومين وضعوا نصب أعينهم تحقيق إنجاز من اثنين: الشهادة أو الانتصار، فكتب لهم ما أرادوا، وهذا ما غيَّر وسيغيِّر الكثير من ملامح وجه التاريخ المعاصر.

٢ ـ انعكاس الهزيمة على يهود العالم:

لم تقتصر الآثار السلبية للهزيمة على يهود الكيان الصهيوني وحدهم، بل امتدت لتشمل يهود العالم كله، وقد كشفت التقارير والدراسات مخاوف

اليهود على مستقبل الكيان الصهيوني، وعدم وجود أي ضمانة له، وعلى التجمعات اليهودية في العالم. وأفاد تقرير نشرته صحيفة «يديعوت أحرونوت» تحت عنوان «حال الشعب اليهودي للعام ٢٠٠٦». إن نتائج الحرب أضعفت كثيراً اليهود في العالم، وأثارت قلقاً لدى يهود أوروبا.

وفي تقرير آخر صادر عن «معهد تخطيط سياسة الشعب اليهودي» التابع للوكالة اليهودية الذي يترأسه المبعوث الأمريكي السابق إلى المنطقة دينيس روس، إشارة إلى أن عوامل سلبية عديدة نشأت خلال العام ٢٠٠٦، ومنها غياب انتصار إسرائيل، أدّت إلى ضعف كبير في مكانة المجموعات اليهودية في الدولة التي تتواجد فيها، كما أن هذه المجموعات فوجئت من مدى سهولة ضرب إسرائيل، «وقائمة المصائب التي تهدد اليهود في العالم شملت تزايد التهديدات الأمنية وعلى رأسها الحركات الإسلامية المتطرفة وإيران»، إضافة إلى تعاظم ما وصفه التقرير بـ «تعاظم اللاسامية» وعدم الزيادة الطبيعية لليهود والتي تقارب الصفر. ولفت إلى أن مكانة إسرائيل كدولة لاستيعاب اليهود وقد تآكلت، خاصة أن ٩٢ في المئة من يهود العالم يعيشون في ٢٠ دولة تتمتع بأعلى مستوى حياة، لا سيما في الدول الغربية الغنية. وأوضح التقرير إلى أن اليهود الأمريكيين يشعرون بالأمان، لكنهم قلقون حيال أمن الإسرائيليين بعد أن فوجئوا بضربهم خلال الحرب من قبل رجال حزب اللّه، وأبدوا مخاوفهم أيضاً من تزايد الأصوات داخل الإدارة الأمريكية الداعية إلى انتهاج «سياسة متوازنة» تجاه الشرق الأوسط على حساب إسرائيل. وتركّز القلق على البرنامج النووي الإيراني، الذي يهدد وجود إسرائيل، وأوصى التقرير بإعداد استراتيجية عالمية لمواجهة الإسلام.

واعتبر الكثير من اليهود، أن مستقبل المشروع الصهيوني كله بات في خطر، حيث بدأ الكثير من المعلقين والخبراء، يتحدثون عن إمكانية زوال

الدولة العبرية، ما أثار القلق في نفوس يهود أوروبا وأمريكا، إذ إنهم لم يعتادوا قبل الحرب الأخيرة من أن يقرأوا أو يسمعوا مثل هذه الآراء، وانتشرت استطلاعات الرأي في العالم متسائلة عن حق هذه الدولة في الوجود ومدى التأييد أو المعارضة لإبادتها. وفي هذا الإطار كتب يائير شيلح في صحيفة «هآرتس» أثناء الحرب[1]. إن مستوى الخطر هذا يضع أمام إسرائيل تحدياً لا يقل في خطورته عن التحدي الذي واجه يهود أوروبا في الثلاثينات من القرن الماضي، الأمر الذي يوجب ـ حسب رأيه ـ إجراء حوار علني، إضافة إلى الحوار المهني المستتر للجهات المختصة بالأمن والسياسة الخارجية، يضع هذا الخطر الوجودي على رأس الأولويات، حتى لو على حساب القضايا التي تحتل في الأمور العادية اهتماماً مركزياً.

وأشار العديد من الكُتَّاب والسياسيين اليهود، من داخل وخارج إسرائيل، إلى أن السنوات الأخيرة أظهرت أن العالم الغربي سريع النسيان، وأنه حوَّل عداءه صراحة من اليهود إلى الإسرائيليين، وكتب دان بن دافيد في صحية «هآرتس»: إن الخطر الذي يواجه الهيكل الثالث يكمن في الداخل والخارج على حد سواء، فالدولة التي يتعذر عليها وقف الصواريخ الموجودة بأيدي من يريدون تدميرها، لا تحتاج إلى خيال واسع لفهم ما سيحدث لها عندما تتحول صواريخ القسام إلى كاتيوشا، وعندما تتطور الرؤوس الحربية من ٢٠ إلى ٦٠٠ كيلوغرام، ومن ٦٠٠ كيلوغرام إلى رؤوس حربية كيميائية وبيولوجية، وهذا ما يعمل على إنتاجه بجهد عظيم الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، والخطر الداخلي يتأتى من الفقر والفجوات الاجتماعية التي تتعاظم بشكل دؤوب طوال عقود، والتي بلغت ذروتها في الغرب، وفي أوضاع تتزايد فيها أعداد المحتاجين بوتيرة أسرع

---

(١) «السفير»، ٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦.

وتعداد السكان الذين يمولونهم، وفي المجالين الداخلي والخارجي، صار العنوان على الجدار، إذا لم نقف الآن.

وكتب عميرام بركات في «هآرتس»، إن الشكوك التي أثارتها حرب لبنان الثانية حول منعة إسرائيل تثير مخاوف لدى الطوائف اليهودية في العالم.

وأشارت «هآرتس» إلى أنهم في إسرائيل لا يفهمون الصعوبة التي تواجه اليهود المتماثلين معها، حينما طوال شهر كامل لا يكون هناك حديث سوى عن كيف تدمر إسرائيل لبنان وتقتل أطفاله؟. وأشار مسؤول كبير في الكونغرس اليهودي، إلى أن «صورة إسرائيل التي لا تقهر تصدعت»[1] وأضاف: «إنه عندما شرعت إسرائيل بدق طبول الحرب، كان الناس على ثقة بأنه بعد قليل سيظهر البطل المناوب شارون الحاضر، ليطوق الجيش الثالث، ولكن هذا لم يحدث، وفي نظر اليهود في العالم، كانت نزعة الانتصار الإسرائيلية هي بوليصة تأمين ضد مئات ملايين المسلمين الراغبين في تدميرها، والآن يشعر اليهود بأن «الردع» لديهم، والذي كان يعتمد على الإسرائيليين قد تلقى ضربة».

وأشار رئيس المجلس السياسي في الكونغرس اليهودي إسرائيل زينغر، إلى أن هناك في العالم اليهودي مشاعر عامة بانعدام الأمان، وأنا لا أقول إن اليهود يعيشون في ذعر بسبب نتائج الحرب، ولكن هناك شعوراً غير مريح البتة، خصوصاً في صفوف الطوائف الصغيرة والمعزولة.

وكشف رئيس تحرير «جويش ويك» التي تصدر في نيويورك عن رأيه ومخاوفه بصوت عال، عندما قال: «اسمحوا لي، في الأسابيع الأخيرة

---

(١) المصدر السابق نفسه.

طاردتني أفكار مرعبة لم أتجرأ على قولها للآخرين: لا ضمانة بأن تبقى دولة إسرائيل في المستقبل». الفقرة المشتركة لدى كل الإعلاميين والسياسيين الإسرائيليين واليهود المنتشرين في العالم، والتي ترددت دائماً في مقالاتهم وتصريحاتهم مؤخراً، هي الشك في استمرار الكيان الصهيوني، والاعتراف ـ بشكل أو بآخر ـ بأنه كيان مصطنع. وهذا يعيد إلى ذاكرتنا مواقف شخصيات يهودية وحاخامبين كباراً في الولايات المتحدة وغيرها، عندما رفضت فكرة تأسيس دولة عبرية، واعتبرت أن تجميع اليهود في بقعة واحدة مؤامرة دولية، لأن ضربهم في يوم من الأيام يعني إبادة اليهود عن وجه الأرض.

٣ ـ تبدّل النظرة إلى إسرائيل:

إسرائيل قبل الحرب في نظر الولايات المتحدة وأوروبا، والكثير من الخبراء الاستراتيجيين، هي غير إسرائيل بعد الحرب، فالنظرة إليها كقاعدة مركزية أساسية للغرب الاستعماري، بات موضع شك، ففي السابق كان رهان أمريكا ـ ووفقاً للمفاهيم التي قام عليه تأسيس الكيان العبري ـ على حكم المنطقة، أو تأديب أنظمتها، أو فرض إرادتها عليها، يقوم على رهبة الجيش الإسرائيلي، وإمكان تعديه على أي دولة عربية دون أن يلقى رداً قاسياً، وكانت واشنطن تعزز القدرة القتالية العسكرية لإسرائيل باعتبارها ركيزتها ومنطلقها وعصاها الغليظة لاحتلال أو إخضاع أي «متمرد» على القرار الأمريكي، ففتحت لها ميزانية ضخمة لم تنعم بمثلها دولة في العالم، كما فتحت لها مخازن الأسلحة المتطورة والحديثة، بحيث تظل قوة متفوقة لا تضاهيها قوة أخرى في المنطقة، حتى باتت تُسمى بالطفل المدلل لدى الإدارة الأمريكية، لكن نتائج الحرب، بدّلت هذه النظرة، وفرضت على أمريكا إعادة النظر بكل رهاناتها الاستراتيجية على إسرائيل، فقد ظهر

للقيادتين السياسية والعسكرية في الولايات المتحدة، أن إسرائيل قابلة للانكسار والهزيمة، وكما سبق للجيوش العربية في العام ١٩٧٣ من هزيمتها، فإن المقاومة في لبنان وفلسطين أيضاً قادرة على هزيمتها، ولذلك لم تعد تشكل عامل ثقة بحسم أي جولة مقبلة، خاصة إذا امتلكت الأطراف الأخرى أسلحة وفرصة مؤاتية للقتال، ولولا تدخل الإدارة الأمريكية الآن وفي السابق، لانهارت إسرائيل من جذورها، وكلنا يذكر ما قالته رئيسة وزراء إسرائيل السابقة غولدامائير في عام ١٩٧٣ وهي تبكي «لقد انتهت دولة إسرائيل» وتحديداً بعد عبور الجيش المصري إلى سيناء.

هذه النظرة الجديدة، لم تبق محصورة في ذهن الأمريكي، بل تعدتها إلى الذهن الأوروبي. وإلى كل دول العالم الأخرى، فلم تعد إسرائيل تلك الصورة «السوبر» التي تهز عروشاً وتجتاح أرضاً دون عقاب أو ردع، ولم تعد تلك الأسطورة التي توحي بإمكانية سحق أعدائها خلال ساعات، وقد شاهد العالم كله، كيف أن الجندي الإسرائيلي أصيب بالذهول، ولجأ إلى الفرار أمام عناصر حزب اللّه، كما شاهد الدبابات التي كانت تتغنى بها إسرائيل تحترق وبداخلها جثث أطقمها مصابة بالتفحم، وكيف أن البوارج والمروحيات يمكن أن تغرق أو تسقط، شعر الجميع أنهم أمام مسلسل مثير لافت تم عرضه ٣٣ يوماً، لم تتفوق فيه إسرائيل إلا بارتكاب المجازر ضد الأطفال والنساء وتدمير البنى التحتية عبر الغارات الجوية.

هذا المشهد لن يستطيع الإعلام الصهيوني والأمريكي، أن يلغيه من ذاكرة الدول والشعوب، وتحديداً اليهود، مهما ضخموا الأشياء أو بسطوها، أو حاولوا طمس بعض جوانبها على حساب الحقيقة، كانت الحرب رسالة ذات دلالة، تؤكد أن إسرائيل ولدت بشكل غير شرعي، وهي كيان مستمر على أمصال دعم غير شرعي، ومستقبلها ليس غامضاً بل معروفاً

سلفاً وهو إلى تلاشٍ، لأنه قائم على الافتراء والزيف وتزوير التاريخ، وقهر الشعوب، واحتلال أراضيها.

ولم تعد فكرة إزالة الدولة العبرية، طارئة على نقاش السياسيين والأكاديميين والنخب اليهود والأوروبيين والأمريكيين وغيرهم، بل أصبحت مادة للسجال اليومي في المنتديات والمؤتمرات في جميع أنحاء العالم، وهذا تطور بالغة الأهمية، بعد أن كان الحديث مقتصراً على أعداء إسرائيل. وتوسع مؤخراً الكلام في إسرائيل حول ضرورات حصر الهجرة اليهودية، وجعلها انتقائية من بلدان وثقافة غربية، وعدم الذهاب إلى «الفلاشمورا» في أثيوبيا، وإلى القبائل الهندية، وفهم من هذا السجال الذي يقوده مفكرون كبار غربيو الطابع، أن المطلوب الآن تعديل «قانون العودة» الذي يمنح اليهودي حقوق المواطنة في الدولة العبرية حال وصوله إلى أرض فلسطين[1].

وتحت عنوان: «من العار أن تكون إسرائيلياً»، كتب المعلق الاقتصادي في صحيفة «يديعوت أحرونوت» سيفربلوتسكر، من دافوس، مخاطباً الإسرائيليين الراغبين في الوصول إلى هناك: «رجائي لا تأتوا، إذا لم تكونوا صعدتم بعد إلى الطائرة، رجائي لا تأتوا، ليس شرفاً كبيراً للمرء أن يكون هذا العام إسرائيلياً في دافوس، عملياً هذا عار كبير جداً. وأضاف: إنه لم تعد لإسرائيل صورة القوة العظمى التكنولوجية المزدهرة، ولا حتى قوة عظمى لاحتلال وحشي، إنها تتخذ صورة شيء آخر تماماً: دولة غارقة لا تؤدي وظائفها، رئيسها يقدم إلى المحاكمة بتهمة الاغتصاب، رئيس وزرائها يحقق معه للاشتباه بخدمة مصالح مقربيه، وزير ماليتها سيطير من

---

(١) موسى، حلمي، «السفير»، «زوال إسرائيل: فكرة يتداولها أصدقاؤها بعد أعدائها» ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧، ص ١٤.

وزارته بسبب قضية أموال وجمعيات، رئيس أركانها استقال بسبب حرب فاشلة، وزير دفاعها سيضطر قريباً إلى السير في أعقابه، هكذا هي إسرائيل كما تظهر في شتاء ٢٠٠٧ أمام العيون المتفاجئة لأبناء النخبة الاقتصادية، السياسية والأكاديمية في العالم، التي تصل إلى دافوس لأربعة أيام من المداولات على مصير البشرية».

ورأت صحيفة «هآرتس» في تقرير لها، أن الدعوة إلى زوال إسرائيل في الماضي كانت حكراً على «الجهات المتطرفة»، لكنها اليوم أصبحت جزءاً من السجال الأكاديمي الواسع في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وأصبح السؤال في بعض المحافل: «هل كان من الخطأ أصلاً إقامة الدولة اليهودية؟»، أو «هل ينبغي العمل من أجل إلغاء وجود إسرائيل؟»، والنقاش حول ذلك بدأ يتغلغل في دوائر كل الدول الغربية تقريباً.

واعترفت البروفسورة بانيا زلتسبرغر (من كلية الحقوق جامعة حيفا)، في كلمة لها في مؤتمر هرتسليا الذي عقد في ٢٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٧، إن صورة إسرائيل في العالم تتدهور في منزلق خطير و«سأبدأ تحديداً بالحديث عن سفوح المنزلق، لأن في القمة توجد الانتقادات لإسرائيل. والتي في قسم منها مشروعة ومثيرة للاهتمام، وتعبّر بقدر ما عن السجال الداخلي في إسرائيل، غير أنه في أسفل المنزلق يوجد عنصران: أعرف من حواراتي مع زملائي في أوروبا، أنهما في حالة تعاظم، وهما: معاداة إسرائيل، ومعاداة السامية، وأحياناً تقوم معاداة إسرائيل بانفصال عن معاداة السامية، وأحياناً بالتداخل معها. ومعاداة إسرائيل في نظر زلتسبرغر هي إنكار حق إسرائيل في الوجود، سواء كان إنكاراً بأثر رجعي، مثل إبداء الأسف على مجرد قيام الدولة، أو إنكار حقها في الوجود حاضراً ومستقبلاً بسبب أفعالها، وأكدت أنه يشارك في هذا الإنكار أحياناً بعض اليهود. وفي

أعلى المنزلق، توجد انتقادات من يحاولون أن يفرضوا على إسرائيل معايير مزدوجة، حيث إن كان نقد لإسرائيل لا ينحصر في نقد الحكومة، وإنما يتجه مباشرة للشعب وللمجتمع الإسرائيلي.

واعتبر تقرير «هآرتس»، أن أحد الأمثلة البارزة لإنكار حق إسرائيل في الوجود، مقالة للمؤرخ اليهودي الأمريكي الهام طوني جادت، في مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣، بعنوان: «إسرائيل: البديل»، وقد اقترح جادت إلغاء الدولة القومية اليهودية، وإقامة دولة ثنائية القومية مكانها، باعتبار أن الدولة اليهودية هي منتوج متأخر عن الزمان، والحركات القومية الأوروبية التي استمدت الصهيونية منها مصادرها، أفلحت في إقامة الدولة القومية عند تفكك الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية في نهاية الحرب العالمية الأولى، فيما اضطر حلم البيت القومي اليهودي للانتظار ثلاثة عقود أخرى انسحاب الامبراطورية البريطانية.

واعتبر جادت، أن إسرائيل ببساطة. جاءت إلى العالم متأخرة جداً، ففكرة الدولة اليهودية ذاتها، فكرة دولة يكون فيها لليهود وللدين اليهودي حقوق مميّزة لن تمنح أبداً لغير اليهود، هي فكرة مصدرها مكان آخر، وزمان آخر. وقد استخدم جادت عبارات تشير إلى أن إسرائيل دولة فاشية وعدوانية.

وواصلت «هآرتس» تقريرها، بأنه بعد ثلاث سنوات من ذلك، في أثناء حرب لبنان، نشر المفكر النرويجي يوستين غاردر مقالة في صحيفة نرويجية تدعى «افتنفوستن»، أكد فيها: «لم نعد نعترف بدولة إسرائيل، لقد حان الوقت كي نتعود على أن دولة إسرائيل بصيغتها الحالية باتت من التاريخ»، وأضاف: «إن دولة إسرائيل بفنون الحرب عديمة الضمير التي تمارسها، وبالأسلحة المقرفة التي تملكها، ذبحت شرعيتها، لقد استخفت بشكل منهجي بالقانون الدولي، بالمعاهدات الدولية، وبعدد لا نهائي من قرارات

الأمم المتحدة، لقد قضت على اعتراف العالم، ولن تنال الهدوء قبل أن تلقي سلاحها». وأنهى غاردر كلامه بالتنبوء بغضب يخرب إسرائيل ويخرج الشعب اليهودي إلى الشتات ثانية، وقال: «إذا غرقت الأمة الإسرائيلية كلها في خطاياها، فسيضطر جزء منها للهرب للمنافي، ونحن نقول لجيرانها: كونوا هادئين وأظهروا الرحمة، إن هذه جريمة لا تغتفر أن تهاجم لاجئين وأناس لا دولة لهم».

وأعلن د. ريتشار دلاندس في مؤتمر هرتسليا أيضاً، أنه في الماضي كانت تُسمع أصوات كثيرة في العالم العربي، تنكر حق إسرائيل في الوجود، ولكن في السنوات الأخيرة صرنا نسمع ذلك في العالم الغربي، مؤكداً أن إنكار حق إسرائيل في الوجود في الغرب، يأتي أساساً من دوائر المثقفين اليساريين ورأى أنه «إذا كانت إسرائيل قد ولدت في الخطيئة، فإن كل دول العالم ولدت أيضاً في الخطيئة».

٤ ـ فيتنام والضربة القاضية:

وشبَّه ريوفين بيداتزور، في كلامه عن «يوم تلقت إسرائيل الضربة القاضية» في صحيفة هآرتس في ٢٣ آب/أغسطس ٢٠٠٦[1]، واقع الهزيمة الإسرائيلية بالهزيمة الأمريكية في فيتنام، معتبراً أن الهزيمة الأمريكية في حرب فيتنام بدأت عندما شرع الجنرال وليام ويستمور لاند قائد القوات الأمريكية في فيتنام في حينه، بإحصاء عدد القتلى، كبديل لإحصاء الانتصارات العسكرية، وعندما لم يستطع الإشارة إلى إنجازات تحققت في ميدان المعركة، وربط ذلك بالطريقة التي اعتمدتها إسرائيل في إحصاء القتلى، وفشل جيشها في مواجهة خمسين مقاتلاً من حزب اللّه في بنت جبيل، أما بالنسبة لحزب اللّه فستكون تذكرة بمآثر ستالينغراد، في الوقت

---

(١) محاور استراتيجية، تشرين الثاني/كانون الأول ٢٠٠٦، ص ٢٠٦.

الهزيمة بهذا الجيش الذي دفع ثمناً باهظاً في معظم المعارك التي خاضها في جنوب لبنان، ولعل الأكثر خطورة من كل شيء هو أن الجيش لم يستطع تحييد قدرة حزب اللّه على إطلاق الصواريخ، كما أفضى أداؤه إلى حمل أكثر من مليون إسرائيلي على الهروب إلى الملاجئ لأكثر من أربعة أسابيع، فما الذي حصل لهذا الجيش الجبار الذي لم يستطع، بعد شهر، أن يتقدم لأكثر من بضعة كيلومترات داخل لبنان؟ كما يتساءل العديدون من أولئك الذين يخططون لحروبهم التالية ضد إسرائيل.

وطبقاً لتحليلات العديد من المعلقين العسكريين الإسرائيليين، فإن عقدة الجيوش العربية، تجاه الجيش الإسرائيلي تفككت. وبات لديها قناعة بإمكان تحقيق انتصار على إسرائيل كما فعلت المقاومة، وأن الباب أصبح مفتوحاً أمام إمكانية تسخين المناطق الباردة في الجولان مثلاً وغيرها، من خلال تحريك مقاومة فيها، أو إحداث اشتباك مع الجيش الإسرائيلي، للتمهيد إلى تسويات سياسية لا يكون فيها الطرف الإسرائيلي متفوقاً وفارضاً للشروط والإملاءات الصعبة.

باختصار، لقد كسرت المقاومة هيبة إسرائيل وجيشها، وكرَّست واقعاً جديداً ستتجلى نتائجه في السنوات المقبلة، وعبر الأجيال العربية التي تصرُّ على اتخاذ المقاومة اللبنانية (حزب اللّه تحديداً) رمزاً لها.

٥ ـ تسوية مبنية على القوة:

ولأول مرة في تاريخ الكيان الإسرائيلي، بدأت القيادات السياسية والعسكرية إلى التفكير الجدي والعملي، بالتوصل إلى حلول مع الأطراف الفلسطينية والعربية، لإنهاء الصراع، ما يعني أننا أمام مرحلة مختلفة للتسويات، فقد شعرت هذه القيادات، بأن المكابرة والغطرسة واستمرار اعتماد القوة والعنف وسيلة لحل المشكلات، أمر غير مجدٍ، بل مضيعة

للوقت، ولا يخدم المشروع الصهيوني والأجيال الصهيونية وارتفعت الأصوات مجدداً على نحو مغاير للسابق للتفاوض، مستعينة بالنفوذين الأمريكي والأوروبي في المنطقة، وقدرتهما على التأثير المباشر على الأنظمة «المعتدلة» لتحقيق الهدف وتكشف بعض التسريبات والتقارير، أن لقاءات عربية إسرائيلية عديدة عقدت وتعقد في العديد من الدول العربية والأوروبية والولايات المتحدة، لعقد صفقة تضع حداً لحالة الحرب بين العرب وإسرائيل، كما كشفت المعلومات عن وثائق واتفاقات سرية أبرمت من تحت الطاولة، وأن الدعوة إلى مؤتمرات دولية حول إشهار هذه التواقيع يجري التحضير لها على غير صعيد.

لم يأتِ هذا التحرك، ولا هذه الرغبة في التسوية، استجابة لنداء عقيدي أو قناعة سياسية لدى الإسرائيليين، بل نتيجة شعور وفهم بأن تطور الوضع في المنطقة لن يكون بأي حال ـ مع مرور الزمن ـ لصالح إسرائيل، وما هزيمة إسرائيل الثانية في جنوب لبنان، وهزيمتها في قطاع غزة، إلا مؤشرات عما يمكن أن يحصل للدولة العبرية مستقبلاً، وارتأت القيادة فيها، أن أي حل الآن، سيكون أفضل من أي حل أمام العجز والهزائم المتتالية، مهما كان الدعم الدولي، إذ تأكد لها أن دائرة المقاومة آخذة في النمو والتصاعد، وهناك أجيال ستربى على هذه الثقافة، هذا إضافة إلى تحولات إقليمية مهمة، يجب أن تؤخذ بالحسبان، هي في المحصلة ليست في مصلحة المشروع الصهيوني.

وهذا الواقع المستجد، يمكن أن يعطي المفاوض العربي المزيد من القوة، كي لا يفرط أو يضطر للتنازل عن حقوقه، لأنه مستند إلى مستجد يعطيه الكثير من القدرة على الصمود والمناورة للحصول على ما يريد، بينما الطرف الآخر مستعد لأن يتجاوب مع العديد من النقاط حتى لا يضيع

الفرصة المؤاتية، وبذلك تكون المقاومة ـ وبطريقة غير مباشرة ـ نجحت في تحقيق بعض الإنجازات، فكما اضطرت إسرائيل للقبول بحل لمزارع شبعا اللبنانية المحتلة ونقل السيادة عليها من الجيش الإسرائيلي إلى الأمم المتحدة تمهيداً لتحريرها، وكما اضطرت إلى الانسحاب من النقاط التي تواجدت فيها في الجنوب، ستكون مضطرة أيضاً للقبول بحدود العام ١٩٦٧ بداية لحل مع الأطراف العربية، المهم أن العرب اليوم، وبعد انتصار حزب اللّه، يملكون من المعنويات والقوة والثبات أكثر من أي زمن مضى، وهذه مزايا لصالح أي تحرك سياسي لهم إذا أحسنوا استخدامه، فهم لن يذهبوا إلى أي مؤتمر، ولن يجلسوا حول أي طاولة حوار، بدون أوراق قوة، وبدون سلاح تفاوضي مميّز، عكس الماضي الذي كان يخضع للضغوط دون أن يملك الطرف العربي إمكانية إلاّ القبول بما يملى عليه، مهما كان ذلك محبطاً.

٦ ــ ثقافة المقاومة:

المقاومة بعد انتصار حزب اللّه للمرة الثانية على إسرائيل خلال ست سنوات، لم تعد مجرد شعار، بل أصبحت عنواناً وتاريخاً مضيئاً، وواقعاً ملموساً، وخياراً لا بديل عنه لاستعادة الأرض، وتحرير كل المقدسات.

هذا ما خلصت إليه الشعوب العربية والإسلامية قاطبة، ولذلك نرى أن حزب اللّه، وأمينه العام السيد حسن نصر اللّه، تحولا إلى رمز لدى هذه الشعوب، وتكفي الإشارة إلى أن اسم الحزب أثناء الحرب، ونتيجة لارتفاع المعنويات، ونتيجة الانتصارات الباهرة والصمود الأسطوري في وجه إسرائيل، أطلق على العديد من الشوارع والأماكن والجسور في الدول العربية والإسلامية، كما أن اسم نصر اللّه أطلق على آلاف المواليد الذين خرجوا إلى الحياة في شهر الحرب. وهذا دليل على تعبير صادق وحي عن

تأييد الشعوب لهذه المقاومة التي رفعت رؤوسهم عالياً، بعد سنوات من الإذلال والقهر والمهانة.

ولاقى الانتصار صداه لدى المقاومتين العراقية والفلسطينية، حيث تمثلت بإرادة وصمود وعزيمة وأسلوب وقدرة المقاومة على المواجهة، فاشتد ساعدها المعنوي، وإصرارها على متابعة هذا الطريق حتى نهايته، وصولاً إلى الانتصار، وتبيَّن لها أن الخيار الوحيد المتبقي أمامها هو هذه الوسيلة، فكل الطرق الدبلوماسية والسياسية مسدودة، وجسور الحوار مقطوعة، لأن الطرف الأمريكي أو الإسرائيلي، قرر أن يخوض ما أسماه حرب الحياة أو الموت، وهو ليس على استعداد للاستماع إلى صوت الضمير أو المنطق أو الحق.

ونلاحظ بشكل لا لبس فيه، أن عمليات المقاومتين العراقية والفلسطينية، بعد انتصار حزب اللّه، تضاعفت حتى باتت تشكّل كابوساً يلاحق الاحتلالين الأمريكي والإسرائيلي على حد سواء، ما اضطر إسرائيل إلى التراجع عن كثير من أطماعها، وأجبر الادارة الولايات المتحدة إلى تغيير استراتيجيتها، وإلى خسارة شعبيتها، وإلى تراجع مؤيدي وأنصار الرئيس جورج بوش إلى درجة كبيرة.

وبدا لكل المراقبين أن ثقافة المقاومة هذه لن تتوقف عند حدود لبنان وفلسطين والعراق، بل ستمتد إلى العديد من الساحات العربية والإسلامية والأممية الأخرى المناهضة للخطط والمشاريع الاستعمارية الأمريكية، ولذلك نصح الكثير من السياسيين والمحللين الاستراتيجيين الرئيس بوش وفريقه، أن يعيد النظر بكل طروحاته، بعد أن تكشف للجميع أسباب وحقيقة زيادة كره العالم لأمريكا في الآونة الأخيرة، وأكدت كل استطلاعات الرأي أن من أبرز الأسباب، هو الأسلوب الأمريكي الذي اتبع

ويتبع في لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها من الدول.

لقد عزز انتصار المقاومة في لبنان، الشعور لدى شعوب المنطقة، بضرورة العمل للتخلص من الإرهاب الأمريكي الإسرائيلي، ومن رسم سياسات جديدة قائمة على إنهاء أي احتلال مهما كان شكله ولونه، مباشراً كان أو غير مباشر.

لقد وضعت المقاومة بثقافة الانتصار، مداميك جديدة لمرحلة جديدة، تقوم على التحرر من كل القيود والشروط والوصاية من أي جهة أتت، وهذا سيضع المنطقة ومعها العالم أمام خيارات مختلفة.

وأبرز ما حققته المقاومة، هو وأد الفتنة المذهبية والطائفية، التي حاولت وتحاول واشنطن وتل أبيب اللعب على أوتارها، لإشعال الحروب الداخلية، وإجهاض جذوة الانتصار، وإدخال الشعوب في متاهات لا تؤدي إلاَّ إلى التقاتل والتشرذم، لقد استطاعت المقاومة بانتصارها، أن تتخطى الحدود والحواجز، وتجمع الجميع تحت عباءتها.

٧ ـ إعادة صياغة العقل العربي:

وكما جاء على لسان قادة حزب اللَّه في أحاديثهم معي فإن نتائج الحرب كبيرة جداً، والانتصار الذي حصل، أسس لمعادلة لا يمكن تجاوزها بعد اليوم، وأعطى شحنة معنوية للفلسطينيين وفي المنطقة العربية بشكل عام، ما يعني أن إسرائيل لم تعد قادرة على أن تتجاوز نتائج الحرب، ولا تستطيع أن تتعاطى مع العرب ومع الفلسطينيين بأنهم مجموعة ضعيفة غير قادرة على صنع شيء. فانتصار لبنان على إسرائيل، أربك المشروع الإسرائيلي وهزّ قدرة الردع الإسرائيلية التي تعتمد عليها في أساس صنع سوستها ومستقبلها، ما يعني أننا أمام تطورات أقلها عدم قدرة إسرائيل أن تستمر في مشروعها

بالطريقة التي تريد، ووجود موانع وعقبات ستزداد أمام المشروع الأمريكي الإسرائيلي في منطقتنا، ولا نريد أن نتكلم مع طريقة التنبؤات التي يقولها البعض، ونكتفي بالقول: بأن ضربة كبيرة سدِّدت للمشروع الأمريكي الإسرائيلي، ستؤثر على المسار المستقبلي، ولن تجعل التسوية قادمة على قياس المشروع التوسعي الإسرائيلي، بل نحن أمام مخاض سيطول، ويمتد ربما سنوات، وعشرات السنين، من دون الوصول إلى نتيجة بعد الذي حصل في لبنان وبعدما رأينا التطورات الموجودة في المنطقة والتي تتدهور يوماً بعد يوم ولا تصل إلى قرار، بسبب تصميم أمريكا وإسرائيل على استخدام القوة والتهديد للوصول إلى حلول، وهذا أمر لم يعد متاحاً في منطقتنا.

واعتبروا أن نتائج العدوان الإسرائيلي ستصب في مصلحة اللبنانيين وفي مصلحة المقاومة على وجه التحديد، صحيح أن اللبنانيين خسروا الكثير من الأرواح والكثير من الخسائر المادية والاقتصادية في ما طال البنى التحتية وفي ما طال المنازل، إنما نعتبر بأن ما سطره مجاهدو المقاومة الإسلامية في هذا المجال سيعطي نوعاً من الهيبة والاحترام الكبيرين للبنان ولمقاومته وسيقنع اللبنانيين أكثر من أي وقت مضى بضرورة الحفاظ على قوة هذه المقاومة وعلى استراتيجيتها الدفاعية.

بالتأكيد هناك تداعيات كبرى قد لا نتلمس نتائجها بشكل سريع ودراماتيكي، وأنها ستترك آثارها في طريقة تفكير المواطن العربي، في إعادة صياغة العقل العربي إذا صح التعبير، ستنقل العقل العربي والتفكير العربي من واقع الهزيمة ومن واقع الشعور بأنه لا يملك شيئاً إزاء ما يجري في فلسطين وفي لبنان، وإزاء ما تقوم به إسرائيل تجاه العرب هناك، ستنقله من واقع الهزيمة والاستسلام لهذه الإرادة الإسرائيلية، إلى واقع آخر، واقع الانتفاض على هذا الشعور. ومحاولة تغيير هذا الواقع، سيشعر العقل

العربي بأن هناك شعوراً بالثقة بالنفس، وأن هناك إمكانية لتسجيل الانتصار على الإسرائيليين وأن هناك إمكانية لخلق حالة من التوازن، على الأقل، مع الإسرائيلي، إذا لم يكن الانتصار الحقيقي على العدو الإسرائيلي.

أما التداعيات على الداخل الإسرائيلي، فهي أن المجتمع الإسرائيلي قادم على محطة لإعادة التفكير من جديد في جدوى قيام دولة إسرائيل على استراتيجية العنف، وأن هذه الاستراتيجية التي اعتمدت منذ قيام إسرائيل هي استراتيجية ليست ذات جدوى، وقد أثبتت الأيام والأزمان، بأنه بعدما يقارب الستين سنة على قيام هذا الكيان واعتماد استراتيجية العنف، أن هذا المجتمع الإسرائيلي لن يكون بمنأى عن الخطر وعن ردات الفعل العسكرية والأمنية، لذلك فلن يكون هناك إعادة نظر عند شرائح واسعة من المجتمع الإسرائيلي لتنظر إلى مستقبلها وإلى مصيرها وتراجع حساباتها في مدى بقائها على أرض إسرائيل أو مدى بقائها داخل الكيان الإسرائيلي. فبدأت عملية هجرة معاكسة كبيرة من إسرائيل إلى الدول الأوروبية والأمريكية وإلى روسيا وإلى كل الدول التي أتى منها اليهود إلى إسرائيل.

٨ ـ إعادة رسم الخارطة الجيو ـ سياسية:

شكّل صمود المقاومة. مفصلاً استراتيجياً لإعادة رسم الخارطة الجيو ـ سياسية للشرق الأوسط، واتسعت دوائره لتطال كل الملفات الإقليمية والدولية، فأزال الكثير من الغموض، ودخل في صلب القضايا الممتدة من واشنطن، مروراً بالعراق وفلسطين ولبنان وصولاً إلى سوريا وإيران وغيرها. فتساقطت أوراق وهم عديدة أوراق وهم عديدة، وأجابت عن أسئلة كثيرة كانت تبحث عن إجابات، فهذه الحرب، كما لخص لي أبعادها المحاضر في كلية القيادة والأركان في الجيش اللبناني، أستاذ

العلاقات الدولية في الجامعة اللبنانية د. وليد عربيد، غيَّرت اللعبة في الصراع العربي الإسرائيلي، ودفعت إلى زمن متعدد الأقطاب.

فنتائج الانتخابات النصفية التي جرت في الولايات المتحدة وجعلت من الديمقراطيين في موقع الأكثرية في مجلس النواب والشيوخ، أدّت إلى إحداث تغيير ما في السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، ولكن من دون تغيير الاستراتيجية، فهذه لا تتغير بتبدل موازين القوى داخل الولايات المتحدة، وإنما تتبدل وفقاً لوجود الديمقراطيين أو الجمهوريين، بعض السياسات في خدمة تحقيق الاستراتيجية.

السؤال الذي فرض نفسه إثر تلك الانتخابات هو هل فشلت الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة؟ لا سيما مع وقوع السياسة الأمريكية في مأزق كبير في العراق، مترافقاً مع بروز الملف النووي الإيراني، وتفاقم مشكلات أخرى.

بالنسبة للعراق نجحت الولايات المتحدة في تحقيق انتصار سريع على النظام البعثي بقيادة الرئيس الراحل صدام حسين، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً في مرحلة ما بعد الحرب. وكذلك فإن انتصارها في أفغانستان تحت لافتة الحرب على الإرهاب لم يمنع من عودة بروز حركة طالبان الإسلامية بقوة في الساحة الأفغانية.

وهنا لا بدَّ من الإشارة، إلى أن الولايات المتحدة ذهبت إلى حرب العراق من دون موافقة مجلس الأمم في الأمم المتحدة، بل إنها فسَّرت قراراته على قياس مصالحها، كما أن دول حليفة نعتها وزير الدفاع الأمريكي السابق دونالد رامسفيلد بالعجوزة كفرنسا وألمانيا وثقلهما الأوروبي انزعجا من حالة التفرد بقرار الحرب على العراق، وهذا عائد من

دون شك إلى شخصية الرئيس بوش الذي يعتبر نفسه قائداً أوحداً للعالم. ولكن الفشل الأمريكي في العراق أجبر الرئيس الأمريكي وإدارته للعودة إلى التشاور مع الحلفاء الأوروبيين. وهذه نقطة مفصلية بالنسبة للاستراتيجية الأمريكية، وخصوصاً أن الولايات المتحدة التي تسعى للسيطرة على المثلث النفطي «السعودية ـ العراق ـ إيران»، لتسيطر فيه على ٦٦٪ في المئة من مخزون النفط العالمي، ولنذكر أن الرئيس بوش الابن وعد شعبه بتخفيض أسعار النفط. هذا بالإضافة إلى السبب الاستراتيجي الآخر المتمثل بمنع بروز أقطاب جدد على الساحة الدولية مثل الصين والهند وحتى عودة الاتحاد الروسي إلى مكانه البارز عالمياً، وكذلك الاتحاد الأوروبي.

ولكن الولايات المتحدة غرقت في الوحل العراقي، واضطرت للعودة إلى الحلفاء، وإلى دول الجوار، بداية عاد الحوار مع أوروبا، بعد أن كان الأمريكيون نعتوا القارة بالعجوزة وبالبالية، وذلك في مواجهة محور فرنسا ـ ألمانيا، ولم تتوان واشنطن على نبش الذاكرة من تحالفات قديمة من القرن التاسع عشر لمواجهة هذا المحور، من خلال العلاقة مع أطراف أوروبية أخرى وبالتحديد مع بريطانيا وأسبانيا، والمؤسف أن عودة التقارب الأمريكي ـ الفرنسي جاء من البوابة اللبنانية بإصدار القرار ١٥٥٩ وإخراج القوات السورية من لبنان والمضي في موضوع نزع سلاح حزب اللّه، وبذلك أصبح لبنان البوابة لكل الشرق الأوسط الذي تجدد الحديث الأمريكي بشأنه مع «مشروع الشرق الأوسط الكبير» الذي يمتد من أفغانستان إلى تركيا إلى القرن الأفريقي، مروراً بالمشرق العربي والخليج، أي يشمل كل منابع النفط الاستراتيجية.

أما بالنسبة للتعاطي مع دول المنطقة فيجب أن نميِّز بين مرحلتين من التاريخ المعاصر للمنطقة، وبين طريقتين أمريكتين في التعاطي معها.

فالولايات المتحدة الأمريكية دخلت بقوة على خط إيجاد تسوية للنزاع العربي ـ الإسرائيلي عام ١٩٧٠ لتلعب دور الوسيط من خلال مبادرة وزير خارجيتها وليم روجرز، ثم مساعي هنري كيسنجر وبعد ذلك معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية، ولاحقاً معاهدة السلام الأردنية ـ الإسرائيلية، وصولاً إلى اتفاق أوسلو، مع التوضيح إلى أنها كوسيط لم تكن حيادية بطبيعة الحال. هذه المرحلة انتهت عملياً في بداية التسعينات، عندما حضرت الولايات المتحدة إلى المنطقة بأساطيلها وقواتها لإخراج الجيش العراقي من الكويت في عام ١٩٩١، وبقيت تلك الجيوش في المنطقة، ما أمن حضوراً دائماً لها، وجعل إسرائيل تتراجع عن دور «شرطي» المنطقة لصالح الولايات المتحدة ليبرز دورها كلاعب وليس كوسيط في حل نزاعات الشرق الأوسط.

خلال هذه المرحلة عادت إيران للبروز كقوة إقليمية وأساسية في المنطقة، وعادت سوريا إلى لعب دور بارز أيضاً في عدد من الدول. ومع نهاية التسعينات وحلول الألفية الجديدة بدأ التحول في السياسة الأمريكية وخصوصاً أنها ذهبت منفردة للتخلص نهائياً من نظام صدام حسين، ولكن مع تأييد دولي، وإقليمي (لا سيما من السعودية ودول عربية أخرى) أقل مما كان عليه التحالف الدولي عام ١٩٩١ في حرب تحرير الكويت.

وبعد احتلال العراق بدأت محاصرة سوريا، فكفت يدها نهائياً من الملف الكردي ـ التركي، وضغطت عليها في الملف الفلسطيني، من خلال رعايتها لحركات المقاومة، أما النقطة الثالثة فكانت في لبنان حيث تم إخراج جيشها عبر القرار ١٥٥٩ بعد عملية اغتيال الرئيس رفيق الحريري في ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٥، وهي تضع ـ أي واشنطن ـ على جدول أعمالها استكمال تنفيذ هذا القرار، أي نزع سلاح حزب اللّه، وهو هدف يندرج

وفقاً لتصنيفها في إطار الحرب على الإرهاب، وكون حزب اللّه حسب المصادر الأمريكية هو رأس حربة للمشروع الإيراني في المنطقة.

أما فرنسا فإن حساباتها تتمحور على إعادة إحياء نفوذها في لبنان كبوابة لعودتها إلى الشرق الأوسط. التحوّل، إذاً، الذي شهدته الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة هي محاولة الفصل بين سلسلة المأزق التي تتخبط بها في العراق وأفغانستان، أي في حربها على الإرهاب، وحرب الشرق الأوسط الكبير، وبين الصراع العربي ـ الإسرائيلي من خلال كسر الحلقة التي تؤمن بينهما أي حزب اللّه وحليفته سوريا، لذا عادت الولايات المتحدة إلى ذراعها العسكرية الأصلية «إسرائيل» لتقوم بالعمل في عدوان تموز/ يوليو ٢٠٠٦. على لبنان، بعد أن ظلّت الدولة العبرية لأكثر من عقد من الزمن بمنأى عن حروب المنطقة.

ولنذكر أن الكيان الصهيوني التزم بالتعليمات الأمريكية تماماً بعدم الرد على صواريخ السكود العراقية عام ١٩٩١، حيث تولت القوات الأمريكية مهمة «حماية إسرائيل».

ولكن المحاولة الأمريكية ـ الإسرائيلية لسحق حزب اللّه فشلت فشلاً ذريعاً. على خط آخر تحاول أوروبا أن تلعب دوراً مختلفاً في المنطقة، بالسعي لإقامة السلام فيه، لأن الشرق الأوسط يشكل العمق الاستراتيجي لها، وبالتالي فإن السلام هو بطاقة عودتها إلى ما يسمى تاريخياً «طريق الحرير» في القرون الوسطى، أي من سواحل البحر المتوسط الشرقية أي فلسطين ولبنان امتداداً إلى سوريا فالعراق فإيران فالصين!

إن صمود حزب اللّه في الحرب الأخيرة وإلحاقه الهزيمة بالجيش الإسرائيلي، عبر منعه تحقيق الهدف الأمريكي، شكل مفصلاً هاماً، يدفع إلى أمرين.

الأول: تأكد للولايات المتحدة أن إسرائيل لم تعد قادرة على لعب دور الذراع العسكرية وكقاعدة متقدمة للسيطرة ولحماية منابع النفط، إذا ما انسحبت القوات الأمريكية من المنطقة.

والثاني: أن إسرائيل قد تكون بحاجة إلى حماية داخل حدود نهائية، لتتعايش بسلام مع جيرانها، وهنا يبرز التقاطع الأمريكي ـ الأوروبي. فأوروبا مقتنعة بضرورة قيام دولة فلسطينية قابلة للحياة، حتى لو كانت بقيادة حركة حماس وليس حركة «فتح»، باعتبارها منظمة تمثل الشارع الإسلامي، وإذا تشكلت حكومة وحدة وطنية فهذا يكون أفضل. وقد برز اتجاه متجدد لعقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط، يعالج حتى المسارين السوري واللبناني في الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

بالنسبة إلى سورية فإنها أمام خيارين أعلنتهما صراحة، هي مستعدة للحرب خصوصاً بعد حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦، وللسلام في آن واحد. وقد يشكّل القرار ١٧٠١ مناسبة جيدة لأوروبا للعب دور مطمئن لجميع الأطراف بما فيها سوريا، ومن هنا، نجد أن قوات الطوارئ العاملة في جنوب لبنان المكلفة بتنفيذ هذا القرار تشكل أساساً من قوات أوروبية.

تبقى أن عقدة التسوية ما زالت داخل فلسطين، حيث إن إسرائيل ما زالت بعيدة عن الثقة بأي حلّ سلمي للنزاع مع استمرار الفصائل الفلسطينية بإطلاق الصواريخ. ولعلّ الحل الأمثل لإسرائيل حسب مصادر خبراء العلاقات الدولية، هو بالعودة إلى مشروع جورج بوش الأب، إلى كونفدرالية إسرائيلية ـ أردنية ـ فلسطينية، أو أن تقدم أوروبا الضمانات اللازمة لأمن إسرائيل بنشر مراقبين أوروبيين.

المشهد يبدو اليوم كالتالي: الولايات المتحدة تحتاج إلى دول الجوار

العراقي للخروج من مأزقها هناك، وهي بحاجة إلى سوريا وإيران تماماً كما حاجتها إلى المملكة العربية السعودية وتركيا.

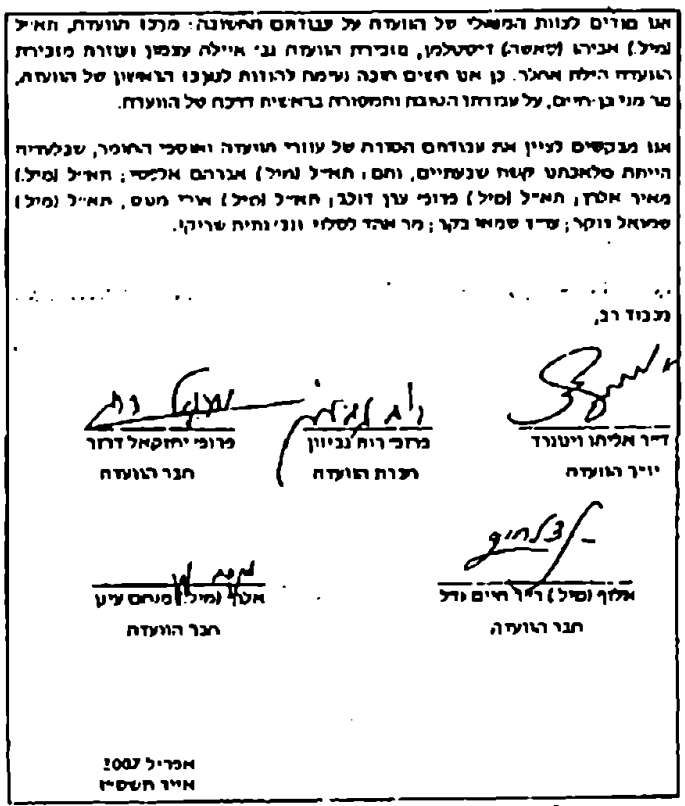
على الصعيد الدولي يعود الاتحاد الروسي بقوة إلى الساحة، لا سيَّما وأنه كان بعيداً عن المنازعات، وبعيداً عن الخسائر التي تترتب عليها، وقد استطاع أن ينتعش اقتصادياً ويسدد ديونه من خلال صادراته المختلفة وخصوصاً الغاز.

أما الاتحاد الأوروبي، فإن حلفاء واشنطن فيه سقطوا في الانتخابات، مثل أسبانيا وإيطاليا وستتبعهم بريطانيا، ولكن تبقى أوروبا عملاقاً اقتصادياً لا أكثر، وتبقى قزماً سياسياً وعسكرياً تستغلها الولايات المتحدة كمصرف لتوزيع المساعدات في العالم، تحت المظلة النووية الأمريكية. لأوروبا مصلحة في استقرار الشرق الأوسط وشمال أفريقيا المجاورة لها، من خلال حل جميع النزاعات في العراق، فلسطين ولبنان، بالإضافة إلى معالجة هادفة للملف النووي الإيراني.

ولكن السؤال هل ستستطيع أوروبا أن تمرر سياستها خارج إطار الاستراتيجية الأمريكية. في لبنان نشهد اليوم اختباراً حقيقياً لأوروبا من خلال قوات الطوارئ الدولية، فلبنان يبقى المدخل لحل الصراع في الشرق الأوسط، ولإعادة رسم خريطتها من الناحية السياسية والاستراتيجية.

إن الحرب العدوانية الإسرائيلية في شهر تموز/ يوليو عام ٢٠٠٦ على لبنان إن دلّت على شيء، فهي تدل على أن قواعد اللعبة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي تغيّرت وأن صمود المقاومة وحزب اللّه دفعت الولايات المتحدة وحلفائها إلى النظر بأن القرن الواحد والعشرين سيكون زمن عام متعدد الأقطاب تسقط فيه مقولة النظام العالمي الواحد.

شاءت لجنة فينوغراد، أن تعطي الحكومة الإسرائيلية الفرصة الكافية لترميم وضعها، وتنفيس الاحتقان الداخلي قدر المستطاع، قبل نشر تقريرها، الذي أدركت أنه سيسبب زلزالاً سياسياً كبيراً في إسرائيل، نتيجة ما توافر لديها من معلومات أدلى بها كبار المسؤولين السياسيين والقادة العسكريين، أثناء المثول أمامها، غير أن الضغوط القضائية والسياسية والشعبية، لم تمنح هذه اللجنة مجالاً أوسع للتسويف والتهرب من إعلان ما توصلت إليه، بخاصة بعد أن أجّلت النشر بعد تحديد أكثر من موعد، وأخيراً وبعد ثمانية شهور، بدأت اللجنة تقديم حصيلتها على جرعات، خوفاً من إحداث صدمة كبيرة، فاكتفت في ٢٢ آذار مارس ٢٠٠٧م، من نشر شهادات كل من: نائب رئيس



אנו מודים לצוות המשפטי של הוועדה על עבודתם המשובה: מנכ"ז הוועדת, תא"ל (מיל.) אביהו (קאשה) דיסטלמן, מזכירת הוועדה גב' איילה עמסון ושותת מזכירת הוועדה הילת אהלר. כן אנו חשים חובה נעימה להודות לעוזרו הראשון של הוועדת, סר מני בן-חיים, על עבודתו הטובה והמסורה בראשית דרכה של הוועדה.

אנו מבקשים לציין את עבודתם הסדורת של עורכי הוועדה ושוסכי החומר, שבלעדיה הייתה סלאבתנו קשה שבשתיים, וחם: תא"ל (מיל.) אברהם אדמסי; תא"ל (מיל.) מאיר אסתן; תא"ל (מיל.) מרדכי ערן דוכן; תא"ל (מיל.) איתי מטס, תא"ל (מיל.) שמואל זוקר; עו"ד שמואל בקר; מר אהוד לסלוי וגב' נתית שריקי.

נכנוד רב,

ד"ר אליתן ויטנוד	מרכז רות נציון	פרופ' יחזקאל דרור
יו"ר הוועדה	חברת הוועדה	חבר הוועדה
אלוף (מיל.) ד"ר חיים ידל		אלוף (מיל.) פנחס עיון
חבר הוועדה		חבר הוועדה

אפריל 2007
אייר תשס"ז

الورقة الأخيرة من التقرير تحمل تواقيع رئيس اللجنة وأعضائها الأربعة

الحكومة شمعون بيريز، ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية ما بين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠٠م الجنرال عاموس مالكا، ورئيس هيئة الطوارئ العميد أرنون بن عامي، وفي نهاية شهر نيسان/ ابريل، تم نشر مقتطفات من شهادات: رئيس الحكومة إيهود أولمرت، ووزير الدفاع عمير بيرتس ورئيس الأركان دان حالوتس، الذين شكلوا أعمدة الحرب وتحمل نتائج فشلها، على أن يتم نشر الباقي بعد مرور سنة على الحرب، أي في الصيف.

كانت اللجنة حريصة على عدم كشف كل شيء، بحجة السرّية. فحجبت نشر ٥٩ صفحة من التقرير (تم نشر ١٧١ صفحة من أصل ٢٣٠)، تضمنت أهم الحقائق والتفاصيل الدقيقة عن الحرب، بدءاً من كيفية اتخاذ القرار السياسي، مروراً بالجهات التي دعت وحثت وأشرفت على الحرب، وصولاً إلى الأداء العسكري السيئ، وضعف البنية الأمنية، وتحديد الدول التي دعت أو ساعدت أو حرّضت على الحرب، ليقينها من أن نشر هذه الحقائق سيؤدي إلى أزمات سياسية حادة، في الولايات المتحدة وعدد من البلدان العربية ولبنان، إضافة إلى إسرائيل.

مع ذلك تسبب ما سمحت الرقابة بإظهاره إلى النور، بهزة أرضية سياسية على كل المستويات، وهي آخذة بالتصاعد، وكان أول ثمارها، بعد استقالة حالوتس، استقالة بيرتس، وتدحرج رؤوس كثيرة أُخرى سياسية وعسكرية، ما سيخلق تداعيات عديدة على مستقبل الحكومة وتحالفات الأحزاب في إسرائيل.

أ ـــ الشهادات الأولى

في شهادته أمام اللجنة، حاول بيريز أن ينأى بنفسه عن ثالوث الحرب، وأن يتبرأ من المشاركة في اتخاذ القرار، وذهب أبعد من ذلك، فوجّه انتقادات لاذعة لأولمرت وبيرتس، منها: «لم أكن لأحدد قائمة أهداف

الحرب، لأن وضع مثل هذه الأهداف يخلق إرباكاً، وإذا قلت مثلاً إن الهدف الرئيس هو تحرير المخطوفين، فإنك تحديداً «تضع نفسك تحت أفضال عدوك، وبعد ذلك لم أكن أعتقد أن الجيش مستعد لهذه الحرب».

واعترف بأنّه «كان هناك شعور بأن إسرائيل ليست ما كانت عليه أبداً، ليست لامعة، ليست مفاجئة، غير خلاّقة، وأعتقد أنه كان هناك إخفاق سيكولوجي كبير جداً، والسبب هو أن حزب الله تشرّف بناطق باسمه لا يفتقر للكفاءة، حسن نصر الله، فيما أننا هنا هاجمنا بعضنا البعض من دون توقف»[1]. واعتبر أن العالم وقف إلى جانبهم بشكل «غير لطيف لأننا كنا ضعفاء، وليس لأننا كنا على حق». وكشف بكل صراحة ووضوح، أن إسرائيل في هذه الحرب، فقدت بعضاً من قدرتها الردعية، وباتت أضعف مما كانت عليه، وتخوف من أن ينعكس هذا الوضع على نظرة العرب إلى الدولة العبرية، فتتضاءل صورتها أمامهم.

من جهته رئيس شعبة الاستخبارات عاموس مالكا، لم يخف توقعه من إمكانية تسلح حزب الله، ونشر صواريخ الكاتيوشا جنوب الليطاني، وقدرته في الوصول إلى السياج الحدودي. واعترف بأن التقديرات التي عرضت أمام المستوى السياسي، أن نفس الحزب سيكون طويلاً في مدى السلاح التكتيكي، وأقصر في السلاح الاستراتيجي، وبحسب ما سمح به الرقيب العسكري، فإن تقدير عاموس لهدف الحرب، هو تطهير المنطقة الحدودية، وإدخال قوات تحافظ على خلو هذه المنطقة مما أسماه بالمخاطر، وإنزال قوات الجيش اللبناني جنوباً، لكنه أقرّ بأن الخروج إلى الحرب لم يتم في الوجهة الصحيحة، وانتقد مالكا بشدة الجيش والقيادة السياسية في بداية الحرب، وأوضح أنه لاحظ صياغات بالغة الحذر جداً من جانب الجيش في

---

(١) «السفير»، ١٣ آذار/ مارس ٢٠٠٧م.

الأيام الأولى، وركزت مقابلات رئيس الأركان على أن المستوى السياسي اتخذ القرار وأنا سأنفذ، وهذا أمر غير قائم في بنية اتخاذ القرارات الإسرائيلية».

وبلهجة ساخرة، رأى أنه لم يكن أحد قريب من رئيس الحكومة، ينصحه بخفض سقف تصريحاته، لأنه يرفع سقف الإنجازات إلى مستوى لا يستطيع الجيش بلوغه. واعتبر أن الجيش كان «مخصياً» من ناحية الاستعداد بسبب انهماكه في الحلبة الفلسطينية. وأكد أنه كانت هناك «مشكلة مفهومية».

وفق هذه الاعترافات رأى رئيس الأركان الجديد غابي اشكنازي، أن استخلاص الدروس والعبر من هذه الحرب سيستغرق زمناً، (عدة سنوات) وكذلك إعادة تدريب الألوية والكتائب التي شاخت، أو كانت ناقصة الخبرة ومترهلة، فيما ركزت شهادة ابن عامي، على الإخفاقات التي حصلت في الشمال.

ب ـــ توزيع نسب الإخفاقات على القيادة

وتبيّن من نتائج التقرير، كما أعلنها رئيس لجنة التحقيق القاضي الياهو فينوغراد في مؤتمر صحفي أن مسؤولية الإخفاق في الحرب، يتحملها الثلاثي: أولمرت، بيرتس وحالوتس، وذلك بسبب ما وصفه «بالأخطاء الفادحة» التي وقعوا فيها، ولو أن تصرفاتهم كانت أفضل، لتغير سير الحملة إلى نحو أفضل، كان هناك سوء تقدير وعدم الإحساس بالمسؤولية، واتخاذ الحذر اللازم، ونال رئيس الحكومة النصيب الأوفر من إلقاء تبعة الفشل، فهو خرج إلى الحرب من دون خطة معدة إعداداً جيداً، وفشل كزعيم «كان يفترض به أن يقود البلاد إلى عمل عسكري هجومي من منطلق الاتزان

والمسؤولية»، وكرر فينوغراد كلمة الفشل مراراً، كتوصيف للأداء والممارسة السياسية والعسكرية قبل اتخاذ قرار الحرب وأثناء العمليات، فأولمرت بنظر اللجنة، بلور موقفه دون أن تعرض عليه خطة مفصلة، ولم يطلب أن تعرض عليه مثل هذه الخطة، ولذلك لم يكن بالوسع تحليل تفاصيلها أو المصادقة عليها. ولم يطلب بدائل لتقديراته، ولم يبد شكوكاً تجاه مواقف الجيش، لهذه الأسباب مجتمعة وغيرها، فشل لأن الحكومة برئاسته تبنت مثل هذه القرارات.

وأشار التقرير الذي تلاه فينوغراد، أن أولمرت لم يتمكن خلال الشهور الستة التي أمضاها في رئاسة الحكومة، من إعداد نفسه بشكل كاف لاتخاذ قرارات فورية، معتبراً أن ذلك يعود لقلة الخبرة، «ومحدودية قدرته على تحدي تقديرات الجيش وانتقادها بشكل مدروس، ولافتقاره العميق لمعرفة العلاقة بين تفعيل القوة العسكرية وتحقيق الغايات السياسية، ومغزى هيئة مستقلة تقدم له المشورة في هذه القضايا»[1].

ولم يكن بيرتس أقل نصيباً في الانتقادات، إلا أن اللجنة وجدت له بعض العذر، بسبب قلة خبرته أيضاً، ما أدى إلى فشله في القيام بمهامه، فهو لم يطلب ولم يفحص خطط الجيش، ولم يتأكد من جهوزيته، من انتشاره، لم يفحص برؤية شمولية طرق العمل التي عرضت وصودق عليها، والأهداف التي تحددت. كما أنه افتقر للخبرة في شأن وزارته، ورغم أن اللجنة حاولت أن تمنحه أسباباً تخفيفية، إلا أنها اعتبرت أن ما قام به حتماً لا يستحق الثناء، فسلوكه حمل الكثير من الإخفاقات والعيوب، وهو لم يتخذ التدابير التي تعينه على تعويض انعدام الخبرة والعلم لديه، واستنتجت اللجنة في تقريرها، أن وزير الدفاع في مرحلة الخروج للمعركة، لم تكن

---

(١) المصدر السابق نفسه.

لديه رؤية استراتيجية كاملة عن الساحة اللبنانية، ووضع احتمال أن تكون العملية طويلة، وخرجت بخلاصة واضحة، أن بيرتس يتحمل مسؤولية منصبه. وهو غير مؤهل لهذا الدور. ولم يتردد بيرتس عن إعلان استقالته في نهاية أيار/ مايو، كثمن لا بد أن يدفعه، ليس لتقصيره فحسب، بل بسبب فشله الذريع، بخاصة بعد أن باتت تصريحاته ومواقفه أثناء الحرب، وتهديده حزب الله وأمينه العام، مثار هزء الجميع على الصعد السياسية والعسكرية والإعلامية والشعبية أيضاً.

أما حالوتس فنال حصة الأسد في تحميله تبعات كل إخفاقات الحرب، وكشف التقرير أن رئيس الأركان آنذاك، لم تكن لديه خطة واقعية جاهزة، تناسب حالة التصعيد في الجبهة اللبنانية، وعندما حصل على الضوء الأخضر للحرب، امتنع عن تجنيد قوات الاحتياط، واعتبرت اللجنة، أن ذنب حالوتس تضاعف بسبب معرفته بقلة خبرة وكفاءة كل من رئيس الحكومة ووزير الدفاع في المواضيع ذات الصلة. وبسبب أنه خلق لديهما أيضاً انطباعاً بأن الجيش مستعد وجاهز للحرب، ولديه خطة متكاملة للمواجهة.

واتهمته بأنه عمل بشكل ارتجالي، ولم يضع المستوى السياسي أمام تعقيدات الساحة، ولم يعرض عليها معلومات أو تقديرات وخطط، وأكدت أنه «أسهم مساهمة حاسمة في العيوب والإخفاقات أثناء القرارات حول شن الحرب». وحمّل فينوغراد مسؤوليات الفشل أيضاً، إلى الحكومات السابقة، وإلى القيادات العسكرية السابقة أيضاً، معتبراً أن نظرية الأمن على الحدود مع لبنان لم يتم تحديثها منذ الانسحاب في العام ٢٠٠٠م، وبالتالي لم تسمح بمواجهة الأخطار بعموميتها.

عكس تقرير فينوغراد، آثاراً بالغة الأسى، على الصعد المعنوية والنفسية والأمنية والاستراتيجية، فشعر الإسرائيليون على مختلف مستوياتهم، أنهم كانوا يعيشون كذبة كبيرة، وأنهم وقعوا في شرك تطمينات غير مستندة لمعطيات وحقائق، لذلك كانت ردود الأفعال قاسية، فسارعت المعارضة اليمينية واليسارية على حد سواء، إلى شن حملات إعلامية لاذعة ضد الحكومة برمزيها أولمرت وبيرتس، وطالبت باستقالتهما فوراً، وإجراء انتخابات مبكرة، واعتبر النائب سيلفان شالوم «أن التقرير يشكل لائحة اتهام خطير للغاية ضد أولمرت والحكومة كلها، وعلى القيادة وضع المفاتيح والتوجه لانتخابات جديدة». ودعا رئيس حزب ميرتس اليساري النائب يوسي بيلين، بيرتس إلى سحب ترشيحه لحزب العمل فوراً، لأن استخلاصات فينوغراد، لم تترك مكاناً للتحليل، وخرجت تظاهرة شعبية مؤلفة من ١٥٠ ألف شخص، دعوا الحكومة للاستقالة، ووجهت عائلات الجنود الذين قتلوا في الحرب انتقادات ساخنة للأداء الحكومي، وطالبت أولمرت بالرحيل، وأظهرت استطلاعات الرأي، التي بثتها الإذاعة الإسرائيلية، أن ٦٩ في المئة من الإسرائيليين يؤيدون استقالة أولمرت، كما أن ٧٤ في المئة يؤيدون استقالة بيرتس، وانتقل الخلاف إلى داخل حزب «كديما»، حيث بدت عليه علامات التصدع والتمرد بخاصة بعد أن نصحت وزيرة الخارجية تسيبي ليفني رئيسها أولمرت بالاستقالة، استعداداً لكي تتولى هي دفة الحكم، إلا أن هذه العاصفة سرعان ما طويت، فعاد أولمرت ليهددها بالطرد من الحكومة، ورغم ذلك أعلنت ليفني أن علاقتها بأولمرت ليست جيدة»، ويعود سبب هذا الانقلاب، إلى تراجع حليف ليفني في كديما وزير الأمن الداخلي آفي ديختر، عن دعم ليفني، كما صمت صوت شاؤول موفاز، بل إن ديختر أعلن أنه يقف وراء أولمرت، ما تسبب بتفكك

الكتلة الضاغطة على الرئيس الآيل للسقوط، كما أن زعيمي «إسرائيل بيتنا» افيغدور ليبرمان، و«شاس» ايلي يشاي، رفضا إسقاط أولمرت، لكن ذلك كله، لم يخفف من حملة الهجوم على الحكومة، حيث شعر زعيم حزب الليكود بنيامين نتنياهو أن الفرصة لاحت أمامه مجدداً للانقضاض على خصومه في كديما، للانتقام منهم من جهة، والعودة إلى رئاسة الحكومة من جهة ثانية. وقد بدأ الحديث عن الاستقالات بعد تقرير فينوغراد، يطال قيادات عسكرية رفيعة، وهناك ترشيحات لأسماء بارزة في هذا الصدد، فبعد رحيل حالوتس وقائد الجبهة الشمالية السابق اودي آدم، وقائد فرقة الجليل العميد غال هيرش بات الخطر يتهدد قائد الجبهة الشمالية غادي ايزنكوت الذي عمل رئيساً لشعبة العمليات أثناء الحرب، ونائب رئيس الأركان موشيه كابلينسكي، ورئيس شعبة الاستخبارات عاموس يدلين، وعدد آخر من كبار الضباط والقادة العسكريين.

د ـــ الدور الأمريكي في التهدئة

خشيت الولايات المتحدة الأميركية، من أن يؤدي انهيار حكومة أولمرت، دخول إسرائيل في المجهول، ولو بصورة مؤقتة، في مرحلة حساسة من تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، وفي ظروف معقدة جداً في المنطقة، بخاصة وأنها تدرك جيداً أنها هي التي ورطت أولمرت بهذه الحرب، فهي التي ساقته إليها سوقاً، وهي التي موّلت وقدمت المساعدات لها، وهي التي هيأت لها المناخات السياسية الملائمة عربياً وإسلامياً ولبنانياً ودولياً أيضاً، لذلك فإنها اعتبرت أن سهم فينوغراد لم يصب رئيس الوزراء الإسرائيلي وحده، بل أصابها هي أيضاً في الصميم، فسارعت إلى دعمه بشكل أو بآخر، فأوعزت إلى قيادات عدة بفك الطوق عنه، وتخفيف الضغط عن كاهله، وهذا ما لمسناه من تراجع بعض المتحمسين لاستقالته،

من العودة عن قرارهم، كما لاحظنا أن بعض أحزاب الائتلاف الحكومي، غيرت مواقفها. فواشنطن وحسب ما أعلنه المتحدث باسم البيت الأبيض طوني سنو، رأت أن الرئيس جورج بوش يتعاون بشكل وثيق مع أولمرت، ودوره أساسي في بذل الجهود للتوصل إلى حل لإقامة دولتين في إشارة واضحة إلى رفض امريكا تكرار تجربة حكومتي غولدامئير بعد حرب تشرين في العام ١٩٧٣م، ومناحيم بيغن بعد اجتياح لبنان في العام ١٩٨٢م، حيث تعرضتا للاحتجاج والانهيار.

المساعي الأمريكية تواصلت في محاولة إنقاذ أولمرت، إلا أن ذلك بات صعباً للغاية، وهي في هذا الإطار، حثت الخطى باتجاه تحريك عملية التسوية في المنطقة، لتوجيه الأنظار بعيداً عن الأزمة الإسرائيلية المتفاقمة، والرهان معقود على «المعتدلين العرب»، الذين أبدوا استعداداً للمضي في مبادرتهم لتوقيع صلح مع إسرائيل. ولو قرأنا الصمت العربي الرسمي. تجاه تقرير فينوغراد، لوجدنا أنه يخدم هذا المسار، إذ لم تصدر كلمة واحدة أو تعليق بسيط من أي طرف عربي سلباً أو إيجاباً على هذا التقرير، وكأن الحرب التي شنت ضد لبنان، لا تعنيهم بشيء، وأن الانتصار الذي أنجزته المقاومة من خلال إفشال أهداف العدوان، أيضاً لا يعنيهم من قريب أو من بعيد، إذا لم نقل أنه سبّب قلقاً للبعض، وسبّب شعوراً بالخيبة للبعض الآخر، لأنه كان ضليعاً في الدعوة إلى هذه الحرب وضرب المقاومة.

هـ ـ قراءة حزب الله

رأت قيادة حزب الله في قراءتها للتقرير، أن أهم نتائجه، كان حسم مسألة النصر والهزيمة رسمياً ونهائياً، فاعتبر أن إسرائيل منيت بهزيمة كبيرة جداً، وأن هناك استعداداً للتضحية بألف أولمرت من أجل دولة الصهاينة.

وقالت: عندما تحدث التقرير أن الجيش كانت لديه خطط لم يتم

مراجعتها من قبل رئيس الأركان دان حالوتس آنذاك، فهذا يعني أن المؤسسة العسكرية يكون فيها الفرد الأول، هو صاحب القرار النهائي في كل شيء، ولا يراعي الخطط التي درسها من قبله، أو التي تدرسها قيادته، في الوقت الذي يفترض أن تكون المؤسسة العسكرية عبارة عن مجلس تنقل انطباعاتها إلى الحكومة. هذا تغطية لأمر أساسي، بأن المؤسسة العسكرية لم يكن لديها الخطط الفعالة، كان يوجد ارتباك داخل المؤسسة العسكرية، عندما اختار حالوتس هذه الطريق، ليس لأنه فردي وأناني، بل أيضاً لأن ما قدّم له من قبل المؤسسة العسكرية لم يكن كافياً وناضجاً، فإذاً هناك مشكلة بنيوية داخل المؤسسة العسكرية، من حيث قدرتها ورغبتها في الدخول بمعارك، بل ذكر التقرير بأنهم لم يكونوا قد أعدوا أنفسهم لحرب، أي أنهم يعتقدون أنه بعد الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠م انتهى زمن الحروب بالمعنى الواسع، وهناك فقط موضوع الردع، وهم يفتخرون دائماً بأن لديهم قوة الردع، وأيضاً لا يوجد لدى المؤسسة العسكرية حوافز.

السؤال هو هل كان القرار الإسرائيلي بالذهاب إلى الحرب، منسجماً مع الخطط التي كانت معدّة سابقاً أم لا، فالقرار كان سياسياً، لكن عسكرياً لم يكن بالمستوى المطلوب. ونستطيع القول أنه وفق الرؤية التي قدمها التقرير، يستطيع الرأي العام أن يخرج باستنتاجات، منها، أن قوة الردع المدعاة في الجيش الإسرائيلي، ليست على المستوى العالي الذي يستطيع أن يقف أمام جيوش عربية، أو مقاومة عربية واسعة، وإنما القدرة العسكرية هي قدرة محدودة، فيها إمكانات متطورة، لكن ليس لديها عناصر شجاعة ولا قادرة على الإقدام، وإنما هناك خلل في الفرد العسكري، وهنا استخدم التقرير عبارة أن قوة الردع تضررت على المستوى العسكري، إنما نحن نقول غير هذا، لم يكن هناك قوة ردع حقيقية، حتى نقول إنها تضررت، هنا

انكشفت حقيقة قوة الردع الموجودة عند إسرائيل، وأن وهمها أكبر من حقيقتها، وهذا ما أشار إليه التقرير عندما تحدث عن خطة غير جيدة، وعدم استدعاء الاحتياط في الوقت المناسب، وما شابه من تفاصيل. هذه نقطة لها علاقة بالموضوع العسكري.

والنقطة الثانية، ونعتبرها أكثر جوهرية، أن الحرب على لبنان، لم تحصل بقرار إسرائيلي مستقل، ولم تحصل بتأييد أمريكي للقرار الإسرائيلي، وإنما حصلت بقرار امريكي وتنفيذ إسرائيلي، ما يعني أن سبب وجود إسرائيل، بأدبيات إسرائيل، وهو التكتم حول الصهيونية من أجل إنشاء دولة إسرائيل، هذا الهدف لم يعد قادراً على البقاء والاستمرار وعلى التنظير، وتبيّن أن الهدف الأهم والأولى، هو زرع هذه الدولة في المنطقة لمصالح امريكية بالدرجة الأولى، وبالتالي تحوّلت إسرائيل إلى يد بيد امريكا لسياستها التي تضطلع بها في الشرق الأوسط، وهذا أمر بنيوي، وله علاقة بضرب الفكرة الإسرائيلية بالأصل، إنها لم تعد فكرة من أجل الوجود الإسرائيلي، إنما هي فكرة من أجل إيجاد فزّاعة للعرب، وذراع امريكية طويلة لا تضطر معها أن تدخل إلى منطقتنا، وهذا ما تبيّن من الإدارة المباشرة لوزيرة الخارجية الأمريكية لكل خطوات المعركة، وكنا إذا أردنا أن نفهم التنظير السياسي وأهداف المعركة الإسرائيلية، كان يجب أن نقرأ رايس وليس أولمرت ولا ليفني، لأنهم كانوا يكررون ما كانت تقوله رايس والإدارة الأمريكية، هنا تبين أن قضية الإدارة الأمريكية في هذا الشأن أنها استغلت إسرائيل إلى أقصى الحدود.

النقطة الثالثة في الاستنتاجات لتقرير فينوغراد، هي أن أولمرت لم يكن رئيساً لإدارة مجموعة عمل، وإنما هو شخص تنفيذي موجود لتنفيذ رؤى سياسية، بدليل أن رئيس الحكومة الإسرائيلية الضعيف، الذي لا يمتلك

خبرة عسكرية ولا سياسية كافية، هو مدعوم بقوة من قبل الأمريكيين، حتى أن تقرير فينوغراد صدر من هنا، وهم أبدوا تأييداً لبقاء أولمرت، لماذا؟ لأن شخصية قوية غير أولمرت قد يعقد حركة الأمريكيين في إدارة المنطقة.

النقطة الرابعة: أن الخطط التي قررها الإسرائيلي لم تكن خططاً ناضجة، ويوجد فيها عامل الخوف البشري بارزاً جداً، فإسرائيل سبق واعتادت أن تكون معاركها على أرض الغير، لكن اليوم أصبحت على أرضها مباشرة من خلال الصواريخ التي سقطت في حيفا والمناطق الأخرى، ولم تكن إسرائيل مستعدة لمثل هذه المعركة، وكانت تعتقد أن المواجهة مع حزب الله، يمكن أن تنتهي بثلاثة أو أربعة أيام، إذاً أين هي الاستخبارات التي لا مثيل لها؟ تبيّن أن هناك فشلاً في المعلومات الموجودة لديها، على الأقل في الأسلحة المتوافرة لدى حزب الله، أو في مدى الصمود الذي لم يقدروه بشكل كاف، أو بطول الحرب، دون معرفة المراحل التي ستقطعها هذه الحرب، أو بالإقدام على محاولة الدخول إلى وادي الحجير، ومجزرة الدبابات الشهيرة التي حصلت هناك، فلا نعتقد أن جهة عسكرية لديها معلومات وخبرة كافية يمكن أن تقدم على مثل هذه الأعمال، وهذا يبرز الضعف الموجود في الأمن الإسرائيلي. وفي الخطط والإدارة العسكرية، وفي بنية الأفراد، وهذا كله أوجد حالة من الارتباك، رأيناها بالتقرير بشكل مباشر، وعلينا أن نبقى بذهنية الذين يتعاملون مع خصم له قوة، وعنده خطط، وسيحاول أن يقوم من كبوته، إذاً من الخطأ أن نتعامل مع الهزيمة الإسرائيلية أنها نهاية إسرائيل، بل يجب أن نتعامل بالاستعداد الحقيقي لما بعد الهزيمة، توقعاً لاحتمالات أخرى يمكن أن تحصل مستقبلاً.

نحن لا نتعامل مع إسرائيل بعد هزيمتها، بأنه لن يقوم لها قائمة، أو أن

الحرب انتهت، بالعكس نحن نعمل على أساس تعزيز القدرة القتالية. واستمرار المقاومة في الجهوزية والتدريب والتأهيل، وإيجاد كل الإمكانات المناسبة، ربما حصل شيء بعد فترة من الزمن، بعد سنة أو سنتين أو عشر سنوات، وهذا مرتبط بالوضع السياسي وبعناوين أخرى.

نحن اليوم نعمل ليل نهار، لتكون جهوزيتنا قادرة على أن توفر علينا إمكانية حرب أو معركة مع إسرائيل، بمعنى أنه عندما تدرك إسرائيل بأننا على هذا المستوى من الجهوزية، تقلع عن أي خطوة بشكل متسرّع، لأنها تحسب حساباً لردود فعل كبيرة، وللمقاومة، وتجربة عدوان تموز/ يوليو ٢٠٠٦م ماثلة أمامها بشكل مباشر. ومع ذلك نستعد لأسوأ الاحتمالات، ونعدّ لتلقين إسرائيل صفعة أقوى مما تلقته في السابق. ونحن قيمنا الحرب، وحددنا مكامن القوة والضعف في إسرائيل، وأعددنا خططاً عسكرية وتدريبية وتجهيزية للمقاومة تتناسب مع الاستفادة من تجربة هذه الحرب.

و ـــ نظرة استراتيجية للتقرير

ورأى الخبير العسكري الاستراتيجي العميد الياس حنا، أن لتقرير فينوغراد شقين[1]: الأول صدر، والثاني سيصدر لاحقاً، لكن المهم أنه يعطي الصورة الكبرى للحكومة العبرية ودولة إسرائيل، لطريقة قتالها وماهية مشاكلها، ويبدو أن المشكلة تتركز على القيادة العليا وعلاقتها بالعسكر، ودور العسكر في اتخاذ القرار، وكيف يؤخذ قرار السلم والحرب، ومن يشارك به، وما هي المشاكل التي ساهمت في الفشل الذي حصل في حرب تموز/ يوليو، فالفشل هو فشل في الفكر الاستراتيجي الإسرائيلي أولاً، فشل في الفكرة التي تقوم عليها دولة إسرائيل، ففكرة احتكار أسلحة الدمار

---

(١) حوار مع «الجزيرة»، ٥/ ٥/ ٢٠٠٧م.

الشامل بدأت بالتآكل، وأمن الداخل بدأ بالتآكل، ونقل الحرب إلى أرض العدو بدأ أيضاً بالتآكل، تطويق التطويق في العالم العربي، أي تطويق الدول العربية المحيطة بإسرائيل، عندما كانت تطوق إسرائيل، بدأ كذلك بالتآكل، وتركيا بدّلت استراتيجيتها كما باكستان، إذاً نحن في تحوّل جذري على صعيد الفكر الاستراتيجي الإسرائيلي، ومن هنا فإن هذه الحرب، أظهرت النواقص الصغيرة في الصورة الكبرى لإسرائيل، هناك فشل، وقد يأتي التقرير الثاني فيزيد الفشل أكثر فأكثر، لأن فيه كما قال فينوغراد، سنذهب إلى التفاصيل الصغيرة وهناك الكوارث، لأنه من خلال متابعة الحرب، تبين أنه في اللوجستية والأوامر وعلاقة الضباط بعضهم ببعض، وعلاقة الضباط بالقيادة، والتردد في اتخاذ القرار ضمن خطة استراتيجية، وعدم إمكانية ربط الأهداف السياسية بالقوة العسكرية، أو كما يقال بالفكرة الاستراتيجية. إن التكنولوجيا تحل محل الحرب، حزب الله أتى بالعكس وقال كلا، الأرض هي التي تحل محل التكنولوجيا، فعندما قال حالوتس إن القوة الجوية هي التي تحسم الحرب، ولا يجب علينا أن نقوم بعملية برية، قالت المقاومة كلا الأرض هي التي تحسم، فدافعت عن الأرض، حتى لو كانت التكنولوجيا المستعملة من قبل حزب الله، تكنولوجيا تعود إلى الحرب العالمية الثانية، كل هذه الأمور أدت إلى الفشل الإسرائيلي.

وأعتقد أنه الآن من الناحية السيكولوجية، فإن إسرائيل لا يمكن أن تأخذ قراراً جديداً في الذهاب إلى الحرب، لأن شعبية أولمرت في الأرض، حيث إن ٧٠٪ من الإسرائيليين يطالبونه بالاستقالة، والحرب كما هو معروف تتطلب قراراً سياسياً، إضافة إلى أخذ الدروس المستقاة من الحرب السابقة وإدخالها في العقيدة العسكرية، ما يعني أن الجيش الإسرائيلي يجب أن يدرس أين كان الفشل العملاني، في القيادة، في

التكتيك، في استعمال القوة الجوية مع القوة العسكرية البرية، هذه الأمور يلزمها وقت وتدريبات، من ستة أشهر إلى سنة، لماذا؟ لأن هذا التقرير سيؤدي إلى تغيير قيادات، أي أن قائد الأركان تبدّل، كما أن قادة الألوية تغير بعضهم وبعضهم الآن يمكن أن يتغير، وبالتالي سيكون هناك عمودياً تغيير أساسي، وهذا التغيير مع قيادات جديدة يتطلب وقتاً معيناً، كي تتأقلم هذه القيادات مع بعضها، وكي تفهم الدروس المستقاة من الحرب، وهذا يتطلب إعادة التنظيم، التدريب والتجهيز، ومن ثم إجراء الكثير من المناورات، ومن هنا ما نراه على جبهة الجولان، وما رأيناه في الضفة الغربية يندرج في إطارين:

الإطار الأول: هي رسالة ردعية، صحيح أن الجيش الإسرائيلي فشل في لبنان، لكنه قادر على القيام بحرب ضد سوريا.

الإطار الثاني: هو الأهم، ولم ينتبه إليه أحد، وهو أن الضفة الغربية، هي الممر الأساسي للاحتياط الإسرائيلي للذهاب إلى الجبهة الشرقية، ففي أي حرب مع سوريا، فإن الطرقات الطولية والعرضية في الجبهة في الضفة الغربية هي أساسية كي يتحرك هذا الجيش، ومن هنا نرى أن كل المستوطنات التي زرعها رئيس الوزراء السابق آريل شارون، ذات مهمة أمنية خاصة، لتأمين الدعم وخطوط المواصلات للجبهة الشرقية، وهذا الأمر أيضاً يندرج في أي استعداد لحرب محتملة. لذلك نرى أن الضفة الغربية تكتسب أهمية في المفاوضات الإسرائيلية مع السلطة الفلسطينية، وفي كل المباحثات المشتركة يكون هناك تركيز على الحفاظ على دور الأردن، أي الجبهة الفاصلة، ووضع عتاد وسلاح ومخازن، لإيصال العسكر بسرعة إلى الجبهة الشرقية انطلاقاً من هذا الوضع، فإن أي انسحاب عسكري أو سياسي لإسرائيل من الضفة لن يحصل في الوقت القريب، ويعود هذا الأمر إلى ما حصل في جنوب لبنان، وإلى فشل أولمرت

ومشروعه في الانسحاب، إن كان بعد الانسحاب من غزة واستكماله في الضفة الغربية. لكن لا يمكن نقل تجربة حزب الله كما هي إلى الضفة الغربية، ولا بد من أخذ الدروس والعبر منها، ما يناسب الفلسطينيين في الضفة.

ولا أعتقد أنه لا يمكن أن يطرح على إسرائيل اليوم، مبادرة عربية للسلام، لأن إسرائيل في موقع ضعف استراتيجي لا مثيل له، سواء كان على مستوى الداخل، أو المحيط أو على مستوى المنطقة، فعندما تكون استراتيجية إسرائيل احتكار أسلحة الدمار الشامل في المنطقة، ويبدو أن هناك تآكلاً لهذا الهدف، فهذا هو ضعف، وإذا رأينا أن الدول التي كانت حليفة لإسرائيل وكانت تطوق العالم العربي هي اليوم امتداد للعالم الإسلامي والعربي خاصة تركيا، فهناك تآكل آخر لإسرائيل، وإذا رأينا أن تجربة إسرائيل في الانسحاب من الأرض سواء في جنوب لبنان أو غزة لم يؤد إلى السلم، فإسرائيل أمام معضلة أساسية، وهي أن الحدود الآمنة ليست آمنة إلا إذا اعترف بها ، إذاً نحن نعود إلى نقطة الصفر، أي أن أمن الداخل الإسرائيلي ليس أمناً، لأن أي حدود تصل إليها إسرائيل وتقول هذه هي حدودي الآمنة، يمكن الدفاع عنها، وإذا لم يعترف بها ضمن مشروع عام لا يمكن أن تكون إسرائيل آمنة، وفي هذا الواقع لا يمكن أن تقبل إسرائيل وهي ضعيفة، بأي مبادرة سلمية عربية.

١٠ ـــ بين الأحلام والواقع

ينتاب الإسرائيليون بعد حوالي ٥٩ سنة على تأسيس كيانهم وأمام عاصفة انكسارهم، شعور بالخيبة والهلع. إذ باتوا يرون مستقبلهم غامضاً، على غير المفاهيم والأسس التي نشأوا عليها، وهذا ما عكسته كتابات وذكريات وانطباعات العديد من السياسيين والإعلاميين والمثقفين والمواطنين الإسرائيليين، ففي مقالة له في «يديعوت أحرونوت»، رأى

سيفربلوتسكر، أن الواقع الآن في إسرائيل بات يخالف كل التوقعات «لو أن أحداً قال لنا قبل عشر سنوات أنه في غضون عقد من الزمان، سننتقل هنا مرات عديدة من الاكتئاب إلى الجنون، ومن الجنون إلى الاكتئاب. والعودة عليهما، ورغم ذلك لن نشعر بأي دوار، أو اشمئزاز أو ضغط في الصدر، وسنتماثل مع البلاد المفعمة بالتناقضات هذه أكثر من أي وقت مضى، فماذا كنا سنقول له؟»[1].

وتحت عنوان «عين على صهيون»، كتبت صحيفة «هآرتس»، هناك نفور، خيبة أمل عنيفة وهلع، تلك كانت الأحاسيس المنتشرة التي جرفت الجمهور في إسرائيل في عامها الـ٥٩. ولا معنى للتخفيف من حدتها، عند الاحتفال بيوم الذكرى.

حكومة جديدة برئاسة حركة سياسية جديدة، تعهدت بوضع حد للاحتلال، قادت ـ أو ربما الأدق قيدت ـ من جيش مغرور وصديء إلى هزيمة أليمة، مخيبة للآمال ومحملة بالمخاطر في حرب ضد حزب الله.

وفي تقرير نشره موقع «يديعوت» الالكتروني، تحدث عدد من أشخاص مثلوا جيل حرب ١٩٤٨م، فعرضوا الفارق بين الحلم والواقع، فرأى أوري افنيري (٨٣ عاماً) أن إسرائيل تعاني خطراً داخلياً كبيراً «فالتعفن شاع في أغلب منظومات الحياة، والدولة التي نعيش فيها اليوم لا تشبه أبداً الدولة التي حلمنا بها عند إقامتها».

ورأى اهرون امير (٨٤ عاماً) وهو شاعر وأديب، أن الخطر يكمن في الإحساس العام الذي بات يستند إلى سلّم قيم مزيف... وأكد جاليم غوري (٨٣ عاماً) وهو أيضاً شاعر وصحفي وروائي، أن إسرائيل تعيش حالة

---

(١) السفير، ٢٥ نيسان/ أبريل ٢٠٠٧م.

اهتزاز، وثمة يأس هنا وهناك بعد الهزة التي أحدثتها حرب لبنان الثانية.

هذه عينات من كتابات ورؤى ومواقف إسرائيلية، تكشف حدّ الإحباط الذي وصل إليه المجتمع الصهيوني، فإذا كان وقع ونتائج حرب بين حزب مقاوم (حزب الله) وإسرائيل، أدى إلى كل هذه المشاعر، والمواقف فإننا يمكن أن نتصوّر ببساطة، كم سيكون تأثير فتح كل الجبهات العربية، في مواجهة مفتوحة مع إسرائيل: إنه بلا شك سيحدث تغييراً جوهرياً في طبيعة الصراع، ليس بين الإسرائيليين والعرب فحسب، وإنما في رسم معالم جديدة للمنطقة بأسرها.

الحرب الإسرائيلية الثانية على لبنان، كانت محطة في المواجهة بين مشروعين سياسيين؛ الأول يهدف إلى الاستيطان والتوسع وكسر إرادة الشعوب، والثاني يهدف إلى التحرر والانعتاق، واستعادة الحقوق المغتصبة والمهددة وهنا تكمن أهمية الانتصار الثاني للمقاومة اللبنانية.. فهذه المقاومة كتبت تاريخاً حافلاً بالعبر، تاريخاً يؤسس لنهج وأسلوب عمل وأداء مختلف، تاريخاً فتح أمام الأجيال القادمة أبواباً واسعة نحو شمس الحرية.

الملحق

جداول، بيانات، قرارات وتقارير

التراتبية للقوات الإسرائيلية البرية للمعركة في لبنان

الوحدة	النوع	الوضع		ملاحظات
قيادة المنظمة الشمالية	مقر القيادة	عادي	شمال إسرائيل، لبنان، مرتفعات الجولان، الجبهة السورية	
قوة قطاع الجليل	مقر القيادة	عادي	الحدود اللبنانية	
لواء 300	مشاة	عادي	القطاع الغربي	
قوة مدرعة	مدرع	عادي	القطاع الغربي	
لواء مدرع 401	مدرع	عادي	غير معروف	
36	مدرع	عادي		
اللواء المدرع السابع	مدرع	عادي	القطاع الشرقي للجبهة اللبنانية	
لواء باراك 188 ت	مدرع	عادي	غير معروف	
القطاع المدرع85	مدرع	عادي		
لواء احتياط مدرع غير محدد	مدرع	احتياط		
لواء المشاة	مشاة	عادي	الحدود اللبنانية	
كتيبة المشاة 51	مشاة	عادي	القطاع الغربي	
كتيبة المشاة 13	مشاة	عادي		
لواء المظليين 35	مظليين	عادي	الحدود اللبنانية	
كتيبة المظليين 890	مظليين	عادي	الحدود اللبنانية	
لواء المظليين 101	مظليين	عادي	الحدود اللبنانية	

كتيبة المظليين 226	مظليين	عادي	الحدود اللبنانية	
لواء المظليين لواء الحرية 551	مظليين	احتياط	الحدود اللبنانية	
لواء نحال	مشاة	عادي		
لواء المشاة جيفعاتي	مشاة	عادي	القطاع الغربي	
لواء اسكندرونا	مشاة	احتياط		
اللواء 609	مشاة	احتياط	القطاع الغربي	
اللواء كارملي	مشاة	عادي	القطاع الغربي	
كتيبة هيريف	مشاة	عادي		
شيرت متكل القيادة العامة وحدة استطلاع	استطلاع وإغارة	عادي	حيثما تستدعي الحاجة	
إيغوز وحدة استطلاع	استطلاع + إغارة			
كومندوس نفال	استطلاع + إغارة	عادي	عمليات ساحلية	
وحدة هندسة لأهداف خاصة	هندسية	عادي	حيث تستدعي الحاجة	
لواء المدفعية القيادة الشمالية	مدفعية			
كتيبة كيرن المدفعية	مدفعية	احتياط		
كتيبة أيال المدفعية	مدفعية	احتياط		
كتيبة نظام قاذفة الصاروخ المتعددة MRLS	غير محددة	مدفعية		
اللواء 847		احتياط		

ترسانة إسرائيل من الأسلحة الأميركية

نوع السلاح	العدد	الشركة المصنعة
طائرات ف ـ 16	236 (110 مقاتلات و126 طائرة إغارة)	لوكهيد مارتن (جنرال دايناميكس)
طائرات ف ـ 15	89	بوينغ (ماكدونيل دوغلاس)
طائرات آي ـ 4	39	نورثروب غرومان
طائرات نقل سي ـ 130	5	لوكهيد مارتن
طوافات شحن سي ـ 47	11	بوينغ
طائرات نقل غولف ستريم جي ـ 550	8	غلوف ستريم (تملكها حالياً جنرال داينامكس)
طائرات نقل بي ـ 707	7	بوينغ
طائرات مساندة «سيسنا»	22	سيسنا
طائرات تدريب تي آي ـ 4	26	نورثروب غرومان
طوافات هجوم كوبرا آي ـ ايتش ـ 64	55	بيل، تكسترون هيليكوبتر
طوافات هجوم آي ـ ايتس 64	40	بوينغ ـ لوكهيد مارتن ـ نورثروب غرومان (بالنسبة لـ/آي ـ ايتش 64 ـ دي 9
طوافات هجوم سي ستاليون سي ـ ايتش ـ 53	41	يونايتد تكنولوجي (وحدة سيكورسكي)
طوافات دعم بلاك هوك (س70 ويو ـ ايتش 60 آي)	48	يونايتد تكنولوجي (وحدة سيكورسكي)
طوافات مساندة (بيل 206 وبيل 212)	77	بيل/ تكسترون
صواريخ ستينغر المحمولة للدفاع الجوي	390	رايثيون (جنرال داينامكس وهوغس)
صواريخ جو ـ أرض	1000	جنرال داينامكس
صواريخ أرض ـ جو	(عدد غير محدد)	لوكهيد مارتن، بوينغ (هيل فاير)، رايثيون (ستاندارد، مافيريك)، مارتن ماريت ـ اليا لوكهيد مارتن (وول آي)

صواريخ جو ـ جو	(عدد غير محدد)	رايثيون (امرام، سبارو، سايدوندر)
صواريخ باك ـ 2 أرض جو	48	لوكهيد مارتن، فوت رايثيون
قنابل للقتال المباشر	(عدد غير محدد)	بوينغ
دبابات م ـ 60	711	لوكهيد مارتن
ناقلات جنود مدرعة م ـ 113	6131	يونايتد ديفنس المندمجة مع ف م سيوهارسكو
مدافع ام ـ 109 عيار 155 ملم	350	يونايتد ديفانس
قاذفات صواريخ (م ل ر س)	60	لوكهيد مارتن/ فاوت
صواريخ بحر ـ بحر	444	بوينغ (ماكدونيل دوغلاس)

المصدر: وورلد بوليسي انستيتوت

مبيعات الأسلحة الأميركية لإسرائيل (بالدولار)

السنة	قيمة المبيعات العسكرية الخارجية	قيمة المبيعات المباشرة	المجموع
2001	766,026,000	4,019,000	770,045,000
2002	629,426,000	1,427,000	630,853,000
2003	845,952,000	16,455,000	862,407,000
2004	878,189,000	418,883,000	1,297,072,000
2005	1,652,582,000	1,110,223,000	2,762,805,000
2001 2005	4,772,175,000	1,551,007,000	6,323,182,000

المساعدات الأميركية لإسرائيل (بالدولار)

السنة	التمويل العسكري الخارجي	صندوق الدعم الاقتصادي	إضافات	برامج مكافحة الارهاب	المجموع
2001	1,975,644,000	838,000,000	-	-	2,813,644,000
2002	2,040,000,000	720,000,000	-	28,000,000	2,788,000,000
2003	2,086,350,000	596,100,000	1,000,000,000	-	3,682,450,000
2004	2,147,256,000	477,168,000	-	-	2,624,424,000
2005	2,202,240,000	357,120,000	50,000,000	210,000	2,609,570,000
2006 (تقديرات)	2,257,200,000	273,600,000	-	526,000	2,531,326,000
2007 (تقديرات)	2,340,000,000	120,000,000	-	320,000	2,460,320,000
المجموع (2001 - 2007)	15,048,690,000	3,381,988,000	1,050,000,000	29,056,000	19,509,734,000

القرار ١٧٠١

الصادر عن مجلس الأمن الدولي ٢٠٠٦/٨/١٢م

فقرة تمهيدية(١): إذ يذكر بقراراته السابقة حول لبنان ولاسيما القرارات ٤٢٥ (١٩٧٨م)، ٢٤٦ (١٩٧٨م)، ٥٢٠ (١٩٨٢م)، ١٥٥٩ (٢٠٠٤م)، ١٦٥٥ (٢٠٠٦م) و١٦٨٠ (٢٠٠٦م) و١٦٩٧ (٢٠٠٦م) وكذلك ببياناته الرئاسية حول الوضع في لبنان ولاسيما منها تلك الصادرة في تاريخ ١٨ حزيران لعام ٢٠٠٠م (S/PRTS ٢٠٠٠/٢١) و١٩ تشرين الأول العام ٢٠٠٤م (S/PRTS ٢٠٠٦/٣٦)، و٤ أيار العام ٢٠٠٥م (S/ ٢٠٠٥/١٧ PRTS)، ٢٣ كانون الثاني العام ٢٠٠٦م (S/PRTS ٢٠٠٦/٣)، و٣٠ تموز العام ٢٠٠٦م.

فقرة تمهيدية(٢): إذ يعرب عن قلقه الشديد من التصعيد المستمرّ للمعارك في لبنان وإسرائيل منذ هجوم «حزب الله» على إسرائيل في ١٢ تموز العام ٢٠٠٦م، الذي أدّى حتّى الآن إلى سقوط مئات القتلى والجرحى لدى الطرفين، وسبّب أضراراً فادحة في البنى التحتية المدنية وأدّى إلى نزوح مئات الآلاف من الأشخاص في الداخل.

فقرة تمهيدية(٣): إذ يشدّد على الحاجة إلى وضع حد للعنف، إنّما في الوقت ذاته على الحاجة إلى المعالجة الفورية للأسباب التي أدّت إلى نشوب

الأزمة الحالية، بما في ذلك الإفراج غير المشروط عن الجنديين الإسرائيليين المخطوفين.

فقرة تمهيدية(٤): إذ يأخذ في الاعتبار حساسيّة مسألة السجناء ويشجّع الجهود الهادفة إلى تسوية مسألة السجناء اللبنانيين المعتقلين في إسرائيل.

فقرة تمهيدية(٥): إذ يرحب بجهود رئيس الوزراء اللبناني وبالتزام الحكومة اللبنانية بخطة النقاط السبع، التي تقتضي فرض سيطرة الحكومة اللبنانية على أراضيها من خلال قواتها المسلحة الشرعية، في شكل لا يترك أي مجال لأسلحة أو سلطة غير سلطة الدولة اللبنانية، وإذ يرحب بالتزام الحكومة اللبنانية بتواجد قوة دولية مع إضافة وزيادة عدد ومعدات وتفويض ونطاق عمليات هذه القوة، وإذ يأخذ باعتبار طلب الحكومة اللبنانة الذي تضمنته هذه الخطة بانسحاب فوري للقوات الإسرائيلية من جنوب لبنان.

فقرة تمهيدية(٦): إذ يبدي عزمه على العمل على أن يطبق هذا الانسحاب في أقرب وقت ممكن.

فقرة تمهيدية(٧): إذ يأخذ علماً بالمقترحات المقدمة في خطة النقاط السبع في ما يتعلق بمنطقة مزارع شبعا.

فقرة تمهيدية(٨): إذ يرحب بقرار حكومة لبنان المتخذ بالإجماع في ٧ آب العام ٢٠٠٦م، والقاضي بنشر القوات المسلحة اللبنانية وعددها ١٥ ألف جندي لبناني في جنوب لبنان، تزامناً مع انسحاب الجيش الإسرائيلي إلى ما وراء «الخط الأزرق» وطلب مساندة قوات إضافية من «اليونيفيل» بحسب الحاجة، لتسهيل دخول القوات اللبنانية المسلحة إلى المنطقة وإعادة التأكيد على السعي إلى تعزيز القوات اللبنانية المسلحة بالعتاد بحسب الحاجة لتمكينها من تأدية مهامها.

فقرة تمهيدية(٩): إذ يدرك مسؤولياته للمساعدة على تأمين وقف مستمر لإطلاق النار، وحل طويل الأمد للنزاع.

فقرة تمهيدية(١٠): ومع الإقرار بأن التهديد الذي يتعرض له لبنان يشكل تهديداً للسلام والأمن العالميين.

فقرة تنفيذية(١): يدعو إلى وقف كامل لجميع العمليات الحربية بالاستناد خصوصاً إلى وقف فوري لكل الهجمات من جانب «حزب الله»، ووقف فوري، لكل العمليّات العسكرية الهجومية من جانب إسرائيل.

فقرة تنفيذية(٢): في ظل وقف كامل للأعمال الحربية، يدعو حكومة لبنان و«اليونيفيل» كما هو مقرر في الفقرة ١١، إلى نشر قواتهما معاً في الجنوب، ويدعو حكومة إسرائيل، مع بدء الانتشار، إلى سحب جميع قواتها من الجنوب اللبناني بالتوازي مع ذلك.

فقرة تنفيذية(٣): يشدد على أهمية بسط سيطرة الحكومة اللبنانية على كل الأراضي اللبنانية، عملاً بأحكام القرار ١٥٥٩ (٢٠٠٤م) والقرار ١٦٨٠ (٢٠٠٦م)، والأحكام المرتبطة والواردة في اتفاق الطائف حول ممارسة كامل سيادتها وسيطرتها، في شكل لا يترك أي مجال لأسلحة أو سلطة غير سلطة الدولة اللبنانية.

فقرة تنفيذية(٤): إذ يجدد دعمه القوي للاحترام الكامل للخط الأزرق.

فقرة تنفيذية(٥): يجدد أيضاً دعمه القوي كما ذكر في جميع قراراته السابقة ذات الصلة، لسلامة أراضي لبنان وسيادته واستقلاله السياسي ضمن حدوده المعترف بها دولياً، كما هو منصوص عليه في اتفاق الهدنة العام بين لبنان وإسرائيل في ٢٣ آذار ١٩٤٩م.

فقرة تنفيذية(٦): يدعو المجتمع الدولي إلى اتخاذ خطوات فورية لتوسيع

الدعم المالي والإنساني إلى الشعب اللبناني، ومن ضمنها تسهيل العودة الآمنة للأشخاص النازحين، وتحت سلطة حكومة لبنان إعادة فتح المطارات والمرافىء، اعتماداً على الفقرتين ١٤ و١٥ ويدعوها أيضاً إلى درس مساعدة أكبر في المستقبل للمساهمة في إعادة وتنمية لبنان.

فقرة تنفيذية(٧): يؤكد على أن جميع الأطراف مسؤولة عن ضمان أن لا يتم القيام بأي عمل يتعارض مع الفقرة(١) التي من الممكن أن تؤثر بشكل غير ملائم على البحث عن حل طويل الأمد، الوصول الإنساني إلى السكان المدنيين، من ضمنها ممر آمن للقوافل الإنسانية، أو العودة الطوعية والآمنة للأشخاص النازحين، ويدعو جميع الأطراف للإذعان لهذه المسؤولية والتعاون مع مجلس الأمن.

فقرة تنفيذية(٨): يدعو إسرائيل ولبنان إلى دعم وقف إطلاق نار دائم وحل طويل الأمد على أساس المبادىء والعناصر التالية:

الاحترام الكامل للخط الأزرق من كلا الطرفين

ترتيبات أمنية لمنع استئناف الأعمال العدائية، تتضمن إنشاء بين الخط الأزرق ونهر الليطاني منطقة خالية من الأشخاص المسلحين، والعتاد والأسلحة عدا تلك العائدة إلى حكومة لبنان و«اليونيفيل»، كما هو مفوض في الفقرة(١١) المنتشرة في هذه المنطقة.

التطبيق الكامل لمقررات اتفاق الطائف ذات الصلة، والقرارات ١٥٥٩ (٢٠٠٤م) و١٦٨٠ (٢٠٠٦م)، التي تتضمن نزع أسلحة كل الجماعات المسلحة في لبنان، من أجل، ووفقاً لقرار مجلس الوزراء في ٢٧ تموز ٢٠٠٦م، عدم وجود أسلحة أو سلطة في لبنان عدا تلك التابعة للدولة اللبنانية.

لا قوات أجنبية في لبنان من دون موافقة الحكومة.

لا بيع أو إمدادات من السلاح والمواد المتعلقة بها إلى لبنان إلا إذا أجازت حكومته.

تزويد إسرائيل الأمم المتحدة بكل خرائط الألغام في لبنان التي بحوزتها.

فقرة تنفيذية(٩): يدعو الأمين العام إلى دعم الجهود لتأمين في أسرع وقت ممكن اتفاقات مبدئية بين حكومة لبنان وحكومة إسرائيل على قاعدة وعناصر حل طويل الأمد كما ورد رابعاً في الفقرة ٨، ويعبر عن نيته في أن يكون معنياً بشكل فاعل.

فقرة تنفيذية(١٠): يطالب الأمين العام بتطوير، بالتنسيق مع فاعلين دوليين أساسيين والأطراف المعنية، اقتراحات لتطبيق بنود اتفاق الطائف ذات الصلة، والقرارين ١٥٥٩ (٢٠٠٤م) و١٦٨٠ (٢٠٠٦م)، تتضمن نزع السلاح، وترسيم حدود لبنان الدولية، خصوصاً في تلك المناطق حيث هناك نزاع أو التباس، بما في ذلك معالجة مسألة مزارع شبعا، وتقديم تلك الاقتراحات إلى مجلس الأمن في غضون ٣٠ يوماً.

فقرة تنفيذية(١١): يقرر، بهدف إضافة وتعزيز القوة الدولية لجهة العدد والمعدات والتفويض ونطاق العمليات، السماح بزيادة القوة الدولية «يونيفيل» إلى حد أقصى يبلغ ١٥ ألف جندي والسماح للقوة، إضافة إلى أداء المهمات الموكلة إليها وفقاً للقرارين ٤٢٥ و٤٢٦ (١٩٧٨م).

أ ـ مراقبة وقف العمليات العدائية.

ب ـ مرافقة ودعم القوات المسلحة اللبنانية فيما تنتشر في الجنوب، وبينها على طول الخط الأزرق، بالتزامن مع سحب إسرائيل لقواتها المسلحة من لبنان كما هو منصوص عليه في الفقرة الرقم ٢.

جـ ـ تنسيق أنشطتها المتصلة بالفقرة ١١(ب) مع الحكومة اللبنانية والحكومة الإسرائيلية.

د ـ توسيع مساعدتها للإسهام في ضمان الوصول الإنساني إلى السكان المدنيين وعودة الأشخاص المهجرين بشكل إرادي وآمن.

هـ ـ مساعدة الحكومة اللبنانية، بناء على طلبها، في تطبيق الفقرة ١٤.

فقرة تنفيذية(١٢): دعماً لطلب الحكومة اللبنانية نشر قوة دولية لمساعدتها على ممارسة سلطتها على كامل الأراضي، يسمح لقوات «اليونيفيل» القيام بكل التحركات الضرورية في مناطق نشر قواتها وفي إطار قدراتها، للتأكد من أن مناطق عملياتها لا تستخدم للأعمال العدائية بأي شكل، ومقاومة المحاولات عبر وسائل القوة لمنعها من أداء مهماتها بتفويض من مجلس الأمن، وحماية موظفي الأمم المتحدة، التسهيلات، التجهيزات والمعدات، تأمين أمن وحرية تحرك موظفي الأمم المتحدة وعمال الإغاثة الإنسانية، ومن دون الإضرار بمسؤولية الحكومة اللبنانية في حماية المدنيين تحت التهديد الوشيك بالعنف الجسدي.

فقرة تنفيذية(١٣): يطلب من الأمين العام بشكل عاجل وضع الأمور في مكانها للتأكد من أن «اليونيفيل» قادرة على تأدية مهامها التي ينص عليها هذا القرار، يدعو الدول الأعضاء إلى البحث في مساهمات معينة في «اليونيفيل» والرد إيجاباً على طلبات المساعدة من القوة، ويعبر عن شكره العميق إلى هؤلاء الذين ساهموا في «اليونيفيل» في الماضي.

فقرة تنفيذية(١٤): يدعو الحكومة اللبنانية إلى تأمين حدودها والمداخل الأخرى لمنع دخول لبنان من دون موافقتها الأسلحة أو المعدات المتصلة بها ويطلب من «اليونيفيل» كما تنص الفقرة ١١ تقديم المساعدة إلى الحكومة اللبنانية نزولاً عند طلبها.

فقرة تنفيذية(١٥): يقرر أيضاً أن كل الدول يجب أن تتخذ الخطوات الضرورية لمنع، عبر أراضيها أو موانئها أو طائراتها.

أ ـ بيع أو تزويد أي مجموعة أو أفراد في لبنان بالأسلحة والمعدات المتصلة بها من كل الأنواع، بما فيها الأسلحة والذخيرة، والآليات والمعدات العسكرية، التجهيزات التي لها صفة عسكرية وقطع غيار ما ذكر سابقاً، بغض النظر إذا كانت (هذه الدول) هي مصدرها أم لا .

ب ـ تزويد أي مجموعة أو أفراد في لبنان بأي تدريبات تقنية أو مساعدة تتعلق بالتزويد، التصنيع، الصيانة أو استخدام المعدات المذكورة في الفقرة السابقة، غير أن هذا المنع لا يطبق على الأسلحة والمعدات المتصلة والتدريب أو المساعدة التي تسمح بها الحكومة اللبنانية أو «اليونيفيل» كما تنص عليه الفقرة ١١.

فقرة تنفيذية(١٦): يقرر تمديد انتداب «اليونيفيل» في لبنان حتى ٣١ آب ٢٠٠٧م، ويعبر عن عزمه إعطاء دعم إضافي لهذا الانتداب وللخطوات الأخرى من أجل المساهمة في تطبيق وقف إطلاق نار دائم وحل طويل الأمد.

فقرة تنفيذية(١٧): يطلب من الأمين العام تقديم تقرير للمجلس خلال أسبوع واحد من بدء تطبيق هذا القرار، ثم على أساس دوري.

فقرة تنفيذية(١٨): يشدد على الأهمية والحاجة للتوصل إلى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط، على أساس كل قراراته السابقة رقم ٢٤٢ (١٩٦٧م) المؤرخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧م ورقم ٣٣٧ (١٩٧٣م) المؤرخ ٢٢ تشرين الأول ١٩٧٣م.

فقرة تنفيذية(١٩): يقرر إبقاء المسألة قيد نظره الفعلي.

مبارك: لن نحارب دفاعاً عن لبنان

أعلن الرئيس المصري حسني مبارك أن مصر لن تدخل في حرب ضد إسرائيل للدفاع عن لبنان أو حزب الله، مشدداً على أنه «غير مستعد لإنفاق ميزانية الشعب على حرب ليست حربه».

وقال مبارك، للصحافيين على متن الطائرة التي أقلته من السعودية في ختام قمة مع الملك السعودي عبد الله في ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٦م إن «من يطالبون بدخول مصر الحرب دفاعاً عن لبنان أو حزب الله لا يدركون أن زمن المغامرات الخارجية انتهى».

ورأى مبارك، الذي تلقى اتصالاً من نظيره الفرنسي جاك شيراك أمس تم خلاله بحث التطورات في لبنان، أن «مثل هذا السيناريو مستحيل في حين يحتاج ٧٣ مليون مصري إلى التنمية والخدمات وفرص العمل». وشدد على أنه «غير مستعد لإنفاق ميزانية الشعب على حرب ليست حربه». ورأى أن «إسرائيل لن تهاجم مصر تحت أي ظرف».

وكرر مبارك إدانته المغامرات التي لا تخدم المصالح العربية. وأشار إلى أن «النصاب القانوني للقمة العربية لم يكتمل، وأننا في انتظار ما يسفر عنه اجتماع روما» الذي اختتم أعماله أمس.

وقال مبارك «نحن مع وحدة وسيادة لبنان، ومصر لا تقف مع فصيل بعينه ولا طائفة بعينها، وإنها مع كل الأشقاء في لبنان، سواء كانوا من السنة أو الشيعة أو الموارنة أو الدروز أو غيرهم، فكلهم أشقاء لنا ونعمل جاهدين لوقف إطلاق النار حفاظاً عليهم جميعاً»، محذراً من «كارثة تحيق بالمنطقة كلها، لو استمر تدهور الأوضاع»، مؤكداً «أن الحل هو الوقف الفوري لإطلاق النار، ثم الجلوس للقضاء على أسباب المشكلة، وحل جميع المشكلات».

البيان الختامي
لمؤتمر وزراء الخارجية العرب في بيروت

أدان مجلس وزراء خارجية الدول العربية بشدة العدوان الإسرائيلي المستمر على لبنان وحذر من مخاطر استمرار هذا العدوان وتوسعه، مؤكداً وقوفه الكامل بحزم وثبات إلى جانب لبنان حكومة وشعباً في تصديه للعدوان الإسرائيلي.

جاء ذلك في البيان الختامي للاجتماع غير العادي الذي عقده المجلس أمس في بيروت ويقول نصه:

*** الوضع في لبنان**

إن مجلس جامعة الدول العربية في اجتماعه غير العادي المنعقد على المستوى الوزاري في بيروت بتاريخ ٧ آب/ أغسطس ٢٠٠٦م لتدارس الموقف الخطير الناجم عن استمرار العدوان الإسرائيلي على لبنان وتداعياته الخطيرة على مستقبل الاستقرار في لبنان والسلم والأمن في المنطقة.

ـ وإذ يؤكد على ما جاء في قراره الرقم ٦٦٥٧ بتاريخ ١٥ يوليو ٢٠٠٦م وعلى بيانه الصادر في ٢ أغسطس ٢٠٠٦م في هذا الشأن.

ـ وإذ يعتبر السياسة الإسرائيلية في المنطقة واعتمادها لمنطق القوة

وكذلك السياسات الدولية القائمة على ازدواجية المعايير وتوفير الحماية والدعم لاستمرار إسرائيل في احتلالها للأراضي الفلسطينية والعربية ومنها مزارع شبعا اللبنانية تشكل جذور الأزمة المتفجرة الآن في لبنان، وهي التي حالت وتداعياتها دون بسط سيادة الحكومة اللبنانية على كامل أراضيها ودون إعادة العمل باتفاق الهدنة الموقع بين لبنان وإسرائيل في عام ١٩٤٩م.

ـ وإذ يعبر عن رفضه الكامل لكل المشاريع التي تسعى إلى تحويل لبنان إلى مسرح مواجهة مفتوحة لتحقيق أهداف إقليمية أو دولية على حساب المصالح الوطنية للشعب اللبناني وأمنه واستقراره.

ـ وإذ يعبر عن استنكاره الشديد لتلكؤ مجلس الأمن في تحمل مسؤولياته إزاء ما يتعرض له لبنان من عدوان إسرائيلي سافر وغير مبرر.

ـ وإذ يعبر عن كامل دعمه لصمود الموقف الوطني اللبناني حكومة وشعباً إزاء العدوان الإسرائيلي.. ويحيي مقاومة لبنان لهذا العدوان في مواجهة سياسة الدمار والتخريب التي تتبعها إسرائيل لتدمير البنية التحتية والإنسانية للبنان.

وبعد استماعه إلى العرض الذي قدمه الرئيس فؤاد السنيورة رئيس مجلس الوزراء اللبناني.. وبعد اطلاعه على مذكرة الأمانة العامة، يقرر:

١ ـ تأكيد الإدانة الجماعية بكل قوة للعدوان الدموي الإسرائيلي المستمر على لبنان، والإعراب عن الاستياء الشديد لتأخير مجلس الأمن في تحمل مسؤولياته في صيانة السلم والأمن الدوليين، ودعوة المجلس إلى التحرك السريع لاتخاذ قرار بالوقف الفوري والشامل وغير المشروط لإطلاق النار ووقف العدوان ورفع الحصار والانسحاب الإسرائيلي من الأراضي اللبنانية دون مزيد من الإبطاء.

٢ ـ التحذير من مخاطر استمرار هذا العدوان وتوسعه واستهدافه للسيادة الوطنية اللبنانية واعتبار اللجوء من قبل إسرائيل إلى القوة العسكرية أمراً مستهجناً ومداناً وسيكون له تبعات خطيرة تدفع بالأوضاع في المنطقة نحو منزلقات تهدد بصورة مباشرة مستقبل الاستقرار في لبنان، وتنذر بأفدح العواقب على أمن الدول العربية والأمن الإقليمي.

٣ ـ الوقوف بحزم وثبات إلى جانب لبنان حكومة وشعباً في مقاومته ورفضه للعدوان الإسرائيلي واعتبار تماسك ووحدة الشعب اللبناني والتفافه حول حكومته خير ضمان لمستقبل لبنان وأمنه واستقراره، وتأكيد الدعم المطلق لمساندة الحكومة اللبنانية في تنفيذ خطتها لبسط سيطرتها على كامل الأراضي اللبنانية كما نص عليه اتفاق الطائف ووفق ما تقرره الحكومة في هذا الشأن.

٤ ـ تأييد التزام الدول العربية بتوفير الدعم السياسي الكامل للحكومة اللبنانية وما طرحته في برنامج النقاط السبع التي أقرتها التي نصت على المطالبة بوقف إطلاق نار فوري وشامل وإعلان اتفاق حول المسائل التالية:

أ ـ التعهد بإطلاق الأسرى والمحتجزين اللبنانيين والإسرائيليين عن طريق لجنة الصليب الأحمر الدولي.

ب ـ انسحاب الجيش الإسرائيلي إلى ما خلف الخط الأزرق وعودة النازحين إلى قراهم.

ت ـ التزام مجلس الأمن بوضع منطقة مزارع شبعا وتلال كفرشوبا تحت سلطة الأمم المتحدة، حيث ينجز ترسيم الحدود وبسط السلطة اللبنانية على هذه الأراضي، علماً أنه يتعين على إسرائيل تسليم كافة خرائط الألغام المتبقية في جنوب لبنان إلى الأمم المتحدة.

ث ـ بسط الحكومة اللبنانية سلطتها على كامل أراضيها عبر انتشار قواها المسلحة الشرعية ما سيؤدي إلى حصر السلاح والسلطة بالدولة اللبنانية كما نص اتفاق المصالحة الوطنية في الطائف.

جـ ـ تعزيز القوة الدولية التابعة للأمم المتحدة العاملة في جنوب لبنان وزيادة عددها وعتادها وتوسيع مهامها ونطاق عملها وفقاً للضرورة بهدف إطلاق العمل الإنساني العاجل وأعمال الإغاثة لتأمين الاستقرار والأمن في الجنوب ليتمكن النازحون من العودة إلى منازلهم.

حـ ـ التزام الأمم المتحدة بالتعاون مع الفرقاء المعنيين الإجراءات الضرورية لإعادة العمل باتفاق الهدنة الذي وقعه لبنان وإسرائيل في العام ١٩٤٩م وتأمين الالتزام بمضمون هذا الاتفاق، إضافة إلى البحث في التعديلات المحتملة عليه أو تطوير بنوده عند الضرورة.

خـ ـ التزام المجتمع الدولي دعم لبنان على كافة الأصعدة ومساعدته على مواجهة العبء الكبير الناتج عن المأساة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية التي يشهدها البلد خاصة في ميادين الإغاثة وإعادة الإعمار وإعادة بناء الاقتصاد الوطني.

٥ ـ التأييد المطلق لموقف الحكومة اللبنانية أمام مجلس الأمن وتبني ما تقدمت به من اقتراحات وتعديلات على مشاريع القرارات المطروحة أمام المجلس، والدعوة إلى تعبئة الجهود العربية لمساندة الحكومة اللبنانية في هذا الشأن وبما يضمن المحافظة على استقلال لبنان وسيادته الكاملة وحقه وواجبه في نشر قواته النظامية على كامل أراضيه وذلك بما يجنب لبنان والمنطقة خطر استمرار النزاعات وتفاقمها.

٦ ـ تنبيه مجلس الأمن من تداعيات اتخاذ قرارات غير قابلة للتنفيذ تعقد الوضع على الأرض، ولا تأخذ في الاعتبار مصالح لبنان ووحدته

واستقراره التي عبر عنها برنامج النقاط السبع بالإضافة إلى تداعياته الخطيرة بالنسبة للدول العربية جميعاً.

٧ ـ توجيه التحية لصمود لبنان ولمقاومته للعدوان ولشهداء لبنان الذين سقطوا جراءه، واعتبار ما قامت به إسرائيل من انتهاكات ومجازر لا سيما في بلدة قانا وبقية المناطق والبلدات اللبنانية المستهدفة إنما يشكل جرائم حرب تستوجب تحقيقاً دولياً فورياً تجريه الأمم المتحدة، وتستوجب ملاحقة إسرائيل ومسؤوليها أمام المراجع الدولية المختصة وتبني الدعوة إلى عقد جلسة خاصة لمجلس حقوق الإنسان وللدول الأطراف المتعاقدة في اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م للنظر في جرائم إسرائيل.

٨ ـ تحميل إسرائيل المسؤولية الكاملة عن هذا العدوان ونتائجه وعن الاستهداف المتعمد للمدنيين وللبنى التحتية الذي يشكل خرقاً صارخاً وخطيراً للقانون الدولي، ولاسيما القانون الدولي الإنساني ولاتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ وتحميلها أيضاً مسؤولية التعويض للجمهورية اللبنانية والمواطنين اللبنانيين عن الخسائر البشرية. والأضرار المادية والمعنوية وعن تدمير البنى التحتية والخسائر الفادحة التي لحقت بالاقتصاد اللبناني جراء العدوان الإسرائيلي.

٩ ـ التعبير عن التقدير للدول والمنظمات العربية والدولية التي قامت بتقديم المساعدات المالية والإنسانية إلى لبنان، ومطالبتها بتكثيف الجهود في مجال الإغاثة والتأمين الفوري لممرات آمنة إلى لبنان وداخله لإيصال مواد الإغاثة والمساعدات إلى المحتاجين في أماكن تواجدهم، وإدانة ورفض ما تقوم به إسرائيل من تدمير للطرق التي تستخدم في إيصال المساعدات الإنسانية، وكذلك رفض المحاولات الإسرائيلية لإخلاء مناطق من سكانها وتدميرها تدميراً كاملاً.

١٠ ـ تبني الدعوة إلى عقد مؤتمر للدول والمنظمات المانحة لمساعدة لبنان في تخطي الآثار الكارثية للعدوان الإسرائيلي، وفي إعادة إعمار ما دمره العدوان ودعم الاقتصاد اللبناني.

١١ ـ تكليف الأمين العام إجراء المشاورات والاتصالات اللازمة بالتنسيق مع وفد دولة قطر بمجلس الأمن والمجموعة العربية لمتابعة تنفيذ هذا القرار، وإبقاء جلسات المجلس مفتوحة لمتابعة المستجدات.

ب ـ إن مجلس الجامعة في اجتماعه غير العادي المنعقد على المستوى الوزاري في بيروت بتاريخ ٧ أغسطس ٢٠٠٦م لتدارس الموقف الخطير الناجم عن استمرار العدوان الإسرائيلي على لبنان وتداعياته الخطيرة على مستقبل الاستقرار في لبنان وعلى السلم والأمن في المنطقة.. وبعد استماعه إلى العرض الذي قدمه الرئيس فؤاد السنيورة رئيس مجلس الوزراء اللبناني وبعد مداخلات السادة الوزراء والأمين العام يقرر:

١ ـ تكليف وزير خارجية دولة الإمارات العربية المتحدة ـ رئيس مجلس جامعة الدولة العربية في دورته الحالية (الـ١٢٥) ونائب رئيس وزراء ووزير خارجية دولة قطر بصفته ممثل الدول العربية في عضوية مجلس الأمن والأمين العام لجامعة الدول العربية لعرض وجهة النظر العربية بشأن الموقف في لبنان والتشاور معهم في كيفية علاج الموقف الخطير الناجم عن الدمار الكبير الذي تعرض له لبنان والتطورات المرتبطة به.

٢ ـ عقد دورة غير عادية لمجلس الجامعة بمقر الأمانة العامة بالقاهرة في أعقاب عودة اللجنة من نيويورك لمناقشة تقرير اللجنة المكلفة والمشار إليها في الفقرة السابقة وتوصياتها.

٣ ـ الترحيب بعقد قمة عربية طارئة طبقاً لاقتراح المملكة العربية السعودية، ومتابعة لاقتراح اليمن بعقد قمة استثنائية.

٤ ـ تكليف الأمين العام بإجراء المشاورات اللازمة بشأن عقد القمة الطارئة المقترحة وموعدها.

* الوضع في الأراضي الفلسطينية:

إن مجلس جامعة الدولة العربية على المستوى الوزاري في اجتماعه غير العادي المنعقد يوم الاثنين ٧ أغسطس ٢٠٠٦م في بيروت..

ـ بعد اطلاعه على مذكرة الأمانة العامة،

ـ وإذ يلاحظ استمرار إسرائيل في تجاهلها للتعهدات والتفاهمات والاتفاقات المبرمة بينها وبين منظمة التحرير الفلسطينية، واستمرار سياسة القمع والاعتداءات اليومية على الأراضي الفلسطينية وتدمير البنية التحتية ومؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية وسياسة الإغلاق والحصار واختطاف المدنيين العزل بما يشكل جرائم حرب يعاقب عليها القانون الدولي.

ـ وبالنظر لاستمرار سياسة التوسع الاستيطاني وبناء جدار الفصل العنصري في الأراضي الفلسطينية المحتلة بما يخالف قواعد القانون الدولي والاتفاقات الموقعة وفتوى محكمة العدل الدولية.

ـ وفي ضوء فشل كل الجهود التي بذلتها الدول العربية فرادى ومجتمعين من أجل طرح عملية سلام حقيقية وذات مغزى تقود لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل في عام ١٩٦٧م، وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة وعاصمتها القدس الشريفة، وضمان حقوق اللاجئين.

ـ وأخذا في الاعتبار تفاقم الوضع في المنطقة بأكملها نتيجة ذلك، يقرر:

١ ـ دعوة مجلس الأمن للاجتماع على (مستوى عال ـ وزاري ـ القمة) للنظر في كيفية تسوية الصراع العربي الإسرائيلي على كافة مساراته تنفيذاً لقرارات المجلس ذات الصلة وخاصة ٢٤٢ و٣٣٨ و١٣٩٧ و١٥١٥ بحيث يشارك المجتمع الدولي الأطراف في تحقيق تحرك فوري لتنفيذ قرارات الشرعية الدولية، بما يؤدي لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي الذي غذى التوتر في المنطقة لعقود طويلة، والذي ساهم ولا يزال يساهم في تكدير الأمن والسلم الدوليين بصورة مختلفة وفق تسوية معادلة ومتوازنة.

٢ ـ تكليف الأمين العام بإجراء الاتصالات اللازمة لمتابعة تنفيذ هذا القرار.

مؤتمر استوكهولم

عقد في العاصمة السويدية استوكهولم مؤتمر من قبل المانحين الدوليين لمساعدة لبنان، في ٣١/٨/٢٠٠٦م، حضره رئيس وزراء السويد (آسوج) السيد غوران برسون ووزير الخارجية السيد يان الياسون ووزيرة التعاون الإنمائي الدولي السيدة كارين ياقين وممثل الأمين العام للأمم المتحدة السيد مارك مالوش ورئيس وزراء لبنان السيد فؤاد السنيورة ووزير الخارجية فوزي صلوخ ووزيرة الشؤون الاجتماعية نائلة معوض ووزير الاقتصاد سامي حداد ورئيس مجلس الإنماء والإعمار نبيل الجسر ومستشارين وفنيين.

وتحدث باسم الاتحاد الأوروبي وزيرة التجارة والتنمية بولا ليهتوماكي، والمفوضة الأوروبية بينيتا فيريروفالدنر، وعن مجلس الاتحاد الأوروبي مارك أوتيه وخارجية إسبانيا ميغيل أنخيل موراتينوس.

وأصدر المجتمعون بياناً تلاه وزير الخارجية السويدي يان الياسون، جاء فيه:

إن مؤتمر استوكهولم لإنعاش لبنان الذي استضافته حكومة السويد بالتعاون مع الحكومة اللبنانية والأمم المتحدة في ٣١ آب ٢٠٠٦م ضم ممثلين عن أكثر من خمسين دولة ووكالات الأمم المتحدة ومؤسسات مالية دولية والبعثة الأوروبية والاتحاد الأوروبي ومؤسسات دولية غير حكومية،

وقد أتى انعقاد المؤتمر بناء على قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة رقم ١٧٠١ الذي يقضي باتخاذ خطوات فورية لتأمين المساعدة المالية والإنسانية للشعب اللبناني.

وقد ركّز المؤتمر على حاجات الشعب اللبناني الملحة وعلى دعم الحكومة اللبنانية خلال أول مراحل الإنعاش بهدف تأمين أسس لانتقال طبع نحو إعادة إعمار طويلة الأمد.

وتم التعهد خلال مؤتمر استوكهولم بدفع مبلغ يفوق ٩٤٠ مليون دولار أميركي. وهذا المبلغ يضاف إلى المبالغ المتعهد بها مسبقاً بما يجعل مجموع المبلغ المخصص للإنعاش وإعادة الإعمار يفوق الـ ١٠٢ مليار دولار، ويشمل هذا المبلغ تمويل سلسلة واسعة من النشاطات بدءاً من الحاجات الإنسانية للسكن وصولاً إلى إعادة الإعمار الطويلة الأمد، لذا فإن هذا المؤتمر حقق غايته بهوامش متقدمة.

وعاد المؤتمر إلى تطبيق كامل لقرار مجلس الأمن الدولي ١٧٠١ متضمناً البنود المتعلقة بتأمين الحدود اللبنانية ووضع حد لدخول السلاح باستثناء السلاح للحكومة اللبنانية، وفتح المرافىء والمطارات للخدمات المدنية.

ومعلوم أن استمرار الحصار الجوي والبحري المفروض على لبنان من قبل إسرائيل يشكّل عائقاً واضحاً لعملية الإنعاش، وقد حث المجتمعون في المؤتمر على سماع نداء الأمين العام للأمم المتحدة لرفع الحصار عن لبنان.

وشدّد المؤتمر على حاجة كل الأفرقاء في المنطقة للقيام بما في وسعهم لتسهيل ودعم عمل الناشطين في المجال الإنساني في لبنان. لقد شدد رئيس الوزراء السويدي في كلمته الافتتاحية على ضرورة وقف المجتمع

الدولي إلى جانب الشعب اللبناني في جهوده لإعادة إعمار بلده بعد الحرب. وقد أعرب رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة عن تقديره العميق لمبادرة رئيس وزراء وحكومة السويد للدعوة إلى هذا المؤتمر والاستجابة الطيبة من قبل المجتمع الدولي خاصة الدول والمنظمات المشاركة التي قدمت إلى استوكهولم لإظهار وتقديم دعمهم للبنان.

وافقت الحكومات والمؤسسات المشاركة على أن تكون استجابة المجتمع الدولي ثابتة وفي وقتها المناسب وأن تمنح الموارد بطريقة مرنة بما يتوافق مع مبادىء برنامج المنح المناسب وستطبق الحكومة اللبنانية الآليات والإجراءات الآيلة لتأمين الاستخدام الفعلي للموارد المالية بشفافية في صنع القرار حول تخصيص وإدارة الأموال. وستخصص مساهمات الجهات المانحة التي جمعت خلال المؤتمر أولاً من أجل الجهود الطارئة للإنعاش الفوري بناء على تقييم الحاجات من قبل الحكومة اللبنانية وبالتعاون الكامل مع الأمم المتحدة والذي كشف عنه في المؤتمر.

إن الحكومة اللبنانية قدمت مبادرات إنعاش في عدة اتجاهات هي:

١ ـ النزوح واللجوء، ٢ ـ الألغام والقنابل غير المنفجرة، ٣ ـ البنية التحتية، ٤ ـ المياه والصرف الصحي، ٥ ـ الصحة، ٦ ـ التربية، ٧ ـ البيئة، ٨ ـ البطالة والمعيشة، ٩ ـ الانتاج الزراعي، ١٠ ـ الانتاج الصناعي، ١١ ـ المساعدة الطارئة لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين.

إن العمل الذي قامت به الحكومة اللبنانية ومؤسسات الأمم المتحدة يشكّل رسالة جيدة لتأكيد السيادة الوطنية وكيف يمكن للأمم المتحدة أن تدعم بشكل متناسق على صعيد بلد ما. كما أن البنك الدولي والبعثة الأوروبية قد قدمت دعماً قيماً لهذه العملية.

إن المؤتمر منح فرصة للحكومة اللبنانية لتقديم الخطوات التي تقترحها على المدى الطويل لعملية الانعاش ولجهود إعادة الإعمار بما في ذلك عقد مؤتمر كبير في وقت ومكان يحددان لاحقاً.

لقد عبّر المشاركون بقوة عن دعمهم لحكومة لبنان وعرضوا لدعم مسار الانعاش وإعادة الإعمار المستمر بطريقة منسقة ومتجانسة، وسيلعب البنك الدولي دوراً أساسياً في دعم هذا العمل. إن الحكومة اللبنانية عبّرت عن نيتها في متابعة برنامج الإصلاح بالتعاون مع المجتمع الدولي. وفي هذا الإطار شدد الشركاء على الدور الأساسي لاستراتيجية وطنية للإنماء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

كما عبّروا عن دعمهم الكامل لوحدة الأراضي اللبنانية وسيادة لبنان واستقلاله السياسي. كما دعموا أيضاً جهود الحكومة اللبنانية لتمتين مؤسسات الدولة وبسط سلطتها على كامل الأراضي. وفي هذا الإطار رحبوا بالانتشار الأخير للجيش اللبناني في الجنوب وعلى طول الحدود اللبنانية بالتزامن مع مواصلة تعزيز قوات اليونيفيل والدعوة إلى نشرها بسرعة. إن المشاركين يتطلعون لانسحاب كافة القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان بالتزامن والتوافق مع قرار مجلس الأمن الدولي ١٧٠١.

وأقرّ المشاركون أيضاً الحاجة للتمويل المناسب خلال عملية الإنعاش وإعادة الإعمار. كما أقرّوا أحقية الحكومة اللبنانية القوية لعملية إعادة الإنعاش وشجعوها على الاستمرار في قيادة عملية إعادة الإعمار طويلة الأمد، وهناك التزامات من المشاركين للاستمرار بالشراكة وتقديم المزيد من المساهمات المالية لدعم جهود إعادة الإعمار والإنماء الطويلة الأمد، إضافة إلى المشاركة في الاجتماعات والمؤتمرات المقبلة للمانحين لدعم لبنان.

الاجتماع الاستثنائي
لوزراء خارجية دول الاتحاد الأوروبي

بلجيكا بروكسل الجمعة ٢٥/٨/٢٠٠٦م

أعلن الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان في ختام الاجتماع الاستثنائي لوزراء خارجية دول الاتحاد الأوروبي الذي انعقد أمس في بروكسل أن دول الاتحاد وافقت على المساهمة بأكثر من نصف عديد القوة الدولية المعززة المقرر انتشارها في جنوب لبنان.

وقال أنان إن «اليونيفيل» حصلت على كل الدعم الذي تحتاجه ومن المفترض أن تنتشر ليس في الأسابيع بل في الأيام المقبلة. وهذا الاجتماع يشكل قاعدة قوية للاستمرار بالاتصالات مع دول قوية للمساهمة ويسرني أن أقول إن عدداً منها قدّم التزامات واضحة مثل ماليزيا وأندونيسيا وبنغلادش.

وأضاف: بهذا تكون أوروبا اضطلعت بمسؤولياتها وشكّلت العمود الفقري لهذه القوات، ويمكننا أن ننظر إلى الأمام بكل ثقة لبناء قوة ذات مصداقية لمساعدة الأسرة الدولية على تحقيق أهدافها في المنطقة.

وأشار أنان إلى أنه طلب من فرنسا قيادة القوات الدولية حتى شباط

٢٠٠٧، وأن تتولى إيطاليا قيادة القوات في ما بعد، وتحدث عن جولته في المنطقة، وقال إنه سيعود منها بتقرير إلى مجلس الأمن الدولي يتحدث عما تحقق في تطبيق القرار ١٧٠١.

واستبعد أنان توسيع انتشار القوة الدولية حتى الحدود اللبنانية السورية. وقال: إن ذلك لا يمكن أن يحصل إلا بناء على طلب من لبنان، مضيفاً: لم يتقدم لبنان بأي طلب من هذا النوع.

وقال وزير الخارجية الإسباني ميغيل انخيل موراتينوس: هذا الوجود الأوروبي سيكون فرصة تاريخية يمكن أن تشكّل سابقة لمهام مستقبلية في مجال حفظ السلام.

وأكد المنسق الأعلى للخارجية والأمن في الاتحاد الأوروبي خافيير سولانا على أهمية الدور الأوروبي في المنطقة ولاسيما في لبنان، مشدداً على أهمية العمل بتحقيق السلام في المنطقة وتحدث عن ضرورة رفع الحصار الإسرائيلي عن لبنان.

وقال: إن معالجة الجوانب الإنسانية وإعادة الإعمار توجب رفع الحصار عن لبنان: كما تعلمون إن المطار لا يعمل بشكل كامل والمرافىء البحرية لا بد من فتحها للتمكن من القيام بكل هذه الأمور بشكل ملائم ولضمان تطبيق القرار بشكل كامل لذلك نوجه نداء إلى إسرائيل لرفع الحصار.

وشددت المفوضية الأوروبية وعلى لسان السيدة بريرو على أهمية دور الحكومة اللبنانية في تطبيق القرار ١٧٠١.

وقالت: طبعاً القرار ١٧٠١ يمكن أن ينجح فقط إذا نجحت الحكومة اللبنانية في إعادة بسط سلطتها الكاملة.

وإن عملية إعادة الإعمار التي تحركها بيروت من شأنها أن تساعد في تعزيز الحكومة اللبنانية بالنسبة إلى المفوضية، المهم العمل على هذه الجوانب لأن مفتاح المستقبل وإعادة انتعاش لبنان لا يكمن في التموين وإعادة الإعمار فحسب.

وأعلن رئيس الحكومة الإيطالية رومانو برودي أن الوحدة الإيطالية التي ستعزز القوة الدولية يمكن أن تتوجه إلى هذا البلد اعتباراً من الثلاثاء ٢٩ آب الحالي.

وأفاد مصدر دبلوماسي إيطالي أن إسبانيا عرضت إرسال ألف إلى ١٢٠٠ عنصر لتعزيز القوة الدولية خلال اجتماع بروكسل.

من جهتها أعلنت وزيرة الخارجية البولندية آنا فوتيغا في بروكسل أن بلادها على استعداد للمشاركة في القوة يصل قوامها إلى ٥٠٠ جندي، أي مع إضافة ٤٠٠ جندي إلى وحدتها المنتشرة حالياً في لبنان.

وأعلن رئيس الوزراء البلجيكي غي فيرهوفشتات أن بلجيكا سترسل ٣٠٢ عنصراً على أن يبدأ انتشارهم مع نهاية أيلول ومطلع تشرين الأول.

وقال إن المساهمة البلجيكية قد تصل مع اكتمالها إلى ٤٠٠ رجل أو ٣٩٤ على وجه الدقة.

وقال الوزير البريطاني المكلف بالشؤون الأوروبية جيف هون: إن بريطانيا لن تساهم في القوة الدولية بقوات برية بل بوحدات متخصصة. لكنه أضاف: لا تنسوا أنها ستكون قوة معززة ستتطلب العديد من الاختصاصات المكلفة وأنا واثق من أنه سيكون في وسع بريطانيا المساهمة في بعض هذه القوات المتخصصة.

في جنيف أعلنت وزارة الدفاع السويسرية أنه بناء على طلب الأمم

المتحدة سيرسل الجيش السويسري إلى جنوب لبنان معدات لنزع الألغام وتعطيل القنابل غير المنفجرة.

وقالت الوزارة في بيان: إن سويسرا ستقدم ١٣٠٠ نظام لنزع الألغام من طراز «اس أم أي أو دي» إضافة إلى خبير في نزع الألغام سيتوجه إلى جنوب لبنان لتدريب مستخدمي هذه الأنظمة.

ويتيح نظام «اس ام أي او دي» تعطيل القنابل غير المنفجرة والألغام أو تدميرها من دون الاحتكاك بها، ما يعني تنظيفها سريعاً للأراضي مع الحفاظ على سلامة العاملين.

مجلس حقوق الإنسان
يدين انتهاكات إسرائيل في لبنان

أدان مجلس حقوق الإنسان في جلسته الخاصة انتهاكات حقوق الإنسان في لبنان مطالباً بإرسال لجنة لتقصي الحقائق والتحقيق في أنواع الأسلحة التي استخدمتها إسرائيل.

وقبلت الدول الإسلامية إدخال تعديلات على هذا القرار لمطالبة كل الأطراف باحترام القانون الإنساني الدولي، وعارضته الدول الغربية معتبرة أنه «غير متوازن».

يمكن القول إن مجلس حقوق الإنسان عرف للمرة الثانية منذ ولادته الحديثة في شهر حزيران الماضي اختباراً جديداً عند تطرقه يوم الجمعة ١١ آب في جنيف، في جلسة خاصة، للأوضاع في لبنان في ضوء الحرب الجارية بين «حزب الله» والقوات الإسرائيلية منذ حوالي شهر.

الجلسة التي دعت إليها الدول الإسلامية تطرقت «للحالة الخطيرة لحقوق الإنسان في لبنان التي سببت نشوءها العمليات العسكرية الإسرائيلية»، كما جاء في التسمية الرسمية.

وقد تمخضت هذه الجلسة الخاصة عن اعتماد مشروع القرار الذي

تقدمت به الدول الإسلامية المدعمة بالأفارقة والآسيويين ودول أميركا اللاتينية، بأغلبية ٢٧ صوتاً ومعارضة ١١١ غالبيتهم من الدول الغربية، وامتناع ٨ عن التصويت، من بينهم سويسرا.

مشروع القرار الذي قدمته باكستان باسم ٢٣ دولة عربية وإسلامية «أدان العمليات العسكرية الإسرائيلية في لبنان التي تشكل انتهاكات جسيمة ومنهجية لحقوق الإنسان».

كما أدان القرار «بقوة الهجمات الجوية الإسرائيلية العشوائية والواسعة النطاق، لاسيما على قرية قانا، واستهداف قوات حفظ السلام التابعين للأمم المتحدة في جنوب لبنان».

وعبّر القرار بالخصوص على «الشعور بالسخط لاستمرار إسرائيل دون عقاب في القتل الجنوني المستمر للأطفال والنساء المسنين وغيرهم من المدنيين في لبنان».

وقد أدان قرار مجلس حقوق الإنسان ما ارتكبته إسرائيل في لبنان معدداً «قانا، ومروحين، والدوير، والبياضة، والقاع، والشياح، والغازية وغيرها».

وطالب القرار إسرائيل بـ «الوقف الفوري للعمليات العسكرية ضد السكان المدنيين، والأهداف المدنية، وضرب الهياكل الأساسية المدنية الحيوية».

ومن القرارات العملية التي نص عليها هذا القرار: إرسال «لجنة تحقيق رفيعة المستوى بصورة عاجلة، تتألف من أصحاب الولاية المناسبة في إطار الإجراءات الخاصة لحقوق الإنسان، ومن خبراء في القانون الإنساني الدولي».

وتتمثل المهمة التي حددها مجلس حقوق الإنسان للجنة تقصي الحقائق في: «التحقيق في استهداف إسرائيل في شكل منهجي للمدنيين وقتلهم في لبنان وفحص أنواع الأسلحة التي تستخدمها إسرائيل، ومدى امتثال أو عدم امتثال هذه الأسلحة لبنود القانون الدولي».

وحدد المجلس لهذه اللجنة مهلة حتى الفاتح من أيلول ٢٠٠٦م لتقديم نتائج تحقيقها للمجلس.

وركزت الدول العربية والإسلامية التي تعاقبت على منصة مجلس حقوق الإنسان في هذه الجلسة الخاصة على ضرورة تحمّل مجلس حقوق الإنسان الفتي «لمسؤولياته أمام التاريخ». فقد تساءل ممثل لبنان كيف «أن بلداً عانى الهولوكوست بالأمس يرتكب بدوره مجازر اليوم».

ممثل فلسطين، السيد محمد أبو الكوش، الذي يعيش شعبه التجربة نفسها والذي شارك في تنظيم جلسة خاصة لمجلس حقوق الإنسان قبل شهرين تقريباً. طالب بضرورة «دفع إسرائيل إلى المحاسبة». معبراً عن «الأسف لكون القرار الذي اتخذه المجلس بخصوص الانتهاكات الإسرائيلية لم ترد لحد الآن»، مستنتجاً أن ذلك «يمثل بداية غير مرضية بالنسبة لمجلس حقوق الإنسان».

ممثل المجموعة العربية في مجلس حقوق الإنسان، السفير التونسي سمير العبيدي، أعرب عن اعتقاده أن «ما ارتكبته إسرائيل وما زالت ترتكبه في لبنان، وعلى مدى أكثر من ثلاثين يوماً، هي جرائم حرب، وترقى في حقيقتها إلى جرائم ضد الإنسانية».

البلدان الغربية المدعمة بقلة من البلدان والتي صوّتت ضد مشروع القرار انتقدت فيه «نقص التوازن والانحياز لجهة واحدة»، في تلميح إلى عدم إدانة ما يقوم به «حزب الله».

فقد تحدثت فنلندا باسم الاتحاد الأوروبي معربة عن «الأسف لكون المشاورات لم تسمح بإدخال التعديلات المطلوبة». وترى دول الاتحاد الأوروبي «أن المشروع المقدم لا يعرض إلا مطالب جهة واحدة، متجاهلاً حتى الإشارة أن هناك طرفاً آخر في هذا الصراع».

وقد ذهبت كندا إلى حد تسمية «حزب الله» «بالميليشيا الإرهابية» معتبرة أن «هذا الصراع الذي تحوّل إلى دمار وقتل على نطاق واسع، هو من صنع «حزب الله» والدول الداعمة له».

وفي تداخلها أمام الدورة الخاصة كبلدان غير عضوة في المجلس، انتقدت إسرائيل والولايات المتحدة مشروع القرار، إذ هاجم السفير الإسرائيلي إسحاق ليفانون «الدول الجبانة التي تخوض حروباً على أراضي الآخرين»، في إشارة إلى إيران وسوريا.

أما سفير الولايات المتحدة الأميركية، فقد انتقد انعقاد الجلسات الخاصة لمجلس حقوق الإنسان، معتبراً أن ذلك «غير مفيد وقد يأتي بنتائج عكسية».

واعتبر السفير الأميركي وارن تيكونور «أن الصراع الحالي تأجج بهجوم غير مبرر ضد إسرائيل(. . .) وأن من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها».

ويرى السفير الأميركي «أن هذه الدورة والقرار المقدم لم يأخذا ذلك بعين الاعتبار».

ورأت الدول الإسلامية التي تقدمت بمشروع القرار أن هذا الأخير يمثل أقل ما يمكن أن يقوم به مجلس حقوق الإنسان بالنظر إلى ضخامة الانتهاكات المرتكبة في لبنان، بينما رغبت دول، ومن بينها سويسرا، أن يتم تعديله لكي يشمل كل انتهاكات حقوق الإنسان والقانون الإنساني الدولي في كلا الطرفين.

وقد قبلت الدول الإسلامية إدخال تعديل على مشروعها الأولي بحيث أضافت «مطالبة كل الأطراف باحترام القانون الإنساني الدولي والكف عن أية أعمال عنف في حق المدنيين في أي ظرف من الظروف، ومعاملة المعتقلين والمدنيين وفقاً لمعاهدات جنيف».

واعتبرت دول مثل روسيا وبعض بلدان أميركا اللاتينية هذا التعديل «توازناً مقبولاً» ما دفعها إلى التصويت لصالح مشروع القرار.

لكن دولاً أخرى مثل سويسرا، وعلى الرغم من ترحيبها بهذه التعديلات، قالت على لسان سفيرها بليز غودي إنها «كانت تأمل في أن يقوم المجلس بمعالجة الأوضاع الخطيرة الناجمة عن الصراع اللبناني الإسرائيلي بطريقة متوازنة وغير تمييزية». لكنه يرى «أن المشروع المعروض على التصويت لا يجيب إلا بشكل جزئي على هذه المطالب». وهو ما دفع سويسرا إلى الانضمام إلى الدول الثماني التي امتنعت عن التصويت.

وفي حديثه للصحفيين عقب التصويت، أعرب السفير السويسري عن اعتقاده أن الدول الإسلامية، من مفهومها، ترى «أنه من الطبيعي ألا يكون هناك توازن في مشروع القرار لأن الأوضاع على الأرض غير متكافئة». لكن السيد غودي أوضح بأن ما ترغب فيه سويسرا عند الحديث عن التوازن «ليس تحميل الطرفين المسؤولية نفسها، وأن القانون الإنساني الدولي، حتى في حالات استعمال مفرط وغير متكافىء للقوة، لا يسمح للطرف الثاني بعدم احترام تجنيب المدنيين قدر المستطاع ويلات الحرب».

إدانة إسرائيل أمام مجلس حقوق الإنسان على ما ارتكبته في لبنان، رغم اعتراض الدول الغربية ـ ولئن كان سيعرف نفس مصير العديد من القرارات التي أصدرتها لجنة حقوق الإنسان من قبل ضد إسرائيل ـ فإنه يعد على الأقل أول قرار يتخذ في محفل دولي بشأن الصراع اللبناني الإسرائيلي في وقت ما زال فيه مجلس الأمن يتعثر في التوصل إلى مطالبة بوقف إطلاق النار.

الديار (١٤/٨/٢٠٠٦م)

«العفو الدولية» تتهم الجيش الإسرائيلي بـ«تدمير متعمّد» للبنية التحتية في لبنان

أكدت منظمة «العفو الدولية» أمس وجود سياسة إسرائيلية للتدمير المتعمد للبنية التحتية المدنية في لبنان تضمنت جرائم حرب، خلال القتال مع «حزب الله»، ودعت إلى «إجراء تحقيق شامل ومستقل وحيادي بصورة عاجلة من جانب الأمم المتحدة في انتهاكات القانون الإنساني الدولي التي ارتكبها طرفا النزاع».

وأشارت المنظمة في تقرير يصدر اليوم تحت عنوان «تدمير متعمد أم أضرار جانبية»؟ إلى أن لديها أدلة على «كيف أن تدمير إسرائيل لآلاف المنازل والضربات التي وُجهت إلى العديد من الجسور والطرقات فضلاً عن محطات المياه وتخزين الوقود كانت جزءاً لا يتجزأ من استراتيجية عسكرية إسرائيلية في لبنان وليست أضراراً جانبية ناجمة عن الاستهداف القانوني للأهداف العسكرية».

وقالت كيت غيلمور نائب الأمين العام للمنظمة في بيان إن «تأكيد إسرائيل أن الهجمات التي شنت على البنية التحتية كانت قانونية هو تأكيد خاطىء في شكل واضح، فكثير من الانتهاكات المشار إليها في تقريرنا

يشكل جرائم حرب، ومن ضمنها الهجمات غير المتناسبة التي شنت بلا تمييز». وأضافت: «تشير الأدلة بقوة إلى أن التدمير الواسع لمحطات الكهرباء والمياه، فضلاً عن البنية التحتية للنقل التي تتسم بأهمية بالغة بالنسبة للإغاثة الغذائية وغيرها من ضروب الإغاثة الإنسانية، كان متعمداً وجزءاً لا يتجزأ من استراتيجية عسكرية».

وأشارت إلى أن «نمط الهجمات ونطاقها وحجمها يجعل زعم إسرائيل بأن الدمار كان أضراراً جانبية، يفتقر ببساطة إلى الصدقية(. . .) إن الضحايا المدنيين لدى كلا الجانبين يستحقون العدالة، فالطبيعة الخطيرة للانتهاكات المرتكبة تجعل من إجراء تحقيق في سلوك كلا الطرفين أمراً ملحاً. ويجب مساءلة الجناة عن جرائم الحرب والتعويض على الضحايا».

ويستند التقرير إلى معلومات مباشرة جمعتها بعثة ميدانية للمنظمة زارت لبنان وإسرائيل والتقت عشرات الضحايا ومسؤولي الأمم المتحدة والجيش الإسرائيلي والحكومة اللبنانية، إضافة إلى تصريحات رسمية وتقارير صحافية، ولفتت المنظمة إلى أنه «يتضمن أدلة على التدمير الهائل من جانب القوات الإسرائيلية لأحياء وقرى مدنية بأكملها، وهجمات على الجسور في مناطق ليست لها أهمية استراتيجية واضحة، والهجمات على محطات ضخ المياه ومحطات معالجتها، على رغم الحظر المفروض على استهداف المنشآت التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين على قيد الحياة».

الحياة (٢٣/٨/٢٠٠٦م)

الفهرس

الفصل الأول

أسباب ودوافع وخلفيات الحرب الإسرائيلية على لبنان ونتائجها السياسية والأمنية والاستراتيجية والاقتصادية

أوّلاً: المشهد السياسي العام ٢١

ثانياً: التحضيرات والاستعدادات للحرب ٣٤

أ ـ تأثير اللوبي الصهيوني في الحرب ٤١

ب ـ اعترافات أولمرت ٤٣

ثالثاً: عملية «الوعد الصّادق» ٤٥

أ ـ الرواية الإسرائيلية ٤٧

ب ـ رواية حزب الله ٤٨

ج ـ الأبعاد والدلالات ٥٢

رابعاً: مراحل الحرب واستهدافاتها ٥٦

أ ـ إسرائيل أمام اختبار جديد ٦٠

١ ـ مواقف مشجعة للحرب: ٦٠

أ ـ الأهداف العسكرية الإسرائيلية ٦٢
ب ـ الأهداف المدنية ٦٣
ج ـ الأهداف السياسية ٦٤
٢ ـ إسرائيل بين الاندفاع والتحذير ٦٥
٣ ـ خلافات وتباينات المجلس المصغر ٦٨
٤ ـ مرارة أمريكية ـ إسرائيلية ٧٤
٥ ـ ارتكاب المجازر ٧٧
خامساً: أداء حزب الله ٨٠
أ ـ المواجهات الميدانية ٨٠
ب ـ نصر الله يضع النقاط على الحروف ٨٥
١ ـ الحرب المفتوحة وامتصاص الصدمة ٩٢
٢ ـ التحذير من قصف بيروت ٩٦
٣ ـ بقاء المقاتلين في الخطوط الأمامية ٩٨
ج ـ قاسم: كنا في منطقة المعركة ١٠١
هـ ـ الوقت كله للحرب ١٠٣
لم تكن توقعات الحرب بهذا الحجم ١٠٥
بنينا لمعركة تستمر أشهراً ١٠٧
د ـ النشاط السياسي ١٠٨
هـ ـ الجبهة الإعلامية ١١٣
١ ـ تدمير مبنى «المنار» ١١٧

٢ ـ قصف هوائيات البث اللبنانية ١٢٥
سادساً: الخسائر البشرية والاقتصادية ١٢٦
١ ـ الكلفة اللبنانية ١٢٦
أ ـ الشهداء والجرحى ١٢٧
ب ـ الخسائر السكنية ١٢٩
ج ـ تدمير الجسور والطرق ١٣٠
د ـ القطاعان الصناعي والتجاري ١٣١
هـ ـ خسائر القطاعات الأخرى ١٣٢
و ـ الكارثة البيئية ١٣٣
ز ـ ضحايا القنابل العنقودية ١٣٤
ح ـ إحصاءات حزب الله ١٣٦
٢ ـ الخسائر الإسرائيلية ١٣٧
أ ـ القتلى والجرحى والنازحين ١٣٨
ب ـ الخسائر العمرانية والصناعية ١٤٠
ج ـ الأثمان الاقتصادية ١٤٠

الفصل الثاني

تفاصيل المواجهات الميدانية كما يرويها قادتها وقراءة استراتيجية لأبعادها العسكرية

مقدمة ١٤٩
أوّلاً: إدارة الحرب وفق رواية مسؤول حزب الله في الجنوب ١٥٢

أ ـ تركنا العدو يكشف أوراق خطته ١٥٤
ب ـ مفاجآت الصواريخ ١٥٧
ج ـ القتال وجهاً لوجه ١٥٨
د ـ استعداد للحرب المقبلة ١٥٩
هـ ـ من أسرار الحرب ١٦٢
ثانياً: معطيات ميدانية ١٦٥
ثالثاً: تفاصيل المواجهات اليومية ١٧٠
١ ـ المعارك على محور بنت جبيل ـ عيناتا: ١٧١
٢ ـ المواجهات في دبل والطيري والطيبة: ١٧٨
٣ ـ المواجهات في الغندورية: ١٨٠
٤ ـ الاشتباكات في عيتا الشعب ١٨٤
٥ ـ القتال في عيترون ١٨٨
٦ ـ المواجهات في بيت ياحون ١٨٩
رابعاً: قراءات استراتيجية ١٩١
أ ـ خطة على مراحل ١٩١
ب ـ تفوق أسطوري ٢٠٢
جـ ـ دوافع الحرب الحقيقية ٢٠٨
د ـ استراتيجية إسرائيل في الحرب ٢٠٩
هـ ـ المفاجآت بالجملة ٢١٤

الفصل الثالث

آثار وانعكاسات الحرب على إسرائيل وعلى المقاومة والشعب الفلسطيني

مقدمة ٢١٩

أولاً: ذهول وخلل عسكري ٢٢١

١ ـ صراع الجنرالات وحملة الانتقادات ٢٢٣

٢ ـ دروس وعِبَر الحرب ٢٢٦

٣ ـ الإخفاق واليأس على لسان الجنود ٢٣٣

٤ ـ ذل ومهانة وجوع ٢٤١

٥ ـ جيش «بدين» تلقى صفعة قوية ٢٤٦

ثانياً: التداعيات على فلسطين المحتلة ٢٥٣

أ ـ انعكاسات على القضية ٢٥٥

ب ـ رؤية السلطة والحكومة ٢٥٨

جـ ـ دعم الانتفاضة ٢٥٩

د ـ المكاسب السياسية والمعنوية ٢٦١

هـ ـ النتائج العسكرية ٢٦٥

و ـ دعم المقاومة الفلسطينية ٢٦٦

الفصل الرابع

لبنان قبل وأثناء وبعد العدوان

خفايا النقاشات الساخنة داخل مجلس الوزراء حول نزع سلاح المقاومة

مقدمة ٢٧١

أولاً: فشل الحوار والتشاور ٢٧٣

ثانياً: تباين المواقف أثناء الحرب ٢٧٩
١ ـ الأداء الحكومي ٢٨٠
٢ ـ الخلافات بين حزب الله والحكومة ٢٨٤
أ ـ فنيش يكشف التفاصيل ٢٩٠
ب ـ كدنا نفترق لولا تدخل لحود ٢٩٥
ج ـ دهاليز القرار الدولي ٢٩٦
د ـ أسوأ جلسات مجلس الوزراء ٢٩٩
هـ ـ قررنا الاستقالة وبري تدارك الأمر ٣٠٢
و ـ تواطؤ داخلي ٣٠٣
ز ـ المطالبة بوعد شرف لتسليم السلاح ٣٠٤
ح ـ مصادرة سلاح المقاومة ٣٠٦
٣ ـ لحود: دعم مطلق للمقاومة ٣٠٩
٤ ـ بري: السياسي المقاوم ٣١١
٥ ـ فريق السلطة ينتقد المقاومة ٣١٣
٦ ـ القوى المعارضة: تأييد ومساندة ٣١٦
٧ ـ محاولة قصف عون ٣١٨
ثالثاً: اعتصام المعارضة السلمي وسط بيروت ٣٢١
رابعاً: إفشال الفتنة المذهبية ٣٢٨
أ ـ الدور الأمريكي في الفتنة ٣٢٩
ب ـ تركيبة المعارضة السياسية ٣٣٢

ج ـ الحرب الأهلية خط أحمر ٣٣٤

الفصل الخامس

تداعيات الحرب، عربياً، إقليمياً ودولياً

مقدمة ٣٣٩
أولاً: المواقف العربية الرسمية قبل وبعد العدوان ٣٤٢
١ ـ السعودية والمغامرة غير المحسوبة ٣٤٢
٢ ـ البيان المصري ـ الأردني ٣٤٥
٣ ـ الدعم السوري ٣٤٨
٤ ـ الدور القطري ٣٥٠
٥ ـ دور الإمارات والكويت ٣٥١
٦ ـ المواقف العربية الأخرى ٣٥٢
ثانياً: تخبط جامعة الدول العربية ٣٥٤
أ ـ الاجتماعات الوزارية ٣٥٤
ب ـ فشل انعقاد القمة ٣٥٨
ثالثاً: الموقف الشعبي ٣٦١
رابعاً: تأييد رجال الدين ٣٦٥
خامساً: التداعيات الإقليمية ٣٦٧
١ ـ إيران ٣٦٧
٢ ـ تركيا ٣٧٢
سادساً: التداعيات الدولية ٣٧٥

أ ـ التعاون الأمريكي ـ الفرنسي ٣٧٦
ب ـ قمة الثماني لحماية إسرائيل ٣٧٨
ج ـ مؤتمرا روما واستوكهولم ٣٨١
د ـ القرار ١٧٠١ ..... ٣٨٣

الفصل السادس

أثر الحرب على مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي

مقدمة ٣٩٣
١ ـ فشل المشروع الصهيوني ٣٩٣
٢ ـ انعكاس الهزيمة على يهود العالم ٣٩٦
٣ ـ تبدّل النظرة إلى إسرائيل ٤٠٠
٤ ـ فيتنام والضربة القاضية ٤٠٥
٥ ـ تسوية مبنية على القوة ٤٠٧
٦ ـ ثقافة المقاومة ٤٠٩
٧ ـ إعادة صياغة العقل العربي ٤١١
٨ ـ إعادة رسم الخارطة الجيو ـ سياسية ٤١٣
٩ ـ فينوغراد: إقرار بالفشل وانعدام التخطيط ٤٢٠
١٠ ـ بين الأحلام والواقع ٤٣٥

الملحق

جداول، بيانات، قرارات وتقارير

التراتبية للقوات الإسرائيلية البرية للمعركة في لبنان ٤٤١
ترسانة إسرائيل من الأسلحة الأميركية ٤٤٣

مبيعات الأسلحة الأميركية لإسرائيل (بالدولار) ٤٤٤
المساعدات الأميركية لإسرائيل (بالدولار) ٤٤٥
القرار ١٧٠١ الصادر عن مجلس الأمن الدولي ١٢/٨/٢٠٠٦م ٤٤٦
مبارك: لن نحارب دفاعاً عن لبنان ٤٥٣
البيان الختامي لمؤتمر وزراء الخارجية العرب في بيروت ٤٥٥
مؤتمر استوكهولم ٤٦٣
الاجتماع الاستثنائي لوزراء خارجية دول الاتحاد الأوروبي ٤٦٧
مجلس حقوق الإنسان يدين انتهاكات إسرائيل في لبنان ٤٧١
«العفو الدولية» تتهم الجيش الإسرائيلي بـ«تدمير متعمّد» للبنية التحتية في لبنان ٤٧٦
الفهرس ٤٧٨